التفسير المحرر

للقرآن الكريم

من سورة المزمل إلى سورة المرسلات

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقًا)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الواحد والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة المزمل إلى سورة المرسلات)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - من سورة المزمل إلى سورة المرسلات - المجلد الواحد والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٥٨-٠٨-٥

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/١١٣٢٢

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١١٣٢٢

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٥٨-٠٨-٥

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

لِلقُرآنِ الكَرِيمِ

(من سورة المزمل إلى سورة المرسلات)

إِعْدَادُ

القِسمِ العِلميِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإِشْرَافُ العَامُّ

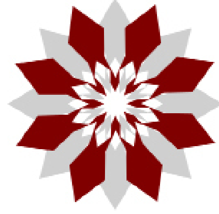
الشَّيخ عَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف

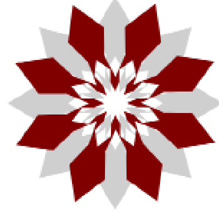
المجلد الواحد والأبعون

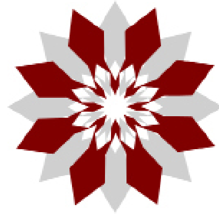
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ المُزَّمِّلِ







سورةُ المُزَّمِّلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المزَّمِّلِ)[1].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المزَّمِّلِ مَكِّيَّةٌ[2]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[3].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

التَّوجيهُ إلى ما يُتزوَّدُ به؛ لتحَمُّلِ ثِقلِ أعباءِ الدَّعوةِ[4].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقيامِ اللَّيلِ.

٢- تثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتحمُّلِ إبلاغِ الوَحيِ.

٣- الأمرُ بالصَّبرِ على جفاءِ الكُفَّارِ.

---

(١) وجهُ تسميةِ السُّورةِ بهذا الاسم: افتِتاحُها بهذا اللَّفظِ الواقِعِ في أوَّلِها في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٢).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيتَين منها؛ قولَه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ...﴾ [المزمل: ١٠] والَّتي بعدها، فمَدَنيَّتانِ. وقيل: إلَّا قولَه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى آخرِ السُّورةِ؛ فإنَّ ذلك نزَل بالمدينةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٥٩). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٣١).

٤- تهديدُ الكافِرينَ، وبيانُ بَعضِ ما أعَدَّه اللهُ لهم مِن عذابٍ.

٥- وعْظُ الكافِرينَ بما حَلَّ بقَومِ فِرعَونَ لَمَّا كَذَّبوا رسولَ اللهِ إليهم.

٦- ذِكرُ يومِ القيامةِ، ووَصفُ أهوالِه.

٧- التَّسهيلُ والمسامحةُ في قيامِ اللَّيلِ.

٨- الأمرُ بإدامةِ إقامةِ الصَّلاةِ، وأداءِ الزَّكاةِ، وإعطاءِ الصَّدَقاتِ، والأمرُ بالاستغفارِ مِن الذُّنوبِ والعِصيانِ.



الآيات (١-٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: أي: المتَلَفِّفُ في ثيابِه، وأصلُه: المتزَمِّلُ: أُدغِمَت التَّاءُ في الزَّاي، والتَّزَمُّلُ: الالتِفافُ في الثِّيابِ بضَمٍّ وتشميرٍ، وأصلُ التَّزَمُّلِ مُشتَقٌّ مِنَ الزَّمْلِ: وهو الإخفاءُ، وقيل: المزَّمِّلُ: الَّذي زُمِّلَ أمْرًا عظيمًا هو أمرُ النُّبوَّةِ، أي: حُمِّلَه، والزِّمْلُ: الحِمْلُ، وازْدَمَلَه أي: احتمَلَه، وأصلُ (زمل) على ذلك: يدُلُّ على حَمْلِ ثِقْلٍ مِن الأثْقالِ[(١)].

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾: أي: بَيِّنْه تبيينًا، واقرَأْه على تمهُّلٍ، والتَّرتيلُ في القراءةِ: التَّبْيينُ لها، وإشباعُ الحرَكاتِ، وبيانُ الحروفِ، كأنَّه يَفْصِلُ بيْنَ الحرفِ والحرفِ، ومنه قيل: ثَغْرٌ رَتِلٌ ورَتَلٌ، إذا كان مُفَلَّجًا لا يركَبُ بعضُه بعضًا، والرَّتَلُ: اتِّساقُ الشَّيءِ وانتِظامُه على استِقامةٍ، والتَّرتيلُ: إرسالُ الكلمةِ مِن الفَمِ بسُهولةٍ واستِقامةٍ[(٢)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٠).

﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: آناءَ اللَّيلِ وساعاتِه، مأخوذةٌ مِن: نَشَأَتْ نَشْأً، أي: ابتَدَأَتْ، وأقبَلَت شيئًا بعدَ شَيءٍ. وقيل: النَّاشِئةُ: القيامُ، مَصدَرٌ جاء على فاعِلةٍ، كالعافيةِ بمعنى العَفوِ. فهي بمعنى: قيامِ اللَّيلِ، والنَّاشِئةُ إنَّما تكونُ بعدَ النَّومِ، يُقالُ: نشَأَ: إذا قام بعدَ النَّومِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ(١).

﴿وَطۡـٔٗا﴾: أي: كُلْفةً ومَشَقَّةً، مِن قَولِك: اشتَدَّت على القَومِ وَطْأةُ سُلْطانِهم: إذا ثَقُل عليهم ما يُلزِمُهم ويأخُذُهم به. وقيل: أي: أوطَأُ للقيامِ، وأسهَلُ للمُصَلِّي مِن ساعاتِ النَّهارِ، وأصلُ (وطأ): يدُلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه(٢).

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: أي: أصْوَبُ قِراءةً، وأصحُّ قولًا، وأسَدُّ مقالًا، وقيل: أخلَصُ للقَولِ وأسمَعُ له، وأصل (قوم) هنا: يدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ(٣).

﴿سَبۡحًا﴾: أي: تصَرُّفًا وتقلُّبًا في مُهِمَّاتِك وحَوائِجِك وأشغالِك، أو: فراغًا طويلًا، وسَعةً لتصَرُّفِك، وقضاءِ حوائِجِك، قيل: أصلُ السَّبْحِ: سُرعةُ الذَّهابِ، وقيل: السَّبْحُ: التَّباعُدُ، فالمعنى: مُتباعَدًا في المَذهبِ والمُدَّةِ لِما تُريدُ مِن قضاءِ حوائجِك، وأصلُ (سبح) هنا: جِنْسٌ مِن السَّعْيِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، =

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: أي: انقَطِعْ إليه في العبادةِ انقِطاعًا، والتَّبَتُّلُ: الانقِطاعُ، وهو تفَعُّلٌ مِنَ البَتلِ: وهو القَطعُ، ومِنه سُمِّيَت مَريمُ: البَتُولَ؛ لانقِطاعِها عن الأزواجِ، وأصلُ (بتل): يدُلُّ على إبانةِ الشَّيءِ مِن غَيرِه[1].

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾: أي: حافِظًا ومُدَبِّرًا لأمورِك كلِّها، قائمًا بها، ففَوِّضْها إليه، والوكيلُ هو القائمُ بالأمورِ، والَّذي تُوكَلُ إليه الأشياءُ، فَعيلٌ بمعنى المفعولِ، والتَّوكيلُ: أن تَعتمِدَ على غيرِك وتَجعَلَه نائبًا عنك، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غيرِك في أمرِك[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بنداءِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِداءً مِلْؤُه التَّلَطُّفُ والتَّحَبُّبُ إليه، قائِلًا له: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه، قُمْ كلَّ اللَّيلِ للصَّلاةِ فيه إلَّا قليلًا منه، أو قُمْ نِصْفَ اللَّيلِ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قليلًا، أو زِدْ على نِصفِ اللَّيلِ؛ فلا حَرَجَ عليك فيما فعَلْتَ، واقرَأِ القُرآنَ بتمَهُّلٍ وتُؤَدَةٍ وتَبيينٍ لحُروفِه؛ إنَّا سنُنزِلُ عليك قُرآنًا عظيمًا ثقيلًا لرَزانةِ ألفاظِه؛ لامتِلائِها بالمعاني مع جلالتِها، ولِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ على النَّفْسِ -لِمُخالَفتِها هواها-، ولِما

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٤٦) و(٢٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٥، ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ٢٠٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

له مِن قَدْرٍ عَظيمٍ، وهو ثقيلٌ في الميزانِ، ولا يَقدِرُ الكافرُ على رَدِّه، أو الطَّعنِ فيه بوجهٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ -سُبحانَه- الحِكمةَ مِن أمْرِه النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقيامِ اللَّيلِ إلَّا قليلًا منه، فيقولُ: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ بعدَ القيامِ مِنَ النَّومِ: أثْقَلُ على المصَلِّي وأشَقُّ مِن صلاةِ النَّهارِ -لأنَّ اللَّيلَ وقتُ النَّومِ والرَّاحةِ والسُّكونِ- وأصْوَبُ قِراءَةً وأصحُّ قَولًا؛ لهدوءِ النَّاسِ، وسُكونِ الأصواتِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مقرِّرًا للأمرِ بقيامِ اللَّيلِ إلَّا قليلًا منه: إنَّ لك -يا محمَّدُ- في النَّهارِ سَعَةً مِنَ الوَقتِ وفَراغًا طويلًا تتقلَّبُ فيه في شُؤونِ حَياتِك.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالإكثارِ مِن ذِكْرِه، والانقطاعِ إليه، والتَّوكُّلِ عليه، فيقولُ: واذْكُرِ اسمَ ربِّك في كُلِّ وَقتٍ، وانقَطِعْ على عِبادتِه انقِطاعًا تامًّا، هو سُبحانَه ربُّ المشرِقِ والمغرِبِ، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه؛ فاتَّخِذْه قائمًا بأمورِك، وفَوِّضْها إليه وَحْدَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾.

أي: يا أيُّها الَّذي التفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه، يعني: النَّبيَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٦).

قال البِقاعي: (مَدلولُه التَّلَفُّفُ في الثَّوبِ على جميعِ البدَنِ، والاختفاءُ ولُزومُ مكانٍ واحِدٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢).

قيل: المرادُ بندائِه بالمزَّمِّلِ: طلَبُ تَركِ التَّزَمُّلِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩). =

= قال ابنُ كثير: (يأمُرُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يترُكَ التَّزَمُّلَ، وهو: التَّغَطِّي في اللَّيلِ، ويَنهَضَ إلى القيامِ لرَبِّه عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، كذلك كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممتَثِلًا ما أمَرَه اللهُ تعالى به مِن قيامِ اللَّيلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩).

وقيل: المرادُ وَصْفُه بالتَّزَمُّلِ بالثِّيابِ للصَّلاةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٩).

قال الزمخشري: (وقيل: كان متزَمِّلًا في مِرْطٍ لعائِشةَ يُصَلِّي، فهو... ثَناءٌ عليه، وتحسينٌ لحالِه الَّتي كان عليها، وأَمْرٌ بأن يَدومَ على ذلك ويواظِبَ عليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال قَتادةُ: كان تزمَّلَ في ثيابِه للصَّلاةِ واستعَدَّ، فنُودِيَ على معنى: يا أيُّها المُستَعِدُّ للعبادةِ المتزَمِّلُ لها. وهذا القَولُ مدحٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ أيضًا: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ والزُّهْريُّ بما في البخاريِّ [«٣، ٤» ومسلم «١٦٠، ١٦١»] مِن أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا جاءه الملَكُ في غارِ حِراءٍ وحاوَرَه بما حاوره، رجَع رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى خديجةَ فقال: زَمِّلوني زَمِّلوني: فنزلتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، وعلى هذا نزَلَت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦).

قال السَّخاوي: (والعلماءُ على أنَّه إنَّما نزَل عليه مِن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ثمَّ نَزَل باقيها بعدَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾. وقال جابرُ بنُ عبدِ الله: «﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أوَّلُ القرآنِ نُزولًا». والأكثرُ على ما قدَّمْتُه، وليس في قولِ جابرٍ ما يُناقِضُه؛ لأنَّ المُدَّثِّرَ مِن جملةِ ما نزَل أوَّلَ القرآنِ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (١/ ١٠٥). ويُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٩٩، ٢٠٧-٢٠٨).

وقال السيوطي: (وقد ذُكِر عن ابنِ عبَّاسٍ في ترتيبِ نُزولِ السُّورِ: أنَّ المُدَّثِّرَ نزلتْ عَقِبَ المُزَّمِّلِ [كذا] أخرجه ابنُ الضُّرَيْس، وأخرجه غيرُه عن جابرِ بنِ زَيدٍ). ((أسرار ترتيب القرآن)) (ص: ١٤٩). يُنظر: ((فضائل القرآن)) لابن الضُّرَيْس (١٧) (ص: ٣٣).

وقال ابن عاشور: (الأصَحُّ الَّذي تَضافَرَتْ عليه الأخبارُ الصَّحيحةُ: أنَّ أوَّلَ ما نَزَل سورةُ العَلَقِ، واختُلِفَ فيما نَزَل بعدَ سورةِ العَلَقِ؛ فقيل: سورةُ ن والقلمِ، وقيل: نَزَل بعدَ العَلَقِ سورةُ المدَّثِّرِ، =

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾.

أي: قُمْ -يا محمَّدُ- كلَّ اللَّيلِ للصَّلاةِ فيه إلَّا قَليلًا منه، فاجعَلْه للرَّاحةِ والنَّومِ[1].

= ويَظهَرُ أنَّه الأرجحُ. ثُمَّ قيل: نَزَلتْ سورةُ المزَّمِّلِ بعدَ القلمِ، فتكونُ ثالثةً، وهذا قولُ جابرِ ابنِ زيدٍ في تَعدادِ نُزولِ السُّوَرِ. وعلى القولِ بأنَّ المدَّثِّرَ هي الثَّانيةُ يحتمِلُ أنْ تكونَ القلمُ ثالثةً والمزَّمِّلُ رابعةً، ويحتمِلُ أنْ تكونَ المزَّمِّلُ هي الثَّالثةَ والقلمُ رابعةً، والجمهورُ على أنَّ المدَّثِّرَ نَزَلتْ قبْلَ المُزَّمِّلِ، وهو ظاهرُ حديثِ عُروةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عائشةَ في بَدْءِ الوحيِ مِن «صحيح البُخاريِّ»[٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٤).

وقال ابن حجر: (نُزولُها [أي: المزَّمِّلِ] تأخَّر عن نُزولِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بالاتِّفاقِ؛ لأنَّ أوَّلَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ الأمرُ بالإنذارِ، وذلك أوَّلَ ما بُعِث، وأوَّلَ المُزَّمِّلِ الأمرُ بقيامِ اللَّيلِ وترتيلِ القرآنِ، فيَقتضي تقَدُّمَ نُزولِ كثيرٍ مِن القرآنِ قبْلَ ذلك). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

قال الماوَرْدي: (في فَرْضِه [أي: قيامِ اللَّيلِ] على مَنْ سِواه مِن أُمَّتِه قولان:

أحدُهما: فُرِض عليه دونَهم؛ لتوَجُّهِ الخِطابِ إليه، ويُشبِهُ أن يكونَ قَولَ سَعيدِ بنِ جُبَير.

الثَّاني: أنَّه فُرِض عليه وعليهم، فقاموا حتَّى وَرِمَت أقدامُهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ وعائشةُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: كانوا يقومون نحوَ قيامِه في شهرِ رمضانَ، ثمَّ نُسِخَ فَرضُ قيامِه على الأمَّةِ. واختُلِفَ بماذا نُسِخَ عنهم؛ على قولَينِ: أحدُهما: بالصَّلَواتِ الخَمسِ، وهو قولُ عائشةَ. الثَّاني: بآخِرِ السُّورةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٣).

والقَولُ بأنَّ أوَّلَ السُّورةِ مَنسوخٌ بآخرِها نسَبَه ابنُ سلامةَ إلى مُعظَمِ المفسِّرينَ، وهو ظاهرُ اختيارِ: ابنِ جرير، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن سلامة (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٠).

قال السخاوي: (قلتُ: إنَّ ذلك ليس بنَسخٍ، وإنَّما هو تخفيفٌ مِن المِقْدارِ؛ لأنَّهم لا يُحصُونَه). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

﴿نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣)﴾.

أي: قُمْ نِصْفَ اللَّيلِ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قَليلًا، فتُصَلِّي نحوَ ثُلُثِ اللَّيلِ(١).

= ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٧٩).

وقال الشنقيطي: (الأخيرُ ناسخٌ للأوَّلِ، ثمَّ نُسِخ الأخيرُ أيضًا بالصَّلَواتِ الخَمْسِ). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٤٦).

وممَّن قال بأنَّ فَرْضَ قيامِ اللَّيلِ مَنسوخٌ بالصَّلَواتِ الخَمسِ: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ١١٤٤).

وقيل: نُسِخَ قيامُ اللَّيلِ في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ونُسِخَ في حقِّ المؤمنينَ بالصَّلَواتِ الخَمسِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (نقَلَهم عندَ نَسخِ وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ إلى القِراءةِ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ الآيةَ [المزمل: ٢٠]، واللهُ أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٦٠).

وقال أيضًا: (لَمَّا نسَخَ ما كان افترَضَه مِن قيامِ اللَّيلِ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فأمَرهم بقِراءةِ ما تيسَّر مِن القُرآنِ؛ فإنَّ مِن المُسلمينَ المعذورَ بالمرَضِ، ومنهم التَّاجرَ الضَّارِبَ في الأرضِ يَطلُبُ فضْلَ اللهِ، ومنهم المقاتِلَ في سبيلِ الله). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٤).

وقال السَّخاوي: (وقيل: كان [أي: قيامُ اللَّيلِ] نَدْبًا، وهو الصَّوابُ إن شاء اللهُ تعالى، والقولُ بأنَّه كان تطَوُّعًا أوضَحُ منه. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾: أي دُمْ على ما تطَوَّعْتَ به؛ مدحًا لحالِه، وتحسينًا لها). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن =

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ٤﴾.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾.

أي: أو زِدْ في صَلاتِك على نِصفِ اللَّيلِ، فتُصَلِّي ثُلُثَيْه؛ فلا حَرَجَ عليك في قيامِ نِصفِ اللَّيلِ، أو أقَلَّ مِنَ النِّصفِ بقَليلٍ، أو أكثَرَ مِنَ النِّصفِ(١).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِنَ اللَّيلِ حتَّى تتفَطَّرَ قَدَماه، فقالت عائِشةُ: لِمَ تَصنَعُ هذا يا رَسولَ اللهِ، وقد غَفَر اللهُ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! قال: أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا شَكورًا؟!))(٢).

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

أي: واقرَأِ القُرآنَ بتمَهُّلٍ وتُؤَدَةٍ وتَبيينٍ لحُروفِه بلا عَجَلةٍ؛ فيَكونَ ذلك عَونًا على التَّفَكُّرِ فيه، وفَهْمِ مَعانيه(٣).

= كثير)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قليلًا إلى الثُّلُثِ، أو زِدْ على النِّصفِ قليلًا إلى الثُّلُثَينِ، جَعَل له سَعةً في مدَّةِ قيامِه في اللَّيلِ، وخَيَّرَه في السَّاعاتِ للقيامِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال الداني: (أي: تلَبَّثْ في قراءتِه، وافصِلِ الحَرفَ مِنَ الحَرفِ الَّذي بعْدَه، ولا تَستَعجِلْ؛ فتُدخِلَ بَعضَ الحُروفِ في بَعضٍ). ((التحديد في الإتقان والتجويد)) (ص: ٧١). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (١/ ١٣٢)، ((التمهيد في علم التجويد)) لابن الجزري (ص: ٤٨، ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).

عن حَفْصةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بالسُّورةِ فيُرَتِّلُها حتَّى تكونَ أطْوَلَ مِن أطْوَلَ مِنها))(١).

وعن قَتادةَ، قال: ((سألْتُ أنَسَ بنَ مالِكٍ عن قِراءةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: كان يَمُدُّ مَدًّا))(٢).

وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُقالُ لصاحِبِ القُرآنِ: اقرَأْ وارتَقِ، ورَتِّلْ كما كُنتَ تُرَتِّلُ في الدُّنيا؛ فإنَّ مَنزِلَتَك عندَ آخِرِ آيةٍ تَقرَأُ بها))(٣).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وَجهُ النَّظْمِ أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَه بصَلاةِ اللَّيلِ، فكأنَّه قال: إنَّما أمَرْتُك بصلاةِ اللَّيلِ؛ لأنَّا سنُلْقي عليك قولًا ثَقيلًا، فلا بدَّ أن تَسعى في صَيرورةِ نَفْسِك مُستَعِدَّةً لذلك القَولِ الثَّقيلِ، ولا يَحصُلُ ذلك الاستِعدادُ إلَّا بصلاةِ اللَّيلِ(٤)، فالجملةُ كالعلةِ لقيامِ الليلِ؛ فإنَّ الطاعةَ -سيَّما في اللَّيلِ- تُعينُ الرَّجلَ على نوائبِه، وتُسهِّلُ عليه المصائبَ(٥).

---

(١) رواه مسلم (٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٥).

(٣) أخرجه أبو داودَ (١٤٦٤)، والترمذيُّ (٢٩١٤) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٠٥٦)، وأحمدُ (٦٧٩٩).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩١٤). وصَحَّحَه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٧٦٦)، وصحَّحَه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣، ٦٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٩٦).

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

أي: إنَّا سنُنزِلُ عليك -يا محمَّدُ- قُرآنًا ثقيلًا لِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ، ورَزانةِ ألفاظِه؛ لامتلائِها بالمعاني مع جلالتِها، وما له مِن قَدْرٍ عَظيمٍ، وهو ثقيلٌ في الميزانِ، ولا يَقدِرُ الكافرُ على رَدِّه، أو الطَّعنِ فيه بوجهٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١، ٢٦٢).

اختلَف المفسِّرونَ في معنى تسميةِ القرآنِ بالقَولِ الثَّقيلِ؛ فقيل: المرادُ: ثقيلٌ لِما فيه مِن الأوامرِ والنَّواهي، والحدودِ، والتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والزمخشري، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥١).

وقيل: المرادُ: كَونُه رَصينًا رزينًا، ليس بالسَّفسافِ والخفيفِ؛ لأنَّه كلامُ اللهِ تعالى. وممَّن قال بهذا القولِ: الفرَّاءُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٥).

وقيل: المرادُ مِن كَونِه ثقيلًا: عِظَمُ قَدْرِه، وجلالةُ خَطَرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف في وَصفِه بالثِّقَلِ؛ على خمسةِ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه سُمِّيَ ثقيلًا؛ لِما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم يَلْقاه مِن الشِّدَّةِ عندَ نُزولِ الوَحيِ عليه، حتَّى إنَّ جَبينَه لَيَتفَصَّدُ عَرَقًا في اليومِ الشَّديدِ البَردِ، وقد كان يَثقُلُ جِسمُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذلك، حتَّى إنَّه إذا أُوحِيَ إليه وهو على ناقتِه برَكَت به، وأُوحيَ إليه وفَخِذُه على فَخِذِ زَيدِ بنِ ثابتٍ، فكادت أن تَرُضَّ فَخِذَ زَيدٍ، والثِّقلُ على هذا حقيقةٌ. =

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ: ﴿وِطَاءً﴾ أي: أشَدُّ مُوافَقةً، والمعنى: أنَّ القراءةَ في اللَّيلِ يَتواطَأُ فيها قَلبُ المصَلِّي ولسانُه وسَمعُه على التَّفهُّمِ والأداءِ أكثَرَ ممَّا يتواطَأُ عليه ذلك في النَّهارِ[1].

٢- قِراءةُ: ﴿وَطۡـًٔا﴾ قيل: المعنى: أشدُّ مُكابَدةً؛ فقيامُ اللَّيلِ أشَدُّ على الإنسانِ وأثقَلُ مِنَ القيامِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَ اللَّيلَ سكنًا وراحةً. وقيل: معناه: أبيَنُ في القَولِ. وقيل: أثبَتُ في الحِفظِ. وقيل: معناه: أبلَغُ في الثَّوابِ[2].

= الثَّاني: أنَّه ثقيلٌ على الكُفَّارِ بإعجازِه ووعيدِه.

الثَّالثُ: أنَّه ثقيلٌ في الميزانِ.

الرَّابعُ: أنَّه كلامٌ له وَزنٌ ورُجحانٌ.

الخامسُ: أنَّه ثقيلٌ لِما تضمَّنَ مِنَ التكاليفِ والأوامِرِ والنَّواهي). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٣).

وقد ذهب البِقاعي إلى العُموم، فقال: (﴿ثَقِيلًا﴾ أي: لِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ مِن جِهةِ حَمْلِها وتحميلِها للمَدعُوِّينَ؛ لأنَّها تُضادُّ الطَّبعَ، وتُخالِفُ النَّفْسَ، ومِن جهةِ رَزانةِ لَفظِه؛ لامتِلائِه بالمعاني مع جلالةِ معناه، وتَصاعُدِه في خفاءٍ، فلا يَفهَمُه المتأمِّلُ ويَستَخرِجُ ما فيه مِن الجواهِرِ إلَّا بمَزيدِ فِكرٍ، وتصفيةِ سِرٍّ، وتجريدِ نَظَرٍ؛ فهو ثقيلٌ على الموافِقِ مِن جميعِ هذه الوجوهِ وغيرِها، وعلى المخالِفِ مِن جِهةِ أنَّه لا يَقدِرُ على رَدِّه، ولا يتمكَّنُ مِن طَعنٍ فيه بوجهٍ، مع أنَّه ثقيلٌ في الميزانِ، وعندَ تلَقِّيه، وله وزنٌ وخطرٌ وقَدْرٌ عَظيمٌ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠).

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٩، ١٠٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣٠، ٧٣١).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾.

أي: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ بعدَ القيامِ مِنَ النَّومِ: أثْقَلُ على المصَلِّي وأشَقُّ مِن صلاةِ النَّهارِ -لأنَّ اللَّيلَ وقتُ النَّومِ والرَّاحةِ والسُّكونِ- وأصْوَبُ قِراءةً وأصحُّ قَولًا؛ لهدوءِ النَّاسِ، وسُكونِ الأصواتِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٩-٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢، ٢٦٣).

وممَّن قال بأنَّ ناشئةَ اللَّيلِ تكونُ بعدَ نَومٍ: ابنُ الأعرابيِّ، وأحمدُ بنُ حَنْبَلٍ، ورجَّحه ابنُ تيميَّةَ، ونسَبَه لأكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٣).

قال ابن الجوزي: (... الثَّاني: أنَّها القيامُ بعدَ النَّومِ، وهذا قولُ عائشةَ، وابنِ الأعرابيِّ. وقد نصَّ عليه الإمامُ أحمدُ في روايةِ المَرُّوذي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤).

وقال ابن تيميَّةَ: (﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ في أصَحِّ القولَينِ: إنَّما تكونُ بعدَ النَّومِ، يُقالُ: نشَأَ: إذا قام بعدَ النَّومِ؛ فإذا قام بعدَ النَّومِ كانت مواطأةُ قَلبِه لِلِسانِه أشَدَّ؛ لعدمِ ما يَشغَلُ القَلبَ، وزَوالِ أثَرِ حركةِ النَّهارِ بالنَّومِ، وكان قَولُه أقوَمَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٤٩٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ أيضًا: (قَولُه تعالى: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ عندَ أكثَرِ العلماءِ: هو إذا قام الرَّجُلُ بعدَ نَومٍ ليس هو أوَّلَ اللَّيلِ، وهذا هو الصَّوابُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم هكذا كان يُصَلِّي، والأحاديثُ بذلك متواترةٌ عنه؛ كان يقومُ بعدَ النَّومِ، لم يكُنْ يقومُ بيْن العِشاءَينِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٧٤).

وقيل: المرادُ بناشئةِ اللَّيلِ: جميعُ ساعاتِه وأوقاتِه، فهي تنشأُ وقتًا بعدَ آخَرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ الزُّبَير، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦).

قال ابنُ جُزَي: (﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ يحتَمِلُ معنيَينِ؛ أحَدُهما: أثقَلُ وأصعَبُ على المصَلِّي...، والأثقَلُ =

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ سُبحانَه مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا ما به صلاحُ الدِّينِ، وأظهَرَ ما

= أعظَمُ أجرًا، فالمعنى تحريضٌ على قيامِ اللَّيلِ؛ لكثرةِ الأجرِ. الثَّاني: أشدُّ ثبوتًا مِن أجْلِ الخَلوةِ، وحُضورِ الذِّهنِ، والبُعدِ عن النَّاسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٤).

ممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٠).

وقال ابن جرير: (أشدُّ ثباتًا مِن النَّهارِ، وأثْبَتُ في القلبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٠).

وقال ابن كثير: (﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمَعُ للخاطرِ في أداءِ القراءةِ وتَفَهُّمِها مِن قيامِ النَّهارِ؛ لأنَّه وقتُ انتِشارِ النَّاسِ، ولَغَطِ الأصواتِ، وأوقاتُ المعاشِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

وقال السعدي: (ذكَرَ الحِكمةَ في أمرِه بقيامِ اللَّيلِ، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: الصَّلاةَ فيه بعدَ النَّومِ ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقرَبُ إلى تحصيلِ مقصودِ القُرآنِ، يتَواطأُ على القرآنِ القَلبُ واللِّسانُ، وتَقِلُّ الشَّواغِلُ، ويفهمُ ما يقولُ، ويستقيمُ له أمرُه، وهذا بخِلافِ النَّهارِ؛ فإنَّه لا يحصُلُ به هذا المقصودُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٥).

قال القرطبي: (﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: القراءةُ باللَّيلِ أقومُ منها بالنَّهارِ، أي: أشدُّ استِقامةً واستِمرارًا على الصَّوابِ؛ لأنَّ الأصواتَ هادئةٌ، والدُّنيا ساكنةٌ، فلا يَضْطَرِبُ على المصَلِّي ما يَقرَؤُه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤١).

وقيل: المعنى: أخلَصُ للقَولِ، وأسمَعُ له. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيْبةَ، والسمرقنديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤).

للتَّهجُّدِ مِن الفَضائلِ؛ فكان التَّقديرُ حَتمًا: فواظِبْ عليه لتَنالَ هذه الثَّمَراتِ- قال معلِّلًا مُحَقِّقًا له، مُبَيِّنًا ما به صلاحُ الدُّنيا الَّتي هي فيها المَعاشُ، وصلاحُها وسيلةٌ إلى صلاحِ المقصودِ، وهو الدِّينُ، وهو الَّذي ينبغي له؛ لئلَّا يكونَ كَلًّا على النَّاسِ، ليحصلَ مِن الرِّزقِ ما يُعينُه على دينِه، ويوسِّعُ به على عيالِ اللهِ مِن غيرِ مَلَلٍ ولا ضَجَرٍ، ولا كَسَلٍ ولا مُبالَغةٍ[١]:

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾.

أي: إنَّ لك -يا محمَّدُ- في النَّهارِ سَعَةً مِنَ الوَقتِ وفَراغًا طويلًا تتقلَّبُ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ؛ لقَضاءِ حوائجِك وللنَّومِ؛ فتفرَّغْ في اللَّيلِ لقِيامِه[٢].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- اسمَ ربِّك في كُلِّ وقْتٍ، وانقَطِعْ إليه مِن كُلِّ شَيءٍ يُلهيك عن طاعتِه انقِطاعًا تامًّا بالعبادةِ له وَحْدَه، وطَلَبِ الحاجاتِ منه دونَ غيرِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٣، ٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال السعدي: (﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ شامِلٌ لأنواعِ الذِّكرِ كُلِّها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢).
وقال القرطبي: (﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي: ادعُه بأسمائِه الحُسنى، لِيَحصُلَ لك مع الصَّلاةِ محمودُ العاقبةِ. وقيل: أي: اقصِدْ بعمَلِك وجْهَ رَبِّك. وقال سهلٌ: اقرأْ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ في ابتِداءِ صَلاتِك تُوصِلْك بَرَكةُ قراءتِها إلى رَبِّك، وتقطَعْك عمَّا سِواه. وقيل: اذكُرِ اسمَ رَبِّك في وَعْدِه ووعيدِه؛ لتَوَفَّرَ على طاعتِه، وتَعدِلَ عن معصيتِه. وقال الكلبيُّ: صَلِّ لرَبِّك، أي: بالنَّهارِ. قلتُ: =

= وهذا حَسَنٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللَّيلَ ذَكَر النَّهارَ؛ إذ هو قَسيمُه، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢]). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٣).

وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي: أكثِرْ مِن ذِكْرِه، وانقطِعْ إليه، وتفرَّغْ لِعبادتِه إذا فرَغْتَ مِن أشغالِك، وما تحتاجُ إليه مِن أمورِ دُنياكَ، كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ [الشرح: ٧]، أي: إذا فرَغْتَ مِن مهامِّك فانصَبْ في طاعتِه وعبادتِه؛ لِتَكونَ فارغَ البالِ. قاله ابنُ زَيدٍ بمعناهُ أو قريبٍ منه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وعطيَّةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي: أخلِصْ له العبادةَ.

وقال الحسَنُ: اجتَهِدْ وبَتِّلْ إليه نفْسَك). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥).

وقال الواحدي: (جميعُ المفسِّرينَ فَسَّروا التَّبَتُّلَ بالإخلاصِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٦).

وقال أيضًا: (قال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاجُ]: انقطِعْ إليه في العبادةِ. وقال الفرَّاءُ: يُقالُ للعابدِ إذا ترَك كلَّ شيءٍ، وأقبَلَ على العبادةِ: قد تبَتَّلَ، أي: قطَع كلَّ شيءٍ إلَّا أمْرَ اللهِ وطاعتَه. وهذا يؤدِّي معنى الإخلاصِ الَّذي ذكَر أهلُ التَّفسيرِ. وقال زَيدُ بنُ أسْلَمَ: التَّبَتُّلُ: رفْضُ الدُّنيا وما فيها، والتِماسُ ما عندَ اللهِ. وقال ابنُه: «تَبَتَّلْ إليه»: تفرَّغْ لعبادتِه. وهذا كلُّه يَرجِعُ إلى معنى الانقطاعِ إليه عمَّا سِواه). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٨).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالانقطاعِ المأمورِ به انقطاعٌ خاصٌّ، وهو الانقطاعُ عن الأعمالِ الَّتي تَمنَعُه مِن قيامِ اللَّيلِ، ومَهامِّ النَّهارِ في نشرِ الدَّعوةِ ومُحاجَّةِ المشركين؛ ولذلك قيل: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى اللهِ، فكلُّ عمَلٍ يقومُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أعمالِ الحياةِ فهو لدينِ اللهِ؛ فإنَّ طَعامَه وشَرابَه ونَومَه وشُؤونَه للاستِعانةِ على نشرِ دينِ اللهِ، وكذلك مُنعشاتُ الرُّوحِ البريئةُ مِن الإثمِ؛ مِثلُ الطِّيبِ، وتزَوُّجِ النِّساءِ، والأُنْسِ إلى أهلِه وأبنائِه وذَويه، وقد قال: «حُبِّبَ إلَيَّ مِن دُنياكم النِّساءُ والطِّيبُ»، وليس هو التَّبَتُّلَ المُفْضي إلى الرَّهبانيَّةِ، وهو الإعراضُ عن النِّساءِ، وعن تدبيرِ أمورِ الحياةِ؛ لأنَّ ذلك لا يُلاقي صِفةَ الرِّسالةِ... ومِن أكبَرِ التَّبَتُّلِ إلى اللهِ الانقطاعُ عن الإشراكِ، وهو معنى الحَنيفيَّةِ؛ ولذلك عُقِّب قولُه: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ بقولِه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]. وخُلاصةُ المعنى: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ ألَّا تَخلوَ أوقاتُه عن إقبالٍ على عبادةِ اللهِ ومُراقَبتِه، والانقطاعِ للدَّعوةِ لدينِ الحقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بالذِّكرِ أوَّلًا، ثمَّ بالتَّبتُّلِ ثانيًا؛ ذكَرَ السَّبَبَ فيه[(١)].

وأيضًا فوَصْفُ اللهِ بأنَّه رَبُّ المشرقِ والمغرِبِ؛ لِمُناسَبةِ الأمرِ بذِكْرِه في اللَّيلِ وذِكْرِه في النَّهارِ، وهما وَقْتا ابتِداءِ غيابِ الشَّمسِ وطُلوعِها[(٢)].

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

أي: هو خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ المشرِقِ والمغرِبِ[(٣)].

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ سُبحانَه وَحْدَه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

أي: فاتَّخِذِ اللهَ قائمًا بأمورِك، وفوِّضْها إليه، واعتَمِدْ عليه وَحْدَه دونَ مَنْ سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في خِطابِه بهذا الاسمِ فائدتانِ:

إحداهما: الملاطَفةُ؛ فإنَّ العَرَبَ إذا قصَدَت ملاطَفةَ المخاطَبِ، وتَرْكَ المُعاتَبةِ، سَمَّوْه باسمٍ مُشتَقٍّ مِن حالتِه الَّتي هو عليها، كقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعليٍّ حينَ غاضَبَ فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، فأتاه وهو نائِمٌ، وقد لَصِقَ بجَنْبِه التُّرابُ، فقال له: ((قُمْ يا أبا تُرابٍ))[٢]؛ إشعارًا له أنَّه غيرُ عاتِبٍ عليه، ومُلاطَفةً له، وكذلك قَولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لحُذَيفةَ: ((قُمْ يا نَوْمانُ))[٣]، وكان نائِمًا؛ مُلاطَفةً له،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

قال الشوكاني: (﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: إذا عرَفْتَ أنَّه المُختَصُّ بالرُّبوبيَّةِ ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، أي: قائمًا بأمورِك، وعَوِّلْ عليه في جميعِها. وقيل: كفيلًا بما وعَدَك مِن الجزاءِ والنَّصرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨١).

وقال الواحديُّ: (قولُه: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ قال الكلبيُّ: يقولُ: اتَّخِذْه يا محمَّدُ كفيلًا على ما قال لك إنَّه سيفعَلُه بك. وهذا المعنى أراد الزَّجَّاجُ بقولِه: اتَّخِذْه كفيلًا بما وعَدَك. وهو قولُ الفرَّاءِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٩، ٣٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سَهلِ بنِ سعدٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٨) من حديث حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رضيَ الله عنهما.

وإشعارًا لتَركِ العَتْبِ والتَّأنيبِ، فقَولُ اللهِ تعالى لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطَفةٌ؛ ليَستَشعِرَ أنَّه غيرُ عاتبٍ عليه.

الفائدةُ الثَّانيةُ: التَّنبيهُ لكُلِّ مُتزمِّلٍ راقدٍ لَيلَه لِيَتنبَّهَ إلى قيامِ اللَّيلِ، وذِكْرِ اللهِ تعالى فيه؛ لأنَّ الاسمَ المشتقَّ مِن الفِعلِ يَشترِكُ فيه مع المُخاطَبِ كُلُّ مَن عَمِلَ ذلك العَمَلَ، واتَّصَف بتلك الصِّفةِ[1].

٢- اللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، فنحن أحقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا إذا كان في مقامِ الإخبارِ عنه، قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وقُلْنا: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ، فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]؛ فالفرقُ بين

(١) يُنظر: ((التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام)) للسهيلي (ص: ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٥١).

مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقلِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فيه أمرٌ بترتيلِ القُرآنِ؛ حتَّى يَتمكَّنَ الخاطِرُ مِن التَّأمُّلِ في حقائقِ تلك الآياتِ ودقائِقِها، فعندَ الوُصولِ إلى ذِكرِ اللهِ يَستَشعِرُ عَظَمتَه وجلالتَه، وعندَ الوُصولِ إلى الوَعدِ والوعيدِ يَحصُلُ الرَّجاءُ والخَوفُ، وحينَئذٍ يَستنيرُ القَلبُ بنورِ مَعرفةِ اللهِ. والإسراعُ في القراءةِ يدُلُّ على عدَمِ الوُقوفِ على المعاني؛ لأنَّ النَّفْسَ تَبتَهِجُ بذِكرِ الأمورِ الإلهيَّةِ الرُّوحانيَّةِ، ومَنِ ابتَهَج بشَيءٍ أحَبَّ ذِكْرَه، ومَن أحَبَّ شَيئًا لم يَمُرَّ عليه بسرعةٍ، فالمقصودُ مِن التَّرتيلِ إنَّما هو حُضورُ القَلبِ، وكَمالُ المعرفةِ[٢]، وأنْ يجِدَ الفِكرُ فُسحةً للنَّظرِ، وفهمِ المعاني، وبذلك يرِقُّ القلبُ، ويَفيضُ عليه النُّورُ والرَّحمةُ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فيه استِحبابُ ترتيلِ القِراءةِ، وأنَّه أفضَلُ مِنَ السُّرعةِ في قِراءتِه[٤]. قال الشَّافعيُّ: (أقلُّ التَّرتيلِ تَركُ العَجَلةِ في القرآنِ عن الإبانةِ، وكُلَّما زاد على أقَلِّ الإبانةِ في القراءةِ كان أحَبَّ إلَيَّ، ما لم يَبلُغْ أن تكونَ الزِّيادةُ فيها تمطيطًا. وأُحِبُّ ما وصَفْتُ لكلِّ قارئٍ في صلاةٍ وغَيرِها، وأنا له في المصَلِّي أشَدُّ استِحبابًا منه للقارئِ في غيرِ صلاةٍ)[٥].

٥- كان جُملةُ القُرآنِ حينَ نُزولِ هذه السُّورةِ سُورتَينِ أو ثلاثَ سُوَرٍ، بِناءً

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

قال النووي: (وقد اتَّفَق العلماءُ رضيَ الله عنهم على استِحبابِ التَّرتيلِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾). ((التبيان في آداب حملة القرآن)) (ص: ٨٨).

(٥) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (١/ ١٣٢).

على أصَحِّ الأقوالِ في أنَّ هذا المِقْدارَ مِنَ السُّورةِ مَكِّيٌّ، وفي أنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائِلِ السُّوَرِ، وهذا مِمَّا أشعَرَ به قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾، أي: سنُوحي إليك قُرآنًا[1].

٦- كان مالكٌ رحمه الله يقولُ: (مَن سُئِلَ عن مسألةٍ فيَنبغي له قبْلَ أن يُجيبَ فيها أن يَعرِضَ نفْسَه على الجنَّةِ والنَّارِ، وكيف يكونُ خلاصُه في الآخرةِ، ثمَّ يجيب فيها)، وسُئِلَ عن مسألةٍ، فقال: (لا أدري. فقيل له: إنَّها مسألةٌ خفيفةٌ سهلةٌ! فغَضِبَ، وقال: ليس في العِلمِ شيءٌ خفيفٌ؛ أمَا سَمِعتَ قولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾)، فالعِلمُ كلُّه ثقيلٌ، وخاصَّةً ما يُسأَلُ عنه يومَ القيامةِ[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ فيه إرشادٌ إلى ما يُقابِلُ هذا الثِّقْلَ فيما سيُلْقى على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ القَولِ، فهو كالتَّوجيهِ إلى ما يتزوَّدُ به لتحَمُّلِ ثِقْلِ أعباءِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ[3].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ دَلَّ به على أنَّ قيامَ اللَّيلِ مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ الَّتي ورد بها القرآنُ؛ لأنَّ اللَّيلَ محَلُّ الرَّاحةِ، فإحياؤُه بالعبادةِ مُضادٌّ للطَّبعِ، وفيه إيقاظٌ له على التَّشَمُّرِ لتحَمُّلِه، وتوطُّنِ النَّفْسِ على المُكابَدةِ في تبليغِه وتحميلِه[4].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ بَيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٦١).

فضْلَ صلاةِ اللَّيلِ على صلاةِ النَّهارِ، وأنَّ الاستِكثارَ مِن صلاةِ اللَّيلِ بالقراءةِ فيها ما أمكَنَ: أعظَمُ للأجرِ، وأجلَبُ للثَّوابِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ فيه أنَّ صَلاةَ اللَّيلِ أعوَنُ على تذَكُّرِ القُرآنِ، والسَّلامةِ مِن نِسيانِ بَعضِ الآياتِ، وأعوَنُ على المزيدِ مِن التَّدَبُّرِ[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ وإنَّ مِن شرطِ هذا الاتِّخاذِ أنَّه إذا قضَى لعبدِه قضاءً يكونُ راضيًا بالقضاءِ في تلك الوكالةِ محسنًا ظنًّا غيرَ مسيءٍ له؛ فإنَّ الله تعالى لا يختارُ له إذا اتَّخذَه وكيلًا إلَّا الأفضلَ والأجودَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ليس المزَّمِّلُ باسمٍ مِن أسماءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُعرَفْ به كما ذهَبَ إليه بعضُ النَّاسِ وعَدُّوه في أسمائِه عليه السَّلامُ! وإنَّما المزَّمِّلُ اسمٌ مُشتَقٌّ مِن حالتِه الَّتي كان عليها حينَ الخِطابِ، وكذلك المُدَّثِّرُ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الكلامُ، مع قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى قوله: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] يدُلُّ على وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ على الأُمَّةِ؛ لأنَّ أمْرَ القُدوةِ أمْرٌ لأتْباعِه. وقَولُه: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] دليلٌ على عدمِ الخُصوصِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد ذَكَر اللهُ ما يدُلُّ على خِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هبيرة (٣/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((التعريف والإعلام)) للسهيلي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٣).

ذلك، في قَولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقَولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ [المزمل: ٢٠]!

الجوابُ: أنَّ الأخيرَ ناسِخٌ للأوَّلِ، ثمَّ نُسِخَ الأخيرُ أيضًا بالصَّلَواتِ الخَمسِ[1]. وذلك على قولٍ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ تخصيصُ اللَّيلِ بالصَّلاةِ فيه؛ لأنَّه وقتُ النَّومِ عادةً، فأمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقيامِ فيه زيادةٌ في إشغالِ أوقاتِه بالإقبالِ على مُناجاةِ اللهِ، ولأنَّ اللَّيلَ وَقتُ سُكونِ الأصواتِ، فتكونُ نفْسُ القائمِ فيه أقوى استِعدادًا لتلَقِّي الفَيضِ الرَّبَّانيِّ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أنَّه سُبحانَه لَمَّا سمَّى الصَّلاةَ قيامًا؛ دلَّ على وُجوبِ القيامِ فيها، وذلك: أنَّ تسميتَها بهذا الفعلِ دليلٌ على أنَّ هذا الفعلَ لازِمٌ لها، فإذا وُجِد هذا الفعلُ فيكونُ مِن الأبعاضِ اللَّازمةِ، كما أنَّهم يُسمُّونَ الإنسانَ بأبعاضِه اللَّازمةِ له، فيُسمُّونَه رقبةً ورأسًا ووجهًا ونحوَ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾[3] [المجادلة: ٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أكثَرَ المقاديرِ الواجِبةِ: الثُّلُثانِ، فهذا يدُلُّ على أنَّ نومَ الثُّلُثِ جائِزٌ، وإذا كان كذلك وجَبَ أن يكونَ المرادُ في قَولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هو الثُّلُثَ[4].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٦).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ إلى ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ وسائرِ السُّورةِ: أنَّ الصَّلاةَ لا بُدَّ فيها مِن القراءةِ؛ فإنَّه يُعَبَّرُ عن الشَّيءِ باسمِ بعضِه إذا كان رُكنًا فيه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أنه يُستَحَبُّ أنْ يَقْرَأَ القارئُ قِراءةً مُرَتَّلةً يُمَكِّنُ فيها حَرْفَ المَدِّ مِن غَيرِ تمطيطٍ، ويَقِفُ عندَ كلِّ آيةٍ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ في هذه الآيةِ تَنبيهٌ على نومِ القائِلةِ الَّذي يَستريحُ به العَبدُ مِن قيامِ اللَّيلِ في الصَّلاةِ، أو في العِلمِ[٣]. وفيه إرشادٌ إلى أنَّ النَّهارَ ظَرْفٌ واسعٌ لإيقاعِ ما عسَى أنْ يُكلفَه قِيامُ اللَّيلِ مِن فُتورٍ بالنَّهارِ؛ لِيَنامَ بَعضَ النَّهارِ، ولِيَقومَ بمَهامِّه فيه[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ فَضْلُ العِبادةِ باللَّيلِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أنَّ نَفلَ اللَّيلِ أفضلُ مِن نَفْلِ النَّهارِ[٦].

١١- قال تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ فتارةً يأمُرُ بذِكْرِ اسْمِه، وتارةً يأمُرُ بذِكْرِه كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١] ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ كما يأمُرُ بتَسبيحِه تارةً، وتسبيحِ اسْمِه تارةً. فقولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ يَقتضي أن يَذْكُرَه بلِسانِه، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ فقد

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((الكلم الطيب)) لابن تيمية (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

يَتناوَلُ ذِكرَ القلبِ، وقولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] هو كقولِ الآكِلِ: باسْمِ اللهِ، وقولِ الذَّابحِ: باسْمِ اللهِ. وأمَّا التَّسبيحُ فقد قال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦] [الحاقة: ٥٢]. وفي الدُّعاءِ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ فقولُه: ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾ يَقتضي تعدُّدَ المَدْعُوِّ؛ لقولِه ﴿أَيّٗا مَّا﴾، وقولُه: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يَقتضي أنَّ المَدْعُوَّ واحدٌ له الأسماءُ الحُسنى، وقولُه: ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ -ولم يقلْ: ادعوا باسْمِ اللهِ أو باسْمِ الرَّحمنِ- يَتضَمَّنُ أنَّ المَدْعوَّ هو الرَّبُّ الواحدُ بذلك الاسمِ. فقد جعَل الاسمَ تارةً مَدْعُوًّا، وتارةً مَدعوًّا به في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فهو مَدْعُوٌّ به باعتبارِ أنَّ المَدْعُوَّ هو المُسمَّى، وإنَّما يُدْعى باسْمِه. وجعَل الاسمَ مَدْعُوًّا باعتبارِ أنَّ المقصودَ به هو المُسمَّى وإن كان في اللَّفظِ هو المَدعوَّ المُنادَى، كما قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: ادعوا هذا الاسمَ أو هذا الاسمَ، والمرادُ إذا دَعَوْتَه هو المُسمَّى؛ أيَّ الاسْمَيْنِ دَعَوْتَ ومُرادُك هو المُسمَّى: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾. فمَن تدبَّرَ هذه المعانيَ اللَّطيفةَ تبيَّن له بعضُ حِكَمِ القرآنِ وأسرارِه[(١)].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ فيه أنَّ التَّبَتُّلَ مأمورٌ به في القُرآنِ، وهو مَنهيٌّ عنه في السُّنَّةِ[(٢)]، إلَّا أن مُتعَلَّقَ الأمرِ غيرُ مُتعَلَّقِ النَّهيِ؛ فلا يَتناقَضانِ، والتَّبَتُّلُ المأمورُ به: الانقِطاعُ إلى اللهِ بإخلاصٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢١٠ - ٢١٢).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والتَّبَتُّلُ المَنهيُّ عنه: سُلوكُ مَسلَكَ النَّصارى في تَرْكِ النِّكاحِ، والتَّرَهُّبِ في الصَّوامِعِ، لكِنْ عندَ فَسادِ الزَّمانِ يكونُ خَيرُ مالِ المسلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ ومواقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدينِه مِنَ الفِتَنِ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ جاء المشرِقُ والمغرِبُ في القرآنِ: تارةً مجموعَينِ، وتارةً مُثَنَّيَينِ، وتارةً مُفرَدينِ؛ ووجْهُ ذلك: اختِصاصُ كلِّ مَحَلٍّ بما يَقتضيه مِن ذلك؛ فالأوَّلُ: كقَولِه تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثَّاني: كقَولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثَّالثُ: كقَولِه هنا: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، فتأمَّلْ هذه الحِكمةَ البالغةَ في تغايُرِ هذه المواضِعِ في الإفرادِ والجَمعِ والتَّثنيةِ بحسَبِ مَوارِدِها، يُطْلِعْك على عظَمةِ القرآنِ الكريمِ وجلالتِه، وأنَّه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ؛ فحيثُ جُمِعَتْ كان المرادُ بها مَشارِقَ الشَّمسِ ومَغارِبَها في أيَّامِ السَّنةِ، وهي متعدِّدةٌ، وحيثُ أُفْرِدَتْ كان المرادُ أُفُقَيِ المشرقِ والمغربِ، وحيثُ ثُنِّيَا كان المرادُ مَشرِقَيْ صُعودِها وهبوطِها ومَغْرِبَيْهِما؛ فإنَّها تَبتَدِئُ صاعِدةً حتَّى تنتهيَ إلى غايةِ أَوْجِها وارتفاعِها؛ فهذا مَشْرِقُ صُعودِها، ويَنْشَأُ منه فَصْلَا الخريفِ والشِّتاءِ؛ فجَعَلَ مَشْرِقَ صُعودِها بجُملتِه مَشرِقًا واحدًا، ومَشرِقَ هبوطِها بجُملتِه مَشرِقًا واحدًا، ويُقابِلُها مَغْرِباها، فهذا وجهُ اختلافِ هذه في الإفرادِ والتَّثنيةِ والجَمعِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).
ويُنظر ما أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١).
وقيل غيرُ ذلك، يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآية (٤٠) من سورةِ المعارِجِ، وتفسيرِ الآيةِ (١٧) من سورةِ الرَّحمنِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾

- هذا الافتِتاحُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ يدُلُّ على الاعتناءِ بما سيُلْقَى؛ لأنَّ افتِتاحَ الكلامِ بالنِّداءِ إذا كان المُخاطَبُ واحدًا ولم يكُنْ بَعيدًا، يدُلُّ على الاعتِناءِ بما سيُلْقى إلى المُخاطَبِ مِن كَلامٍ[(١)].

- والأصلُ في النِّداءِ أنْ يكونَ باسمِ المُنادَى العَلَمِ إذا كان مَعروفًا عندَ المُتكلِّمِ، فلا يُعدَلُ مِن الاسمِ العَلَمِ إلى غيرِه مِن وصْفٍ أو إضافةٍ إلَّا لغرَضٍ يَقصِدُه البُلغاءُ؛ فنِداءُ النبيِّ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نِداءُ تَلطُّفٍ وتأْنيسٍ وارتفاقٍ، ومِثلُه قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[(٢)] [المدثر: ١]. أو نِداؤه بالمُزمِّلِ وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه تَشريفًا له وإكرامًا؛ إذ لم يُنادِه اللهُ تعالَى باسمِه[(٣)]. وقيل غير ذلك[(٤)].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ قيل: معْناه يا أيُّها الَّذي زُمِّلَ أمْرًا عظيمًا هُو أمرُ النُّبوَّةِ، أي: حُمِّلَه، فالتَّعرُّضُ للوَصْفِ حِينَئذٍ للإشعارِ بعِلِّيَّتِه للقِيامِ أو للأمْرِ به؛ فإنَّ تَحميلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأعباءِ النُّبوَّةِ ممَّا يُوجِبُ الاجتهادَ في العبادةِ. ويَكونُ قولُه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مع قولِه: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٣٤)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥).

٧]؛ تَحريضًا على استِفراغِ النَّبيِّ جُهْدَه في القِيامِ بأمْرِ التَّبليغِ في جَميعِ الأزمانِ مِن لَيلٍ ونَهارٍ إلَّا قَليلًا مِن اللَّيلِ، وهو ما يُضطَرُّ إليه مِن الهُجوعِ فيه(١).

- وفِعلُ (قُم) مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلا يَحتاجُ إلى تَقديرِ مُتعلَّقٍ؛ لأنَّ القِيامَ مُرادٌ به الصَّلاةُ(٢).

- قولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استِثناءٌ مِن اللَّيلِ، أي: إلَّا قَليلًا منه، فلمْ يَتعلَّقْ إيجابُ القِيامِ عليه بأوقاتِ اللَّيلِ كلِّها، و﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدَلٌ مِن ﴿قَلِيلًا﴾ بدَلًا مُطابِقًا، وهو تَبيينٌ لإجمالِ ﴿قَلِيلًا﴾، فجُعِلَ القليلُ هنا النِّصفَ أو أقلَّ منه بقَليلٍ. وفائدةُ هذا الإجمالِ الإيماءُ إلى أنَّ الأَولى أنْ يكونَ القِيامُ أكثَرَ مِن مُدَّةِ نِصفِ اللَّيلِ، وأنَّ جَعْلَه نِصفَ اللَّيلِ رَحمةٌ ورُخصةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويدُلُّ لذلك تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، أي: انقُصْ مِن النِّصفِ قَليلًا، فيَكونُ زمَنُ قِيامِ اللَّيلِ أقَلَّ مِن نِصفِه، وهو حينَئذٍ قليلٌ، فهو رُخصةٌ في الرُّخصةِ(٣).

- وفي إبدالِ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ مِن ﴿قَلِيلًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما نامَ فيه مِن اللَّيلِ وإنْ كان نِصفًا منه، فهو بالإضافةِ إلى النِّصفِ القائمِ قَليلٌ؛ لأنَّ النِّصفَ القائمَ يُضاعَفُ إلى العشَرةِ، والنِّصفَ النَّائمَ لاستراحةِ النَّفْسِ، وإنْ كان لا يَخْلو من أنْ يَدخُلَ في العِبادةِ، مِن حيث إنَّه استعدادٌ لها، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ٣]. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: القِلَّةُ في الحَقيقةِ صِفةٌ للحاصلِ في النِّصفِ، ثمَّ اعتُبِرَت صِفةً للنِّصفِ، كقَولِهم: نَهارُه صائمٌ ولَيلُه قائمٌ؛ فعلى هذا: النِّصفُ النَّائمُ قليلٌ بالإضافةِ إلى النِّصفِ القائمِ، بالنَّظَرِ إلى ما في كلِّ واحدٍ منهما، أي: مِن الثَّوابِ؛ فجُعِلَ القليلُ مُبدَلًا منه، والنِّصفُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

بدَلًا؛ تَنبيهًا على هذا المعْنى الدَّقيقِ. وأمَّا التَّخييرُ فلِيُعْلَمَ أنَّ هذا ليس ممَّا لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، بلْ ممَّا يَحتمِلُ الزِّيادةَ والنُّقصانَ، أي: ذِكرَ النِّصفِ أوَّلًا، فلو اقْتُصِرَ عليه ظُنَّ أنَّ الزِّيادةَ والنُّقصانَ لا يَتطرَّقانِ إليه، كرَكَعاتِ الصَّلاةِ المفروضةِ، وكأوقاتِ الصَّلاةِ، وكالحُدودِ، ولأنَّ في ترْكِ التَّخييرِ تَعسيرًا، وفي وُجودِه تَيسيرًا.

ويحتملُ أن يكونَ ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلَّيْلَ﴾، كما تقولُ: ضرَبْتُ زَيدًا رأْسَه؛ فإنَّما ذكَرْتَ (زيدًا) لتَوكيدِ الكلامِ، فهو أوكَدُ مِن قولِك: ضَرَبْتُ رأْسَ زَيدٍ، فالمعْنى: قُمْ نِصفَ اللَّيلِ إلَّا قليلًا، أو انقُصْ مِن النِّصفِ، أو زِدْ على النِّصفِ كَثيرًا، أو انقُصْ منه قليلًا؛ كُرِّرَ ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ الأوَّلَ عَزيمةٌ، والثَّانيَ رُخصةٌ، كما تقولُ: جالِسِ الحسَنَ أو ابنَ سِيرينَ، تُريدُ أنَّ مُجالَسةَ الحسَنِ لا بُدَّ منها، فإنْ لَزِمَتْك ضَرورةٌ فأنتَ بالخيارِ بيْن مُجالَستِه ومُجالَسةِ ابنِ سِيرينَ[1]. والتَّعبيرُ عن النِّصفِ المُخرَجِ بالقَليلِ لإظهارِ كَمالِ الاعتِدادِ بشَأنِ الجُزءِ المُقارِنِ للقيامِ، والإيذانِ بفَضْلِه، وكَونِ القِيامِ فيه بمَنزلةِ القِيامِ في أكثَرِه في كَثرةِ الثَّوابِ، واعتبارُ قِلَّتِه بالنِّسبةِ إلى الكُلِّ -مع عَرائِه عن الفائدةِ- خِلافُ الظَّاهرِ[2].

- قولُه: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ عَودٌ إلى التَّرغيبِ في أنْ تكونَ مُدَّةُ القِيامِ أكثَرَ مِن نِصفِ اللَّيلِ؛ ولذلك لم يُقيَّدْ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ بمِثلِ ما قُيِّدَ به ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾؛ لتَكونَ الزِّيادةُ على النِّصفِ مُتَّسعةً، والتَّخييرُ المُستفادُ من حرْفِ (أوْ) مَنظورٌ فيه إلى تَفاوُتِ اللَّيالي بالطُّولِ والقِصَرِ؛ لأنَّ لذلك ارتباطًا بسَعةِ النَّهارِ للعمَلِ،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩).

ولأخْذِ الحظِّ الفائتِ مِن النَّومِ، وبعْدُ فذلك تَوسيعٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لرفْعِ حرَجِ تَحديدِه لزمَنِ القِيامِ، فسُلِكَ به مَسلَكَ التَّقريبِ[١].

- قولُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فيه تأكيدُ الأمرِ بالتَّرتيلِ بالمفعولِ المُطلَقِ؛ لإفادةِ تَحقيقِ صِفةِ التَّرتيلِ؛ فقولُه: ﴿تَرْتِيلًا﴾ تأكيدٌ على أنَّه ممَّا لا بُدَّ منه للقارِئِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ تَعليلٌ للأمرِ بقِيامِ اللَّيلِ، وَقَعَ اعتراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢] وجُملةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ [المزمل: ٦]، وهو جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا لحِكمةِ الأمرِ بقِيامِ اللَّيلِ بأنَّها تَهيئةُ نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليَحملَ شِدَّةَ الوحْيِ؛ فإنَّ التَّهجُّدَ يُعِدُّ للنَّفْسِ ما به تُعالِجُ ثِقَلَه، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يسَّرَ عليه ذلك، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، ويدُلُّ على أنَّ التَّهجُّدَ شاقٌّ، مُضادٌّ للطَّبْعِ، مُخالِفٌ للنَّفْسِ، فتلك مُناسَبةُ وُقوعِ هذه الجُملةِ عقِبَ جُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]؛ فهذا إشعارٌ بأنَّ نُزولَ هذه الآيةِ كان في أوَّلِ عهْدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنُزولِ القرآنِ، فلمَّا قال له: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] أعقَبَ ببيانِ عِلَّةِ الأمرِ بتَرتيلِ القرآنِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وُصِفَ القُرآنُ بالثِّقَلِ؛ قيل: لِثقَلِه بنُزولِ الوحْيِ على نَبيِّه، حتَّى كان يَعرَقُ في اليَومِ الشَّاتي، أو لثِقَلِ العمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦١).

بما فيه، أو لثِقَلِه في الميزانِ، أو لِثِقَلِه على المنافِقين والكافِرين، أو رَصينٌ لرَزانةِ لفْظِه ومَتانةِ معناهُ، أو ثَقيلٌ على المُتأمِّلِ فيه؛ لافتِقارِه إلى مَزيدِ تَصفيةٍ للسِّرِّ، وتَجْريدٍ للنَّظرِ(١). وقيل: وَصْفُ القُرآنِ بالثِّقلِ كِنايةٌ عن بَقائِه على وَجْهِ الدَّهرِ؛ لأنَّ الثَّقيلَ مِن شأنِه أنْ يَبْقى في مَكانِه(٢).

- وأشعَرَ قولُه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أنَّ ثِقَلَه مُتعلِّقٌ ابتداءً بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه مُتحمِّلُه بنفْسِه، ومُحمِّلُه أُمَّتَه، فهو أثقَلُ عليه، وأبهَظُ له(٣).

- وتَأكيدُ هذا الخبَرِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به، وإشعارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتأكيدِ قُرْبِه واستِمرارِه؛ ليكونَ وُرودُه أسهَلَ عليه مِن وُرودِ الأمْرِ المُفاجِئِ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ تَعليلٌ لتَخصيصِ زمَنِ اللَّيلِ بالقِيامِ فيه؛ فهي مُرتبِطةٌ بجُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، أي: قُمِ اللَّيلَ لأنَّ ناشئتَه أشَدُّ وطْأً وأقوَمُ قِيلًا(٥).

- و﴿نَاشِئَةَ﴾ وصْفٌ مِن النَّشْءِ، وهو الحُدوثُ. وقدْ جَرى هذا الوصفُ هنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦١).

على غَيرِ مَوصوفٍ، وأُضِيفَ إلى اللَّيلِ إضافةً على معْنى (في)، مِثلُ مَكرِ اللَّيلِ، وجُعِلَ مِن أقومِ القِيلِ، فعُلِمَ أنَّ فيه قَولًا، وقدْ سَبَقَه الأمرُ بقِيامِ اللَّيلِ وتَرتيلِ القرآنِ؛ فتَعيَّنَ أنَّ مَوصوفَه المَحذوفَ هو صَلاةٌ، أي: الصَّلاةُ الناشئةُ في اللَّيلِ؛ فإنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على أفعالٍ وأقوالٍ، وهي قِيامٌ[١].

- ووَصْفُ الصَّلاةِ بالنَّاشئةِ؛ لأنَّها أنْشَأَها المُصلِّي، فنَشَأَت بعْدَ هَدْأةِ اللَّيلِ، فأشْبَهَت السَّحابةَ الَّتي تَنشَأُ مِن الأُفقِ بعْدَ صَحْوٍ، وإذا كانت الصَّلاةُ بعْدَ نَومٍ، فمعْنى النَّشْءِ فيها أقْوى، وإيثارُ لَفظِ ﴿نَاشِئَةَ﴾ في هذهِ الآيةِ دونَ غيرِه مِن نحْوِ: قِيامٍ أو تَهجُّدٍ؛ مِن أجْلِ ما يَحتمِلُه مِن المعاني؛ ليَأخُذَ النَّاسُ فيه بالاجتهادِ[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ (هِيَ) في قولِه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـࣰٔا﴾ لتَقويةِ الحُكْمِ، لا للحصْرِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحࣰا طَوِيلࣰا﴾ فصْلُ هذه الجُملةِ دونَ عطْفٍ على ما قبْلَها يَقْتضي أنَّ مَضمونَها ليس مِن جِنسِ حُكْمِ ما قبْلَها، فليس المقصودُ تَعيينَ صَلاةِ النَّهارِ؛ إذ لم تكُنِ الصَّلواتُ الخَمسُ قدْ فُرِضَت يومَئذٍ -على المشهورِ-، ولم يُفرَضْ حينَئذٍ إلَّا قِيامُ اللَّيلِ، فالَّذي يَبْدو أنَّ مَوقعَ هذه الجُملةِ مَوقعُ العِلَّةِ لشَيءٍ ممَّا في جُملةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـࣰٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، وذلك دائرٌ بيْن أنْ يكونَ تَعليلًا لاختيارِ اللَّيلِ لفرْضِ القيامِ عليه فيه، فيُفيدُ تأكيدًا للمُحافَظةِ على قِيامِ اللَّيلِ؛ لأنَّ النَّهارَ لا يُغني غَناءَه، فيَتحصَّلُ مِن المعْنى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٣).

قُمِ اللَّيلَ؛ لأنَّ قِيامَه أشدُّ وقْعًا وأرسَخُ قَولًا؛ لأنَّ النَّهارَ زمَنٌ فيه شُغلٌ عَظيمٌ، لا يَترُكُ لك خَلوةً بنفْسِك، وشُغلُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّهارِ بالدَّعوةِ إلى اللهِ، وإبلاغِ القرآنِ، وتَعليمِ الدِّينِ، ومُحاجَّةِ المشرِكين، وافتقادِ المؤمنينَ المُستضعَفين؛ فعُبِّرَ عن جَميعِ ذلك بالسَّبْحِ الطَّويلِ. وبيْن أنْ يكونَ تلطُّفًا واعتذارًا عن تَكليفِه بقِيامِ اللَّيلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعليلًا لِما تَضمَّنَه ﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٣]، أي: إنْ نَقَصْتَ مِن نِصفِ اللَّيلِ شيئًا لا يَفُتْك ثَوابُ عَمَله؛ فإنَّ لك في النَّهارِ مُتَّسعًا للقيامِ والتِّلاوةِ. ويَظهَرُ أنْ يكونَ كلُّ هذا مَقصودًا؛ لأنَّه ممَّا تَسمَحُ به دَلالةُ كَلمةِ ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾، وهي مِن بَليغِ الإيجازِ(١).

- والسَّبْحُ مُعبَّرٌ به عن التَّصرُّفِ السَّهلِ المتَّسَعِ الَّذي يُشبِهُ حَرَكةَ السَّابحِ في الماءِ؛ فإنَّه لا يَعترِضُه ما يَعوقُ جَوَلانَه على وجْهِ الماءِ، ولا إعياءُ السَّيرِ في الأرضِ(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ عطْفٌ على قوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، وقُصِدَ بإطلاقِ الأمرِ عن تَعيينِ زَمانٍ إلى إفادةِ تَعميمِه، أي: اذكُرِ اسمَ ربِّك في اللَّيلِ وفي النَّهارِ(٣).

- قولُه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ التَّبتُّلُ: شِدَّةُ البَتْلِ، وهو مَصدَرُ (تبتَّلَ) القاصرِ الَّذي هو مُطاوِعُ (بَتَلَه فتبَتَّلَ)، وهو هنا للمُطاوَعةِ الَّتي يُقصَدُ مِن صِيغتِها المُبالَغةُ في حُصولِ الفِعلِ، حتَّى كأنَّه فَعَلَه غيرُه به، فطاوَعَه، والتَّبتُّلُ: الانقطاعُ، قيل: هو هنا بمعْنى تَفرُّغِ البالِ والفِكرِ إلى ما يُرْضي اللهَ، فكأنَّه انقَطَعَ عن النَّاسِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٥).

وانحازَ إلى جانبِ اللهِ، فعُدِّي بـ (إلى) الدَّالَّةِ على الانتهاءِ[١].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ جاء مصدرُ «تَبَتَّلَ» «تبتُّلًا» -كالتَّعَلُّمِ والتَّفَهُّمِ- على التَّفعيلِ مَصْدَرِ «فَعَّلَ»؛ لِسِرٍّ لطيفٍ؛ فإنَّ في هذا الفعلِ إيذانًا بالتَّدريجِ والتَّكلُّفِ والتَّعَمُّلِ والتَّكَثُّرِ والمُبالَغةِ، فأتَى بالفعلِ الدَّالِّ على أحدِهما، وبالمصدرِ الدَّالِّ على الآخَرِ، فكأنَّه قيل: «بَتِّلْ نفْسَك إلى اللهِ تبتيلًا، وتَبَتَّلَ إليه تبتُّلًا»، ففُهِمَ المعنيان مِن الفعلِ ومَصدَرِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ، وهو مِن أحسنِ الاختِصارِ والإيجازِ[٢].

أو بعبارةٍ أخرى: لَمَّا كان معْنى «تَبَتَّلْ إليه»: انقطِعْ إليه، أُقيمَ التَّبتيلُ مُقامَه، وأُكِّد لِيَدُلَّ على أنَّ ذلك الانقطاعَ إلى الرَّبِّ لا يَحصُلُ إلَّا بتَكرارِ التَّبتُّلِ؛ فالتَّبتيلُ يدُلُّ على حُصولِ الشِّدَّةِ، والتَّبتُّلُ على التَّكرارِ؛ لأنَّ التَّفعيلَ لتَكثيرِ الفعلِ[٣].

وقيل: قولُه: ﴿تَبۡتِيلٗا﴾ التَّبتيلُ: مَصدَرُ (بتَّل) المُشدَّدِ الَّذي هو فِعلٌ مُتعَدٍّ، مِثلُ التَّقطيعِ، وجِيءَ بهذا المصدرِ عِوَضًا عن (التَّبتُّل)؛ للإشارةِ إلى أنَّ حُصولَ التَّبتُّلِ -أي: الانقطاعِ- يَقْتضي التَّبتيلَ -أي: القطْعَ-، ولَمَّا كان التَّبتيلُ قائمًا بالمُتبتِّلِ، تعيَّنَ أنَّ تَبتيلَه قَطْعُه نفْسَه عن غيرِ مَن تَبَتَّلَ هو إليه، فالمقطوعُ عنه هنا هو مَن عَدا اللهِ تعالَى، فالجمْعُ بيْن (تَبَتَّلْ) و﴿تَبۡتِيلٗا﴾ مُشيرٌ إلى إراضةِ النَّفْسِ على ذلك التَّبتُّلِ، مع ما فيه مِن رِعايةِ الفواصلِ[٤].

- ولَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قبْلُ غيرَ غافلٍ عن هذا الانقطاعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

بإرشادٍ مِن اللهِ، كما ألْهَمَه التَّحنُّثَ في غارِ حِراءٍ، ثمَّ بما أفاضَهُ عليه مِن الوحْيِ والرِّسالةِ؛ فالأمرُ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على ذلك؛ فإنَّه قدْ كان يَذكُرُ اللهَ فيما قبْلُ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾

- قدْ وُصِفَ اللهُ تعالَى بأنَّه رَبُّ المشرقِ والمَغربِ؛ لمُناسَبةِ الأمْرِ بذِكرِه في اللَّيلِ وذِكرِه في النَّهارِ، وهما وَقْتا ابتداءِ غِيابِ الشَّمسِ وطُلوعِها، وذلك يُشعِرُ بامتدادِ كلِّ زمانٍ منهما إلى أنْ يَأتِيَ ضِدُّه، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المشرقُ والمغربُ جِهتَيِ الشُّروقِ والغروبِ، فيكونَ لاستيعابِ جِهاتِ الأرضِ، أي: ربُّ جَميعِ العالَمِ، وذلك يُشعِرُ بوَقتَيِ الشُّروقِ والغروبِ، ويَصِحُّ أنْ يُرادَ بهما وَقْتا الشُّروقِ والغروبِ، أي: مَبدَأُ ذَينِك الوقتينِ ومُنْتهاهما، كما يُقالُ: سَبِّحوا للهِ كلَّ مَشرِقِ شمْسٍ، وكما يُقالُ: صَلاةُ المغرِبِ[2].

- وعُقِّبَ وَصْفُ اللهِ سُبحانَه بأنَّه ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالإخبارِ عنه أو بوَصْفِه بأنَّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّ تَفرُّدَه بالإلهيَّةِ بمَنزلةِ النَّتيجةِ لرُبوبيَّةِ المَشرقِ والمغربِ، فلمَّا كانتْ رُبوبيَّتُه للعالَمِ لا يُنازِعُ فيها المشرِكون، أُعقِبَت بما يَقْتضي إبطالَ دَعوى المشرِكين تَعدُّدَ الآلهةِ بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، تَعريضًا بهم في أثناءِ الكلامِ وإنْ كان الكلامُ مَسوقًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، وإذ كان الأمرُ باتِّخاذِه وَكيلًا مُسبَّبًا عن كونِه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كان ذلك في قُوَّةِ النَّهيِ عن اتِّخاذِ وَكيلٍ غيرِه؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٤).

ليس غيرُه بأهلٍ لاتِّخاذِه وَكيلًا؛ فهو وَحْدَه الَّذي يَجِبُ -لتَوحُّدِه بالرُّبوبيَّةِ- أنْ تُوكَلَ إليه الأُمورُ(١).

- وفي قولِه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أمَرَه اللهُ بألَّا يَعتمِدَ إلَّا عليه، وهذا تَكفُّلٌ بالنَّصرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾(٢) [المزمل: ١٠].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

الآيات (١٠-١٤)

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَذَرۡنِي﴾: أي: دَعْني، بوَزْنِ وَدَعَ الشَّيءَ يَدَعُه وَدْعًا، ومَعْناه، والمُضارِعُ منه: يَذَرُ، والأمْرُ منه: ذَرْ، ولم يَرِدْ في اللُّغةِ اسْتِعْمالُ ماضِيه ولا مَصْدَرِه[(١)].

﴿ٱلنَّعۡمَةِ﴾: أي: الغِنى، وكَثرةِ الأموالِ، وحُسْنِ العَيْشِ، ولِينِه ورَغَدِه، والنِّعْمةُ -بكَسرِ النُّونِ- أعمُّ مِن هذا؛ لأنَّها بمعنى المِنَّةِ والعَطاءِ، فالنَّعْمةُ -بالفَتحِ- هي مِن جُملةِ النِّعْمةِ -بالكَسرِ-، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصلاحٍ[(٢)].

﴿أَنكَالٗا﴾: أي: قُيودًا وأغلالًا، وأصلُ (نكل): يدُلُّ على مَنعٍ، وأصلُ ذلك النِّكْلُ: القَيْدُ؛ لأنَّه يَنْكُلُ: أيْ: يَمْنَعُ[(٣)].

﴿وَجَحِيمٗا﴾: أي: نارًا، والجُحْمةُ: شِدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، والجاحِمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ، وبذلك سُمِّيت الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦٨).

(٢) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٠٩) و(٢٢/ ٣٧١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٢).

(٤) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

﴿غُصَّةٍ﴾: أي: لا يَسُوغُ في الحَلْقِ، والغُصَّةُ: ما يَغَصُّ به الإنسانُ، و(غصص): أصلٌ ليس فيه إلَّا الغَصَصُ بالطَّعامِ(١).

﴿تَرْجُفُ﴾: أي: تتزَلْزَلُ وتتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ بمَنْ عليها، والرَّجفةُ: حَرَكةُ الأرضِ، أو الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، والرَّجْفُ: الاضْطِرابُ الشَّديدُ، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضطرابٍ(٢).

﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: أي: رَمْلًا سائِلًا مَنثورًا، والكَثيبُ: القِطعةُ العَظيمةُ مِنَ الرَّملِ، وسُمِّيَ الكثيبُ كَثيبًا؛ لأنَّ تُرابَه دُقاقٌ، كأنَّه مكثوبٌ مَنثورٌ بَعضُه على بَعضٍ لرَخاوتِه. والمهيلُ: السَّائلُ الذي قد سُيِّلَ، وهو اسمُ مفعولٍ مِن هالَ الشَّيءَ هَيلًا: إذا نَثَره وصبَّه، يُقالُ: تُرابٌ مَهيلٌ، أي: مَصْبوبٌ مُسيَّلٌ، ويُقالُ: أهَلْتُ الرَّملَ: إذا حرَّكْتَ أسفَلَه حتَّى انهالَ مِن أعلاه، وأصلُ (كثب): يدُلُّ على تجمُّعٍ وعلى قُربٍ، وأصلُ (هيل): يدُلُّ على دَفْعِ شيءٍ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذى قَومِه، وهَجرِهم،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

ومَهِيلٌ أصلُه مَهْيُولٌ، اسْتُثْقِلَت الضَّمَّةُ على الياءِ، فنُقِلَتْ إلى السَّاكِنِ قبْلَها، فالْتَقَى ساكِنانِ، فحُذِفَت الواوُ؛ لأنَّها زائِدةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

فيقولُ: واصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه مُشرِكو قَومِك؛ مِن التَّكذيبِ والاستِهزاءِ بك، واهجُرْهم هَجْرًا جميلًا لا عِتابَ معه ولا أذى.

ثمَّ يقولُ تعالى متوعِّدًا ومهدِّدًا الكافِرين: ودَعْني -يا مُحمَّدُ- والمكَذِّبينَ بالحَقِّ أهلَ التَّنَعُّمِ والتَّرَفُّهِ في الدُّنيا، ولا تهتَمَّ بهم، وأمهِلْهم وَقتًا قليلًا.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما عندَه مِن العِقابِ، فيقولُ: إنَّ عِندَنا في الآخِرةِ لهم قُيودًا وأغلالًا، ونارًا حاميةً، وطعامًا غَيرَ سائغٍ، وعَذابًا مُؤلِمًا؛ يومَ تتزَلْزَلُ الأرضُ والجِبالُ، وتصيرُ الجِبالُ رَمْلًا سائِلًا مُتناثِرًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مُهِمَّاتِ العِبادِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ: كيفيَّةِ معامَلتِهم مع الله، وكيفيَّةِ مُعاملتِهم مع الخَلْقِ، والأوَّلُ أهَمُّ مِنَ الثَّاني، فلمَّا ذكَرَ تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ ما يتعلَّقُ بالقِسمِ الأوَّلِ؛ أتْبَعَه بما يتعلَّقُ بالقِسمِ الثَّاني[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ نبيَّه عليه السَّلامُ بالصَّلاةِ خُصوصًا، وبالذِّكرِ عُمومًا، وبذلك يحصلُ للعبدِ مَلَكةٌ قَويَّةٌ في تحمُّلِ الأثقالِ، وفِعلِ الثَّقيلِ مِن الأعمالِ- أمَرَه بالصَّبرِ على ما يقولُ فيه المعانِدونَ له ويسُبُّونَه ويَسُبُّونَ ما جاء به، وأن يَمضيَ على أمرِ اللهِ، لا يَصُدُّه عنه صادٌّ، ولا يرُدُّه رادٌّ، وأن يَهجُرَهم هَجرًا جميلًا[2].

وأيضًا فهو عطْفٌ على قولِه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، والمُناسَبةُ أنَّ الصَّبرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

على الأذَى يُستعانُ عليه بالتَّوكُّلِ على الله[١].

وأيضًا لَمَّا كانت الوكالةُ لا تكونُ إلَّا فيما يُعجِزُ، وكان الأمرُ بها مشيرًا إلى أنَّه لا بدَّ أن يكونَ عن هذا القَولِ الثَّقيلِ خُطوبٌ طِوالٌ، وزلازِلُ وأهوالٌ؛ قال[٢]:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: واصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُه مُشرِكو قَومِك؛ مِن التَّكذيبِ أو الاستِهزاءِ بك[٣].

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مُحكَمةٌ غَيرُ مَنسوخةٍ[٤].

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ في سورةِ التَّوبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨).

ويُنظر ما تقدَّم في آخر بلاغةِ الآياتِ السابقةِ (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) وممَّن ذهب إلى ذلك: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((المصفى بأكف أهل الرسوخ)) لابن الجوزي (ص: ٥٨).

قال الرازي: (قال المفسِّرون: هذه الآيةُ إنَّما نزلتْ قبْلَ آيةِ القتالِ، ثمَّ نُسِخَت بالأمرِ بالقتالِ. وقال آخَرونَ: بل ذلك هو الأخْذُ بإذنِ الله فيما يكونُ أدعى إلى القَبولِ، فلا يَرِدُ النَّسخُ في مِثْلِه، وهذا أصَحُّ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٥) وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ حزم، والواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ إلى الأكثَرِ أنَّها منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٦)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٠١)، ((المصفى =

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

أي: واهجُرْ -يا مُحمَّدُ- قَومَك المُشرِكينَ في ذاتِ اللهِ هَجْرًا جميلًا لا عِتابَ معه ولا أذًى، وأعرِضْ عن الانتِقامِ منهم، فلا تُقابِلْهم بمِثلِ ما يقولونَ ويَفعَلونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩].

= بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ)) لابن الجوزي (ص: ٥٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣١٨).
ومن أهلِ العلم مَن ذهب إلى أنَّ آيةَ السَّيفِ ناسخةٌ لجميع الآياتِ الَّتي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ مِن المشركين، ومنهم مَن ذهب إلى أنَّها ليست ناسخةً، ولكنَّ الأحوالَ تختلِفُ؛ فإذا قوِيَ المسلمونَ وصارت لهم السُّلطةُ والقُوَّةُ والهَيبةُ استعمَلوا آيةَ السَّيفِ وما جاء في معناها وعمِلوا بها، وإذا ضَعُفَ المسلمونَ ولم يَقْوَوا على قتالِ الجميع فلا بأسَ أن يُقاتِلوا بحسَبِ قُدرتِهم، ويَكُفُّوا عمَّن كفَّ عنهم إذا لم يَستطيعوا ذلك، فيكونُ الأمرُ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسَبِ القوَّةِ والقدرةِ والمصلحةِ للمسلمينَ، لا على حسَبِ هواه وشَهوتِه، ولكنْ يَنظُرُ لحالِ المسلمينَ وقوَّتِهم. قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهَرُ وأبيَنُ في الدَّليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النَّسخِ إلَّا عندَ تعذُّرِ الجمعِ بيْنَ الأدِلَّةِ، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّرٍ). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤).
وقال الزَّرْكَشيُّ بعدَ أنْ بيَّنَ ضَعفَ القولِ بأنَّ الآيَّاتِ الآمِرةَ بالتَّخفيفِ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وأنَّها ليست كذلك فـ: (كلُّ أمرٍ ورد يجبُ امتِثالُه في وقتٍ ما لعلَّةٍ توجِبُ ذلك الحُكمَ، ثمَّ يُنتقَلُ بانتِقالِ تلك العلَّةِ إلى حُكمٍ آخَرَ، وليس بنَسخٍ، إنَّما النَّسخُ الإزالةُ حتَّى لا يجوزَ امتثالُه أبدًا). ((البرهان في علوم القرآن)) (٢/ ٤٢). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).
(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨، ٢٦٩).

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ ﴾.

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾.

أي: ودَعْني -يا مُحمَّدُ- والمكَذِّبينَ بالحَقِّ ذوي الغِنى والثَّراءِ، وأهلَ التَّنَعُّمِ والتَّرَفُّهِ في الدُّنيا، فاترُكْ شَأنَ عُقوبتِهم إلَيَّ، ولا تهتَمَّ بتكذيبِهم، ولا تنشَغِلْ بالانتِقامِ منهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾.

أي: وانتَظِرْ -يا مُحمَّدُ- وَقتًا قليلًا؛ ليأتيَ مِيعادُ عَذابِهم، وننتَصِرَ لك منهم؛ فلا تَستَعجِلْ عِقابَهم[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

قال علَمُ الدِّينِ السَّخاويُّ: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الآيةَ، قالوا: نُسِخَتْ بآيةِ السَّيفِ. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ غيرُ منسوخٍ بها). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

قال الرازي: (﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: المرادُ مِن القليلِ: الحياةُ الدُّنيا. والثَّاني: المرادُ مِن القليلِ: تلك المدَّةُ القليلةُ الباقيةُ إلى يومِ بَدرٍ؛ فإنَّ اللهَ أهلكهم في ذلك اليومِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).
=

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ١٢﴾.

أي: إنَّ عِندَنا في الآخِرةِ للمُكَذِّبينَ بآياتِنا قُيودًا وأغلالًا ثقيلةً، ونارًا حاميةً شديدةَ الاتِّقادِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٣﴾.

= وقال البِقاعي: (﴿قَلِيلًا﴾ أي: مِنَ الزَّمانِ، والإمهالُ: إلى مَوتِهم، أو الإيقاعِ بهم قَبْلَه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٢، ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ ما يُقابِلُ تَكذيبَهم؛ أتْبَعَه ما يقابِلُ النَّعمةَ، فقال[١]:

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾.

أي: وعِندَنا لهم طعامٌ غَيرُ سائغٍ، يَعلَقُ في حَلْقِ آكِلِه، فلا يَنزِلُ عنه، ولا يَخرُجُ منه[٢]!

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وعِندَنا لهم عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ شَديدٌ[٣].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى هذا العذابَ؛ ذكَرَ ظَرْفَه[٤].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾.

أي: ذلك واقِعٌ بهم يومَ تتزَلْزَلُ الأرضُ والجِبالُ وتَضطَرِبُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١). =

كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

أي: وتصيرُ الجِبالُ رَمْلًا مجتمِعًا مُنصبًّا رِخوًا مُتناثِرًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ جمَع الله سُبحانَه كلَّ ما يُحتاجُ إليه مِن كيفيَّةِ المُعامَلةِ معَ الخَلْقِ في هاتينِ الكَلِمتَينِ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إمَّا أن يكونَ مخالِطًا للنَّاسِ، أو مجانِبًا عنهم؛ فإنْ خالطَهم فلا بدَّ له مِن المصابَرةِ على إيذائِهم وإيحاشِهم، فإنَّه إنْ كان يطمَعُ منهم في الخَيرِ والرَّاحةِ لم يجِدْ، فيَقَعُ في الغُمومِ والأحزانِ، فثبَت أنَّ مَن أراد مُخالَطةً مع الخَلْقِ فلا بُدَّ له

= قال ابنُ عاشور: (المرادُ: الرَّجفُ المتكَرِّرُ المستَمِرُّ، وهو الَّذي يكونُ به انفراطُ أجزاءِ الأرضِ وانحلالُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١-٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

مِن الصَّبرِ الكثيرِ، فأمَّا إن ترَكَ المخالطةَ فذاك هو الهَجرُ الجَميلُ؛ فثَبت أنَّه لا بُدَّ لكُلِّ إنسانٍ مِن أحَدِ هذَينِ الأمْرَينِ(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ فيه بِشارةٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبقاءِ بعدَ أخْذِهم كما كان، وأنَّه ليس محتاجًا في أمرِهم إلى غيرِ وَكْلِهم إليه سُبحانَه وتعالى بإلقائِهم عن بالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتفريغ ظاهِرِه وباطِنِه لِما هو مأمورٌ به مِنَ اللهِ سُبحانَه وتعالى مِن الإقبالِ على اللهِ سُبحانَه؛ ففي الآيةِ أنَّ مَن اشتَغَل بعَدُوِّه وَكَلَه اللهُ إلى نَفْسِه، فكان ذلك كالمانعِ مِن أخْذِ اللهِ له، فإذا توكَّلَ عليه فقد أزال ذلك المانِعَ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الهجْرُ الجَميلُ: هو الَّذي يَقتصِرُ صاحبُه على حَقيقةِ الهجْرِ، وهو ترْكُ المُخالَطةِ فلا يَقرِنُها بجَفاءٍ آخَرَ أو أذًى، ولَمَّا كان الهجْرُ يَنشَأُ عن بُغضِ المهجورِ، أو كَراهيةِ أعمالِه؛ كان مُعرَّضًا لأنْ يَتعلَّقَ به أذًى؛ من سَبٍّ، أو ضرْبٍ، أو نحْوِ ذلك، فأمَرَ اللهُ رسولَه بهَجْرِ المشركين هجْرًا جَميلًا، أي: أنْ يَهجُرَهم ولا يَزيدَ على هَجْرِهم سبًّا أو انتقامًا(٣).

٢- الهجرُ الشَّرعيُّ نَوعانِ:

الأوَّلُ: هجرُ تَركٍ، وقد دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، وقولُه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[النساء: ١٤٠]. فهذا يُرادُ به أنَّه لا يَشهَدُ المُنكَراتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨، ٢٦٩).

لغيرِ حاجةٍ، مثلَ قومٍ يَشرَبونَ الخمرَ يَجلِسُ عندَهم، وقومٍ دَعَوْا إلى وليمةٍ فيها خمرٌ وزَمرٌ لا يُجيبُ دعوتَهم، وأمثال ذلك. بخِلافِ مَن حضَر عندَهم للإنكارِ عليهم، أو حضر بغيرِ اختياره. ومِن هذا البابِ: هِجرةُ المسلمِ مِن دارِ الحربِ. فالمقصودُ بهذا أن يَهجُرَ المسلمُ السَّيِّئاتِ، ويَهجُرَ قُرناءَ السُّوءِ الَّذين تَضُرُّه صُحبتُهم، إلَّا لحاجةٍ، أو مصلحةٍ راجحةٍ.

الثَّاني: هجرةٌ بمعنى العقوبةِ والتَّعزيرِ على وجهِ التَّأديبِ، وهو هَجْرُ مَن يُظهِرُ المُنكَراتِ، فيُهجَرُ حتَّى يَتوبَ منها، مِثلُ هجرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه الثَّلاثةَ الَّذين خُلِّفوا، وذلك حينَ ظهَر منهم تركُ الجهادِ المُتعيِّنِ عليهم بغيرِ عذرٍ[1].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ جَعْلُهم ذَوي النَّعمةِ للإشارةِ إلى أنَّ قُصارَى حَظِّهم في هذه الحياةِ هي النَّعمةُ -أي: الانطلاقُ في العَيشِ بلا ضيقٍ، والاستِظلالُ بالبيوتِ والجنَّاتِ، والإقبالُ على لَذيذِ الطُّعومِ، ولَذائذِ الانبساطِ إلى النِّساءِ والخمْرِ والمَيسرِ- وهم مُعرِضون عن كَمالاتِ النَّفْسِ، ولَذَّةِ الاهتداءِ والمعرفةِ؛ قال تعالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2] [الفرقان: ٤٤].

٤- بيَّن الله جلَّ وعلا الأحوالَ الَّتي تصيرُ إليها الجبالُ يومَ القيامةِ في آياتٍ مِن كتابِه:

فبيَّن أنَّه يَنزِعُها مِن أماكِنِها، ويَحمِلُها فيَدُكُّها دَكًّا، وذلك في قولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢١٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٤٤١٨)، ومسلمٌ (٢٧٦٩) من حديث كعبِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ * وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقة: ١٣، ١٤].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُسَيِّرُها في الهواءِ بيْن السَّماءِ والأرضِ، وذلك في قولِه تبارك وتعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ الآيةَ [الكهف: ٤٧]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا * وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ [الطور: ٩، ١٠].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُفتِّتُها ويَدُقُّها، كقولِه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ [الواقعة: ٥].

وبيَّن أنَّه يَنسِفُها نَسْفًا في قولِه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [طه: ١٠٥].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُصَيِّرُها كالرَّملِ المُتهايِلِ، وكالعِهْنِ المَنفوشِ، وذلك في قولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

ثمَّ بيَّن أنَّها تصيرُ كالهباءِ المُنبَثِّ، في قولِه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

ثمَّ بيَّن أنَّها تصيرُ سَرابًا، وذلك في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وقد بيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ السَّرابَ لا شيءَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾(١) [النور: ٣٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٧).

- ضَميرُ ﴿يَقُولُونَ﴾ عائدٌ إلى المشركينَ، ولم يَتقدَّمْ له مُعادٌ، فهو مِن الضَّمائرِ الَّتي استُغْنِيَ عن ذِكرِ مُعادِها بأنَّه مَعلومٌ للسَّامِعينَ، ولأنَّه سَيَأتي عَقِبَه قولُه: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]، فيُبيِّنُ المرادَ مِن الضَّميرِ(١).

- ومُناسَبةُ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ هنا: أنَّه قدْ مَضَى في السُّورِ الَّتي نَزَلَت قبْلَ سُورةِ (المُزمِّلِ) مَقالاتُ أذًى مِن المُشركين لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ففي سُورةِ (العلَق) [٩، ١٠]: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، وفيها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وفي سُورةِ (القلَم) [٢ - ١٥]: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ إلى قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، وقولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ رَدًّا لمَقالاتِهم، وفي سُورةِ المدَّثِّرِ [١١-٢٥] -إنْ كانت نزَلَت قبْلَ سُورةِ المزمِّلِ(٢)- ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ فلذلك أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما يقولونَ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ مِن بابِ الكِنايةِ، قَريبٌ مِن نحْوِ قولِك: لا أَرَيَنَّك هاهنا، يعني: أنَّه تعالَى أنْهَى إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه طَلَبَ منْعَه أنْ يُوقِعَ بالمُكذِّبين، وأنَّه صَلواتُ اللهِ عليه ما طَلَبَ المنْعَ، بلْ شُوهِدَ منه ما نُزِّلَ مَنزلةَ المنْعِ؛ مِن تَرْكِ الاستكفاءِ، وتَفويضِ الأمْرِ إليه تعالَى، المعْنى: ما لَكَ لا تَستكْفِينيه، ولا تُفوِّضُ أمْرَك إلَيَّ حتَّى أستَكْفِيَكه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

وأنْتقِمَ لكَ منه؟ ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن بابِ التَّهييجِ والالتِفاتِ(١).

- والمُكذِّبون هم مَن عَناهم بضَميرِ ﴿يَقُولُونَ﴾ ﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾ [المزمل: ١٠]، وهم المُكذِّبون للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ مكَّةَ؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإفادةِ أنَّ التَّكذيبَ هو سَببُ هذا التَّهديدِ(٢).

- ووَصَفَ المُكذِّبين بوَصْفِ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ توبيخًا لهم بأنَّهم كذَّبوا لغُرورِهم وبطَرِهم بسَعةِ حالِهم، وتَهديدًا لهم بأنَّ الَّذي قال: (ذَرْني وَالْمُكَذِّبينَ) سيُزيلُ عنهم ذلك التَّنعُّمَ. وفي هذا الوصْفِ تَعريضٌ بالتَّهكُّمِ؛ لأنَّهم كانوا يَعُدُّون سَعةَ العيشِ ووَفرةَ المالِ كَمالًا، وكانوا يُعيِّرون الَّذين آمَنوا بالخَصاصةِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ الآياتِ [المطففين: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾(٣) [محمد: ١٢].

- قولُه: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ وَعيدٌ لهم بسُرعةِ الانتقامِ منهم(٤). وهو مُترتِّبٌ في المعْنى على قولِه: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: وانتظِرْ أنْ نَنتصِرَ لك. و﴿قَلِيلًا﴾ وصْفٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: تَمهيلًا قليلًا(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]، أي: لأنَّ لَدَيْنا ما هو أشدُّ عليهم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

رَدِّك عليهم، وهذا التَّعليلُ أفادَ تَهديدَهم بأنَّ هذه النِّقَمَ أُعِدَّت لهم؛ لأنَّها لَمَّا كانتْ مِن خَزائنِ نِقمةِ اللهِ تعالَى كانتْ بحيثُ يَضَعُها اللهُ في المواضِعِ المُستأْهِلةِ لها، وهمُ الَّذين بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، فأعَدَّ اللهُ لهم ما يكونُ عليهم في الحَياةِ الأبَديَّةِ ضِدًّا لأُصولِ النَّعمةِ الَّتي خُوِّلوها، فبَطِروا بها، وقابَلوا المُنعِمَ بالكُفْرانِ؛ فالأنكالُ مُقابِلُ كُفرانِهم بنِعمةِ الصِّحَّةِ والمَقدِرةِ؛ لأنَّ الأنكالَ القُيودُ، والجحيمُ -وهو نارُ جَهنَّمَ- مُقابِلُ ما كانُوا عليه مِن لَذَّةِ الاستظلالِ والتَّبرُّدِ، والطَّعامُ ذُو الغُصَّةِ مُقابِلُ ما كانُوا مُنهمِكين فيه مِن أطعِمتِهم الهَنيئةِ؛ مِن الثَّمراتِ والمَطبوخاتِ والصَّيدِ، والعذابُ الأليمُ مُقابِلُ ما في النِّعمةِ مِن مَلاذِّ البشرِ، وقدْ جَمَعَ الأخيرُ جَميعَ ما يُضادُّ معْنى النَّعمةِ[(١)].

- وتَنكيرُ هذه الأجناسِ الأربعةِ ﴿أَنكَالًا﴾، ﴿وَجَحِيمًا﴾، ﴿وَطَعَامًا﴾، ﴿وَعَذَابًا﴾؛ لقصْدِ تَعظيمِها وتَهويلِها[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ يَتعلَّقُ بالاستِقرارِ الَّذي يَتضمَّنُه خبرُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾. وقيلَ: هو مُتعلِّقٌ بمُضمَرٍ محذوفٍ، هو صِفةٌ لـ (عَذَابًا)، أي: عذابًا واقعًا يومَ ترجُفُ[(٣)].

- وجِيءَ بفِعلِ (كانت) في قولِه: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾؛ للإشارةِ إلى تَحقيقِ وُقوعِه حتَّى كأنَّه وَقَعَ في الماضي. ووَجْهُ مُخالَفتِه لأُسلوبِ ﴿تَرْجُفُ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٢).

صَيرورةَ الجبالِ كُثبًا أمْرٌ عَجيبٌ غيرُ مُعتادٍ، فلَعلَّه يَستبْعِدُه السَّامعونَ، وأمَّا رَجْفُ الأرضِ فهو مَعروفٌ، إلَّا أنَّ هذا الرَّجفَ الموعودَ به أعظَمُ ما عُرِفَ مِن جِنسِه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

الآيات (١٥-١٩)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ
بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَبِيلٗا﴾: أي ثَقيلًا شَديدًا، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ[١].

﴿ٱلۡوِلۡدَٰنَ﴾: أي: صِغارَ الأطفالِ، جمعُ وليدٍ، وهو الطِّفلُ الصَّغيرُ، والوَليدُ يُقالُ لِمَن قَرُبَ عهْدُه بالوِلادةِ وإن كان في الأصلِ يَصِحُّ لِمَن قَرُبَ عَهْدُه أو بَعُدَ، فإذا كبِر الوَلَدُ سقَط عنه هذا الاسمُ[٢].

﴿مُنفَطِرُۢ﴾: الانفِطارُ: التَّصَدُّعُ والانشِقاقُ على غيرِ نِظامٍ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذَكِّرًا بما حلَّ بالمكذِّبين مِن قَبْلِهم: إنَّا أرسَلْنا إليكم رَسولًا شاهِدًا على مَنِ اتَّبَعَه وآمَنَ به، ومَنْ خالَفَه وكفَر به -وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، كما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩).

فعصَى فِرعَونُ موسى عليه السَّلامُ، فلم يُؤمِنْ به، فأهلَكْنا فِرعَونَ وجُنْدَه إهلاكًا ثَقيلًا بإغراقِهم أجمَعينَ.

ثم يُذكِّرُ -سُبحانَه- بأهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: فكيف تتَّقونَ -إنْ بَقِيتُم على الكُفرِ- أهوالَ القيامةِ الَّتي يَشيبُ منها الوِلْدانُ، السَّماءُ مُتشَقِّقةٌ فيه؛ مِن شِدَّتِه وعِظَمِ أهوالِه، كان وَعْدُ اللهِ مَفعولًا لا محالةَ.

ثَمَّ يختِمُ اللهُ تعالى هذه التَّهديداتِ، فيقولُ: إنَّ هذه تَذكِرةٌ يَتذَكَّرُ بها المتَّقونَ، فمَن شاء اتَّخَذ إلى رَبِّه طَريقًا بالإيمانِ به وطاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هدَّدَ المكذِّبين بأهوالِ القِيامةِ؛ ذكَّرَهم بحالِ فِرعونَ وكيفَ أخَذَه اللهُ تعالَى؛ إذ كَذَّب مُوسى عليه السَّلامُ، وأنَّه إنْ دامَ تَكذيبُهم أهْلَكَهم اللهُ تعالَى[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر العذابَ ووَقْتَه، وقدَّمَهما؛ لِيَكونَ السَّامِعُ أقبَلَ لِما يُطلَبُ منه- أتْبَعَهما السَّبَبَ فيه، مُشيرًا إلى ما به إصلاحُ أمرِ الآخرةِ الَّتي فيها المَعادُ، وإليها المنتهى والمآبُ، فقال[(٢)]:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا إليكم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهِدًا على إيمانِ مَن استجابَ له منكم فاتَّبَعَه، وكُفْرِ مَن خالفَه وعَصاه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((الوسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾.

أي: مِثْلَ ما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا يَدْعوه إلى الحَقِّ، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: فعصى فِرعَونُ موسى عليه السَّلامُ، فلم يُؤمِنْ به وبما جاء به[٢].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

أي: فأهلَكْنا فِرعَونَ وجُنْدَه إهلاكًا ثَقيلًا غليظًا بإغراقِهم أجمَعينَ؛ فاحذَروا أن تَعصُوا رَسولَكم مُحمَّدًا، فيُهلِكَكم اللهُ كما أهلك فِرعَونَ وقَومَه حينَ عَصَوا رَسولَهم[٣].

= للواحدي (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

قال ابنُ كثير: (قال مخاطِبًا لكُفَّارِ قُرَيش، والمرادُ سائِرُ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال الشوكاني: (المعنى: إنَّا أرسَلْنا إليكم رَسولًا فعَصَيتُموه، كما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا فعَصاه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ * كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥].

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه شديدُ الأخْذِ، وأنَّه لا يُغْني ذا الجَدِّ منه الجَدُّ؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه محَذِّرًا لهم مِن الاقتِداءِ بفِرعَونَ[1]:

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾.

أي: فكيف تَحصُلُ لكم الوِقايةُ والنَّجاةُ مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ الَّذي يَشيبُ فيه الوِلْدانُ مِن فَزَعِه وشِدَّةِ أهوالِه، إنْ بَقِيتُم على الكُفرِ فلم تُؤمِنوا وتَعمَلوا صالِحًا[2]؟!

= قال ابنُ القيِّم: (أي: كيف يقَعُ الإنكارُ منكم، وقد تقدَّم قَبْلَكم رُسُلٌ منِّي مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ؟ وقد عَلِمتُم حالَ مَن عصى رُسُلي كيف أخَذْتُهم أخذًا وَبيلًا؟). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿يَوۡمٗا﴾ معمولًا لـ ﴿تَتَّقُونَ﴾... ويحتمِلُ أنْ يكونَ معمولًا لـ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾، فعلى الأوَّلِ: كيف يحصُلُ لكم أمانٌ مِن يومِ هذا الفزعِ العظيمِ إنْ كفرْتُم؟ وعلى الثَّاني: كيفَ يحصُلُ لكم تقوى إنْ كفرْتُم =

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدمُ، فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يدَيكَ، فيقولُ: أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعينَ، فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها[١]، وترى النَّاسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ))[٢].

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾.

= يومَ القيامةِ وجحَدْتُموه؟ وكلاهما معنى حسنٌ، ولكنَّ الأوَّلَ أولَى، والله أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

وقال القرطبي: (والولدانُ: الصِّبيانُ. وقال السدِّيُّ: هم أولادُ الزِّنا. وقيل: أولادُ المشركينَ. والعمومُ أصحُّ، أي: يشيبُ فيه الصَّغيرُ مِن غيرِ كبرٍ، وذلك حينَ يُقالُ: «يا آدمُ قمْ فابعَثْ بعثَ النَّارِ»). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٠).

وقال ابنُ جزي: (﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾... المعنى أنَّ الأطفالَ يَشيبونَ يومَ القيامةِ، فقيل: إنَّ ذلك حقيقةٌ، وقيل: إنَّه عبارةٌ عن هولِ ذلك اليومِ، وقيل: إنَّه عبارةٌ عن طولِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

(١) قال ابنُ حجر: (وقد استُشكِلَ بأنَّ ذلك الوقتَ لا حملَ فيه ولا وضعَ ولا شيبَ، ومِن ثَمَّ قال بعضُ المفسرينَ: إنَّ ذلك قبلَ يومِ القيامةِ، لكنَّ الحديثَ يردُّ عليه، وأجاب الكرمانيُّ بأنَّ ذلك وقَع على سبيلِ التَّمثيلِ والتَّهويلِ، وسبَق إلى ذلك النووي، فقال: فيه وجهانِ للعلماءِ فذكرهما، وقال: التَّقديرُ أنَّ الحالَ يَنتهي إلى أنَّه لو كانَت النِّساءُ حينئذٍ حواملَ لوضَعتْ، كما تقولُ العربُ أصابَنا أمرٌ يشيبُ منه الوليدُ.

وأقولُ: يحتمِلُ أن يُحملَ على حقيقتِه؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُبعَثُ على ما مات عليه، فتُبعَثُ الحامِلُ حامِلًا، والمرضعُ مرضعةً، والطفلُ طِفلًا، فإذا وقَعت زلزلةُ السَّاعةِ، وقيل ذلك لآدمَ، ورأَى النَّاسُ آدمَ، وسمِعوا ما قيل له؛ وقَع بهم مِن الوَجلِ ما يَسقُطُ معه الحملُ ويَشيبُ له الطِّفلُ، وتذهلُ به المرضعةُ...). ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٩٠). ويُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٤/ ١٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٩٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أمرُ القيامةِ أمرًا عَظيمًا، صوَّرَ بَعضَ أهوالِه؛ زيادةً في عِظَمِه[١]، فقال:

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾.

أي: السَّماءُ مُتشَقِّقةٌ يومَ القيامةِ؛ مِن شِدَّتِه وعِظَمِ أهوالِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾.

أي: ما وَعَد اللهُ به خَلْقَه مِن مَجيءِ القيامةِ أمرٌ واقِعٌ لا محالةَ؛ فاللهُ تعالى لا يُخلَفُ وَعْدُه[٣].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بدأ في أوَّلِ السُّورةِ بشَرحِ أحوالِ السُّعَداءِ، وأمَّا الأشقياءُ فقد بدأ بتهديدِهم على سَبيلِ الإجمالِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل:١١]، ثمَّ ذَكَر بَعْدَه أنواعَ عذابِ الآخرةِ، ثمَّ ذَكَر بعدَه عذابَ الدُّنيا، وهو الأخذُ الوَبيلُ في الدُّنيا، ثمَّ وَصَف بعدَه شِدَّةَ يومِ القيامةِ، فعندَ هذا تمَّ البيانُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧).

بالكُلِّيَّةِ؛ فلا جَرَم خَتَم ذلك الكلامَ بقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾[١].

وأيضًا لَمَّا كان ما مضى مِن هذه السُّورةِ مِن الأحكامِ والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ: مُرشِدًا إلى معالي الأخلاقِ، مُنقِذًا مِن كُلِّ سوءٍ؛ قال مُستأنِفًا مؤَكِّدًا تنبيهًا على عِظَمِها، وأنَّها ممَّا يَنبغي التَّنبيهُ عليه[٢]:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾.

أي: إنَّ هذه تَذكِرةٌ يَتذكَّرُ بها المتَّقونَ، وعِظةٌ وعِبرةٌ[٣].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ عطية: (الإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِۦ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ إلى ما ذُكِرَ مِن الأنكالِ والجَحيمِ والأخذِ الوَبيلِ ونَحوِه، ويحتَمِلُ أن تكونَ إلى السُّورةِ بأجمَعِها، ويحتَمِلُ أن تكونَ إلى القُرآنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشارةُ إلى هذه السُّورةِ الكريمةِ: السمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشارةُ إلى جميعِ آياتِ القُرآنِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ المرادَ: الآياتُ النَّاطِقةُ بالوعيدِ، وما تقدَّم مِن المَواعِظِ: البيضاويُّ، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ عاشور: (الإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إلى الآياتِ المتقدِّمةِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

أي: فمَن شاء مِنَ النَّاسِ اتَّخذ إلى ربِّه طَريقًا بالإيمانِ به وطاعتِه؛ لِيَظفَرَ برِضاه ورَحمتِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ هذا تَنويهٌ بآياتِ القُرآنِ، وتجديدٌ للتَّحريضِ على التَّدبُّرِ فيه والتَّفكُّرِ على طَريقةِ التَّعريضِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ذِكْرُ الإرسالِ الدِّينيِّ، ويقابلُه ذِكْرُ الإرسالِ الكَونيِّ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[٣] [الفرقان: ٤٨].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ فيه سُؤالٌ: هل يمكِنُ التَّمسُّكُ بهذه الآيةِ في إثباتِ أنَّ القِياسَ حُجَّةٌ؟

الجوابُ: نعم؛ لأنَّ الكلامَ إنَّما ينتَظِمُ لو قِسْنا إحدى الصُّورتَينِ على الأُخرى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩١).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).
ويُنظر ما تقدَّم في سورة الحاقة (٤٠/ ٤٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ التَّحذيرُ مِن يومِ القيامةِ[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى أقدَرَ العِبادَ على أفعالِهم، ومكَّنَهم منها، لا كما يَقولُه الجَبْريَّةُ: (إنَّ أفعالَهم تقَعُ بغَيرِ مَشيئتِهم!)؛ فإنَّ هذا خِلافُ النَّقلِ والعَقلِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إثباتُ مَشيئةِ العِبادِ[(٣)]؛ لكنَّ مشيئةَ العبدِ داخلةٌ تحتَ مشيئةِ اللهِ وتابعةٌ لها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٤)] [الإنسان: ٣٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾

- نُقِلَ الكلامُ إلى مُخاطَبةِ المشركينَ بعْدَ أنْ كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والمُناسَبةُ لذلك التَّخلُّصُ إلى وَعيدِهم؛ بعْدَ أنْ أمَرَه بالصَّبرِ على ما يَقولون وهَجْرِهم هَجْرًا جَميلًا؛ إذ قال له: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١- ١٣]؛ فالكلامُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، ولا يُعَدُّ هذا الخِطابُ مِن الالتفاتِ؛ لأنَّ الكلامَ نُقِلَ إلى غرَضٍ غيرِ الغرَضِ الَّذي كان قبْلَه[(٥)]. وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخِطابِ أهْلِ مكَّةَ على طَريقِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ في قولِه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠]، وقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1] [المزمل: ١١].

- والمَقصودُ مِن هذا الخبَرِ التَّعريضُ بالتَّهديدِ أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَ أمْثالَهم ممَّن كذَّبوا الرُّسلَ، فهو مثَلٌ مَضروبٌ للمُشركين[2].

- وأُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مُنكِرونَ أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم رَسولًا[3].

- وتَنكيرُ ﴿رَسُولًا﴾ المُرسَلِ إلى فِرعونَ؛ لأنَّ الاعتبارَ بالإرسالِ لا بشَخصِ المُرسَلِ؛ إذ التَّشبيهُ تَعلَّقَ بالإرسالِ في قولِه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ إذ تَقديرُه: كإرْسالِنا إلى فِرعونَ رسولًا[4]. وقيل: لعَلَّه نكَّرَه؛ للتَّنبيهِ على أنَّه ليس مِن قومِ فِرعَونَ، فلا مانِعَ له منه مِن حميمٍ ولا شَفيعٍ يُطاعُ؛ ليُعلَمَ أنَّه مَن كانت له قبيلةٌ تُحامي عنه، أَولى بالنُّصرةِ[5].

- وأُدمِجَ في التَّنظيرِ والتَّهديدِ وصْفُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكَونِه شاهِدًا عليهم، والمُرادُ بالشَّهادةِ هنا: الشَّهادةُ بتَبليغِ ما أرادَهُ اللهُ مِن النَّاسِ، وبذلك يكونُ وَصْفُ ﴿شَٰهِدًا﴾ مُوافقًا لاستِعمالِ الوصْفِ باسمِ الفاعلِ في زمَنِ الحالِ، أي: هو شاهدٌ عليكم الآنَ بمُعاوَدةِ الدَّعوةِ والإبلاغِ، وأمَّا شَهادةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ القِيامةِ فهي شَهادةٌ بصِدقِ المسلِمينَ في شَهادتِهم على الأُمَمِ بأنَّ رُسلَهم أبْلَغوا إليهم رِسالاتِ ربِّهم،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥).

وذلك قولُه تعالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[1] [البقرة: ١٤٣].

- قولُه: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ... ﴾ اختيرَ للمُشركينَ ضَرْبُ المَثَلِ بفِرعونَ مع مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الجامعَ بيْنَ حالِ أهلِ مكَّةَ وحالِ أهلِ مِصرَ في سبَبِ الإعراضِ عن دَعوةِ الرَّسولِ، هو مَجموعُ ما همْ عليه مِن عِبادةِ غيرِ اللهِ، وما يَملأُ نُفوسَهم مِن التَّكبُّرِ والتَّعاظُمِ على الرَّسولِ المَبعوثِ إليهم بزَعْمِهم أنَّ مِثلَهم لا يُطِيعُ مِثلَه، كما حَكَى اللهُ تعالَى عنهم بقولِه: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقدْ قال أهلُ مكَّةَ: ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقدْ حَكَى اللهُ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢١]، ولأنَّ أخبارَ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ كانت مُنتشِرةً بمَكَّةَ[2].

- والكافُ في قولِه: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ ﴾ في محلِّ النَّصبِ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، على تقديرِ اسميتِها، أي: إرسالًا مثلَ إرسالِنا، أو الجارُّ والمجرورُ في موضعِ الصِّفةِ على تقديرِ حرفيتِها، أي: إرسالًا كائنًا كما، والمعنى: أرسَلْنا إليكم رسولًا شاهدًا عليكم فعصَيْتُموه، كما أرْسَلْنا إلى فرعونَ رسولًا فعصَاه[3].

- وتَفريعُ ﴿ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك هو الغرَضُ مِن هذا الخبَرِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

وهو التَّهديدُ بأنْ يَحُلَّ بالمُخاطَبينَ لَمَّا عَصَوُا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِثلُ ما حلَّ بفِرعونَ(١).

- وفي إعادةِ فرعونَ والرَّسولِ مظهرينِ تفظيعٌ لشأنِ عصيانِه، وأنَّ ذلك لكونِه عصيانَ الرسولِ، لا لكونِه عصيانَ موسى(٢).

- وفي قولِه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا * فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ لَمَّا جرَى ذِكرُ الرَّسولِ المُرسَلِ إلى فِرعونَ أوَّلَ مَرَّةٍ نَكِرةً ﴿رَسُولٗا﴾، جِيءَ به في ذِكرِه ثانيَ مرَّةٍ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ مُعرَّفًا بلامِ العَهدِ، وهو العهدُ الذِّكريُّ، أي: الرَّسولَ المذكورَ آنفًا؛ فإنَّ النَّكرةَ إذا أُعيدتْ مُعرَّفةً باللَّامِ كان مدلولُها عينَ الأُولَى، فلمَّا أعادَه وهو مَعهودٌ بالذِّكرِ، أدخَلَ لامَ التَّعريفِ إشارةً إلى المَذكورِ بعَينِه(٣).

- قولُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ الأخذُ مُعبَّرٌ به عن الإهلاكِ؛ لأنَّه لَمَّا أزالَهم مِن الحياةِ أشْبَهَ فِعلُه أخْذَ الآخِذِ شيئًا مِن مَوضِعِه، وجَعْلَه عندَه(٤).

- قولُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ خارجٌ مِن التَّشبيهِ؛ جِيءَ به للتَّنبيهِ على أنَّه سيَحيقُ بهؤلاءِ ما حاقَ بأولئك لا مَحالةَ(٥).

- والوَبيلُ مُعبَّرٌ به عن سَيِّئِ العاقِبةِ، شَديدِ السُّوءِ(٦).

٢- قوله تعالَى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

- الاستفهامُ بـ(كيف) هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والتَّوبيخِ، وهو مُتفرِّعٌ بالفاءِ على ما تَضمَّنَه الخِطابُ السَّابقُ مِن التَّهديدِ على تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما أُدمِجَ فيه مِن التَّسجيلِ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهدٌ عليهم، فليس بعدَ الشَّهادةِ إلَّا المُؤاخَذةُ بما شَهِدَ به، وقدِ انتَقَل بهم مِن التَّهديدِ بالأخْذِ في الدُّنيا، المُستفادِ مِن تَمثيلِ حالِهم بحالِ فِرعونَ مع مُوسى، إلى الوَعيدِ بعِقابٍ أشدَّ، وهو عَذابُ يوم القِيامةِ، وقدْ نشَأَ هذا الاستِفهامُ عن اعتبارِهم أهلَ اتِّعاظٍ وخَوفٍ مِن الوَعيدِ بما حلَّ بأمْثالِهم، ممَّا شَأنُه أنْ يُثيرَ فيهم تَفكيرًا في النَّجاةِ مِن الوُقوعِ فيما هُدِّدوا به، وأنَّهم إنْ كانوا أهلَ جَلادةٍ على تَحمُّلِ عَذابِ الدُّنيا؛ فماذا يَصنَعون في اتِّقاءِ عَذابِ الآخرةِ؟! فدَلَّت فاءُ التَّفريعِ واسمُ الاستفهامِ على هذا المعْنى، فالمعْنى: هَبْكم أقدَمْتُم على تَحمُّلِ عَذابِ الدُّنيا، فكيف تَتَّقون عَذابَ الآخرةِ[(١)]؟!

- وفِعلُ الشَّرطِ مِن قولِه: ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ مُستعمَلٌ في معْنى الدَّوامِ على الكُفْرِ؛ لأنَّ ما يَقْتضيهِ الشَّرطُ مِن الاستِقبالِ قَرينةٌ على إرادةِ معْنى الدَّوامِ مِن فِعلِ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾، وإلَّا فإنَّ كُفْرَهم حاصلٌ مِن قبْلِ نُزولِ هذه الآيةِ[(٢)].

وقيل: في ذكرِ ﴿إِن﴾ التي للشَّكِّ إشعارٌ بأنَّه لا ينبغي الشكُّ معَ إرسالِ هذا الرَّسولِ النُّورِ المبينِ[(٣)].

- ووَصْفُ اليوم بأنَّه ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ وصْفٌ له باعتبارِ ما يقَعُ فيه مِن الأهوالِ والأحزانِ؛ لأنَّه شاع أنَّ الهمَّ ممَّا يُسرِعُ به الشَّيبُ، فلمَّا أُريدَ وصْفُ هَمِّ ذلك اليومِ بالشِّدَّةِ البالغةِ، أُسنِدَ إليه شَيبُ الولدانِ الَّذين شَعرُهم في أوَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٩٨).

سَوادِه، وهذه مُبالَغةٌ عَجيبةٌ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾

- جُملةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ، والباءُ بمعْنى (في)، وهو ارتقاءٌ في وصْفِ اليومِ بحُدوثِ الأهوالِ فيه؛ فإنَّ انفطارَ السَّماءِ أشدُّ هَولًا ورُعبًا ممَّا كُنِّيَ عنه بجُملةِ ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، أي: السَّماءُ على عِظَمِها وسُمْكِها تَنفطِرُ لذلك اليومِ، فما ظنُّكم بأنفُسِكم وأمثالِكم مِن الخَلائقِ فيه؟! فذِكرُ انفطارِ السَّماءِ في ذلك اليومِ زِيادةٌ في تَهويلِ أحوالِه؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ المُهدَّدينَ رُعبًا وإنْ لم يكُنِ انفطارُ السَّماءِ مِن آثارِ أعمالِهم، ولا له أثَرٌ في زِيادةِ نَكالِهم[2].

- ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ جُملةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ مُستأنَفةً مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ ...﴾ إلخ، وجُملةِ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ الإخبارُ بانفطارِ السَّماءِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: كالمُنفطِرِ به، فيَكونَ المعْنى كقولِه تبارك وتعالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾[3] [مريم: ٨٨ - ٩٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤١، ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧١).

قال البقاعي: (﴿شِيبًا﴾ جمعُ أَشيَبَ، وهو مَن ابيَضَّ شَعْرُه، وذلك كنايةٌ عن كثرةِ الهُمومِ فيه؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّها إذا تفاقَمَت أسرَعَت بالشَّيبِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦).

- وتَذكيرُ قولِه: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾؛ لإجرائِه على مَوصوفٍ مَحذوفٍ مُذكَّرٍ، أي: شَيءٌ مُنفطِرٌ، عُبِّرَ عنها بذلك للتَّنبيهِ على أنَّه تَبدَّلَتْ حَقيقتُها، وزالَ عنها اسْمُها ورسْمُها، ولم يَبْقَ منها إلَّا ما يُعبَّرُ عنه بالشَّيءِ. وقيل: لتَأويلِ السَّماءِ بمعْنى السَّقفِ، تقولُ: هذا سَماءُ البيتِ، أي: سَقْفُه، قال تعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، أو لأنَّها تُذكَّرُ وتُؤنَّثُ، أو جاء ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ على النَّسَبِ، أي: ذاتُ انفطارٍ، كامرأةٍ مُرضِعٍ وحائضٍ، أي: ذاتُ إرضاعٍ وذاتُ حَيضٍ[(١)].

وقيل: لَمَّا كان المرادُ الجِنسَ الشَّاملَ للكلِّ ذَكَّرَ فقال: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾، أي: مُنشَقٌّ مُتزايلٌ مِن هَيبةِ الرَّبِّ تَزايُلَ المُتفرِّطِ مِن السِّلكِ، ولو أنَّثَ لَكان ظاهرًا في واحدةٍ مِن السَّمواتِ، وفي اختيارِ التَّذكيرِ أيضًا لَطيفةٌ أُخرى؛ وهي إفهامُ الشِّدَّةِ الزَّائدةِ في الهولِ المؤدِّي إلى انفطارِه ما هو في غايةِ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ الذَّكَرَ في كلِّ شَيءٍ أشدُّ مِن الأُنثى، وذلك كلُّه تَهويلًا لليومِ المذكورِ[(٢)]. أو: لعلَّ العُدولَ في الآيةِ عن الاستعمالِ الشَّائعِ في الكلامِ الفصيحِ في إجْراءِ السَّماءِ على التَّأنيثِ إلى التَّذكيرِ؛ إيثارًا لتَخفيفِ الوصْفِ؛ لأنَّه لَمَّا جِيءَ به بصِيغةِ (مُنفعِلٍ) بحَرْفي زيادةٍ -وهما الميمُ والنُّونُ- كانت الكلمةُ مُعرَّضةً للثِّقَلِ إذا أُلحِقَ بها حرْفٌ زائدٌ آخَرُ ثالثٌ، وهو هاءُ التَّأنيثِ، فيَحصُلُ فيها ثِقَلٌ يُجنِّبُه الكلامُ البالغُ غايةَ الفصاحةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧).

أَلَا تَرى أنَّها لم تَجْرِ على التَّذكيرِ في قولِه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]؛ إذ ليس في الفِعلِ إلَّا حرْفٌ مَزيدٌ واحدٌ، وهو النُّونُ؛ إذْ لا اعتدادَ بهَمزةِ الوصْلِ؛ لأنَّها ساقطةٌ في حالةِ الوصْلِ، فجاءتْ بعْدَها تاءُ التَّأنيثِ[١].

وقيل: إذا كان الاسمُ غيرَ حقيقيِّ التأنيثِ جاز إجراءُ وصفِه على التَّذكيرِ، فلا تلحَقُه هاءُ التَّأنيثِ قياسًا على الفعلِ المسندِ للمؤنثِ غيرِ حقيقيِّ التأنيثِ في جوازِ اقترانِه بتاءِ التَّأنيثِ وتجريدِه منها؛ إجراءً للوصفِ مجرى الفعلِ[٢].

- وجُملةُ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ صِفةٌ أُخرى لكَلمةِ ﴿يَوۡمًا﴾، وهذا الوصْفُ إدماجٌ[٣] للتَّصريحِ بتَحقيقِ وُقوعِ ذلك اليومِ بعْدَ الإنذارِ به الَّذي هو مُقتَضٍ لوُقوعِه بطَريقِ الكِنايةِ؛ استقصاءً في إبلاغِ ذلك إلى عِلمِهم، وفي قطْعِ مَعذرتِهم[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ تَذييلٌ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٦).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغَرضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعَلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٥) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ =

أي: تَذكرةٌ لِمَن يَتذكَّرُ؛ فإنْ كان مِن مُنكِري البَعثِ آمَنَ به، وإنْ كان مُؤمنًا استَفاقَ مِن بَعضِ الغفْلةِ الَّتي تَعرِضُ للمُؤمنِ، فاستدْرَكَ ما فاتَه، وبهذا العُمومِ الشَّاملِ لأحْوالِ المُتحدَّثِ عنهم وأحوالِ غيرِهم كانت الجُملةُ تَذْييلًا(١).

- وتَأْكيدُ الكلامِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ المُواجَهينَ به ابتداءً هم مُنكِرون كَونَ القُرآنِ تَذكرةً وهُدًى؛ فإنَّهم كذَّبوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ، ووَسَموه بالسِّحرِ وبالأساطيرِ، وذلك مِن أقوالِهم الَّتي أُرشِدَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الصَّبرِ عليها؛ قال تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾(٢) [المزمل: ١٠].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فُرِّعَ على التَّحريضِ التَّعريضيِّ تَحريضٌ صَريحٌ على الإيمانِ، أي: مَن كان يُريدُ أنْ يتَّخِذَ إلى ربِّه سَبيلًا، فقدْ تَهيَّأَ له اتِّخاذُ السَّبيلِ إلى اللهِ بهذه التَّذكرةِ، فلم تَبْقَ للمُتغافِلِ مَعذِرةٌ(٣).

- والإتيانُ بمَوصولِ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ مِن قَبيلِ التَّحريضِ؛ لأنَّه يَقْتضي أنَّ هذا السَّبيلَ مُوصِلٌ إلى الخَيرِ، فلا حائلَ يَحولُ بيْن طالِبِ الخَيرِ وبيْنَ سُلوكِ هذا السَّبيلِ إلَّا مَشيئتُه؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ قَرينةٌ على ذلك، فليستِ المَشيئةُ هنا على معْنى الإباحةِ، بلْ تَتضمَّنُ معْنى الوعدِ والوعيدِ(٤).

= السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٨).

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه الشَّرطُ؛ لأنَّ (مَن) شَرطيَّةٌ، أي: فمَن شاء أنْ يتَّخِذَ سَبيلًا اتَّخَذه إلى ربِّه، أو فمَن شاء النَّجاةَ اتَّخَذ إلى ربِّه سَبيلًا(١).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

الآية (٢٠)

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾: أي: جماعةٌ، والطَّائِفةُ: جماعةٌ مِن النَّاسِ؛ وتُطلَقُ على الواحدِ فما فَوْقَه، وأصلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ، قيل: سُمِّيَت الجماعةُ بذلك؛ لِتَصَرُّفِها في الإقبالِ والإدبارِ كأنَّها تَطوفُ[(١)].

﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: أي: يَعلَمُ مَقاديرَهما على الحقيقةِ، أو: يَخلُقُهما مُقدَّرَين، ويَجعَلُهما على مَقاديرَ يَجريانِ عليها، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[(٢)].

﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾: أي: لن تُطيقوه؛ قيل: لن تُطيقوا قِيامَه، وقيل: لن تَقدِروا على تقديرِ الأوقاتِ، ولن تَستطيعوا ضبطَ السَّاعاتِ، وأصلُه هنا: العَدُّ والإطاقةُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩)، ((الصَّحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١، ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

﴿يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: يَسيرونَ في الأرضِ، ويُسافِرونَ للتِّجارةِ وغَيرِها، والضَّرْبُ في الأَرضِ: الذَّهابُ فيها، وضَربُها بالأرجُلِ[(١)].

﴿وَأَقْرِضُوا﴾: أي: تَصَدَّقوا وأنْفِقوا، والقَرْضُ: ما يُدفَعُ مِن المالِ بشَرْط ردِّ بَدَلِه، وأصلُ القَرْضِ: القَطْعُ؛ ومنه سُمِّيَ القَرْض؛ فكأنَّه شيءٌ قد قَطَعْتَه مِن مالِكَ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾

قَولُه: ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ ﴿هُوَ﴾: توكيدٌ للهاءِ في ﴿تَجِدُوهُ﴾، أو ضَميرُ فَصلٍ لا محَلَّ له مِن الإعرابِ، وإنْ لم يقَعْ بيْنَ معرفتَينِ؛ فإنَّ أفعَلَ -خَيْر- في حُكْمِ المعرفةِ.

﴿خَيْرًا﴾: مَفعولٌ به ثانٍ لـ (تجِدُ)[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وطائفةً مِن المؤمنينَ قد امتثَلوا ما أمَرهم به مِن قيامِ اللَّيلِ، فيقولُ: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك تُصَلِّي في اللَّيلِ وجَماعةٌ مِن أصحابِك المؤمِنينَ: أقَلَّ مِن ثُلُثَيِ اللَّيلِ، وتارةً تُصَلِّي نِصْفَه، وتارةً أُخرى تصَلِّي ثُلُثَه، واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يُقدِّرُ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ويَعلَمُ مقاديرَهما، عَلِمَ اللهُ سُبحانَه -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم لن تَستطيعوا تقديرَ ساعاتِه تقديرًا دقيقًا؛ فتاب عليكم وخفَّف عنكم في أمرِ القيامِ؛ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم مِنَ

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧١، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦).

(٣) يُنظَر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٦).

اللَّيلِ دونَ تَحديدٍ.

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه بعضَ الأسبابِ المُناسِبةِ للتَّخفيفِ، فيقولُ: عَلِمَ اللهُ أنَّه سيَكونُ منكم مَرْضَى يَضعُفونَ عن الصَّلاةِ في اللَّيلِ، وآخَرونَ يُسافِرونَ في الأرضِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ، وآخَرونَ يُجاهِدونَ الكُفَّارَ؛ نُصْرةً لدِينِ اللهِ تعالى؛ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم مِن اللَّيلِ.

ثمَّ يأمُرُ سبحانَه المؤمنينَ بإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وعُمومِ فعلِ الخَيرِ، فيقولُ: وحافِظُوا على إقامةِ الصَّلَواتِ المفروضةِ عليكم، وأَعطوا الزَّكاةَ لِمُستَحِقِّيها مِن الفُقَراءِ والمساكينِ، وتَصَدَّقوا من طَيِّبِ أموالِكم بإخلاصٍ للهِ تعالى، وما تَفعَلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ تَجِدوا ثوابَه عِندَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ مُضاعَفًا، واستَغفِروا اللهَ؛ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَر اللهُ تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ أنَّه أمَرَ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بقيامِ نِصفِ اللَّيلِ أو ثُلُثِه أو ثُلُثَيه، والأصلُ أنَّه أُسوةٌ لأُمَّتِه في الأحكامِ، وذكَرَ في هذا الموضِعِ أنَّه امتَثَل ذلك هو وطائِفةٌ معه مِن المؤمِنينَ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ قِراءتانِ:

١- قراءةُ: ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ أي: تقومُ نِصفَ اللَّيلِ وثُلُثَه[١].

٢- قراءةُ: ﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾ عَطفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، والمعنى: تقومُ أقَلَّ مِن نِصفِه، وأقَلَّ مِن ثُلُثِه[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك تُصَلِّي في اللَّيلِ تارةً أقَلَّ مِن ثُلُثَيه، وتارةً تصَلِّي نِصْفَه، وتارةً أُخرى تصَلِّي ثُلُثَه، ويُصَلِّي ذلك المِقدارَ أيضًا جَماعةٌ مِن أصحابِك المؤمِنينَ[٣].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِنَ اللَّيلِ حتَّى تتفَطَّرَ[٤] قَدَماه، فقالت عائِشةُ: لِمَ تصنَعُ هذا يا رَسولَ اللهِ، وقد غَفَرَ اللهُ

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير، والكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٠٠، ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١).

(٤) تتفَطَّرَ: أي: تتشقَّقَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ٣٤٧).

لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبك وما تأخَّرَ؟! قال: أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا شَكُورًا؟!))(١).

وعن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَأَرْمُقَنَّ(٢) صَلاةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللَّيلةَ، فصَلَّى ركعتينِ خفيفتَينِ، ثمَّ صلَّى ركعتينِ طويلتينِ طويلتينِ طويلتينِ، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ أوتَرَ، فذلك ثلاثَ عَشْرَةَ رَكعةً))(٣).

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صلَّيتُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ ليلةٍ، فافتَتَح البَقَرةَ، فقُلتُ: يركَعُ عند المئةِ! ثمَّ مضَى، فقُلْتُ: يصَلِّي بها في رَكعةٍ! فمضَى، فقُلتُ: يركَعُ بها! ثمَّ افتَتَح النِّساءَ فقَرَأَها، ثمَّ افتَتَح آلَ عِمرانَ فقَرَأها، يَقرَأُ مُترَسِّلًا(٤)؛ إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبَّح، وإذا مَرَّ بسؤالٍ سأَلَ، وإذا مرَّ بتعَوُّذٍ تعَوَّذَ، ثمَّ ركَعَ، فجَعَل يقولُ: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ، فكان رُكوعُه نَحوًا مِن قِيامِه! ثمَّ قال: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه، ثمَّ قام طويلًا قريبًا مِمَّا ركَعَ! ثمَّ سَجَد، فقال: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى، فكان سجودُه قَريبًا مِن قيامِه))(٥).

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّيْتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأطال حتَّى همَمْتَ بأمرِ سَوْءٍ! قيل: وما همَمْتَ به؟ قال: همَمْتُ أن أجلِسَ وأدَعَه!))(٦).

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٠).

(٢) لأَرمُقَنَّ: أي: لأنظُرَنَّ وأتأمَّلَنَّ وأحفَظَنَّ وأرقُبَنَّ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ٩٠٦).

(٣) رواه مسلم (٧٦٥).

(٤) مُترَسِّلًا: أي: مرتلًا بتبيينِ الحروفِ وأداءِ حقِّها، يُقالُ: ترسَّلَ الرجُلُ في كلامِه ومَشْيِه: إذا لم يَعجَلْ. يُنظر: ((شرح السيوطي لسنن النسائي)) (٣/ ٢١٩)، ((دليل الفالحين)) لابن علان (٢/ ٣٢٠).

(٥) رواه مسلم (٧٧٢).

(٦) رواه البخاريُّ (١١٣٥)، ومسلمٌ (٧٧٣) واللفظ له.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تحريرُ الوَقتِ المأمورِ به مَشَقَّةً على النَّاسِ؛ أخبَرَ أنَّه سَهَّل عليهم في ذلك غايةَ التَّسهيلِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: يَعلَمُ مَقاديرَهما وما يَمضي منهما ويَبقَى[1].

وأيضًا لَمَّا كان القيامُ -على هذا التَّفاوتِ مع الاجتهادِ في السَّبقِ في العبادةِ- دالًّا على عدمِ العِلمِ بالمقاديرِ ما هي عليه، قال تعالى[2]:

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يُقدِّرُ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ وأوقاتَهما، ويَعلَمُ مقاديرَهما[3].

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ سُبحانَه -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم لن تُطيقوا تقديرَ ما طُلِبَ منكم عِلمًا وعَمَلًا مِن غيرِ زيادةٍ ولا نَقصٍ، فذاك يَستدعي انتباهًا وعَناءً زائِدًا؛ فلذا تاب عليكم لعَجزِكم وضَعْفِكم، وخفَّف عنكم بالتَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقَدَّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال الواحدي: (﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ قال عَطاءٌ: يريدُ: لا يَفوتُه عِلْمُ ما يَفعلونَ، أي: أنَّه يعلَمُ مقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَعلَمُ القَدْرَ الَّذي يَقومونَه مِنَ اللَّيلِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧٧).

وقال القرطبيُّ: (أي: يَعلَمُ مَقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ على حقائقِها، وأنتم تَعلَمونَ بالتَّحَرِّي والاجتهادِ الَّذي يقعُ فيه الخطأُ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

أَوَّلَ السُّورةِ، ورَفَع عنكم التَّبِعةَ في ذلك، وأمَرَكم بفِعلِ ما تيسَّرَ لكم منه، سَواءٌ زاد على الوَقتِ المقدَّرِ أو نَقَصَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لن تُطيقوا قيامَ اللَّيلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: لن تُطيقوا تقديرَ الأوقاتِ، ولن تستطيعوا ضبطَ السَّاعاتِ: السمعاني، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، وابن جُزَي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥).

قال الزمخشري: (والضَّميرُ في ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ لِمَصدرٍ يُقدَّرُ، أي: عَلِم أنَّه لا يصحُّ منكم ضبطُ الأوقاتِ، ولا يتأتَّى حِسابُها بالتَّعديلِ والتَّسويةِ، إلَّا أن تأخُذوا بالأوسَعِ للاحتياطِ، وذلك شاقٌّ عليكم، بالِغٌ منكم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عبارةٌ عن التَّرخيصِ في تركِ القيامِ المُقدَّرِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣).

وقال السمعاني: (المعنى: أنَّه يَشُقُّ عليكم مَعرِفةُ مِقدارِ المفروضِ، والقيامُ بالأمرِ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا نام ثمَّ استيقظ، لا يَدري: كم نام، وكم بَقِيَ مِنَ اللَّيلِ، وقد كان اللهُ تعالى فَرَض قيامَ اللَّيلِ على مِقدارٍ معلومٍ، وهو لا يَنقُصُ عن الثُّلُثِ، ويَبلُغُ الثُّلُثَينِ إن أراد). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٤).

وقال القرطبي: (أي: لن تُطيقوا معرفةَ حقائقِ ذلك، والقيامَ به. وقيل: أي: لن تُطيقوا قيامَ اللَّيلِ. والأوَّلُ أصحُّ؛ فإنَّ قيامَ اللَّيلِ ما فُرِض كلُّه قطُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ الضَّميرُ يعودُ على ما يُفهَمُ مِن سياقِ الكلامِ، أي: لن تُحصوا تقديرَ اللَّيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

وقال النَّسَفي: (لن تُطيقوا قيامَه على هذه المقاديرِ إلَّا بشِدَّةٍ ومشَقَّةٍ، وفي ذلك حرَجٌ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥٩).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفوِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه كان =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

أي: فصَلُّوا -أيُّها المؤمِنونَ- ما تيسَّرَ لكم مِنَ اللَّيلِ دونَ تَحديدٍ(١).

= فيهم مَن ترَكَ بعضَ ما أُمِر به. وقيل: أي: فتاب عليكم مِن فرضِ القيامِ إذ عجَزْتُم. وأصلُ التَّوبةِ: الرُّجوعُ...، فالمعنى: رجَع لكم مِن تثقيلٍ إلى تخفيفٍ، ومِن عُسْرٍ إلى يُسرٍ، وإنَّما أُمِروا بحِفظِ الأوقاتِ على طريقِ التَّحَرِّي، فخَفَّف عنهم ذلك التَّحَرِّيَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

تقدَّم ذكر الخِلافِ في النَّسخِ (ص: ١٤)، فإن حُمِلَ أوَّلُ السُّورةِ على التَّطوُّعِ أو على النَّدبِ، وآخِرُها على تركِ المؤاخَذةِ بالمِقدارِ؛ كانت الآيتانِ مُحْكَمتَينِ. وإنْ حُمِل أوَّلُها على الوُجوبِ؛ كان آخِرُها ناسِخًا لأوَّلِها، وكانوا في آخِرِها مأمورينَ بأن يُصَلُّوا ما تيسَّر لهم، ثمَّ كان آخِرُها أيضًا منسوخًا بالصَّلَواتِ الخَمْسِ. يُنظر: ((جمال القراء)) للسخاوي (٢/ ٨٨٢).

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

قال ابن العربي: (قولُه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ المرادَ به نفْسُ القراءةِ.

الثَّاني: أنَّ المرادَ به الصَّلاةُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٣٤).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ: الصَّلاةُ، أي: فصَلُّوا ما تيسَّر لكم مِن صلاةِ اللَّيلِ: ابنُ العربي، والرَّسْعَنيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، وإليه ذهب ابن عاشور. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

قال ابن العربي: (لأنَّه عن الصَّلاةِ أخبر، وإليها رجَع القولُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٣٥). =

= وقال الرَّسْعَني: (وعبَّر عن الصَّلاةِ بالقراءةِ؛ لاشتمالِها عليها، كما عبَّر عنها بالرُّكوعِ والسُّجودِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣).

وقال ابن كثير: (كما قال في سورةِ سُبْحانَ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتِك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

قال الماوَرْدي: (فعلى هذا يحتملُ في المراد بما تيسَّر من الصَّلاةِ وجهان:

أحدُهما: ما يتطوَّعُ به مِن نوافِلِه؛ لأنَّ الفرضَ المقدَّرَ لا يُؤْمَرُ فيه بما تيسَّر.

الثَّاني: أنَّه محمولٌ على فُروضِ الصَّلَواتِ الخَمسِ؛ لانتقالِ النَّاسِ مِن قيامِ اللَّيلِ إليها، ويكونُ قولُه: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ محمولًا على صفةِ الأداءِ في القوَّةِ والضَّعفِ، والصِّحَّةِ والمرضِ، ولا يكونُ محمولًا على العددِ المقدَّرِ شرعًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٢).

والقولُ الثَّاني: أنَّ المراد: نفْسُ القراءةِ. وذلك حملًا للخِطابِ على ظاهِرِ اللَّفظِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

قال الماوَرْديُّ: (فعلى هذا فيه وجهان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ به: قراءةُ القرآنِ في الصَّلاةِ، فيكونُ الأمرُ به واجبًا؛ لوُجوبِ القراءةِ في الصَّلاةِ. واختُلِف في قَدرِ ما يَلزَمُه أن يَقرأَ به مِن الصَّلاةِ...

والوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ به: قراءةُ القرآنِ من غيرِ الصَّلاةِ، فعلى هذا يكونُ مُطلَقُ هذا الأمرِ محمولًا على الوُجوبِ أو على الاستحبابِ؟ على وجهَينِ؛ أحدُهما: أنَّه محمولٌ على الوُجوبِ؛ لِيَقِفَ بقِراءتِه على إعجازِه، ودلائلِ التَّوحيدِ فيه، وبعثِ الرُّسلِ، ولا يَلزَمُه إذا قرأه وعرَف إعجازَه ودلائلَ التَّوحيدِ منه أن يَحفَظَه؛ لأنَّ حِفظَ القرآنِ مِن القُرَبِ المُستحَبَّةِ دونَ الواجبةِ. الثَّاني: أنَّه محمولٌ على الاستحبابِ دونَ الوُجوبِ، وهذا قولُ الأكثَرينَ؛ لأنَّه لو وجَب عليه أن يَقرأَه وجَب عليه أن يَحفظَه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٢).

ذَهبَ مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ والبَغَويُّ إلى أنَّ المرادَ: قراءةُ القرآنِ في الصَّلاةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ إلى أنَّ المعنى: فاقرَؤوا في الصَّلاةِ ما تيسَّر مِن القرآنِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: قراءةُ القرآنِ في صلاةِ اللَّيلِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير القاسمي)) =

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّه سيكونُ مِنكم مَرْضى يَضعُفونَ عن الصَّلاةِ في اللَّيلِ(١).

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر عُذْرَ المريضِ، وبدأَ به لكَونِه أعَمَّ، ولا قُدرةَ للمَريضِ على دَفْعِه- أتْبَعَه السَّفَرَ للتِّجارةِ؛ لأنَّه يليه في العُمومِ(٢).

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

= (٩/ ٣٤٤).

وقال ابن تيميَّةَ: (أمَّا قولُه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فليس المرادُ به القِراءةَ المفروضةَ في الصَّلاةِ؛ بدَليلِ قَولِه بعدَ ذلك: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولأنَّ هذه السُّورةَ نَزَلَتْ بمكَّةَ في أوَّلِ الأمرِ قبلَ أنْ تُفْرَضَ الصَّلواتُ الخَمسُ، وكان وُجوبُ الفاتحةِ بالمدينةِ، وإنَّما المرادُ به -واللهُ أعلَمُ-: التِّلاوةُ المأمورُ بها عِوَضًا عن قيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّ حافِظَ القُرآنِ يَنبغي له أنْ يَتلوَه، وإذا نَسيَه فإنَّه يجبُ عليه أنْ يَتلوَه بحيثُ لا يَنْساه، وسياقُ الآيةِ يدُلُّ على هذا، حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ إلى قولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾.

وقد قيل: إنَّ المرادَ به قراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ). ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الصلاة)) (ص: ١٧٤). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال السعدي: (ذَكَر بعضَ الأسبابِ المناسِبةِ للتَّخفيفِ، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يشُقُّ عليهم صلاةُ ثُلُثَيِ اللَّيلِ أو نِصفِه أو ثُلُثِه، فلْيُصَلِّ المريضُ المتسَهَّلَ عليه، ولا يكونُ أيضًا مأمورًا بالصلاةِ قائمًا عندَ مشقَّةِ ذلك، بل لو شَقَّت عليه الصَّلاةُ النَّافِلةُ فله تَرْكُها، وله أجرُ ما كان يَعمَلُ صحيحًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣).

أي: وعَلِمَ اللهُ أنَّه سيَكونُ مِنكم آخَرونَ يُسافِرونَ في الأرضِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ، فيَضعُفونَ عن قيامِ اللَّيلِ[١].

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وآخَرونَ يُجاهِدونَ الكُفَّارَ؛ نُصْرةً لِدينِ اللهِ تعالى، وإعلاءً لكَلِمتِه، فيَشُقُّ عليهم قيامُ اللَّيلِ[٢].

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

أي: فصَلُّوا -بعدَ أن خفَّفَ اللهُ عليكم في قيامِ اللَّيلِ- ما تيسَّرَ لكم مِن صلاةِ اللَّيلِ[٣].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وحافِظُوا -أيُّها المسلِمونَ- على إقامةِ الصَّلَواتِ المفروضةِ، بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها، وأعْطوا الزَّكاةَ الواجِبةَ عليكم في أموالِكم أهلَها المستَحِقِّينَ لها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

قال ابنُ عاشور: (لأنَّ السَّيرَ في الأسفارِ يكونُ في اللَّيلِ كثيرًا، ويكونُ في النَّهارِ، فيَحتاجُ المسافِرُ للنَّومِ في النَّهارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: كان هذا في صَدْرِ الإسلام، ثمَّ نُسِخَ بالصَّلَواتِ الخَمْس عن المؤمِنينَ، وثَبَت على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣، ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المرادُ بقولِه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجِبَ المعروفَ؛ أتْبَعَه سائِرَ الإنفاقاتِ المفروضةِ والمندوبةِ -على قولٍ-، فقال[1]:

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

أي: وتَصَدَّقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بإخلاصٍ للهِ تعالى، ودونَ مَنٍّ ولا أذًى[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

أي: وما تَفعَلوه في الدُّنيا مِن أيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الخَيرِ؛ لِنَفعِ أنفُسِكم في الآخِرةِ،

= (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧، ٢٨٨).

قيل: يَدخُلُ في هذا: الصَّدَقةُ الواجبةُ والمستحَبَّةُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

وقيل: المرادُ: الصَّدَقاتُ غيرُ الواجبةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧).

وقال العُلَيمي: (هو الإنفاقُ في سُبُلِ الخَيرِ غيرِ المفروضِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٠).

وقال أبو حيَّان: (﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ العطفُ يُشعِرُ بالتَّغايُرِ؛ فقولُه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمْرٌ بأداءِ الواجِبِ، ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمْرٌ بأداءِ الصَّدَقاتِ الَّتي يُتطوَّعُ بها). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١).

قال ابنُ عبَّاسٍ: (يُريدُ: سِوى الزَّكاةِ؛ مِن صِلَةِ الرَّحِمِ، وقِرى الضَّيفِ). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٨).

فإنَّكم تَجِدونَه يومَ القيامةِ مَحفوظًا لكم عِندَ اللهِ بأفضَلَ مِمَّا قدَّمْتُم، وأعظَمَ ثوابًا ممَّا عَمِلْتُم[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيما يَروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: ((إنَّ اللهَ كَتَب الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ بيَّنَ ذلك، فمَنْ هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعمَلْها، كتَبَها اللهُ له عندَه حَسَنةً كامِلةً، فإنْ هو هَمَّ بها فعَمِلَها، كتَبَها اللهُ له عِندَه عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبْعِمئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ))[2].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾.

أي: واسألوا اللهَ أن يَمحُوَ عنكم ذُنوبَكم؛ عَيْنَها وآثارَها، فيَتجاوَزَ عنها ويَستُرَها[3].

قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، إنَّكم تُخطِئُونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنا

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١) واللفظ له، ومسلم (١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤١).

أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا؛ فاستَغفِروني أغفِرْ لكم))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَظيمُ المغفرةِ لذُنوبِ عِبادِه، بليغُ الرَّحمةِ بهم[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّك ما دعَوْتَني ورَجَوْتَني غفَرْتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ، لو بلَغَت ذُنوبُك عَنانَ السَّماءِ، ثمَّ استغفَرْتَني، غَفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ، إنَّك لو أتَيْتَني بقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بي شيئًا، لَأَتَيْتُك بقُرابِها مَغفِرةً))[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ لَمَّا كان رُبَّما تغالى بعضُ النَّاسِ في العبادةِ، وشَقَّ على نَفْسِه، ورُبَّما شَقَّ على غَيرِه؛ أشار سُبحانَه وتعالى إلى الاقتصادِ؛ تخفيفًا لِما يَلحَقُ الإنسانَ مِنَ النَّصَبِ[٤].

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٣١).

صحَّحه ابنُ القيِّم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٤)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٠)، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٤٠٠): (إسنادُه لا بأسَ به). وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨، ٢٩).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سوَّى اللهُ تعالى في هذه الآيةِ بيْنَ درَجةِ المجاهِدينَ، والمكتسِبينَ المالَ الحلالَ للنَّفَقةِ على نَفْسه وعيالِه، والإحسانِ، فكان هذا دليلًا على أنَّ كَسْبَ المالِ بمنزلةِ الجِهادِ؛ لأنَّ جَمْعَه مِن الجهادِ في سَبيلِ اللهِ(١). وقدْ كان بَعضُ الصَّحابةِ يتأوَّلُ مِن هذه الآيةِ فَضيلةَ التِّجارةِ والسَّفرِ للتَّجْرِ؛ حيث سوَّى اللهُ بيْن المجاهِدين والمُكتسِبينَ المالَ الحلالَ، يعني أنَّ اللهَ ما ذَكَرَ هذَين السَّببينِ لنسْخِ تَحديدِ القيامِ إلَّا تَنويهًا بهما؛ لأنَّ في غَيرِهما مِن الأعذارِ ما هو أشبَهُ بالمرَضِ، ودَقائقُ القرآنِ ولَطائفُه لا تَنحصِرُ(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا تذكيرٌ بأنَّ الصَّلَواتِ الواجبةَ هي الَّتي تَحرِصونَ على إقامتِها وعدَمِ التَّفريطِ فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وفي هذا التَّعقيبِ بعَطفِ الأمرِ بإقامةِ الصَّلاةِ إيماءٌ إلى أنَّ في الصَّلَواتِ الخَمسِ ما يَرفَعُ التَّبِعةَ عن المؤمِنينَ، وأنَّ قيامَ اللَّيلِ نافِلةٌ لهم، وفيه خيرٌ كثيرٌ(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وصْفُ القَرْضِ بالحُسنِ يُفيدُ الصَّدقةَ المُرادَ بها وَجْهُ اللهِ تعالَى، والسَّالِمةَ مِن المَنِّ والأذى، والحُسنُ مُتفاوِتٌ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ الحَسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِمئةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ولْيُعلَمْ أنَّ مِثقالَ ذرَّةٍ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٨).

الخَيرِ في هذه الدَّارِ يُقابِلُه أضعافُ أضعافِ الدُّنيا وما عليها في دارِ النَّعيمِ المقيمِ مِنَ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ، وأنَّ الخيرَ والبرَّ في هذه الدُّنيا مادَّةُ الخيرِ والبِرِّ في دارِ القرارِ، وبَذْرُه وأصلُه وأساسُه، فواأَسَفاه على أوقاتٍ مَضَت في الغَفَلاتِ! وواحَسْرَتاه على أزمانٍ تقَضَّت بغيرِ الأعمالِ الصَّالحاتِ! وواغَوْثاه من قلوبٍ لم يؤثِّرْ فيها وعظُ بارئِها، ولم يَنجَعْ فيها تشويقُ مَن هو أرحَمُ بها منها! فلك اللَّهمَّ الحمدُ، وإليك المشتكى، وبك المستغاثُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بك(١)!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ في الأمرِ بالاستِغفارِ بعدَ الحَثِّ على أفعالِ الطَّاعةِ والخَيرِ: فائِدةٌ كبيرةٌ؛ وذلك أنَّ العَبدَ ما يخلو مِن التَّقصيرِ فيما أُمِرَ به؛ إمَّا ألَّا يَفعَلَه أصلًا، أو يَفعَلَه على وجهٍ ناقِصٍ، فأُمِرَ بترقيعِ ذلك بالاستِغفارِ؛ فإنَّ العبدَ يُذنِبُ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، فمتى لم يتغَمَّدْه اللهُ برَحمتِه ومَغفِرتِه فإنَّه هالِكٌ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾ لَمَّا كان أكثَرُ أحوالِ الصَّلاةِ القِيامَ، عَبَّر به عنها(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾ فيه وُجوبُ القِيامِ في الصَّلاةِ؛ فإنَّ العِبادةَ إذا سُمِّيَت بما يُفْعَلُ فيها، دَلَّ على أنَّه واجِبٌ فيها(٤).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ احتَجَّ بَعْضُهم على تكليفِ ما لا يُطاقُ بأنَّه تعالى قال: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: لن تُطيقُوه، ثمَّ إنَّه كان قد كَلَّفَهم به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الحج)) (٢/ ٥٤٢).

ويمكِنُ أن يُجابَ عنه بأنَّ المرادَ صُعوبتُه، لا أنَّهم لا يَقدِرونَ عليه، كقَولِ القائِلِ: ما أُطيقُ أن أنظُرَ إلى فُلانٍ، إذا استثقَلَ النَّظَرَ إليه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ التَّعبيرُ عن النَّسخِ بالتَّوبةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لولا النَّسخُ لَكان الإنسانُ آثِمًا؛ إمَّا بفِعلِ مُحَرَّمٍ، أو بتركِ واجِبٍ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآيةُ صالِحةٌ لأن تكونَ أصلًا للتَّعليلِ بالمَظِنَّةِ، وصالِحةٌ لأن تكونَ أصلًا تُقاسُ عليه الرُّخَصُ العامَّةُ الَّتي تُراعَى فيها مَشقَّةُ غالِبِ الأُمَّةِ، مِثلُ رُخصةِ بَيعِ السَّلَمِ، دونَ الأحوالِ الفَرديَّةِ والجُزئيَّةِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أنَّ قيامَ اللَّيلِ بالصَّلاةِ أفضَلُ مِن مجَرَّدِ قِراءةِ القُرآنِ والذِّكْرِ فيه؛ ولهذا نَقَلَهم سُبحانَه عندَ نَسْخِ وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ إلى القِراءةِ(٤). وذلك على قولٍ.

٧- قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

وقال في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]: (كانوا في أوَّلِ الأمرِ إذا صلَّى أحدُهم العِشاءَ الآخِرةَ، أو إذا نام قبْلَ العِشاءِ الآخرةِ فإنَّه يَحرُمُ عليه الاستِمتاعُ بالمرأةِ والأكلِ والشُّربِ إلى غروبِ الشَّمسِ مِن اليومِ التَّالي؛ فشَقَّ عليهم ذلك مشَقَّةً عظيمةً، حتَّى إنَّ بعضَهم لم يَصبِرْ؛ فبيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ حِكمتَه، ورحمتَه بنا، حيث أحلَّ لنا هذا الأمرَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]: أي تاب عليكم بنَسخِ الحُكمِ الأوَّلِ الَّذي فيه مشَقَّةٌ؛ والنَّسخُ إلى الأسهلِ تَوبةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٠).

سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ المريضَ والمسافِرَ والمجاهِدَ يُكْتَبُ له مِثْلُ ما كان يَعمَلُ[(١)].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مِن حِكَمِ نَسخِ تحديدِ الوَقتِ في قيامِ اللَّيلِ -وذلك على قولٍ-: مراعاةُ أحوالٍ طرَأَت على المسلِمينَ مِن ضُروبِ ما تدعو إليه حالةُ الجماعةِ الإسلاميَّةِ، وذكَرَ مِن ذلك ثلاثةَ أضرُبٍ هي أصولُ الأعذارِ:

الضَّربُ الأوَّلُ: أعذارُ اختِلالِ الصِّحَّةِ، وقد شَمِلَها قَولُه تعالى: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾.

الضَّربُ الثَّاني: الأشغالُ الَّتي تدعو إليها ضَرورةُ العَيشِ مِن تجارةٍ وصِناعةٍ وحِراثةٍ وغَيرِ ذلك، وقد أشار إليها قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وفَضْلُ اللهِ هو الرِّزقُ.

الضَّربُ الثَّالثُ: أعمالٌ لِمَصالحِ الأمَّةِ، وأشار إليها قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ودخل في ذلك حِراسةُ الثُّغورِ والرِّباطُ بها، وتدبيرُ الجُيوشِ، وما يَرجِعُ إلى نَشرِ دَعوةِ الإسلامِ مِن إيفادِ الوُفودِ، وبَعْثِ السُّفَراءِ، وهذا كُلُّه مِن شُؤونِ الأمَّةِ على الإجمالِ[(٢)].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أصلٌ في التِّجارةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٧٩). ويُنظر ما أخرَجه البخاري (٢٩٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآيةُ -بل السُّورةُ كُلُّها- مَكِّيَّةٌ، ولم يكُنِ القِتالِ شُرِعَ بَعْدُ، فهي مِن أكبرِ دَلائِلِ النُّبُوَّةِ؛ لأنَّه مِن بابِ الإخبارِ بالمُغَيَّباتِ المُستقبلَةِ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ جوازُ قراءةِ المصلِّي أواخِرَ السُّوَرِ، وأواسِطَها، وأوائِلَها في الفَرضِ والنَّفْلِ[(٢)]. وجوازُ قراءةِ المصلِّي بعدَ الفاتحةِ سورتَينِ أو ثلاثًا، وله أنْ يَقْتَصِرَ على سُورةٍ واحدةٍ، أو يَقْسِمَ السُّورةَ إلى نِصفَينِ، وكلُّ ذلك جائزٌ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[(٣)]. وأنَّه لا بأسَ مِن إعادةِ السُّورةِ مرَّةً أو مرَّتَينِ؛ سواءٌ في ركعةٍ أو في ركعتَينِ، وسواءٌ كان سَهوًا أو عَمدًا؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[(٤)]. وذلك على أنَّ المرادَ بالآيةِ قراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٢٦١).

قال ابن القيِّم: (وكان مِن هَدْيِه قِراءةُ السُّورةِ كاملةً، ورُبَّما قرأها في الرَّكعتَينِ، ورُبَّما قرأ أوَّلَ السُّورةِ. وأمَّا قِراءةُ أواخِرِ السُّوَرِ وأوساطِها فلم يُحفَظْ عنه). ((زاد المعاد)) (١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٣/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٤٤١).

قال ابن كثير: (وقد استدَلَّ أصحابُ الإمامِ أبي حنيفةَ رحمه الله بهذه الآيةِ، وهي قولُه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ على أنَّه لا يتعيَّنُ قراءةُ الفاتحةِ في الصَّلاةِ، بل لو قرأ بها أو بغيرِها مِن القرآنِ ولو بآيةٍ، أجْزَأَه. واعتضَدوا بحديثِ المُسيءِ صلاتَه الَّذي في الصَّحيحَين: «ثمَّ اقرَأْ ما تيسَّر معك مِن القرآنِ». وقد أجابهم الجمهورُ بحديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ، وهو في الصَّحيحَينِ أيضًا: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: «لا صَلاةَ لِمَن لم يَقرَأْ بفاتحةِ الكِتابِ»، وفي صحيح مسلمٍ عن أبي هُرَيرةَ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «كلُّ صلاةٍ لا يُقرأُ فيها بأمِّ الكِتابِ فهي خِداجٌ، فهي خِداجٌ، فهي خِداجٌ، غيرُ تمامٍ». وفي صحيحِ ابنِ خُزَيْمةَ عن أبي هُرَيرةَ مرفوعًا: «لا تُجزِئُ صلاةُ مَن لم يَقرَأْ بأمِّ القرآنِ»). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (١/ ٢٠)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

قال ابن عاشور: (لا دَلالةَ في هذه الآيةِ على مِقْدارِ ما يُجزِئُ مِن القراءةِ في الصَّلاةِ؛ إذْ ليسَ =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أنَّه ليس على الإمامِ في صلاةِ التَّراويح في رمضانَ أنْ يَخْتِمَ القرآنَ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ، ولكِنْ إنْ خَتَمَه مِن أجْلِ أنْ تكونَ الجماعةُ الَّذين وراءَه يَستَمِعونَ إلى كتابِ اللهِ سُبحانَه وتعالى مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، كان خيرًا، وإنْ لم يَفْعَلْ فلا حَرَجَ(١)، وأيضًا أنَّه لا حَرَجَ أنْ يَقْرَأَ الإمامُ أجزاءً مُتفَرِّقةً في قيامِ رمضانَ في التَّراويحِ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ(٢). وذلك على أنَّ المرادَ بالآيةِ قِراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ.

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أقيمُوا صَلاتَكم الواجِبةَ عليكم، وآتُوا الزَّكاةَ المفروضةَ. وهذا يدُلُّ لِمَن قال: إنَّ فَرْضَ الزَّكاةِ نَزَل بمكَّةَ، لكِنَّ مَقاديرَ النُّصُبِ والمُخْرَجِ لم تُبَيَّنْ إلَّا بالمدينةِ. واللهُ أعلَمُ(٣).

١٤- إذا كانتْ هذه الآيةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ ...﴾ ممَّا نزَلَ بمكَّةَ ففيها بِشارةٌ بأنَّ أمْرَ المسلمينَ صائرٌ إلى استِقلالٍ وقَترةٍ على أعدائِهم، فيُقاتِلون في سَبيلِ اللهِ، وإنْ كانت مَدَنيَّةً فهو عذْرٌ لهم عن صَلاةِ القيامِ بسَببِ ما ابتَدؤوا فيه مِن السَّرايا والغزَواتِ(٤).

بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ

= سِياقُها في هذا المَهْيَع، ولَئِنْ سَلَّمْنا، فإنَّ ما تَيسَّر مُجمَلٌ، وقد بَيَّنَه قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لا صلاةَ لِمَن لم يَقْرَأْ بفاتحةِ الكتابِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٤).

وقد ذهب المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ قراءةَ الفاتحةِ ركنٌ مِن أركانِ الصَّلاةِ، وفي قراءةِ المأمومِ خلفَ الإمامِ خلافٌ بينهم. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٣/ ٤٧، ٥٢).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

لإيضاحِ ما أُجمِلَ في أوَّلِ السُّورةِ(١).

- وافتِتاحُ الكلامِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ يُشعِرُ بالثَّناءِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لوَفائِه بحَقِّ القيامِ الَّذي أُمِرَ به، وأنَّه كان يَبسُطُ إليه، ويَهتَمُّ به، ولم يَقتصِرْ على القدْرِ المُعيَّنِ فيه؛ النِّصفِ، أو أنقَصَ منه قليلًا، أو زائدٍ عليه، بلْ أخَذَ بالأقْصى، وذلك ما يَقرُبُ مِن ثُلُثي اللَّيلِ، كما هو شأْنُ أُولي العزْمِ(٢).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) للاهتمام به، وهو كِنايةٌ عن أنَّه أرْضَى ربَّه بذلك، وتَوطئةٌ للتَّخفيفِ الَّذي سيُذكَرُ في قولِه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه تَخفيفُ رَحمةٍ وكَرامةٍ، ولإفراغِ بَعضِ الوقتِ مِن النَّهارِ للعمَلِ والجِهادِ(٣).

- وإيثارُ المُضارِعِ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ ذلك العِلمِ وتَجدُّدِه، وذلك إيذانٌ بأنَّه بمَحلِّ الرِّضا منه، وفي ضِدِّه قولُه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨]؛ لأنَّه في مَعرِضِ التَّوبيخِ، أي: لمْ يَزَلْ عالِمًا بذلك حِينًا فحِينًا، لا يَخْفَى عليه منه حِصَّةٌ(٤).

- وإنَّما عُبِّرَ بالأدْنى -وهو الأقربُ- عن الأقلِّ؛ لأنَّ المسافةَ إذا دَنَت بيْنَ الشَّيئينِ قلَّ ما بيْنَهما مِن الأحيازِ، وإذا بعُدَت كثُرَ ذلك(٥).

- وقُرِئَ ﴿ونِصفِه وثُلُثِه﴾ بخفْضِهما عطفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، أي: أدْنى مِن

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٩).

نِصفِه، وأدْنى مِن ثُلثِه. وقُرِئَ بنصْبِ ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[1]، على أنَّهما مَنصوبانِ على المفعولِ لـ ﴿تَقُومُ﴾، أي: تَقومُ ثُلُثَيِ اللَّيلِ، وتَقومُ نِصفَ اللَّيلِ، وتَقومُ ثُلثَ اللَّيلِ، بحيث لا يَنقُصُ عن النِّصفِ وعن الثُّلثِ. وهذه أحوالٌ مُختلفةٌ في قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باللَّيلِ، تابعةٌ لاختلافِ أحوالِ اللَّيالي والأيَّامِ في طُولِ بَعضِها وقِصَرِ بَعضٍ، وكلُّها داخلةٌ تحتَ التَّخييرِ الَّذي خيَّرَه اللهُ في قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢] إلى قولِه: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٤]، وبه تَظهَرُ مُناسَبةُ تَعقيبِ هذه الجُملةِ بالجُملةِ المُعترِضةِ، وهي جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: قدْ عَلِمَها اللهُ كلَّها، وأنْبَأَه بها، فلا يَختلِفُ المقصودُ باختلافِ القراءاتِ[2].

- قولُه: ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ عطفٌ على اسمِ (إنَّ) بالرَّفعِ، وهو وجْهٌ جائزٌ إذا كان بعْدَ ذِكرِ خبَرِ (إنَّ)؛ لأنَّه يُقدَّرُ رفْعُه حِينَئذٍ على الاستِئنافِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، وهو مِن اللَّطائفِ إذا كان اتِّصافُ الاسمِ والمعطوفِ بالخبَرِ مُختلِفًا؛ فإنَّ بيْنَ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقِيامِ الطَّائفةِ الَّتي معه تَفاوُتًا في الحكْمِ والمِقدارِ، وكذلك بَراءةُ اللهِ مِن المُشركينَ وبَراءةُ رَسولِه؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوهم، ويَقرَأُ عليهم القُرآنَ، ويُعامِلُهم، وأمَّا اللهُ فغاضِبٌ عليهم ولاعِنُهُم، وهذا وجْهُ العُدولِ عن أنْ يقولَ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّكم تَقومون، إلى قولِه: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾، ثمَّ قولِه: ﴿وَطَآئِفَةٞ ...﴾ إلخ[3].

- وصدْرُ هذه الآيةِ إيماءٌ إلى الثَّناءِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في وَفائِه

---

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨١، ٢٨٢).

بقِيامِ اللَّيلِ حقَّ الوفاءِ، وعلى الطَّائفةِ الَّذين تابَعُوه في ذلك؛ فالخبَرُ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّك تَقومُ مُرادٌ به الكِنايةُ عن الرِّضا عنهم فيما فَعَلوا، والمَقصودُ التَّمهيدُ لقولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، ومِن أجْلِ هذا الاعتبارِ أُعِيدَ فِعلُ (عَلِمَ) في جُملةِ ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ...﴾ إلخ، ولم يقُلْ: (وأنْ سيَكونُ منكم مَرْضى) بالعطْفِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: ولا يَقدِرُ على تَقديرِ اللَّيلِ والنَّهارِ ومَعرفةِ مَقاديرِ ساعاتِهما إلَّا اللهُ وحْدَه. وتَقديمُ اسمِه تعالَى مُبتدأً مَبنيًّا عليه ﴿يُقَدِّرُ﴾ يُشعِرُ بالاختِصاصِ، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، أي: لنْ تُحْصوا تَقديرَ الأوقاتِ، ولن تَستطيعوا ضَبْطَ السَّاعاتِ. أو إنَّما استُفِيدَ الاختِصاصُ مِن سِياقِ الكلامِ، لا مِن تَقديمِ المُبتدأِ. أو إفادةُ الاختِصاصِ مِن خُصوصيَّةِ الاسمِ الجامعِ مع التَّركيبِ؛ لِما تَجِدُ التَّفاوُتَ بيْن ما عليه التِّلاوةُ وقولِنا: يُقدِّرُ اللهُ اللَّيلَ[٢].

- وجُملةُ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ خبَرًا ثانيًا عن (إنَّ) بعْدَ الخبَرِ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلخ. ويَجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا بَيانيًّا لِما يَنشَأُ عن جُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾؛ مِن تَرقُّبِ السَّامعِ لمَعرفةِ ما مُهِّدَ له بتلك الجُملةِ؛ فبعْدَ أنْ شكَرَهم على عَمَلِهم، خفَّفَ عنْهم منه[٣].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿تُحْصُوهُ﴾ وما بَعْدَه مُوجَّهٌ إلى المسلمينَ الَّذين كانوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).

يَقومونَ اللَّيلَ: إمَّا على طَريقةِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ بعْدَ قولِه: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾. وإمَّا على طَريقةِ العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ؛ بقَرينةِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُظَنُّ تعذُّرُ الإحصاءِ عليه، وبقَرينةِ قولِه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ إلخ(١).

- وقولُه: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾؛ لعدَمِ المُؤاخَذةِ قبْلَ حُصولِ التَّقصيرِ؛ لأنَّ التَّقصيرَ مُتوقَّعٌ، فشابَهَ الحاصلَ، فعُبِّرَ عن عدَمِ التَّكليفِ بما يُتوقَّعُ التَّقصيرُ فيه بفِعلِ (تاب) المُفيدِ رفْعَ المُؤاخَذةِ بالذَّنْبِ بعْدَ حُصولِه(٢).

- ومعنى قولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم، لَمَّا كانت الصَّلاةُ لا تَخْلو عن قِراءةِ القُرآنِ، عُبِّرَ عنها بالقِراءةِ؛ لأنَّها بَعضُ أركانِها؛ فقيل: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أي: صَلُّوا، كقولِه تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: صلاةَ الفَجرِ(٣).

- وفي الكِنايةِ عن الصَّلاةِ بالقُرآنِ جمْعٌ بيْن التَّرغيبِ في القِيامِ، والتَّرغيبِ في تِلاوةِ القُرآنِ فيه بطَريقةِ الإيجازِ(٤).

- قولُه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استِئنافٌ يُبيِّنُ حِكمةً أُخرى مُقتضيةً للتَّرخيصِ والتَّخفيفِ، وهي تَعذُّرُ القِيامِ على المَرْضى، والضَّاربينَ في الأرضِ للتِّجارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٤).

وللأشغالِ الَّتي تَدْعو إليها ضَرورةُ العَيشِ، والمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ؛ ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ كُرِّرَ ذلك على سَبيلِ التَّوكيدِ(١).

- أو استِئنافٌ على تَقديرِ السُّؤالِ عن وَجْهِ النَّسخِ وحِكمتِه(٢).

- وهذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، وهذا تَخفيفٌ آخَرُ مِن أجْلِ أحوالٍ أُخرى اقتَضَت التَّخفيفَ(٣).

- وقدْ سوَّى اللهُ بيْن المُجاهِدينَ والمسافِرينَ لكَسْبِ الحَلالِ؛ وذلك أنَّه أُعيدَ ذِكْرُ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وقُوبِلَ ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ بقولِه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ جُمِعَا في قولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾، لفْظًا مِن حيثُ الضَّميرُ، وحُكمًا في الأمْرِ بالقراءةِ على سَبيلِ التَّيسيرِ، وكان أصلُ الكلامِ: عَلِمَ أنْ سيَكونُ منْكم مَرْضَى ومُسافِرون، فقَسَمَهم قِسمَينِ: المُبتغينَ من فضْلِ اللهِ والمُجاهِدينَ، ولم يَكتَفِ بذلك، بل قدَّمَ المسافرينَ على المجاهِدينَ(٤).

- وسُمِّيَ السَّيرُ في الأرضِ ضَرْبًا في الأرضِ؛ لتَضمينِ فِعلِ ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ معْنى يَسيرون؛ فإنَّ السَّيرَ ضرْبٌ للأرضِ بالرِّجلَينِ، لكنَّه تُنُوسِيَ منه معْنى الضَّربِ وأُرِيدَ المشْيُ، فلذلك عُدِّيَ بحرْفِ (فِي)؛ لأنَّ الأرضَ ظرْفٌ للسَّيرِ، كما قال تعالَى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(٥) [آل عمران: ١٣٧].

- وفُرِّعَ على الابتغاءِ مِن فضْلِ اللهِ مِثلُ ما فُرِّعَ على الَّذي قبْلَه فقال: ﴿فَٱقۡرَءُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠٥، ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

﴿مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، أي: مِن القرآنِ، وقد نيطَ مِقدارُ القيامِ بالتَّيسيرِ على جَميعِ المسلمينَ وإنِ اختلَفَت الأعذارُ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ شُبِّهَ إعطاءُ الصَّدقةِ للفَقيرِ بقَرْضٍ يُقرِضُه اللهَ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ على الصَّدقةِ بالثَّوابِ الجزيلِ، فشابَهَ حالُ مُعْطي الصَّدقةِ مُستجيبًا رَغبةَ اللهِ فيه، بحالِ مَن أقرَضَ مُستقرِضًا في أنَّه حَقيقٌ بأنْ يُرجِعَ إليه ما أقْرَضَه، وذلك في الثَّوابِ الَّذي يُعطاهُ يومَ الجَزاءِ(٢).

- قولُه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ تَذْييلٌ لِما سَبَقَ مِن الأمْرِ في قولِه: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ فإنَّ قولَه: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يعُمُّ جَميعَ فِعلِ الخيرِ(٣).

- وفي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ، وتَقديرُ المحذوفِ: وافْعَلوا الخيرَ وما تُقدِّمُوا لأنفُسِكم منه تَجِدوه عندَ اللهِ، فاستُغْنِيَ عن المحذوفِ بذِكرِ الجزاءِ على الخيرِ(٤).

- ومعْنى تَقديمِ الخيرِ: فِعلُه في الحياةِ؛ شُبِّهَ فِعلُ الخيرِ في مُدَّةِ الحياةِ -لرَجاءِ الانتفاعِ بثَوابِه في الحياةِ الآخِرةِ- بتَقديمِ العازمِ على السَّفرِ ثَقَلَه -وهو متاعُ المُسافِرِ وحَشَمُه- وأدواتِه وبَعضَ أهْلِه إلى المحلِّ الَّذي يَرومُ الانتهاءَ إليه؛ ليَجِدَ ما يَنتفِعُ به وقْتَ وُصولِه(٥).

- و﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) الشَّرطيَّةِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعنى ﴿تَجِدُوهُ﴾ تَجدوا جَزاءَه وثَوابَه، وهو الَّذي قَصدَه فاعلُه، فكأنَّه وَجَدَ نفْسَ الَّذي قدَّمَه، وهذا استعمالٌ كَثيرٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ؛ أنْ يُعبَّرَ عن عِوَضِ الشَّيءِ وجَزائِه باسمِ المُعوَّضِ عنه والمُجازى به(١).

- وأفاد ضَميرُ الفصْلِ (هو) مُجرَّدَ التَّأكيدِ لتَحقيقِه(٢).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ للعطْفِ، فيَكونَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم ...﴾ إلخ، فيَكونَ لها حُكمُ التَّذييلِ؛ إرشادًا لتَدارُكِ ما عَسى أنْ يَعرِضَ مِن التَّفريطِ في بَعضِ ما أمَرَه اللهُ بتَقديمِه مِن خَيرٍ؛ فإنَّ ذلك يَشملُ الفرائضَ الَّتي يَقْتضي التَّفريطُ في بَعضِها تَوبةً منه. ويَجوزُ أنْ يكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن التَّرخيصِ في ترْكِ بَعضِ القيامِ؛ إرشادًا مِن اللهِ لِما يَسُدُّ مَسدَّ قِيامِ اللَّيلِ الَّذي يَعرِضُ ترْكُه بأنْ يَستغفِرَ المُسلِمُ ربَّه إذا انتبَهَ مِن أجزاءِ اللَّيلِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالاستِغفارِ، أي: لأنَّ اللهَ كَثيرُ المغفرةِ، شَديدُ الرَّحمةِ(٤). والمَقصودُ مِن هذا التَّعليلِ التَّرغيبُ والتَّحريضُ على الاستِغفارِ بأنَّه مَرجوُّ الإجابةِ. فقَرْنُ الحُكْمِ بالعِلَّةِ في مِثْلِ هذا يفيدُ الإقدامَ والنَّشاطَ على استِغفارِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وفي الإتيانِ بالوصفَينِ الدَّالَّينِ على المُبالَغةِ في الصِّفةِ إيماءٌ إلى الوعْدِ بالإجابةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨).

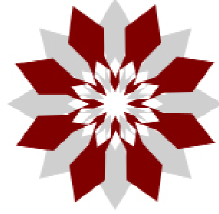
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٩).

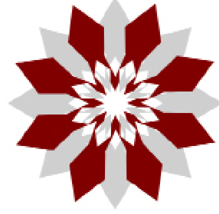
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

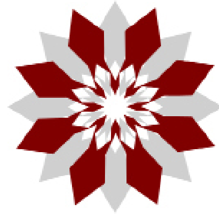
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣١).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ المُدَّثِّرِ







سورةُ المُدَّثِّر

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (المدَّثِّر)(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المدَّثِّرِ مكيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

الأمرُ بالنُّهوضِ بالدَّعوةِ ومُقَوِّماتِها(٣).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تكريمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمْرُه بتبليغِ رسالةِ الله إلى النَّاسِ.

٢- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن أذًى، وتهديدُ أعدائِه

---

(١) سُمِّيَت السورةُ بذلك؛ لافتتاحِها بلفظ (المدَّثِّرِ) في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، وهو وصفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩١).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٣٤).

(٣) قال البِقاعي: (مقصودُها: الجِدُّ والاجتهادُ في الإنذارِ بدارِ البوارِ لأهلِ الاستكبارِ، وإثباتُ البعثِ في أنفُسِ المكَذِّبينَ الفُجَّارِ، والإشارةُ بالبِشارةِ لأهلِ الادِّكارِ، بحُكمِ العزيزِ الغَفَّارِ). ((مصاعد النظر)) (٣/ ١٣٥).

بأشَدِّ ألوانِ العِقابِ.

٣- بيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ، وسوءِ عاقبةِ المكَذِّبينَ.

٤- الرَّدُّ على الكافِرينَ بما يُبطِلُ دعاواهم.



الآيات (١-١٠)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾: أي: المُشتَمِلُ بثيابِه إذا نام، يقالُ: تدَثَّرَ بالثَّوبِ: إذا اشتَمَل به داخِلًا فيه وتلَفَّف. والدِّثارُ: هو الثَّوبُ الَّذي يُستدفَأُ به مِن فوقِ الشِّعارِ الملاصِقِ للبَدَنِ، وأصلُ (دثر): يدُلُّ على تضاعُفِ شَيءٍ وتَناضُدِه بَعْضِه على بعضٍ[(١)].

﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾: أي: الأوثانَ والأصنامَ، والرِّجزُ: العَذابُ، وسمُيِّتَ الأوثانُ رجزًا؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العَذابِ، والرُّجزُ: اسمٌ للقبيحِ المستقذَر، والرُّجْزُ والرِّجْزُ لغتانِ، وقيل: الرُّجْزُ بالضَّمِّ: الصَّنَمُ، وبالكسرِ: النَّجاسَةُ، والمعصيةُ، والعذابُ[(٢)].

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾: أي: لا تُعْطِ عَطاءً لِتُعْطَى أكْثَرَ منه، مِن قَولِهم: مَنَّ: إذا أعطى. أو: لا تَمنُنْ بعَمَلِك مُستَكثِرًا له؛ مِنَ المَنِّ: الَّذي هو تعديدُ النِّعمةِ وذِكْرُها. وأصلُ (منن): يدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ٢٧٢).

و﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بتشديد الدَّالِ، وأصلُه المُتَدَثِّر، فأُدغِمَت التَّاءُ في الدَّالِ؛ لتَقارُبِ مَخرجَيْهما. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) لعياض (١/ ٢٥٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩، ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿ٱلنَّاقُورِ﴾: أي: الصُّورِ، وأصلُ (نقر): يدُلُّ على قَرعِ شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بنداءِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِداءً مِلْؤُه التَّلَطُّفُ والتَّحَبُّبُ إليه، قائلًا له: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّياب وضَمَّها عليه؛ خَوفًا وفَزَعًا، قُمْ فحَذِّرِ المُشرِكينَ عَذابَ اللهِ إنْ لم يُوَحِّدوه، وعَظِّمْ رَبَّك ونَزِّهْه عن النَّقائصِ، وطَهِّرْ ثِيابَك مِنَ النَّجاساتِ، ونَفْسَك مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، وأعمالَك مِن الشِّركِ والمعاصي، واترُكْ عِبادةَ الأوثانِ، ولا تُعْطِ شَيئًا رجاءَ أن تُعطى أكثَرَ منه، واصبِرْ على ما تَلْقَى مِن أذًى ومَكروهٍ في سبيلِ اللهِ، واصبِرْ على غيرِ ذلك مِن أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ، وعلى طاعةِ اللهِ وعن معصيته.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ يومَ القيامةِ لِبَعثِ النَّاسِ للحِسابِ، فذلك يَومٌ صَعْبٌ شديدٌ على الكافِرين، غَيرُ سَهلٍ ولا هَيِّنٍ عليهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جاوَرْتُ بحِراءٍ شَهْرًا، فلَمَّا قَضَيتُ جِواري، نَزَلْتُ فاستَبطَنْتُ بَطْنَ الوادي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أمامي وخَلفي، وعنْ يَميني، وعنْ شِمالي، فلمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٤).

نُودِيتُ فنَظَرْتُ فلمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا هو على العَرشِ في الهواءِ -يعني: جِبريلَ عليه السَّلامُ-، فأخَذَتْني رَجْفَةٌ شَديدةٌ! فأتَيتُ خَديجةَ، فَقُلْتُ: دَثِّروني، فدَثَّروني، فصَبُّوا علَيَّ ماءً، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٤]))[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

أي: يا أيُّها المتغَطِّي بالثِّيابِ خَوفًا وفزَعًا[٢].

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

أي: قُمْ فخَوِّفِ المُشرِكينَ وحَذِّرْهم عَذابَ اللهِ إنْ لم يُوَحِّدوه[٣].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٢٤)، ومسلمٌ (١٦١) واللَّفظُ له.

قال القَسْطَلَّاني: (وليس في هذا الحديثِ أنَّ أوَّلَ ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وإنَّما استخرَجَ ذلك جابرٌ باجتهادِه وظنِّه فلا يُعارِضُ الحديثَ الصَّحيحَ الصَّريحَ ... أنَّه ﴿ٱقْرَأْ﴾). ((إرشاد الساري)) (٧/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

قال الزمخشري: (المُدَّثِّرُ: لابِسُ الدِّثارِ، وهو ما فوقَ الشِّعارِ، وهو الثَّوبُ الَّذي يلي الجسَدَ، ومنه قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «الأنصارُ شِعارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ» [البخاري «٤٣٣٠» ومسلم «١٠٦١»]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٤).

وقال الرازي: (أجمَعوا على أنَّ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ هو رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: يا أيُّها المدَّثِّرُ من الرُّعبِ لرؤيةِ مَلَكِ الوَحيِ، لا تَخفْ، وأقبِلْ على الإنذارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

قال الرازي: (في قولِه: ﴿قُمْ﴾ وجهان: أحدُهما: قمْ مِن مضجعِك، والثاني: قُمْ قيامَ عزمٍ وتصميمٍ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٧).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنذارُ يتضَمَّنُ مواجهةَ النَّاسِ بما يَكرَهون، وذلك عظيمٌ على الإنسانِ، وكان المُفَتِّرُ عن اتِّباعِ الدَّاعي أحدَ أمْرَينِ: ترْكَه ما يؤمَرُ به، وطَلَبَه عليه الأجرَ، كما أنَّ الموجِبَ لاتِّباعِه: عمَلُه بما دعا إليه، وبُعدُه عن أخذِ الأجرِ عليه- أمَرَه بتعظيمِ مَن أرسَلَه سُبحانَه؛ فإنَّه إذا عُظِّمَ حَقَّ تعظيمِه، صَغُرَ كُلُّ شيءٍ دونَه، فهان عليه الدُّعاءُ، وكان له مُعينًا على القَبولِ، فقال[١]:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

أي: وعَظِّمْ رَبَّك قَولًا -ومِن ذلك قولُ: اللهُ أكبرُ- واعتقادًا، ومِن ذلك: عِبادتُه وَحْدَه، وتنزيهُه عن النَّقائصِ، ووَصْفُه بصِفاتِ الكَمالِ، ودَعوةُ النَّاسِ إلى توحيدِه وتَعظيمِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥، ٢٩٦).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: عظِّمْه. ويحتَمِلُ أن يريدَ قولَ: اللهُ أكبَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٩).

وقال ابن عاشور: (مَعْنَى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾: صِفْ رَبَّك بصِفاتِ التَّعظيمِ، وهذا يَشملُ تَنْزيهَه عن النَّقائصِ، فيَشملُ توحيدَه بالإلَهيَّةِ، وتنزيهَه عن الولدِ، ويَشملُ وَصْفَه بصفاتِ الكمالِ كُلِّها. ومعْنى «كَبِّرْ»: كبِّرْه في اعتِقادِك، وكبِّرْه بقولِك تَسبيحًا وتَعليمًا، ويَشملُ هذا المعْنى أنْ يقولَ: «اللهُ أكبَرُ»؛ لأنَّه إذا قال هذه الكلمةَ أفاد وصْفَ اللهِ بأنَّه أكبَرُ مِن كلِّ كبيرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦).

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تنزيهُ العبدِ عن الأدناسِ مِن أجْلِ تنزيهِ المعبودِ؛ أمَرَ اللهُ تعالى بتطهيرِ الظَّاهِرِ والباطِنِ[(١)]، فقال:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

أي: وطَهِّرْ ثِيابَك مِنَ النَّجاساتِ، وطهِّرْ نَفْسَك مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، وطهِّرْ أعمالَك مِن الشِّركِ والمعاصي[(٢)].

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بمُجانَبةِ القَذَرِ في الثِّيابِ، وجَعَل ذلك كنايةً عن تجنُّبِ الأقذارِ كُلِّها؛ لأنَّ مَن جَنَّب ذلك مَلْبَسَه أبعَدَه عن نَفْسِه مِن بابِ الأَولى- حَقَّق العُمومَ وأكَّده، فقال[(٣)]:

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾.

أي: واترُكْ عِبادةَ الأوثانِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٤٠٤-٤٠٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٢، ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٢-٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣، ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأ بأحَدِ سَبَبي القَبولِ، أتْبَعَه الثَّانيَ المُبعِدَ عن قاصمةِ العَمَلِ؛ مِن الإعجابِ والرِّياءِ والمَلَلِ، فقال: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[1]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

وأيضًا فمُناسَبةُ عطْفِه على الأمرِ بهَجْرِ الرُّجْزِ: أنَّ المَنَّ في العطيَّةِ كَثيرٌ مِن خُلقِ أهلِ الشِّركِ، فلمَّا أمَرَه اللهُ بهَجْرِ الرُّجْزِ نَهاهُ عن أخلاقِ أهلِ الرُّجْزِ[2]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾.

أي: لا تُعْطِ شيئًا رجاءَ أن تُعطَى أكثرَ منه[3].

= (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المفَسِّرينَ: يريدُ: عِبادةَ الأوثانِ فاهجُرْ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٠، ٣٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٣) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزجاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والواحدي، واستظهره القرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤).

وممَّن نسَب هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ وجمهورِهم: مكِّيٌّ، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٥٢).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لا تُعْطِ العَطِيَّةَ تَلتَمِسُ أكثرَ منها. وكذا =

= قال عِكْرِمةُ، ومجاهِدٌ، وعطاءٌ، وطاوُسٌ، وأبو الأحوصِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ يحتَمِلُ قولُه: ﴿تَمْنُن﴾ أن يكونَ بمعنى العطاءِ، أو بمعنى المَنِّ، وهو ذِكرُ العطاءِ وشِبْهِه، أو بمعنى الضَّعْفِ؛ فإن كان بمعنَى العطاءِ ففيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ معناه: لا تُعْطِ شيئًا لتأخُذَ أكثَرَ منه. قال بعضُهم: هذا خاصٌّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومباحٌ لأُمَّتِه، والآخَرُ: لا تُعْطِ النَّاسَ عطاءً وتَستَكْثِره؛ لأنَّ الكريمَ يَستقِلُّ ما يُعطي وإنْ كان كثيرًا. وإن كان مِن المَنِّ بالشَّيءِ ففيه وجهانِ؛ الأوَّلُ: لا تَمْنُنْ على النَّاس بنُبوَّتِك تَستكثِرُ بأجرٍ أو مَكسَبٍ تَطلُبُه. الثَّاني: لا تمنُنْ على الله بعَمَلِك تستكثِرُ أعمالَك ويقَع لك بها إعجابٌ. وإن كان مِن الضَّعفِ فمعناه: لا تَضعُفْ عن تبليغِ الرِّسالةِ، وتَستكثِرْ ما حمَّلْناك مِن ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: ولا تَمنُنْ بعمَلِكَ الصَّالحِ فتَستَكْثِرَه على ربِّك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٦).

وقيل: المعنى: لا تَمنُنْ على النَّاسِ بما قدَّمْتَ لهم مِن خيرٍ، وتَعُدَّ ما أعطَيْتَه كثيرًا. وممَّن ذهب إليه في الجملةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

قال السعدي: (لا تَمنُنْ على النَّاسِ بما أسدَيْتَ إليهم مِن النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فتَتكثَّرَ بتلك المنَّةِ، وتَرى لك الفضلَ عليهم بإحسانِك المنَّةَ، بل أحسِنْ إلى النَّاسِ مهما أمكَنَك، وانْسَ عِندَهم إحسانَك، ولا تطلُبْ أجْرَه إلَّا مِن اللهِ تعالى، واجعَلْ مَن أحسَنْتَ إليه وغَيْرَه على حَدٍّ سواءٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

وقال الجصَّاصُ: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وإبراهيمُ ومجاهدٌ وقَتادةُ والضَّحَّاكُ: لا تُعطِ عَطيَّةً لِتُعطَى أكثَرَ منها. وقال الحسَنُ والرَّبيعُ بنُ أنسٍ: لا تَمنُنْ حسَناتِك على الله مُستكثِرًا لها فيَنقُصَك ذلك عندَ الله. وقال آخَرون: لا تَمنُنْ بما أعطاك الله من النُّبوَّةِ والقرآنِ مُستكثِرًا به الأجرَ مِن النَّاسِ. وعن مُجاهِدٍ أيضًا: لا تَضعُفْ في عمَلِك مُستكثِرًا لطاعتِك.

وقال أبو بكرٍ [الجصَّاص]: هذه المعاني كلُّها يَحتمِلُها اللَّفظُ، وجائزٌ أن يكونَ جميعُها مرادًا به، فالوجهُ حمْلُه على العُمومِ في سائرِ وُجوهِ الاحتمالِ). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٣٦٨).

وقال ابن العربي: (المَنُّ... يُطلَقُ على معنيَين؛ أحدُهما: العطاءُ.

والثَّاني: التَّعدادُ على المُنعَمِ عليه بالنِّعَمِ... والآيةُ تَتناوَلُ المعنيَين كِلَيْهما). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٤٣).

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنذارُ شديدًا على النُّفوسِ يَحصُلُ به مِن المعالَجاتِ ما الموتُ دونَه؛ لأنَّ تَرْكَ المألوفاتِ أصعَبُ شَيءٍ على النُّفوسِ، وكذا تركُ العوائِدِ- قال آمِرًا بالتَّحَلِّي بالعاصِمِ بعدَ التَّخَلِّي عن القاصِمِ، مُعْلِمًا بأنَّ الأذَى مِن المُنذَرِينَ أمرٌ لا بدَّ منه، فيَدخُلُ في الطَّاعةِ على بصيرةٍ[(١)]:

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾.

أي: واصبِرْ مِن أجْلِ رَبِّك وَحْدَه على ما تَلْقَى مِن أذًى ومَكروهٍ في سبيلِ دَعوةِ الخَلْقِ إلى اللهِ تعالى، وتبليغِ رِسالتِه، واصبِرْ على غيرِ ذلك مِن أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ، وعلى طاعةِ الله وعن معصيتِه[(٢)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ المرادَ أمرُه بالصَّبرِ على الأذى والمكروهِ مِنَ المُشرِكينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩).

وقيل: المعنى: اصبِرْ لِرَبِّك على طاعتِه، وأداءِ فرائِضِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٩).

ومِمَّن ذهب إلى العُمومِ: ابنُ عطيَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

قال ابنُ عطية: (﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ أي: لِوَجهِ رَبِّك وطَلَبِ رِضاه، كما تقولُ: فعَلْتُ لله تعالى، والمعنى: على الأذى مِن الكُفَّارِ، وعلى العبادةِ، وعن الشَّهَواتِ، وعلى تكاليفِ النُّبُوَّةِ). =

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا تَمَّمَ ما يتعَلَّقُ بإرشادِ قُدوةِ الأنبياءِ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عَدَل عنه إلى شَرحِ وَعيدِ الأشقياءِ(١)، فقال:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

أي: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ يومَ القيامةِ لِبَعثِ النَّاسِ أحياءً مِن قُبورِهم للحِسابِ والجَزاءِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٣).

وقال السعدي: (﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: احتَسِبْ بصَبْرِك، واقصِدْ به وَجْهَ اللهِ تعالى، فامتَثَلَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأمرِ رَبِّه، وبادَرَ إليه، فأنذَرَ النَّاسَ، وأوضَحَ لهم بالآياتِ البيِّناتِ جميعَ المطالِبِ الإلهيَّة، وعَظَّمَ اللهَ تعالى، ودعا الخَلْقَ إلى تعظيمِه، وطهَّر أعمالَه الظَّاهِرةَ والباطِنةَ مِن كُلِّ سُوءٍ، وهَجَر كُلَّ ما يُبعِدُ عن اللهِ مِن الأصنامِ وأهلِها، والشَّرِّ وأهلِه، وله المِنَّةُ على النَّاسِ، بَعْدَ مِنَّةِ اللهِ تعالى، مِن غيرِ أن يَطلُبَ منهم على ذلك جزاءً ولا شُكورًا، وصَبَر للهِ أكمَلَ صَبرٍ؛ فصَبَرَ على طاعةِ اللهِ، وعن معاصي اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ، حتَّى فاق أُولي العَزمِ مِنَ المُرسَلينَ، صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه وعليهم أجمَعينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥، ٨٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

قال النيسابوري: (النَّاقورُ ما يُنقَرُ به، وهو الصُّورُ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، فكأنَّه آلةُ النَّقْرِ، أي: النَّفخِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (النَّاقورُ: البُوقُ الَّذي يُنادَى به الجَيشُ، ويُسَمَّى الصُّورَ، وهو قَرْنٌ كبيرٌ أو شِبْهُه يَنفُخُ فيه النَّافِخُ لنداءِ ناسٍ يَجتَمِعونَ إليه مِن جيشٍ ونحوِه... قولُه: ﴿نُقِرَ﴾ أي: صُوِّتَ، أي: صوَّتَ مُصَوِّتٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠، ٣٠١).

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ [النبأ: ١٨].

﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩﴾.

أي: فذلك يَومٌ صَعْبٌ شديدٌ، بالغُ العُسْرِ، عظيمُ الأهوالِ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ الأوَّلينَ والآخِرينَ في صعيدٍ واحدٍ، يُسمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهم البَصَرُ، وتَدْنو الشَّمسُ، فيَبلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطيقونَ، ولا يَحتَمِلونَ))[٢].

﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾.

أي: وهو يومٌ شديدٌ على الكافِرينَ باللهِ ورُسُلِه، غيرُ سَهلٍ ولا هَيِّنٍ عليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ * مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٧، ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- اللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ بأسمائِهم، فقال ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥).

[المائدة: ٦٧]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، فنحن أحقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا إذا كان في مقامِ الإخبارِ عنه، قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وقُلْنا: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ، فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، فالفَرقُ بيْن مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقلِ(١).

٢- في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أنَّه واجِبٌ على الأُمَّةِ أنْ يُبَلِّغوا ما أُنْزِلَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُنْذِروا كما أنْذَرَ(٢).

٣- الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكرِ يجِبُ أنْ يكونَ حليمًا صبورًا على الأذَى؛ فإنَّه لا بدَّ أنْ يحصُلَ له أذًى؛ فإنْ لم يحلمْ ويصبرْ كان ما يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ، ولهذا أمَرَ اللهُ الرُّسلَ -وهم أئمةُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ- بالصبرِ، بل قرَنه بتبليغِ الرِّسالةِ، كقولِه لخاتمِ الرُّسلِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ فافتتَحَ آياتِ الإرسالِ إلى الخَلْقِ بالأمرِ بالنِّذارةِ، وختَمَها بالأمرِ بالصَّبرِ، ونَفْسُ الإنذارِ أمرٌ بالمعروفِ ونهيٌ عنِ المُنكَرِ؛ فعُلِمَ أنَّه يجبُ بعدَ ذلك الصَّبرُ(٣).

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٧).

٤- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فيه الأمرُ بالتَّطَهُّرِ الحِسِّيِّ والمعنويِّ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الاحترازِ عن كُلِّ المعاصي -وذلك بِناءً على أنَّ الرجزَ هو العذابُ-، وعلى أنَّه اسمٌ للقبيحِ فهو كلامٌ جامعٌ في مكارمِ الأخلاقِ؛ كأنَّه قيل له: اهجُرْ كلَّ شيءٍ قبيحٍ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ نَهْيُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن دَناءاتِ الأخلاقِ والمطامعِ، وقد حَثَّ اللهُ تعالى على التَّأسِّي برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تأسِّيًا عامًّا في قَولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣] [الأحزاب: ٢١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ هذه سِتُّ وصايا أوصى اللهُ بها رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مبدأِ رِسالتِه، وهي مِن جوامِعِ القُرآنِ، أراد اللهُ بها تزكيةَ رَسولِه، وجعلَه قُدوةً لأمَّتِه[٤]. ونبَّه الله تعالى في هذه الآياتِ على حالِ رسولِه وكمالِه، وإتمامِ نعمةِ الله عليه، وكم بينَ ابتداءِ أمرِه وانزعاجِه مِن الوحيِ، وتدثُّرِه مِن شدَّةِ ما لقِيَ، وبينَ آخرِ أمرِه حينَ أتمَّ اللهُ أمورَه كلَّها؛ ولهذا أمرَه بتكميلِ نفسِه وتكميلِ غيرِه، وأرشَده إلى ما ينالُ به ذلك: وهو القيامُ التامُّ على وجهِ النَّشاطِ والتَّعظيمِ لربِّه، وتكبيرُه في باطنِه، وتطهيرُ أعمالِه وثيابِه الظَّاهرةِ، وتركُ كلِّ شرٍّ ودَنَسٍ، واستعمالُ رُوحِ الأعمالِ، وهو الإخلاصُ في كلِّ شيءٍ، حتى في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٩).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠).

العطاءِ، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، ثمَّ أرشَده إلى ما يُعينُه على كلِّ الأمورِ، وهو الصبرُ لوجهِ الله، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، ثمَّ تكفَّل له بحفظِه مِن الأعداءِ، وحفظِ ما جاء به، بتوعُّدِهم بالعذابِ، خصوصًا لأكبرِهم عنادًا وأعظمِهم عداوةً، وهذا تمامُ النِّعمةِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قيل: إنَّ أوَّلَ ما أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وقد رُويَ ذلك عن جابرِ ابنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما(٢)، والأصحُّ أنَّ أوَّلَ ما أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وهو قولُ جماهيرِ العُلَماءِ؛ فإنَّ حديثَ عائِشةَ رضيَ الله عنها الَّذي في الصَّحيحَينِ(٣) يُبيِّنُ أنَّ أوَّلَ ما نَزَل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، نزَلَت عليه وهو في غارِ حِراءٍ، وأنَّ (المُدَّثِّرَ) نزلت بَعْدُ. وهذا هو الَّذي يَنبغي؛ فإنَّ قولَه: ﴿اقْرَأْ﴾ أمرٌ بالقراءةِ، لا بتبليغِ الرِّسالةِ، وبذلك صار نَبيًّا، وقَولَه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أمرٌ بالإنذارِ، وبذلك صار رسولًا مُنذِرًا(٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ جُعِلَت هذه الكلمةُ (اللهُ أكبَرُ) افتتاحًا للصَّلاةِ، ولعلَّ في ذِكرِ التَّكبيرِ إيماءً إلى شَرعِ الصَّلاةِ الَّتي أوَّلُها التَّكبيرُ، وخاصَّةً اقترانُه بقولِه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ فإنَّه إيماءٌ إلى شَرعِ الطَّهارةِ؛ فلعَلَّ ذلك إعدادٌ

---

(١) يُنظر: ((المواهب الربانية)) للسعدي (ص: ١٥، ١٦)، ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (١٦١).

والمرادُ بالأوَّليَّةِ فيما رُويَ عن جابرٍ رضيَ الله عنه أوَّليَّةٌ مخصوصةٌ بما بعدَ فَترةِ الوحيِ، أو مخصوصةٌ بالأمرِ بالإنذارِ، لا أنَّ المرادَ أنَّها أوَّليَّةٌ مُطلَقةٌ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٥٤).

لِشَرعِ الصَّلاةِ[(١)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أمرٌ بتطهيرِ الثِّيابِ مِنَ النَّجاساتِ، ويَقبُحُ أن تكونَ ثيابُ المؤمِنِ نَجِسةً[(٢)]. ففيه وُجوبُ غَسلِ النَّجاسةِ، وإزالتِها مِن الثَّوبِ[(٣)].

٤- على القولِ بأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ هو أنْ تُهْدِيَ لِيُهْدَى إليك أكثرَ مِن هَديَّتِك فهذا يدُلُّ على أنَّ صُوَرَ العُقودِ غيرُ كافيةٍ في حِلِّها وحُصولِ أحكامِها إلَّا إذا لم يَقصِدْ بها قَصْدًا فاسِدًا، وكلُّ ما لو شَرَطَه في العقدِ كان عِوَضًا فاسدًا فقَصْدُه فاسِدٌ؛ لأنَّه لو كان صالِحًا لم يَحْرُمِ اشْتِراطُه[(٤)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ تثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على تحَمُّلِ ما يَلْقاه مِن أذى المُشرِكينَ، وعلى مَشاقِّ الدَّعوةِ[(٥)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فيه بِشارةٌ للمُؤمنينَ كبيرةٌ؛ إذْ لا يكونُ ذلك اليَومُ على الكافِرينَ غيرَ يَسيرٍ إلَّا وهو على المؤمنينَ يسيرٌ[(٦)]. قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (لَمَّا قال: إنَّه غيرُ يَسيرٍ على الكافِرينَ، كان يسيرًا على المؤمنينَ)، فبَعضُ مَن قال بدليلِ الخِطابِ[(٧)] قال: لولا أنَّ دَليلَ الخِطابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((الأم)) للشافعي (١/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٦).

(٧) دَليلُ الخِطابِ -أو مفهومُ المُخالَفةِ-: هو ما يُفهَمُ مِنَ الكلامِ بطَريقِ الالْتزامِ. وقيل: هو أنْ يَثبُتَ الحُكمُ في المسكوتِ على خِلافِ ما ثبَتَ في المنطوقِ، ومنه الاحتِجاجُ بقولِه تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] على رُؤيةِ المُؤمِنين لربِّهم يومَ القِيامةِ، وهو احتِجاجٌ =

حُجَّةٌ وإلَّا لَمَا فَهِمَ ابنُ عبَّاسٍ مِن كَونِه غيرَ يَسيرٍ على الكافِرِ: كَونَه يَسيرًا على المؤمِنِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾

- النِّداءُ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نِداءُ تَكرِمةٍ وتَلطُّفٍ(٢).

- قولُه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قيل: القِيامُ المأمورُ به هنا مُستعمَلٌ في الأمْرِ بالمُبادَرةِ والإقبالِ والتَّهمُّمِ بالإنذارِ كِنايةً، واستعمالُ فِعلِ القِيامِ في معنَى الشروعِ قدْ يكونُ كِنايةً عن لازمِ القِيامِ مِن العَزمِ والتَّهمُّمِ، أي: قُمْ قِيامَ عَزْمٍ وتصميمٍ فحَذِّرْ مِن عذابِ اللهِ مَن لم يُؤمنوا، وقدْ يُرادُ المعنى الصَّريحُ مع المعنَى الكنائيِّ(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ابتُدِئَ بالأمرِ بالإنْذارِ؛ لأنَّ الإنذارَ يَجمَعُ مَعانيَ التَّحذيرِ مِن فِعلِ شَيءٍ لا يَليقُ وعَواقبِه، فالإنذارُ حَقيقٌ بالتَّقديمِ قبْلَ الأمرِ بمَحامدِ الفِعالِ؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، ودَرْءَ المَفاسدِ مُقدَّمٌ على جلْبِ المصالحِ، ولأنَّ غالبَ أحوالِ النَّاسِ يَومَئذٍ مُحتاجةٌ إلى الإنذارِ

= مِن جِهةِ دَليلِ الخِطابِ، وإلَّا فلو حُجِبَ الكلُّ لَما أغْنَى هذا التَّخصيصُ؛ قال الشَّافعيُّ: (لَمَّا حَجَب قومًا بالسَّخَطِ، دلَّ على أنَّ قومًا يَرَوْنَه بالرِّضا). يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

والتَّحذيرِ[(١)].

- وأفادتْ فاءُ ﴿فَأَنذِرْ﴾ تعقيبَ إفادةِ التَّحفُّزِ والشُّروعِ بالأمرِ بإيقاعِ الإنذارِ، فِفعلُ ﴿قُمْ﴾ مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ، وتَفريعُ ﴿فَأَنذِرْ﴾ عليه يُبيِّنُ المرادَ مِن الأمرِ بالقِيامِ[(٢)].

- ومَفعولُ (أنذِرْ) مَحذوفٌ؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: أنذِرِ النَّاسَ كلَّهم، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، أو المفعولُ مُقدَّرٌ بمَفعولٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(٣)] [الشعراء: ٢١٤].

- واقتَصر على الإنذارِ هنا معَ أنَّه أيضًا بُعِث مُبشِّرًا؛ لأنَّ ذلك كان أوَّلَ الإسلامِ، فمتعلَّقُ الإنذارِ محقَّقٌ، فلمَّا أطاعَ مَن أطاعَ نزَلتْ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾[(٤)] [الأحزاب: ٤٥] [الفتح : ٨].

- قولُه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ انتَصب (ربَّك) على المفعوليَّةِ للفِعلِ (كبِّرْ)، وقُدِّمَ على عامِلِه لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لا تُكبِّرْ غيرَه، وهو قصْرُ إفرادٍ، أي: دونَ الأصنامِ[(٥)].

- قولُه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ دخَلَت الفاءُ على (كبِّر) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(كبِّر) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولَ قدْ يُنزَّلُ مَنزِلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مهْما يكُنْ شَيءٌ فكبِّرْ ربَّك، والمعْنى: ألَّا يَفتُرَ عن الإعلانِ بتَعظيمِ اللهِ وتَوحيدِه في كلِّ زمانٍ وكلِّ حالٍ، وهذا مِن الإيجازِ. أوْ للدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمرِ بالقيامِ أنْ يُكبِّرَ رَبَّه، ويُنزِّهَه مِن الشِّركِ[١].

- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ دخَلَتِ الفاءُ على (طَهِّر) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ (طهِّر) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ قدْ يُنزَّلُ مَنزِلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مهْما يكُنْ شَيءٌ فلا تَترُكْ تَطهيرَ ثِيابَك[٢].

- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ للثِّيابِ إطلاقٌ صَريحٌ، وهو ما يَلبَسُه اللَّابسُ، وإطلاقٌ كِنائيٌّ، فيُكنَّى بالثِّيابِ عن ذاتِ صاحبِها وقلْبِه، وللتَّطهيرِ إطلاقٌ بمعْنى التَّنظيفِ وإزالةِ النَّجاساتِ، وإطلاقٌ بمعْنى التَّزكيةِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والمَعنيانِ صالحانِ في الآيةِ، فتُحمَلُ عليهما معًا، فتَحصُلُ أربعةُ مَعانٍ؛ لأنَّه مَأمورٌ بالطَّهارةِ الحقيقيَّةِ لثِيابِه؛ إبطالًا لِما كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِن عدَمِ الاكتراثِ بذلك، والطَّهارةُ لجسَدِه بالأَولى[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٨٦).

وقيل: هو كِنايةٌ عن طَهارةِ العَملِ، والمعنى: وعمَلَك فأصْلِحْ؛ فالرَّجلُ إذا كان خَبيثَ العَملِ قالوا: فلانٌ خَبيثُ الثِّيابِ، وإذا كان حَسَنَ العَملِ قالوا: فلانٌ طاهرُ الثِّيابِ. وقيل: كنَّى بالثيابِ عن الجسْمِ. وقيل: هي كِنايةٌ عن الأهْلِ؛ قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والتَّطهُّرُ فيهنَّ اختيارُ المؤمناتِ العَفائفِ. وقيل: ووَطْؤهنَّ في القُبلِ لا في الدُّبرِ، في الطُّهرِ لا في الحَيضِ. وقيل: كِنايةٌ عن الخُلُقِ، أي: وخُلقَك فحسِّنْ[1].

- وتَقديمُ (ثِيَابَكَ) على فِعلِ (طهِّرْ)؛ للاهتمامِ به في الأمرِ بالتَّطهيرِ[2].

- قولُه: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ فيه تَقديمُ الرُّجْزِ على فِعلِ (اهجُرْ)؛ للاهتمامِ في مَهْيعِ الأمرِ بتَرْكِه[3].

- والهَجرُ هنا كِنايةٌ عن تَرْكِ التَّلبُّسِ بالأحوالِ الخاصَّةِ بأنواعِ الرُّجْزِ لكلِّ نوعٍ بما يُناسِبُه في عُرفِ النَّاسِ، والأمرُ بهَجرِ الرُّجزِ يَستلزِمُ ألَّا يَعبُدَ الأصنامَ، وأنْ يَنفِيَ عنها الإلهيَّةَ[4].

- وأيضًا الأمرُ في قولِه: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ مُستعمَلٌ في معْنى الثَّباتِ والدَّوامِ على هجْرِ الرُّجزِ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان بَريئًا منه[5].

- وكذلك في قولِه: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ دخَلَت الفاءُ على (اهْجُرْ) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ (اهْجُرْ) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٤).

مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ قدْ يُنزَّلُ مَنزِلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مَهْما يكُنْ شَيءٌ فاهْجُرِ الرُّجزَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قيل: لمَّا أمَرَه اللهُ بهَجْرِ الرُّجْزِ نَهاهُ عن أخلاقِ أهلِ الرُّجزِ نَهْيًا يَقْتضي الأمرَ بالصَّدقةِ، والإكثارَ منها بطَريقِ الكِنايةِ، فكأنَّه قال: وتَصدَّقْ وأكثِرْ مِن الصَّدقةِ ولا تَمنُنْ، ففي هذه الآيةِ إيماءٌ إلى التَّصدُّقِ، كما كان فيها ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إيماءٌ إلى الصَّلاةِ، ومِن عادةِ القُرآنِ الجمْعُ بيْن الصَّلاةِ والزَّكاةِ، والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ للعَدِّ، أي: بعَدِّ ما أعطَيْتَه كثيرًا -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا مِن بَديعِ التَّأكيدِ لحُصولِ المأمورِ به جُعِلَت الصَّدقةُ كالحاصلةِ، أي: لأنَّها مِن خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ كان أجوَدَ النَّاسِ، وقد عُرِفَ بذلك مِن قَبلِ رِسالتِه؛ لأنَّ اللهَ هيَّأه لمَكارِمِ الأخلاقِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ الاستِكثارُ: عَدُّ الشَّيءِ كثيرًا، أي: لا تَستعظِمْ ما تُعطِيه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا النَّهيُ يُفيدُ تَعميمَ كلِّ استكثارٍ كيْفما كان ما يُعطِيه مِن الكثرةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ فيه تَقديمُ ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ على (اصبِرْ)؛ للاهتمامِ بالأُمورِ الَّتي يُصبَرُ مِن أجْلِها، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٤].

- وفِعلُ الصَّبرِ يُعدَّى إلى اسمِ الَّذي يَتحمَّلُه الصَّابرُ بحرْفِ (على)، يُقالُ: صبَرَ على الأذى، ويَتضمَّنُ معْنى الخُضوعِ للشَّيءِ الشَّاقِّ، فيُعدَّى إلى اسمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

ما يَتحمَّلُه الصَّابرُ باللَّامِ، ومُناسَبةُ المقامِ تُرجِّحُ إحْدى التَّعديتَينِ، فلا يُقالُ: اصبِرْ على اللهِ، ويُقالُ: اصبِرْ على حُكمِ اللهِ، أو لِحُكْمِ اللهِ، فيجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: (لِرَبِّكَ) لتَعديةِ فِعلِ الصَّبرِ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: اصبِرْ لأمْرِ اللهِ وتَكاليفِ وَحْيِه، وهذا يُناسِبُ نِداءَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ لأنَّه تَدثَّرَ مِن شِدَّةِ وَقْعِ رُؤيةِ المَلَكِ، وتَرْكُ ذِكرِ المُضافِ لتَذهَبَ النَّفْسُ إلى كلِّ ما هو مِن شأْنِ المُضافِ إليه ممَّا يَتعلَّقُ بالمُخاطَبِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في (لِرَبِّكَ) للتَّعليلِ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ الصَّبرِ، أي: اصبِرْ مِن أجْلِ ربِّك على كلِّ ما يَشُقُّ عليك[١]. ويجوزُ أن يُضَمَّنَ (اصْبِرْ) معنى: أَذْعِنْ لربِّك، وسَلِّمْ له أمْرَك صابرًا[٢].

- وأُطلِقَ الصَّبرُ، وتُرِك ذِكرُ المصبورِ عليه والمصبورِ عنه؛ للعِلمِ بهما، ولِيَتناوَلَ كلَّ مصبورٍ عليه ومَصبورٍ عنه، ويَدخُلُ فيه الصَّبرُ على أذَى المشركينَ؛ لأنَّه فردٌ مِن أفرادِ العامِّ، لا لأنَّه وحْدَه هو المرادُ[٣].

- وفي التَّعبيرِ عن اللهِ بوَصْفِ (ربِّك) إيماءٌ إلى أنَّ هذا الصَّبرَ برٌّ بالمَولَى، وطاعةٌ له[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

- الفاءُ في ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ للتَّسبيبِ، كأنَّه قال: اصبِرْ على أذاهُم؛ فبيْنَ أيديهم يومٌ عَسيرٌ يَلْقَون فيه عاقبةَ أذاهُم، وتَلْقى فيه عاقبةَ صَبرِك عليه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥، ١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴾ الفاءُ في ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ لجزاءِ (إذا)؛ لأنَّ (إذا) يَتضمَّنُ معْنى شَرطٍ، والشَّرطُ والجزاءُ إذا اتَّحدا معنًى دلَّ على فَخامةِ الجَزاءِ، وكان الجزاءُ مُتضمِّنًا للإخبارِ أو التَّوبيخِ، وهاهنا المشارُ إليه بقولِه: ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ -الَّذي هو الجزاءُ- نفْسُ الشَّرطِ -الَّذي هو وقْتُ النَّقرِ-، وانضَمَّ معه تَكريرُ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ و﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾؛ فدلَّ على التَّنبيهِ على الخطْبِ الجَليلِ، والأمْرِ العظيمِ[1].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ مِن معْنى البُعدِ -مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه-؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِه في الهَولِ والفَظاعةِ[2].

- وفائدةُ قولِه ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ -مع أنَّ الظاهرَ أنَّ قولَه: ﴿عَسِيرٌ﴾ مُغْنٍ عنه-: أنَّه لَمَّا قال: ﴿ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فخَصَّصَ إيقاعَ ذِكرِ العُسرِ عليهم، قال: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾؛ لِيُؤذِنَ بأنَّه لا يكونُ عليهم كما يكونُ على المؤمِنينَ يَسيرًا هيِّنًا؛ ليَجمَعَ بيْن وَعيدِ الكافِرين، وزِيادةِ غَيظِهم، وبِشارةِ المؤمِنينَ وتَسليتِهم. ويَجوزُ أنْ يُرادَ أنَّه عَسيرٌ لا يُرْجى أنْ يَرجِعَ يَسيرًا، كما يُرْجى تَيسيرُ العَسيرِ مِن أُمورِ الدُّنيا[3].

- وأيضًا لَمَّا كان العُسرُ قد يُطلَقُ على الشَّيءِ، وفيه يُسْرٌ مِن بَعضِ الجِهاتِ،

= حيان)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠١، ٣٠٢).

أو يُعالَجُ فيَرجِعُ يَسيرًا، بيَّن أنَّه ليس كذلك بقولِه: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾، فجَمَع فيه بيْنَ إثباتِ الشَّيءِ، ونفْيِ ضدِّه؛ تَحقيقًا لأمْرِه، ودفعًا للمَجازِ عنه، وتَأييدًا لكونِه غيرَ مُنقطِعٍ بوجْهٍ، وتَقييدُه بالكافِرينَ يُشعِرُ بتَيسُّرِه على المؤمنينَ(١).



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧).

الآيات (١١-٢٠)

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّمْدُودًا﴾: أي: كثيرًا مَبْسوطًا، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على جَرِّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في اسْتِطالةٍ[١].

﴿شُهُودًا﴾: أي: حُضورًا، لا يَغيبونَ عنه، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[٢].

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾: أي: بَسَطْتُ له في العيشِ بَسْطًا، يُقالُ: مَهَّدْتُ لك كذا: هيَّأْتُه وسوَّيْتُه، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على تَوْطِئةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[٣].

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾: أي: سأُحَمِّلُه مَشَقَّةً شديدةً مِنَ العَذابِ، والإرهاقُ: أن

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥).

يُحمَلَ الإنسانُ على الشَّيءِ لا يُطيقُه، يُقالُ: فلانٌ رَهِقَه الأمرُ يَرهَقُه: إذا حَلَّ به بقَهرٍ ومَشَقَّةٍ لا قُدرةَ له على دَفْعِه، والصَّعودُ: العَقَبةُ الشَّاقَّةُ، مِن قَولِهم: عَقَبةٌ صَعودٌ وكَؤُودٌ، أي: شاقَّةُ المَصعَدِ، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومَشقَّةٍ(١).

﴿فَقُتِلَ﴾: أي: لُعِنَ وأُهلِكَ، وأصلُ (قتل): يدُلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ(٢).

﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾: أي: قَطَّبَ وَجْهَه، وقَبَضَ ما بيْنَ عينَيه، واسوَدَّ وَجْهُه، ونَظَر بكراهيةٍ شَديدةٍ كالمُهْتَمِّ المتفكِّرِ في شَيءٍ، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ عَلَى تَكَرُّهٍ، والبُسُورُ: أشَدُّ العُبوسِ، وهو هَيئةٌ في الوَجهِ تدُلُّ على تحَزُّنٍ في القَلبِ، يُقالُ: وَجْهٌ باسِرٌ: إذا تَغَيَّرَ(٣).

﴿يُؤْثَرُ﴾: أي: يأثُرُه عن غيرِه، ويَرويه عنه، وأصلُه مِن قولِهم: أَثَرْتُ الحديثَ أثرًا، إذا حدَّثْتَ به عن قَومٍ في آثارِهم، أي: بعدَ ما ماتوا. ثمَّ صار بمعنَى الرِّوايةِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١، ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١) و(٣/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لعَنَه الله كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) لابن الأنباري (١/ ٢٩٣).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ من سورةِ الذَّاريات (٣٥/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥، ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٤).

عمَّن كان، والإخبارِ، وأصلُ (أثر) هنا: ذِكْرُ الشَّيءِ[1].

﴿سَأُصْلِيهِ﴾: أي: سَأُورِدُه، وأُدخِلُه، يُقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُليًّا، وصِلِيًّا، وصلًى: دخَلها وقاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[2].

﴿سَقَرَ﴾: أي: جَهنَّمَ، وهي عَلَمٌ مُشتَقٌّ مِنَ السَّقْرِ: وهو التِهابُ النَّارِ، وأصلُ (سقر): يدُلُّ على إحراقٍ[3].

﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾: أي: مُغَيِّرةٌ للبَشَراتِ، مُحرِقةٌ للجُلودِ مُسَوِّدةٌ لها، و«البَشَرُ» جَمعُ بَشَرةٍ، تقولُ العَرَبُ: لاحتِ النَّارُ الشَّيءَ: إذا أحرَقَتْه وسوَّدَتْه. وقيل: ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي: للنَّاسِ. وقيل: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ بناءُ مُبالغةٍ مِن: لاحَ يَلُوحُ: إذا ظَهَرَ، والمعنى أنَّها تَظهَرُ للنَّاسِ حتَّى يَرَوها عِيانًا؛ لعِظَمِها وهَولِها[4].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوعِّدًا أحدَ زعماءِ المشركين، معَدِّدًا ما أنعَمَ به عليه مِن نِعَمِ الدُّنيا: دَعْني -يا محمَّدُ- وهذا الكافِرَ الَّذي خلَقْتُه مُنفَرِدًا دونَ مالٍ أو وَلَدٍ، وجعَلْتُ له مالًا كثيرًا وأبناءً حاضِرينَ معه في كُلِّ مَشهَدٍ، وبَسَطْتُ له في العَيشِ بَسْطًا، ثمَّ يَرْجو مِن شِدَّةِ حِرْصِه وطَمَعِه أن أَزيدَه مِنَ المالِ والوَلَدِ مع كُفْرِه بي!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧، ٤٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣٩).

كلَّا، لن أَزيدَ هذا الكافِرَ كما يأمُلُ، بل سأُكَلِّفُه في جَهنَّمَ عذابًا شاقًّا.

ثمَّ يُعلِّلُ اللهُ تعالى هذا الوعيدَ مقرِّرًا استِحقاقَه له، فيقولُ: إنَّه أعمَلَ فِكْرَه في شأنِ القُرآنِ، وأوقَعَ في نَفْسِه تقديرًا للصِّفاتِ الباطِلةِ الَّتي يَطعَنُ بها فيه، فهَلَك ولُعِنَ هذا الكافِرُ! كيفَ أوقَعَ هذا التَّقديرَ في نَفْسِه لإلصاقِ الأوصافِ الباطِلةِ بالقُرآنِ؟! ثمَّ هَلَك ولُعِنَ! كَيفُ قدَّر في نَفْسِه ذلك؟! ثمَّ نَظَرَ هذا الكافِرُ في أمرِ القُرآنِ بحثًا عن وَصْفٍ باطلٍ يَطعَنُ به فيه، ثمَّ قطَّب وجْهَه، وقبَض ما بيْنَ عينَيْه، وتغيَّر لَونُه، ثمَّ تولَّى وتكبَّرَ عن قَبولِ الحَقِّ، فقال: ما هذا القرآنُ إلَّا سِحرٌ يَرْويه محمَّدٌ عن غَيرِه مِنَ السَّحَرةِ! ما هذا القُرآنُ إلَّا حَديثٌ مِن أحاديثِ البَشَرِ، وليس بكَلامٍ للهِ تعالى!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما أعدَّه له مِن عذابٍ أليمٍ، فيقولُ: سأُدخِلُه النَّارَ المُلتَهِبةَ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ سَقَرُ؟!

لا تُبقِي مَن دَخَل فيها حَيًّا، ولا تَترُكُه مَيِّتًا؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، وهي نارٌ مُحْرِقةٌ لبَشَرةِ أهْلِها، فتُحَوِّلُ لَونَ جُلودِهم إلى السَّوادِ، وعلى تلك النَّارِ تِسعةَ عَشَرَ مَلَكًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جَرى ذِكرُ الكافِرينَ في قولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وأُشيرَ إلى ما يَلقاهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الكافِرين بقولِه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]؛ انتقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ زَعيمٍ مِن زُعماءِ

الكافرينَ ومُدبِّرِ مَطاعنِهم في القرآنِ ودَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

وأيضًا لَمَّا آذَنَ ما سبق بأنَّ أكثَرَ الخَلْقِ يُوافي يومَ القيامةِ على كُفْرِه، وخُبثِ طَوِيَّتِه، وسوءِ أمْرِه، وكان ذلك ممَّا يُهِمُّ؛ لشَفَقتِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على الخَلْقِ، ولِما يَعلَمُ مِن نَصْبِهم للعداوةِ- هوَّن أمْرَهم عليه، وحقَّر شَأْنَهم لديه، بوَعْدِه بالكفايةِ، بقولِه[(٢)]:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)﴾.

أي: دَعْني -يا محمَّدُ- وهذا الكافِرَ الَّذي خلَقْتُه مُنفَرِدًا دونَ مالٍ أو وَلَدٍ، وكِلْ أمْرَه إلَيَّ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧، ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿وَحِيدًا﴾ ... هو على وجهَينِ:

أحدُهما: أن يكون وحيدًا مِن صفةِ الله عزَّ وجلَّ، المعنى: ذَرْني ومَن خلَقْتُه وَحْدي، لم يَشرَكْني في خَلقِه أحدٌ.

[أو] يكونَ ﴿وَحِيدًا﴾ مِن صفةِ المخلوقِ، ويكونُ المعنى: ذَرْني ومَن خلَقْتُه وحْدَه؛ لا مالَ له ولا ولَدَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤١٧).

ممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦). =

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢﴾.

أي: وجعَلْتُ له مالًا واسِعًا كثيرًا يَزدادُ ويَنمو فلا يَنقَطِعُ عنه خَيرُه[1].

= ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤١٧).
واختار القُشَيْريُّ القولَ الأوَّلَ، فقال في معنى الآية: (أي: لا تَهتَمَّ بشأنِهم ولا تَحتفِلْ؛ فإنِّي أَكفيك أمْرَهم، إنِّي خَلَقْتُه وحْدي لم يُشارِكْني في خَلْقي إيَّاه أحدٌ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٤٩).
وقال البِقاعي جامعًا بيْن المعنيَين السَّابقَين: (﴿خَلَقۡتُ﴾ أي: أَوجَدْتُ مِنَ العَدَمِ، وأنشأْتُ في أطوارِ الخِلْقةِ، حالَ كَونِه ﴿وَحِيدٗا﴾ لا مالَ له ولا ولَدَ ولا شَيءَ، وحالَ كَوْني أنا واحِدًا شديدَ الثَّباتِ في صِفةِ الوَحدانيَّةِ، لم يُشارِكْني في صُنعِه أحدٌ، فلم يَشكُرْ هذه النِّعمةَ، بل كفَرَها بالشِّركِ باللهِ سُبحانَه القادِرِ على إعدامِه بعدَ إيجادِه!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٤٨).
ويحتملُ على القولِ الأوَّلِ أن يكونَ المعنى: ذَرْني وحْدي معه، فأنا أَجزيك في الانتقامِ منه عن كلِّ مُنتقِمٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧).
قال ابن عطيَّة: (لا خِلافَ بيْن المفسِّرينَ أنَّ هذه الآيَةَ نَزَلت في الوليدِ بن المُغيرةِ المَخْزُوميِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤). ويُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣).
وممَّن نقل أيضًا اتِّفاقَ المفسِّرينَ وإجماعَهم على أنَّ هذه الآياتِ نزلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ: الواحديُّ، والرازي، والقاسمي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٥).
ونسَبَه السَّمعانيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩١).
وقال القرطبيُّ: (المفَسِّرون على أنَّه الوليدُ بنُ المُغيرةِ المَخْزُوميُّ، وإن كان النَّاسُ خُلِقوا مِثلَ خَلْقِه، وإنَّما خُصَّ بالذِّكرِ؛ لاختِصاصِه بكُفرِ النِّعمةِ، وإيذاءِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكان يُسَمَّى الوَحيدَ في قَومِه!). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٩).
وقال ابنُ عاشور: (كان الوَليدُ بنُ المغيرةِ يُلقَّبُ في قُريش بالوَحيدِ؛ لتَوَحُّدِه وتفَرُّدِه باجتماعِ مزايا له لم تجتَمِعْ لِغَيرِه مِن طَبَقتِه؛ وهي: كثرةُ الوَلَدِ، وسَعةُ المالِ، ومَجْدُه ومجدُ أبيه مِن قَبْلِه، وكان مَرجِعَ قُرَيش في أُمورِهم؛ لأنَّه كان أَسَنَّ مِن أبي جهلٍ وأبي سُفْيانَ، فلَمَّا اشتهَر بلقَبِ الوحيدِ كان هذا الكلامُ إيماءً إلى الوليدِ بنِ المغيرةِ المُشتَهِرِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٨).

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أوَّلَ ما تمتَدُّ إليه النَّفْسُ بعدَ كثرةِ المالِ الوَلَدُ، وكان أحَبَّ الوَلَدِ الذَّكَرُ؛ قال[1]:

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: وجعَلْتُ له أبناءً حاضِرينَ معه، لا يَغيبونَ عنه ولا يُفارِقونَه، فهو يَستأنِسُ بهم ويَفتَخِرُ، ويَستعينُ بهم على قَضاءِ حوائِجِه[2].

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: وبَسَطْتُ له في العَيشِ بَسْطًا، فأقام ببَلدتِه مُطْمَئِنًّا مُتَرَفِّهًا، له الرِّياسةُ والتَّقَدُّمُ، والجاهُ العَريضُ، فلا يَعْسُرُ عليه أمرٌ، ولا يَستعْصي عليه شأنٌ[3]!

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

قال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: حُضورًا لا يَغيبونَ أبدًا عنه في تجارةٍ ولا غَيرِها؛ لكثرةِ أموالِهم بمكَّةَ، وكُلُّهم رجالٌ؛ منهم: الوليدُ بنُ الوليدِ، وخالدُ بنُ الوليدِ، وهو سَيفُ اللهِ، أسلَمَ بعدَ ذلك، وعُمارةُ بنُ الوليدِ، وهِشامُ بنُ الوليدِ، والعاصِ بنُ الوليدِ، وقَيسُ بنُ الوليدِ، وعبدُ شمسِ بنُ الوليدِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

أي: ثمَّ يَرْجو مِن شِدَّةِ حِرْصِه وطَمَعِه أن أَزيدَه مِنَ المالِ والوَلَدِ مع كُفرانِه للنِّعَمِ، وإشراكِه باللهِ تعالى[١]!

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾.

أي: لن أَزيدَ هذا الكافِرَ كما يأمُلُ؛ فلا يكونُ له ما يَطمَعُ فيه مِن زيادةِ النِّعَمِ، مع مُعانَدتِه البالِغةِ لآياتِ اللهِ تعالى الَّذي أنعَمَ عليه بما أنعَمَ، ثمَّ لا يَنقادُ للحَقِّ ويَتَّبِعُه مع عِلْمِه به[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ فيه وَجهانِ:

أحدُهما: ثمَّ يَطمَعُ أن أُدخِلَه الجنَّةَ...

الثَّاني: أن أَزيدَه مِن المالِ والولَدِ...

ويحتَمِلُ وَجهًا ثالثًا: ثمَّ يَطمَعُ أن أنصُرَه، على كُفرِه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٠).

ومِمَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّلِ وأنَّ المرادَ النَّعيمُ الأخرويُّ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٢).

ومِمَّن ذهب إلى الوجهِ الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وأبو مالكٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾.

أي: سأُكَلِّفُ هذا الكافِرَ في جَهنَّمَ عذابًا شاقًّا لا راحةَ له منه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾.

أي: إنَّ هذا الكافِرَ قد أعمَلَ فِكْرَه، وأدارَ رأيَه في شأنِ القُرآنِ، وأوقَعَ في نَفْسِه تقديرًا للصِّفاتِ الباطِلةِ الَّتي يَطعَنُ بها في القُرآنِ؛ لِيَعلَمَ أيُّها أقرَبُ إلى قَبولِ النَّاسِ له(٢).

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩﴾.

أي: فهَلَك ولُعِنَ هذا الكافِرُ! وعَجَبًا له؛ إذ كيفَ أوقَعَ هذا التَّقديرَ في نَفْسِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٢).

قال الرَّسْعَني: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي: سأحملُه على مشَقَّةٍ مِن العذابِ، أو سأُغَشِّيه عَقَبةً شاقَّةَ المَصعدِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٦٠).

وقال البيضاوي: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ سأُغشيهِ عَقَبةً شاقَّةَ المَصعدِ، وهو مَثَلٌ لِما يَلقى مِن الشَّدائد). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠).

وقال البِقاعي: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أي: أُلحِقُه بعُنفٍ وغِلظةٍ وقَهرٍ إلحاقًا يَغْشاه ويُحيطُ به، بوعيدٍ لا خُلْفَ فيه ﴿صَعُودًا﴾ أي: شيئًا مِن الدَّواهي والأنكادِ كأنَّه عَقَبةٌ؛ فإنَّ الصَّعودَ لُغةً: العَقَبةُ شاقةُ المَصعدِ جدًّا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٤، ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧، ٣٠٨).

قال ابنُ كثير: (أي: إنَّما أرهَقْناه صَعُودًا، أي: قرَّبْناه مِن العذابِ الشَّاقِّ؛ لبُعْدِه عن الإيمانِ؛ لأنَّه ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: تروَّى ماذا يقولُ في القرآنِ حينَ سُئِلَ عن القرآنِ، ففكَّرَ ماذا يَختَلِقُ من المقالِ، ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: تروَّى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

لإلصاقِ الأوصافِ الباطِلةِ بالقُرآنِ[١]؟!

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠﴾.

أي: ثمَّ هَلَك ولُعِنَ مرَّةً أُخرى! وعَجَبًا له ثانيةً؛ إذ كَيفَ قدَّرَ في نَفْسِه ذلك[٢]؟!

﴿ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾.

أي: ثمَّ نَظَر هذا الكافِرُ في أمرِ القُرآنِ بحثًا عن وَصْفٍ باطلٍ يَطعَنُ به فيه؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عنه[٣]!

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٤).

قال الواحدي: (قال صاحِبُ النَّظمِ [أبو عليٍّ الجُرْجاني]: معناه: لُعِنَ على أيِّ حالٍ قَدَّر ما قَدَّر مِن الكلامِ، كما يُقالُ في الكلامِ: لَأضْرِبَنَّه كيف صنَع، أي: على أيِّ حالٍ كانت منه). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٣).

وقال القاسمي: (كيف قَدَّر ذلك الافتراءَ الباطِلَ، واختَلَق ما يُكَذِّبُه وِجدانُه فيه؟!). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥).

قال السعدي: (﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾؛ لأنَّه قَدَّر أمرًا ليس في طَورِه، وتسوَّرَ على ما لا يَنالُه هو ولا أمثالُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

وممَّن قال في الجملةِ بالمعنى المذكورِ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

قال الرازي: (المعنى: أنَّه أوَّلًا: فكَّر، وثانيًا: قدَّرَ، وثالثًا: نَظَر في ذلك المُقدَّرِ؛ فالنَّظَرُ السَّابقُ للاستخراجِ، والنَّظَرُ اللَّاحِقُ للتَّقديرِ، وهذا هو الاحتياطُ؛ فهذه المراتِبُ الثَّلاثةُ متعلِّقةٌ بأحوالِ قَلْبِه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٦). =

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢﴾.

أي: ثمَّ قطَّب وجْهَه، وقبَض ما بيْنَ عينَيْه، وتغيَّر لَونُه حينَ لم يَجِدْ وَصْفًا صَحيحًا يَطعَنُ به في القُرآنِ(١).

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣﴾.

أي: ثمَّ توَلَّى وتكبَّرَ عن قَبولِ الحَقِّ مع تبيُّنِه كمالَ القُرآنِ في ألفاظِه ومَعانيه، وخُلُوِّه مِن أيِّ باطِلٍ(٢)!

= وقال ابنُ عاشور: (النَّظَرُ هنا: نَظَرُ العَينِ؛ لِيَكونَ زائدًا على ما أفاده فكَّر وقَدَّر. والمعنى: نَظَر في وجوهِ الحاضِرينَ يَستخرِجُ آراءَهم في انتحالِ ما يَصِفونَ به القُرآنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

قال الشوكاني: (والعَبْسُ: مَصْدَرُ عَبَسَ مُخَفَّفًا يَعْبِسُ عَبْسًا وعُبوسًا إذا قَطَّبَ. وقيل: عَبَسَ في وُجُوهِ المؤمِنينَ. وقيل: عَبَسَ في وَجْهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَحَ وَجْهُه وَتَغَيَّرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

وقيل: البُسُورُ: هو تقطيبُ الوَجهِ، وهو أشدُّ مِن العُبوسِ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩).

وقيل: هما بمعنًى واحدٍ. واختاره: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٣).

قال القرطبي: (والعَبْسُ -مُخَفَّفًا-: مصدَرُ عَبَس يَعبِسُ عَبْسًا وعُبوسًا: إذا قَطَّب... ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَح وَجْهُه وتغيَّرَ لَونُه. قاله قَتادةُ والسُّدِّيُّ،... وقيل: إنَّ ظُهورَ العُبوسِ في الوَجهِ بعدَ المحاورةِ، وظُهورَ البُسورِ في الوجهِ قبْلَ المحاورةِ. وقال قومٌ: بَسَرَ: وقَفَ لا يَتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ... والعرَبُ تقولُ: وَجهٌ باسِرٌ بَيِّنُ البُسورِ: إذا تغيَّرَ واسْوَدَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥).

قال ابنُ جُزَي: (فَعَل ذلك مِن حَسَدِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: عبَسَ في وَجْهِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو عبَس لَمَّا ضاقت عليه الحِيَلُ ولم يَدْرِ ما يقولُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن =

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فقال: ما هذا القرآنُ إلَّا سِحرٌ يَرْويه محمَّدٌ عن غَيرِه مِنَ السَّحَرةِ[١]!

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قال: ما هذا القُرآنُ إلَّا حَديثٌ بَشَريٌّ، وليس بكلامٍ للهِ تعالى، فلا ينبغي لأحدٍ أن يَغتَرَّ به أو يُعَوِّلَ عليه[٢]!

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: سأُدخِلُه النَّارَ وأغْمُرُه فيها، فتُحيطُ به مِن جميعِ جوانِبِه، لِيُقاسيَ شدَّتَها وحرَّها[٣].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ سَقَرُ[٤]؟!

= كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩، ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٥، ٥٦).

قال ابن عاشور: (وصَفَ هذا السِّحرَ بأنَّه مَأثورٌ -أي: مَرويٌّ عن الأقدَمينَ- يقولُ هذا لِيَدفَعَ به اعتراضًا يَرِدُ عليه: أنَّ أقوالَ السَّحرةِ وأعمالَهم لَيست مُماثِلةً للقرآنِ ولا لأحوالِ الرَّسولِ، فزَعَمَ أنَّه أقوالٌ سِحريَّةٌ غيرُ مَألوفةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٧).

قال الواحديُّ: (سَقَرُ: اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾.

أي: لا تُبقِي مَن دَخَل فيها حَيًّا، ولا تَترُكُه مَيِّتًا؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، بل تُبدَّلُ أجسادُ أهلِها كلَّما احترَقَت، فيَستَمِرُّ عَذابُها(١)!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ ۝٢٩﴾.

= (١٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

قال البِقاعي: (لَمَّا أثبَتَ له هذا العذابَ عظَّمه وهوَّله بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي: أعلَمَك وإنِ اجتَهَدْتَ في البَحثِ ﴿مَا سَقَرُ﴾ يعني: أنَّ عِلْمَ هذا خارجٌ عن طَوقِ البَشَرِ، لا يُمكِنُ أن يَصِلَ إليه أحدٌ منهم إلَّا بإعلامِ اللهِ له؛ لأنَّه أعظَمُ مِن أن يَطَّلِعَ عليه بَشَرٌ!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٥٩).

وقال الشوكاني: (العَرَبُ تقولُ: وما أدراك ما كذا؟ إذا أرادوا المبالَغةَ في أمْرِه، وتعظيمَ شَأنِه، وتهويلَ خَطْبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

قال السمرقندي: (قال: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ يعني: لا تُبقي لحمًا إلَّا أكلَتْه، ولا تذَرُهم إذا أُعيدوا فيها خَلقًا جديدًا. ويُقالُ: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ يعني: لا تُميتُ ولا تُحْيي. ويُقالُ: لا تُبقي اللَّحمَ ولا العَظمَ ولا الجِلْدَ إلَّا أحرَقَتْه، ولا تذَرُ لَحمًا ولا عَظمًا ولا جِلدًا، أي: تدَعُه مُحرقًا، بل تجِدُه خَلقًا جديدًا!). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧).

وقال الشَّوكاني: (قال السُّدِّيُّ: لا تُبقي لهم لحمًا، ولا تذَرُ لهم عَظْمًا. وقال عطاءٌ: لا تُبقي مَن فيها حيًّا، ولا تذَرُه مَيِّتًا. وقيل: هما لفظانِ بمعنًى واحدٍ، كُرِّرا للتَّأكيدِ، كقولِك: صَدَّ عنِّي، وأعرَضَ عنِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٣).

وقال ابنُ كثير: (﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: تأكُلُ لُحومَهم وعُروقَهم وعَصَبَهم وجُلودَهم، ثمَّ تُبَدَّلُ غَيرَ ذلك، وهم في ذلك لا يَموتونَ ولا يَحيَونَ. قاله ابنُ بُرَيدةَ، وأبو سِنانٍ، وغيرُهما). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

أي: تلك النَّارُ مُحْرِقةٌ لبَشَرةِ أَهْلِها، فتُحَوِّلُ لَونَ جُلودِهم إلى السَّوادِ[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).
قال ابن الجوزي: (في «البَشَرِ» قولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه جَمعُ بَشَرةٍ، وهي جِلدةُ الإنسانِ الظَّاهِرةُ. وهذا قول مُجاهِدٍ، والفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ. والثَّاني: أنَّهم الإنسُ مِن أهلِ النَّارِ. قاله الأخفَشُ، وابنُ قُتَيْبةَ في آخَرِينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والرَّسْعَني، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨).
ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ إلى الجمهورِ، ونسَبَه الشَّوكانيُّ للأكثَرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٤).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وأبو رَزِينٍ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).
وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الأخفشُ -كما نسَبَه إليه الماوَرْديُّ وغيرُه-، وابنُ قُتَيْبةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).
وقال الثعلبيُّ: (وقال الحسَنُ وابنُ كَيْسانَ: يعني: تَلوحُ لهم جهنَّمُ حتَّى يَرَوْها عِيانًا. نظيرُه: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤).
وقال الواحديُّ: (وقال عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: تَلوحُ لأهلِها مِن مسيرةِ خَمسِمئةِ عامٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٣٥).

كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾.

أي: على تلك النَّارِ تِسعةَ عَشَرَ مَلَكًا[1].

كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ﴾ في هذا الإبطالِ والرَّدعِ إيذانٌ بأنَّ كُفرانَ النِّعمةِ سَببٌ لقَطْعِها؛ قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولهذا قيل: (مَن لمْ يَشكُرِ النِّعَمِ فقدْ تعرَّضَ لِزَوالِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

قال الثعلبي: (يحتمِلُ أن يكونوا تِسعةَ عَشَرَ مَلَكًا بأعيانِهم، وعلى هذا أكثَرُ المفَسِّرينَ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: يقولُ: على النَّارِ تِسعةَ عَشَرَ مِنَ الملائكة، هم خَزَنتُها: مالِكٌ ومعه ثمانيةَ عَشَرَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ أنَّهم خَزَنةُ جهنَّمَ المحيطونَ بأمْرِها، الَّذين إليهم جِماعُ أمرِ زبانِيَتِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٦).

وقال القرطبي: (الصَّحيحُ -إن شاء اللهُ- أنَّ هؤلاء التِّسعةَ عَشَرَ هم الرُّؤساءُ والنُّقَباءُ، وأمَّا جُملتُهم فالعِبارةُ تَعجِزُ عنها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٠). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

ومَن شَكَرَها فقدْ قيَّدَها بعِقالِها)(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهَ تعالى لَمْ يَزَلْ بأسمائِه وصِفاتِه، أمَّا زَعْمُ الجَهميَّةِ أنَّ مَن قال بهذا فقد قال بقولِ النَّصارى؛ حيثُ جَعَلوا معه غيرَه!

فالجوابُ عنه: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولونَ: إنَّه واحدٌ بأسمائِه وصِفاتِه؛ فلا يَصِفونَ إلَّا واحدًا بصِفاتِه، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وَصَفَه بالوحدةِ؛ مع أنَّه كان له لِسانٌ وعَيْنانِ وأُذُنانِ وسمعٌ وبصَرٌ؛ ولم يَخْرُجْ بهذه الصِّفاتِ عن كَونِه واحدًا! ولله المَثَلُ الأعلى(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ هذا جزاءُ كُلِّ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ١٤١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٨١). ويُنظر أيضًا: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٧٩).

والمقصودُ من ضَربِ الوحيد مثلًا؛ أنَّ الذَّاتَ المُتَّصِفةَ بصِفاتٍ تَتَّصِفُ بالوَحدانيَّةِ؛ لأنَّ الصِّفات لا تَستَقِلُّ بنفْسِها، ولا يُمكِنُ انفِكاكُها عن الذَّاتِ إلَّا في الذِّهنِ، واعتراضُ الجَهميَّةِ الَّذين يَنفون الصِّفاتِ لا يَرِدُ على أهلِ السُّنَّةِ، ومذهبُ النَّصارى لا يَصلُحُ نقضًا؛ فإنَّهم أثبتوا الأقانيمَ الثَّلاثةَ وكلٌّ منها مُستَقِلٌّ، فالتَّعدُّدُ مُتحقِّقٌ، وأمَّا المُثبِتونَ للصِّفاتِ فعندَهم أنَّ الذَّاتَ لا تَنفَكُّ عنها أصلًا، والتَّعدُّدَ مُنتَفٍ. يُنظر: ((غاية الأماني في الرد على النبهاني)) للألوسي (٢/ ٢٢).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والَّذين قالوا مِن نُفاةِ الصِّفاتِ المعتزلةِ والجَهميَّةِ: إنَّ مَن أثبَتَ الصِّفاتِ فقد قال بقولِ النَّصارى، هو مُتَوَجِّهٌ على مَن جعَل الصِّفاتِ جَواهِرَ، وهؤلاء هم النَّصارى يَزعُمون أنَّ الصِّفاتِ جواهرُ آلهةٍ... وأمَّا الرُّسلُ وأتْباعُهم فنَطَقوا أنَّ لله عِلمًا وقُدرةً وغيرَ ذلك من الصِّفاتِ، وثبتوا أنَّ الإلهَ إلهٌ واحدٌ. فإذا قال القائلُ: عبَدْتُ اللهَ ودَعَوْتُ اللهَ؛ فإنَّما دعا وعبَدَ إلهًا واحدًا، وهو ذاتٌ مُتَّصِفةٌ بصِفاتِ الكمالِ، لم يَعبُدْ ذاتًا لا حياةَ لها ولا عِلمَ ولا قُدرةَ، ولا عبَدَ ثلاثةَ آلهةٍ ولا ثلاثةَ جواهرَ، بل نفْسُ اسم الله يَتضَمَّنُ ذاتَه المُقَدَّسةَ المُتَّصِفةَ بصِفاتِه سُبحانَه، وليست صِفاتُه خارجةً عن مُسمَّى اسمِه، ولا زائدةً على مُسمَّى اسمِه). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٥/ ١٥، ١٦).

عانَدَ الحَقَّ ونابَذَه: أنَّ له الخِزْيَ في الدُّنيا، ولَعَذابُ الآخرةِ أخْزى[١].

٣- أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ لا تَستلزِمُ القُربَ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يكونُ كثيرَ المالِ والولَدِ، وهو مِن أبعَدِ النَّاسِ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى، ومِنَ النَّاسِ مَن يكونُ قليلَ المالِ والولَدِ، وهو مِن أقربِ النَّاسِ إلى اللهِ تعالى؛ فهذا النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ليس هو مِن أكثَرِ النَّاسِ أموالًا وأولادًا، ومع ذلك فهو أقرَبُ النَّاسِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، والرَّجُلُ الَّذي افتخَرَ بمالِه ووَلَدِه، قال اللهُ -تعالى- في شَأنِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، إذا آتاه اللهُ المالَ والولَدَ فإنَّه لا ينفَعُه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، فالأموالُ والأولادُ لا تُقرِّبُ إلى اللهِ تعالى[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أزال كلَّ لَبْسٍ عن أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ؛ لتوَعُّدِه مَن نسَب هذا القرآنَ إلى قَولِ البشَرِ، وإذا لم يكُنْ قَولَ البشَرِ فلا يكونُ إلَّا قولَ الخالِقِ، وإن تلاه البَشَرُ أيضًا فلا يكونُ قَولَه، بل يكونُ قَولَ مَن بدأ به، وهو اللهُ جَلَّ جلالُه، فلم يَصِرْ بتلاوةِ جبريلَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخلوقًا، وجبريلُ مخلوقٌ، ولا بتلاوةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أصحابِه مخلوقًا، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخلوقٌ، ولا بتلاوةِ التَّالِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٣).

إلى يومِ القيامةِ مخلوقًا، وإن كان التَّالونُ له مخلوقينَ(١).

٥- قد تَوَعَّدَ اللهُ تعالى مَن قال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾، فمَن قال: إنَّ هذا القرآنَ قولُ البَشَرِ، فقد كَفَرَ، وقال بقَولِ الوَحيدِ الَّذي أوعَدَه اللهُ سَقَرَ، ومَن قال: إنَّ شيئًا منه قولُ البَشَرِ، فقد قال ببعضِ قولِه، ومَن قال: إنَّه ليس بقَولِ رَسولٍ كريمٍ، وإنَّما هو قولُ شاعرٍ أو مجنونٍ أو مُفْتَرٍ، أو قال: هو قولُ شيطانٍ نَزَلَ به عليه، ونحوَ ذلك- فهو أيضًا كافرٌ ملعونٌ، وقد عَلِمَ المسلمون الفرقَ بيْنَ أنْ يُسْمَعَ كلامُ المتكلِّمِ، منه، أو مِن المُبَلِّغِ عنه، وأنَّ موسى عليه السَّلامُ سَمِعَ كلامَ اللهِ مِن اللهِ بلا واسِطةٍ، وأنَّا نحن إنَّما نسمعُ كلامَ اللهِ مِن المُبَلِّغينَ عنه، وإذا كان الفَرقُ ثابتًا بيْنَ مَن سَمِع كلامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منه، وبيْن مَن سَمِعَه مِن الصَّاحبِ المُبَلِّغِ عنه، فالفَرْقُ هنا أَولى؛ لأنَّ أفعالَ المخلوقِ وصِفاتِه أشْبَهُ بأفعالِ المخلوقِ وصفاتِه، مِن أفعالِه وصفاتِه بأفعالِ اللهِ وصِفاتِه(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ أنْكَر اللهُ تعالى قولَ المُشرِكينَ هذا، ولا يُعترَضُ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [التكوير: ١٩]؛ لأنَّ معناه: قولٌ تَلَقَّاه عن رَسولٍ كريمٍ، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولا يُعترَضُ أيضًا بقولِه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣]؛ لأنَّ معناه: سمَّيْناه قُرآنًا، وهو كقَولِه: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وقَولِه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، ولا يُعترَضُ أيضًا بقَولِه: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]. فالمرادُ: أنَّ تنزيلَه إلينا هو المُحْدَثُ، لا الذِّكْرُ نَفْسُه، وبهذا احْتَجَّ الإمامُ أحمدُ(٣).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٥٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ آيةٌ مِن آياتِ نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي في القرآنِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ -مع حِرْصِهم على تكذيبِه- لم تَنبَعِثْ دواعيهم لإظهارِ تَكذيبِه، وكان كما أخبَرَ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مات الوليدُ كافِرًا، وكذا مات أبو لَهَبٍ كافرًا، مع قَولِه تعالى عنه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[1] [المسد: ٣]!

٨- قد وُزِّعَ وَعيدُ هذا الكافرِ على ما تَقتضيه أعمالُه؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ عِنادُه -وهو مِن مَقاصِدِه السَّيِّئةِ النَّاشئةِ عن مُحافَظتِه على رِئاستِه وعن حَسَدِه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك مِن الأغراضِ الدُّنيويَّةِ- عُقِّبَ بوَعيدِه بما يَشملُ عَذابَ الدُّنيا ابتداءً، ولَمَّا ذُكِرَ طَعْنُه في القرآنِ بقولِه: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وأنكَر أنَّه وَحْيٌ من اللهِ بقولِه: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، أُرْدِفَ بذِكرِ عَذابِ الآخرةِ بقولِه: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

- قولُه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...﴾ إلخ، استِئنافٌ يُؤذِنُ بأنَّ حدَثًا كان سَببًا لنُزولِ هذه الآيةِ عَقِبَ الآياتِ الَّتي قبْلَها؛ وهو أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرةِ نصَحَ قُريشًا أنْ يَقولوا عن النَّبيِّ والقرآنِ: ساحِرٌ جاء بقولٍ هو سِحرٌ، يُفرِّقُ به بيْنَ المَرْءِ وأبيه، وبيْنَ المَرْءِ وأخيه، وبيْنَ المَرْءِ وزَوجتِه، وبيْنَ المَرْءِ وعَشيرتِه، فأنزَلَ اللهُ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ قولَه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآياتِ -وذلك على قولِ جماهيرِ المفسِّرينَ-، فإنْ كان قولُ الوليدِ صدَرَ منه بعْدَ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧).

نُزولِ صدْرِ هذه السُّورةِ؛ فجُملةُ ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، والمُناسَبةُ ظاهرةٌ، وإنْ كان قولُ الوليدِ هو سبَبَ نُزولِ السُّورةِ، كان مُتَّصِلًا بقولِه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ [المدثر: ٧]، على أنَّه تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ بأنَّ اللهَ يَتولَّى جَزاءَ هذا القائلِ، وما بيْنَهما اعتراضٌ[١].

- وتَصديرُ الجُملةِ بفِعلِ ﴿ ذَرۡنِي ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مُهتمًّا ومُغتمًّا ممَّا اختلَقَه الوليدُ بنُ المُغيرةِ؛ فاتِّصالُه بقولِه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ [المدثر: ٧] يَزدادُ وُضوحًا[٢].

- وتَركيبُ (ذَرْني وكذا) يُفيدُ تَهديدًا ووَعيدًا للمَذكورِ بعْدَ واوِ المَعيَّةِ[٣].

- وجِيءَ بالموصولِ وصِلَتِه في قولِه: ﴿وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ لإدماجِ[٤] تَسجيلِ كُفرانِ الوليدِ بنِ المُغيرةِ المَخزوميِّ النِّعمةَ في الوَعيدِ والتَّهديدِ؛ فقد كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّةَ الحَمَوي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

الوليدُ بنُ المُغيرةِ يُلقَّبُ في قُريشٍ بالوحيدِ، فلمَّا اشتَهَرَ بلَقبِ الوحيدِ كان هذا الكلامُ إيماءً إلى الوليدِ بنِ المُغيرةِ المُشتهرِ به، وجِيءَ بلَفظِ ﴿وَحِيدًا﴾ تَهكُّمًا به وبلَقبه، وهو تَغييرٌ له عن الغرَضِ الَّذي كانوا يَؤُمُّونه -من مَدْحِه، والثَّناءِ عليه بأنَّه وَحيدُ قَومِه لرِياستِه ويَسارِه وتَقدُّمِه في الدُّنيا- إلى وَجْهِ الذَّمِّ والعَيبِ، وهو أنَّه خُلِقَ وَحيدًا لا مالَ له ولا ولَدَ، فآتاهُ اللهُ ذلك، فكَفَرَ بنِعمةِ اللهِ وأشْرَكَ به واستَهْزَأَ بدِينِه[(١)]!

- والمَمدودُ: اسمُ مَفعولٍ مِن (مَدَّ) الَّذي بمعْنى: أطال؛ بأنْ شُبِّهَت كَثرةُ المالِ بسَعةِ مَساحةِ الجِسمِ. أو مِن (مَدَّ) الَّذي بمعْنى: زاد في الشَّيءِ مِن مِثلِه، كما يُقالُ: مَدَّ الوادي النَّهرَ، أي: مالًا مَزيدًا في مِقدارِ ما يَكتسِبُه صاحبُه مِن المكاسبِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ التَّمهيدُ هنا مُعبَّرٌ به عن تَيسيرِ أُمورِه، ونَفاذِ كَلمتِه في قَومِه، بحيث لا يَعسُرُ عليه مطلَبٌ، ولا يَستعصي عليه أمْرٌ[(٣)].

- وأُكِّدَ (مَهَّدْتُ) بمَصدرِه ﴿تَمۡهِيدٗا﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ ليُتوسَّلَ بتَنكيرِه لإفادةِ تَعظيمِ ذلك التَّمهيدِ[(٤)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وُصِفَ الوليدُ في هذه الآيةِ بما لَه مِن النِّعمةِ والسَّعةِ؛ لأنَّ الآيةَ في سِياقِ الامتِنانِ عليه توطئةً لتَوبيخِه وتَهديدِه بسُوءٍ في الدُّنيا، وبعَذابِ النَّارِ في الآخِرةِ، فأمَّا في آيةِ سُورةِ (القلَمِ) فقدْ وَصَفَه بما فيه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٥).

مِن النَّقائصِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ...﴾ [القلم: ١٠] إلخ -بِناءً على أنَّ المرادَ به الوليدُ بنُ المُغيرةِ-؛ لأنَّ تلك الآيةَ في مَقامِ التَّحذيرِ مِن شَرِّه وغدْرِه[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ حرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: وأعظَمُ مِن ذلك أنَّه يَطمَعُ في الزِّيادةِ مِن تلك النِّعَمِ! وذلك بما يُعرَفُ مِن يُسْرِ أُمورِه، وهذا مُشعِرٌ باستِبعادِ حُصولِ المَطموعِ فيه، واستِنكارِ طَمَعِه وحِرصِه، وقد صُرِّح به في قولِه: ﴿كَلَّا﴾[٢] [المدثر: ١٦].

- وجُعِلَ مُتعلَّقُ طَمَعِه زيادةً ممَّا جعَلَ اللهُ له؛ لأنَّهم لم يكونوا يُسنِدونَ الرِّزقَ إلى الأصنامِ، أو لأنَّه طَمِعَ في زِيادةِ النِّعمةِ غيرَ مُتذكِّرٍ أنَّها مِن عندِ اللهِ؛ فيَكونُ إسنادُ الزِّيادةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ إدماجًا[٣] بتَذكيرِه بأنَّ ما طَمِعَ فيه هو مِن عندِ الَّذي كفَرَ هو بنِعمتِه، فأشْرَكَ به غيرَه في العِبادةِ! ولهذه النُّكتةِ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (يَطمَعُ في الزِّيادةِ)، أو (يَطمَعُ أنْ يُزادَ)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ لطَمَعِه في الزِّيادةِ مِن النِّعمِ، وقطْعٌ لرَجائِه، والمَقصودُ إبلاغُ هذا إليه، مع تَطمينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الوليدَ سيُقطَعُ عنه مَدَدُ الرِّزقِ؛ لِئلَّا تكونَ نِعمتُه فِتنةً لغيرِه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

المُعانِدين، فيُغْرِيَهم حالُه بأنَّ عِنادَهم لا يَضُرُّهم؛ لأنَّهم لا يَحسِبون حياةً بعْدَ هذه(١).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ على وجْهِ الاستئنافِ؛ كأنَّ قائلًا قال: لِمَ لا يُزادُ(٢)؟

- قولُه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ قيل: هو مُعترِضٌ بيْن ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ وبيْن ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، قُصِدَ بهذا الاعتِراضِ تَعجيلُ الوَعيدِ له مَساءةً له، وتَعجيلُ المَسَرَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

- والصَّعودُ: العَقَبةُ الشَّديدةُ التَّصعُّدِ الشَّاقَّةُ على الماشي، وهي فَعولٌ مُبالَغةٌ من (صَعِدَ)؛ فإنَّ العَقَبةَ صَعْدةٌ، فإذا كانتْ عَقَبةٌ أشَدَّ تَصعُّدًا من العَقَباتِ المُعتادةِ قِيل لها: صَعودٌ، وكأنَّ أصْلَ هذا الوَصفِ أنَّ العقبَةَ وُصِفَت بأنَّها صاعِدةٌ، ثمَّ جُعِلَ ذلك الوصفُ اسمَ جِنسٍ لها(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦]؛ فهي تَكمِلةٌ وتَبيينٌ لها(٥). وقيل: قولُه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تَعليلٌ للوَعيدِ المَعنيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٦).

بقولِه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]؛ فجَمَع له عَذابَ الدَّارَينِ[١].

- وقد وُصِفَ حالُ الوليدِ بنِ المُغيرةِ في تَردُّدِه وتَأمُّلِه بأبلَغِ وصْفٍ؛ فابتُدِئَ بذِكرِ تَفكيرِه في الرَّأيِ الَّذي سيَصدُرُ عنه وتَقديرِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كَلامٌ مُعترِضٌ بيْن ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ وبيْن ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، وهو إنشاءُ شَتْمٍ مُفرَّعٍ على الإخبارِ عنه بأنَّه ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ لأنَّ الَّذي ذُكِرَ يُوجِبُ الغضَبَ عليه، فالفاءُ لتَفريعِ ذمِّه عن سيِّئِ فِعلِه، والدَّاعي إلى الاعتراضِ هو التَّعجيلُ بفائدةِ الكلامِ؛ للاهتمام بها[٣].

- قولُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قيل: هو دُعاءٌ مُقتضاهُ الاستحسانُ والتَّعجُّبُ؛ فقِيل: ذلك لمَنزعِه الأوَّلِ في مَدْحِه القُرآنَ، وفي نَفْيِه الشِّعرَ والكهانةَ والجُنونَ عنه. وقيل: ذلك لإصابتِه ما طَلَبَت قُريشٌ منه. وقيل: ذلك ثَناءٌ عليه على جِهةِ الاستِهزاءِ[٤]. وقيل: إنَّ (قُتِلَ): دُعاءٌ عليه بأنْ يَقتُلَه قاتلٌ، أي: دُعاءٌ عليه بتَعجيلِ مَوتِه؛ لأنَّ حَياتَه حَياةٌ سيِّئةٌ. وهذا الدُّعاءُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِه والرِّثاءِ له، كقولِه: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقولِهم: عَدِمْتُك، وثَكِلَتْه أُمُّه. وهو كِنايةٌ عن سُوءِ حالِه؛ لأنَّ ما قدَّرَه ليس ممَّا يُغتبَطُ ذَوو الألْبابِ على إصابتِه؛ إذ هو قد ناقَضَ قولَه ابتِداءً؛ إذ قال: ما هو بعَقْدِ السَّحرةِ ولا نفْثِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨، ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

وبعْدَ أنْ فكَّرَ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، فناقَضَ نفْسَه[١]!

- قولُه: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ استِفهامٌ على طَريقِ التَّعجُّبِ المَشوبِ بالإنكارِ، وهو مُوجَّهٌ إلى سامِعٍ غيرِ مُعيَّنٍ يَستفهِمُ المتكلِّمُ سامِعَه استِفهامًا عن حالةِ تَقديرِه. وهو في معْنى: ما أعجَبَ تَقديرَه وما أغْرَبَه! كقولِهم: أيُّ رجُلٍ زَيدٌ! أي: ما أعظَمَه[٢]!

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قيل: ذَكَر ﴿قَدَّرَ﴾ ثَلاثَ مرَّاتٍ، و﴿قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ مرَّتَينِ؛ لأنَّ المعْنى: أنَّ الوليدَ فكَّرَ في شأْنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما أتى به، وقدَّر ماذا يُمكِنُه أنْ يقولَ فيهما، فقال اللهُ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، أي: على أيِّ حالٍ كان تَقديرُه، فالتَّقديرُ الأوَّلُ مُغايرٌ للثَّاني والثَّالثِ؛ لاختلافِ المُقدَّرِ[٣].

وقيل: كرَّرَ قولَه: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ للمُبالَغةِ، فهو تَأكيدٌ، ولَزِمَ منه أنَّ ﴿قَدَّرَ﴾ الثَّالثَ تَأكيدٌ للثَّاني، وأنَّ ﴿قُتِلَ﴾ الثَّانيَ تَأكيدٌ للأوَّلِ[٤]؛ فقولُه: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تَأكيدٌ لنَظيرِه المُفرَّعِ بالفاءِ. والعطْفُ بـ(ثُمَّ) يُفيدُ أنَّ جُملتَها أرْقى رُتبةً مِن الَّتي قبْلَها في الغَرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، فإذا كان المعطوفُ بها عينَ المعطوفِ عليه أفادَتْ أنَّ معْنى المعطوفِ عليه ذُو دَرَجاتٍ مُتفاوتةٍ، مع أنَّ التَّأكيدَ يَكسِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧، ٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

الكلامَ قوَّةً[١]. فجِيءَ بـ(ثُمَّ) للدَّلالةِ على أنَّ مَدخولَها أبلَغُ ممَّا قبْلَها، كأنَّه دُعِيَ عليْه أوَّلًا ورُجِيَ أنْ يُقلِعَ عمَّا كان يرومُه، فلم يَفعَلْ، فدُعِيَ عليه ثانيًا[٢].

- وأيضًا هو تَعجيبٌ أبلَغُ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه صَدَر عن رَويَّةٍ، بخِلافِ الأوَّلِ؛ فإنَّه نَشَأَ عن النَّظرةِ الأُولى، وهي حَمقاءُ. وفي هذا التَّرقِّي غايةُ تَهكُّمٍ به وبمَن اغترَّ بما تَفوَّهَ به[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَقَدَّرَ﴾، وهي ارتقاءٌ مُتَوالٍ فيما اقْتَضى التَّعجيبَ مِن حالِهِ والإنكارَ عليه، فالتَّراخي تَراخي رُتبةٍ، لا تَراخي زمَنٍ؛ لأنَّ نَظَرَه وعُبوسَه وبَسْرَه وإدبارَه واستكبارَه مُقارِنةٌ لتَفكيرِه وتَقديرِه[٤].

- وقدْ وصَفَت الآيةُ أشكالَ الوليدِ بنِ المغيرةِ الَّتي تَشكَّلَ بها لَمَّا أجْهَدَ نفْسَه لاستنباطِ ما يَصِفُ به القرآنَ، وذلك تَهكُّمٌ بالوليدِ واستِهزاءٌ به، وبيانُ أنَّ ما يَقولُه كذِبٌ وافتراءٌ؛ إذ لو كان مُمكِنًا لَكان له هَيئاتٌ غيرُ هذه؛ مِن فرَحِ القلْبِ، وظُهورِ السُّرورِ والجَذلِ والبِشرِ في وَجْهِه، ولو كان حقًّا لم يَحتَجْ إلى هذا الفِكرِ؛ لأنَّ الحقَّ أبلَجُ يَتَّضِحُ بنفْسِه مِن غيرِ إكدادِ فِكرٍ ولا إبطاءِ تأمُّلٍ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ كان العطْفُ في ﴿وَبَسَرَ﴾ وفي ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾؛ لأنَّ البُسورَ قَريبٌ مِن العُبوسِ، فهو كأنَّه على سَبيلِ التَّوكيدِ، والاستكبارَ يَظهَرُ أنَّه سَببٌ للإدبارِ؛ إذ الاستكبارُ معنًى في القلْبِ، والإدبارُ حَقيقةٌ مِن فِعلِ الجِسمِ، فهما سَببٌ ومُسبَّبٌ، فلا يُعطَفْ بـ(ثُمَّ)، وقُدِّمَ المسَّببُ على السَّبَبِ؛ لأنَّه الظَّاهرُ للعَينِ، وناسَبَ العطفُ بالواوِ[1].

- وقيل: العطْفُ بحرْفِ (ثُمَّ) هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّه قدْ تأنَّى في التَّأمُّلِ، وتمهَّلَ، وكان بيْن الأفعالِ المُتناسقةِ تراخٍ وتباعُدٌ[2].

- وقولُه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ قالَه بالفاءِ بعْدَ عطْفِ ما قبْلَه بحرْفِ (ثُم)؛ لأنَّ الكلمةَ لَمَّا خَطَرَت ببالِه بعْدَ التَّطلُّبِ، لم يَتمالَكْ أنْ نَطَقَ بها مِن غيرِ تَلبُّثٍ وتفكُّرٍ، فكان نُطقُه بها حَقيقًا بأنْ يُعطَفَ بحرْفِ التَّعقيبِ[3].

- وصِيغةُ الحصْرِ في قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ مُشعِرةٌ بأنَّ استقراءَ أحوالِ القُرآنِ بعْدَ السَّبرِ والتَّقسيمِ[4] أنتَجَ له أنَّه مِن قَبيلِ السِّحرِ، فهو قصْرُ تَعيينٍ لأحدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٤) السَّبرُ والتَّقسيمُ: يُقصَدُ بالتَّقسيم عندَ الأصوليِّين: حصْرُ الأوصافِ الَّتي تَحتمِلُ أنْ يُعَلَّلَ بها حُكمُ الأصلِ في عدَدٍ مُعيَّنٍ، والسَّبرُ: هو الاختبارُ لكلِّ الأوصافِ الَّتي قدْ جُمِعَت، فيُستبْعَدُ منها ما لا يَصلُحُ أنْ يكون عِلَّةً يُعلَّلُ بها الحُكمُ، ويُستبقَى ما يَصلُحُ أن يكونَ عِلَّةً، مثالُ ذلك أنْ يقولَ المجتهدُ: تَحريمُ الرِّبا في «البُرِّ» ثبَتَ لعِلَّةٍ، والعِلَّةُ هذه هي إمَّا لِكَونِه مَكيلًا، وإمَّا لكَونِه مَطْعومًا، وإمَّا لكونِه قوتًا مُدَّخرًا، وإمَّا لكونِه مَوْزونًا، وإمَّا لكونِه مالًا. فهذا يُسمَّى «التَّقسيمَ»، ثمَّ يَختبِرَ هذه العِلَلَ ويَختارَ ما يَراهُ صَحيحًا ويُهمِلَ ما عداهُ، والتَّقسيمُ مُقدَّمٌ على السَّبْرِ في التَّطبيقِ. يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٧)، ((الإحكام في أصول الأحكام)) =

الأقوالِ الَّتي جالَتْ في نفْسِه؛ لأنَّه قال: ما هو بكلامِ شاعرٍ، ولا بكَلامِ كاهنٍ، ولا بكَلامِ مَجنونٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن جُملةِ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ بأنَّ السِّحرَ يكونُ أقوالًا وأفعالًا، فهذا مِن السِّحرِ القَوليِّ، وهذه الجُملةُ بمَنزلةِ النَّتيجةِ لِما تَقدَّمَ؛ لأنَّ مَقصودَ الوليدِ مِن ذلك كلِّه أنَّ القرآنَ ليس وَحيًا مِن اللهِ[٣].

وقيل: لم يُوسَّطْ حرْفُ العطْفِ بيْن الجُملتَين ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ لأنَّ الأُخرى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ جرَت مِن الأُولى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ مَجرى التَّوكيدِ مِن المُؤكَّدِ[٤].

- وجاء النَّظمُ على السَّنَنِ المألوفِ مِن التَّنزيلِ؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا حسَمَ طمَعَ الوليدِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، وبيَّن عِنادَه بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، دَعا عليه بالدُّعاءَين بتَقديرِه مرَّتينِ: قدَّرَ أوَّلًا أنَّه شاعرٌ ثمَّ نَفاه حِيلةً، وقدَّرَ ثانيًا أنَّه كاهنٌ كذلك، ثمَّ بعْدَ ذلك نظَرَ في طلَبِ ما يَدفَعُ به ويَرُدُّه، ثمَّ عبَس وبسَرَ كالمُهتَمِّ المُتفكِّرِ في شَيءٍ، ثمَّ أدبَرَ عن الحقِّ، واستكبَرَ عن اتِّباعِه،

= للآمدي (٣/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((التعريفات الفقهية)) للبركتي (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

فقال: ما هذا الَّذي يَقرَؤُه محمَّدٌ إلَّا سِحرٌ يُؤثَرُ. واللهُ أعلَمُ(١).

٥- ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ * عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾

- جُملةُ ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨] إلى آخِرِ الآياتِ، فذَكَر وَعيدَه بعَذابِ الآخِرةِ(٢). وقيل: هي بدَلٌ مِن ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾، ويَظهَرُ أنَّهما جُملَتانِ اعتَقَبَت كلُّ واحدةٍ منهما على سَبيلِ التَّوعُّدِ للعِصيانِ الَّذي قبْلَ كلِّ واحدةٍ منهما؛ فتُوُعِّدَ على كَونِه عَنيدًا لآياتِ اللهِ بإرهاقِ صَعودٍ، وعلى قولِه بأنَّ القرآنَ سِحرٌ يُؤثَرُ بإصلائِه سَقَرَ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تَفخيمٌ وتَفظيعٌ وتَهويلٌ لشَأنِها(٤).

- قولُه: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بَيانٌ لوصفِها وحالِها، وإنجازٌ للوعيدِ الضِّمنيِّ الَّذي يَلوحُ به ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾(٥).

- وقيل: حُذِفَ مَفعولُ ﴿تُبۡقِي﴾ لقَصْدِ العُمومِ، أي: لا تُبقِي منهم أحدًا، أو لا تُبْقي مِن أجْزائِهم شيئًا(٦).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١).
(٤) يُنظر: تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).
(٥) يُنظر: تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

- وجُملةُ ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ عطْفٌ على ﴿لَا تُبْقِي﴾، فهي في معْنى الحالِ، ومعنى (لَا تَذَرُ)، أي: لا تَترُكُ مَن يُلْقى فيها، أي: لا تَترُكُه غيرَ مَصليٍّ بعَذابِها، وهذه كِنايةٌ عن إعادةِ حَياتِه بعْدَ إهلاكِه، كما قال تعالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦][(١)]. وذلك على قولٍ.

- وقولُه: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ بِناءُ مُبالَغةٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ معْنى ﴿عَلَيْهَا﴾ على حِراستِها، فـ(على) للاستعلاءِ بتَشبيهِ التَّصرُّفِ والوِلايةِ بالاستعلاءِ، كما يُقالُ: فلانٌ على الشُّرطةِ، أو على بَيتِ المالِ، أي: يَلي ذلك[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

الآية (٣١)

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا، وابتِلاءً، وامتِحانًا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[١].

﴿يَرْتَابَ﴾: أي: يشُكَّ، والرَّيبُ مصدرُ: رابَني الشَّيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلَقُ النَّفْسِ واضطرابُها، وسُمِّيَ به الشَّكُّ؛ لأنَّه يُقلِقُ النَّفْسَ ويُزيلُ الطُّمأنينةَ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ردًّا على المشرِكين، ومُبيِّنًا الحكمةَ مِن ذِكرِ عددِ خَزَنةِ النَّارِ: وما جعَلْنا خزَنةَ النَّارِ التِّسعةَ عَشَرَ إلَّا ملائِكةً، وما جعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهم إلَّا فِتنةً للكُفَّارِ؛ لِيَستيقِنَ الَّذين أُوتُوا التَّوراةَ والإنجيلَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ، ويَزدادَ المؤمِنونَ إيمانًا بتَصديقِهم بهذا الخَبَرِ، ولا يَشُكَّ أهلُ التَّوراةِ والإنجيلِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

والمؤمِنونَ بما أخبَرَ اللهُ به من عَدَدِ خَزَنةِ النَّارِ، ولِيَقولَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ، والكافِرونَ باللهِ ورَسولِه: ما الحِكمةُ من هذا العَدَدِ؟

كما أضَلَّ اللهُ تعالى الكفَّارَ بهذا العَدَدِ، وهَدى المؤمِنينَ لقَبولِه، يُضِلُّ أيضًا مَن يَشاءُ ويَهْدي مَن يَشاءُ سُبحانَه وتعالى، وما يَعلَمُ جُنودَ رَبِّك وكَثْرتَهم إلَّا اللهُ وَحْدَه، وما هي إلَّا تَذكِرةٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَنزَجِروا.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق غيرَ مُمَيِّزٍ للمعدودِ، وكانت الحِكمةُ في تعيينِ هذا العدَدِ غيرَ ظاهرةٍ، وكان هذا العَدَدُ مِمَّا يَستقِلُّه المتعَنِّتُ، فيَزيدُه كُفرًا- قال تعالى مُبَيِّنًا ذلك[1]:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: وما جعَلْنا خَزَنةَ النَّارِ التِّسعةَ عَشَرَ إلَّا ملائِكةً[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

قال ابنُ كثير: (ذلك ردٌّ على مُشركي قُرَيشٍ حينَ ذكَرَ عدَدَ الخَزَنةِ، فقال أبو جَهلٍ: يا معشَرَ قُرَيشٍ، أمَا يَستطيعُ كُلُّ عَشَرةٍ منكم لواحِدٍ منهم فتَغلِبونَهم؟! فقال اللهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: شَديدي الخَلْقِ، لا يُقاوَمونَ، ولا يُغالَبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩).

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: وما جعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهم إلَّا فِتنةً للكُفَّارِ، ومِحنةً لهم[(١)].

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

أي: ذكَرْنا ذلك العَدَدَ؛ لِيَستيقِنَ الَّذين أُوتُوا التَّوراةَ والإنجيلَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ؛ لِمُوافَقةِ كُتُبِهم للقُرآنِ بأنَّ عدَدَهم تِسْعةَ عَشَرَ[(٢)].

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩).

قال الزَّجَّاج: (لأنَّ بَعْضَهم قال: بَعضُنا يكفي هؤلاء!). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٨).

وقال البيضاوي: (افتِتانُهم به: استِقلالُهم، واستهزاؤُهم به، واستبعادُهم أن يتولَّى هذا العَدَدُ القليلُ تعذيبَ أكثَرِ الثَّقَلينِ!). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالَّذين أُوتُوا الكِتابَ: اليهودُ والنَّصارى: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: اليهودُ حينَ يَبلُغُهم ما في القرآنِ مِن مِثْلِ ما في كُتُبِهم أو أخبارِهم، وكان اليهودُ يتردَّدونَ على مكَّةَ في التِّجارةِ، ويتردَّدُ عليهم أهلُ مكَّةَ للمِيرةِ في خَيبَرَ وقُرَيظةَ ويثربَ، فيَسألُ بَعضُهم بعضًا عمَّا يقولُه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويوَدُّ المُشرِكونَ لو يَجِدونَ عندَ اليَهودِ ما يكَذِّبونَ به أخبارَ القُرآنِ، ولكِنَّ ذلك لم يَجِدوه، ولو وَجَدوه لَكان أيسَرَ ما يَطعَنونَ به في القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٧، ٤٩٨).

أي: وذَكَرْنا ذلك العَدَدَ؛ لِيَزدادَ المؤمِنونَ إيمانًا بتَصديقِهم بهذا الخَبَرِ(١).

﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: ولا يَشُكَّ أهلُ التَّوراةِ والإنجيلِ والمؤمِنونَ باللهِ ورَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أخبَرَ اللهُ به مِن عَدَدِ خَزَنةِ النَّارِ(٢).

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾.

أي: ولِيَقولَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ، والكافِرونَ باللهِ ورَسولِه: ما الحِكمةُ مِن وراءِ هذا العَدَدِ(٣)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال البِقاعي: (﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أوجَدوا هذه الحقيقةَ ولو على أدنى الوُجوهِ إلى ما عِندَهم مِن الإيمانِ ﴿إِيمَٰنٗا﴾ بتَصديقِ ما لم يَعلَموا وَجهَ حِكمتِه، لا سِيَّما مع افتِتانِ غَيرِهم به، وكثرةِ كلامِهم فيه؛ فإنَّ الإيمانَ بمِثْلِ ذلك يكونُ أعظَمَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٦٣).

وقال السعدي: (المؤمِنونَ كُلَّما أنزَلَ اللهُ آيةً، فآمَنوا بها وصَدَّقوا؛ ازداد إيمانُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٣، ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).

قال الواحدي: (معنى المثَلِ هاهنا: الحديثُ نَفْسُه، ومنه قَولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، أي: حَديثُها والخَبَرُ عنها). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٤١).

وقال الرازي: (لَمَّا كان هذا العددُ عَدَدًا عَجيبًا، ظَنَّ القَومُ أنَّه رُبَّما لم يكُنْ مُرادُ اللهِ منه ما أشعَرَ به ظاهِرُه، بل جعَلَه مَثَلًا لشَيءٍ آخَرَ، وتنبيهًا على مقصودٍ آخَرَ- لا جَرَمَ سَمَّوْه مَثَلًا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

وقال أبو حيَّان: (لَمَّا سَمِعوا هذا العَدَدَ لم يَهتَدوا وحارُوا، فاستفهَمَ بعضُهم بعضًا عن ذلك؛ =

= استبعادًا أن يكونَ هذا مِن عندِ اللهِ، وسَمَّوْه مَثَلًا استِعارةً مِنَ المثَلِ المَضروبِ؛ استِغرابًا منهم لهذا العَدَدِ، والمعنى: أيَّ شيءٍ أراد اللهُ بهذا العَدَدِ العَجيبِ؟! ومُرادُهم: إنكارُ أصْلِه، وأنَّه ليس مِن عندِ اللهِ!). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وفيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه النِّفاقُ، ذكره الأكثَرونَ.

والثَّاني: أنَّه الشَّكُّ. قاله مُقاتِلٌ، وزَعَم أنَّهم يهودُ أهلِ المدينةِ، وعِندَه أنَّ هذه الآيةَ مَدَنيَّةٌ.

والثَّالثُ: أنَّه الخِلافُ. قاله الحُسَينُ بنُ الفَضلِ. وقال: لم يكُنْ بمكَّةَ نِفاقٌ. وهذه مكِّيَّةٌ. فأمَّا «الكافرون» فهم مُشركو العَرَبِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ: أي نِفاقٌ، وأنَّ المرادَ المنافِقونَ: السمرقنديُّ، ومكِّي، والزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٦).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بالمرضِ النِّفاقُ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٣٤).

قال النسفي: (فإنْ قُلتَ: النِّفاقُ ظَهَر في المدينةِ، والسُّورةُ مَكِّيَّةٌ؟ قلتُ: معناه: ولِيَقولَ المنافِقونَ الَّذين يَظهَرونَ في المستقبَلِ بالمدينةِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٦).

وقال الإيجي: (وفي الآيةِ إخبارٌ عن الغيبِ؛ لأنَّها مكيَّةٌ، فظهَر النِّفاقُ في المدينةِ). ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٤٠٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّهم اليهودُ مِن أهلِ المدينةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٨).

قال ابن عاشور: (المَرَضُ في القلوبِ: هو سُوءُ النِّيَّةِ في القُرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهؤلاء هم الَّذين لم يَزالوا في ترَدُّدٍ بيْن أن يُسلِموا وأن يَبقَوا على الشِّركِ، مِثلُ الأخنَسِ بنِ شَريقٍ، والوليدِ بنِ المُغيرةِ، وليس المرادُ بالَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ: المنافِقينَ؛ لأنَّ المنافِقينَ ما ظهَروا إلَّا في المدينةِ بعدَ الهجرةِ، والآيةُ مَكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).

قال ابن تيميَّةَ: (إنَّ مكَّةَ لم يكُنْ بها نِفاقٌ؛ بل إمَّا مؤمنٌ، وإمَّا كافرٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٢٧٤).

=

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

أي: كما أضَلَّ اللهُ تعالى الكفَّارَ بهذا العَدَدِ، وهَدى المؤمِنينَ لقَبولِه، يُضِلُّ بما يُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ أيضًا مَن يَشاءُ، فيَخذُلُه عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويَهْدي مَن يَشاءُ، فيُوَفِّقُه لاتِّباعِ الحَقِّ، ولله الحِكمةُ البالِغةُ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾.

= وقال أيضًا: (أمَّا حينَ كان [أي: النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم] بمكَّةَ، وكان المؤمنونَ مُستَضْعَفينَ، فلم يكنْ أحدٌ يحتاجُ إلى النِّفاقِ، بل كان مِن المؤمنينَ مَن يَكتُمُ إيمانَه من كثيرٍ مِن النَّاسِ، ومنهم مَن يَتكلَّمُ بالكفرِ مُكرَهًا مع طُمأنينةِ قلبِه بالإيمانِ، وهذا مؤمنٌ باطنًا وظاهرًا... ولهذا قال العلماءُ -منهم أحمدُ بنُ حَنبلٍ-: لم يَكُنْ يُمكِنُهم نِفاقٌ، إنَّما كان النِّفاقُ بالمدينةِ. ولكنْ كان بمكَّةَ مَن في قلبِه مرضٌ، كما قال في السُّورةِ المكِّيَّةِ: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ [المدثر: ٣١]). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٠٤).

وممَّن قال بأنَّ الكافِرينَ هم كُفَّارُ مكَّةَ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٠).

وقيل: الكافِرونَ هنا هم اليهودُ والنَّصارى. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال ابنُ عاشور: (أي: مِثلَ ذلك الضَّلالِ الحاصِلِ للَّذين في قُلوبهم مَرَضٌ وللكافِرينَ، والحاصِلِ للَّذين أوتوا الكتابَ بعدَ أن استيقَنوا، فلم يُؤمِنوا؛ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ أن يُضِلَّه مِن عِبادِه، ومِثلَ ذلك الهُدى الَّذي اهتداه المؤمِنونَ فزادهم إيمانًا مع إيمانِهم؛ يَهدي اللهُ مَن يَشاءُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٨).

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق مِمَّا يُوهِمُ قِلَّةَ جُنودِه تعالى؛ أتْبَعَه ما يُزيلُ ذلك، فقال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وما يَعلَمُ عَدَدَ جُنودِ رَبِّك وكَثْرَتَهم مِن الملائِكةِ أو غَيرِهم إلَّا اللهُ وَحْدَه(١).

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

أي: وما هي إلَّا تَذكِرةٌ عظيمةٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَنزَجِروا عن مُخالَفةِ الحَقِّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال القرطبي: (أي: وما يَدري عَدَدَ مَلائكةِ رَبِّك الَّذين خلَقَهم لتعذيبِ أهلِ النَّارِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: إلَّا اللهُ جَلَّ ثناؤُه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يَعلَمُ عَدَدَهم وكَثْرَتَهم إلَّا هو تعالى؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّهم تِسعةَ عَشَرَ فقط، كما قد قاله طائفةٌ مِن أهلِ الضَّلالةِ والجَهالةِ ومِن الفلاسفةِ اليونانيِّينَ، ومَن تابَعَهم مِن المِلَّتَينِ، الَّذين سمِعوا هذه الآيةَ، فأرادوا تنزيلَها على العُقولِ العَشَرةِ والنُّفوسِ التِّسعةِ الَّتي اختَرَعوا دعواها، وعَجَزوا عن إقامةِ الدَّلالةِ على مُقتضاها، أَفَهِموا صَدْرَ هذه الآيةِ وقد كَفَروا بآخِرِها؟! وهو قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠).

وقال السعدي: (الواجِبُ أن يُتلقَّى ما أخبَرَ اللهُ به ورسولُه بالتَّسليمِ؛ فإنَّه لا يعلَمُ جنودَ رَبِّك مِن الملائكةِ وغَيرِهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾، فإذا كنتُم جاهِلينَ بجُنودِه، وأخبَرَكم بها العليمُ الخبيرُ؛ فعليكم أن تُصَدِّقوا خبَرَه، مِن غيرِ شَكٍّ ولا ارتيابٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال ابنُ عاشور: (نَفْيُ العِلمِ هنا نَفيٌ للعِلمِ التَّفصيليِّ بأعدادِها وصِفاتِها وخصائِصِها، بقرينةِ المقامِ؛ فإنَّ العِلمَ بعَدَدِ خَزَنةِ جهنَّمَ قد حَصَل للنَّاسِ بإعلامٍ مِنَ اللهِ، لكِنَّهم لا يَعلَمونَ ما وراءَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿هِيَ﴾: النَّارُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبَغَوي، =

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥، ٣٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ فيه بيانُ أنَّ الواجِبَ على المؤمِنِ المُبادَرةُ بالتَّصديقِ والانقيادِ، ولو لم يَعلَمِ الحِكمةَ أو السِّرَّ أو الغَرَضَ، بِناءً على أنَّ الخبَرَ مِنَ اللهِ تعالى[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ هذه مَقاصِدُ جَليلةٌ يعتني بها أولو الألبابِ، وهي السَّعيُ

= والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٣٤).

وقيل: المرادُ: الدَّلائِلُ والحُجَجُ في القرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٣).

وقال الزَّجَّاجُ: (جاء في التَّفسيرِ: أنَّ النَّارَ في الدُّنيا تُذَكِّرُ بالنَّارِ في الآخِرةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٨). قال الشوكاني: (وهو بعيدٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وذهب السعديُّ إلى أنَّ المعنى: وما المقصودُ بهذه الموعِظةِ العبثَ، وإنَّما المقصودُ بها أن يَتذكَّرَ البَشَرُ ما ينفَعُهم فيفعَلوه، وما يَضُرُّهم فيترُكوه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال الشوكاني: (﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: وما سَقَرُ وما ذُكِر مِن عَدَدِ خَزَنَتِها إلَّا تَذْكِرَةٌ وموعِظَةٌ للعالَمِ، وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: الدَّلائلُ والحُجَجُ والقرآنُ إلَّا تذكِرَةٌ للبشرِ... وقيلَ: ما هي أي عِدَّةُ خزنةِ جهنَّمَ إلَّا تذكِرَةٌ للبشَرِ لِيَعْلَموا كمالَ قُدْرَةِ اللَّهِ وأنَّه لا يَحْتاجُ إلى أعْوانٍ وأنصارٍ. وقِيلَ: الضَّميرُ في ﴿وَمَا هِيَ﴾ يَرْجِعُ إلى الجنودِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩-٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٦٥).

في اليقينِ، وزيادةِ الإيمانِ في كُلِّ وَقتٍ، وكُلِّ مسألةٍ مِن مسائِلِ الدِّينِ، ودَفعِ الشُّكوكِ والأوهامِ الَّتي تَعرِضُ في مقابلةِ الحَقِّ، فجَعَل ما أنزلَه اللهُ على رَسولِه مُحَصِّلًا لهذه الفوائِدِ الجليلةِ، ومميِّزًا للكاذِبينَ مِنَ الصَّادِقينَ[١].

٣- إنَّ القلوبَ تمرضُ كغيرِها مِن الأعضاءِ، وعلاجُها في كتبِ الأطباءِ. وتمرضُ بالشُّبهاتِ والشُّكوكِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وتمرضُ القلوبُ بالشَّهواتِ لقولِه تعالى ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: فجورٌ، وهو شهوةُ الزِّنا، وعلاجُ ذلك اتباعُ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاجتهادُ في الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، وتركُ المحرَّماتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ جعلَهم ملائِكةً؛ لوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لِيَكونوا بخِلافِ جِنسِ المعَذَّبينَ؛ لأنَّ الجِنسيَّةَ مَظِنَّةُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ؛ ولذلك بَعَث الرَّسولَ المبعوثَ إلينا مِن جِنسِنا؛ ليكونَ له رأفةٌ ورَحمةٌ بنا.

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم أبعَدُ الخَلقِ عن معصيةِ اللهِ تعالى، وأقواهم على الطَّاعاتِ الشَّاقَّةِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ قُوَّتَهم أعظَمُ مِن قوَّةِ الجِنِّ والإنسِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةً

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٩).

﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وجْهُ تأثيرِ إنزالِ هذا المُتشابِهِ في استيقانِ أهلِ الكِتابِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا العددَ لَمَّا كان موجودًا في كتابِهم، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أخبَرَ على وَفقِ ذلك مِن غَيرِ سابِقةِ دِراسةٍ وتعَلُّمٍ، فظَهَر أنَّ ذلك إنَّما حَصَل بسبَبِ الوَحيِ مِنَ السَّماءِ، فالَّذين آمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ الكتابِ يَزدادونَ به إيمانًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ كانا محَرَّفَينِ، فأهلُ الكِتابِ كانوا يَقرَؤونَ فيهما أنَّ عَدَدَ الزَّبانيةِ هو هذا القَدْرُ، ولكِنَّهم ما كانوا يُعَوِّلون على ذلك كلَّ التعويلِ؛ لعِلْمِهم بتطَرُّقِ التَّحريفِ إلى هذينِ الكتابينِ، فلمَّا سَمِعوا ذلك مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَوِيَ إيمانُهم بذلك، واستيقَنوا أنَّ ذلك العَدَدَ هو الحَقُّ والصِّدقُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَعلَمُ مِن حالِ قُرَيشٍ أنَّه متى أخبَرَهم بهذا العَدَدِ العَجيبِ فإنَّهم يَستَهزِئونَ به ويَضحَكونَ منه؛ لأنَّهم كانوا يَستَهزِئونَ به في إثباتِ التَّوحيدِ والقُدرةِ والعِلمِ، مع أنَّ تلك المسائِلَ أوضَحُ وأظهَرُ، فكيف في ذِكرِ هذا العددِ العجيبِ؟! ثمَّ إنَّ استهزاءَهم برَسولِ الله وشِدَّةَ سُخرِيَتِهم به ما منَعَه مِن إظهارِ هذا الحَقِّ، فعندَ هذا يَعلَمُ كُلُّ أحَدٍ أنَّه لو كان غَرَضُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طلَبَ الدُّنيا والرِّياسةِ، لَاحتَرَز عن ذِكرِ هذا العَدَدِ العَجيبِ، فلمَّا ذكَرَه مع عِلْمِه بأنَّهم لا بدَّ أن يَستَهْزِئُوا به، عَلِمَ كُلُّ عاقلٍ أنَّ مَقصودَه منه إنَّما هو تبليغُ الوَحيِ، وأنَّه ما كان يُبالي في ذلك

لا بتَصديقِ المصَدِّقينَ، ولا بتكذيبِ المكَذِّبين[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ إثباتُ زيادةِ الإيمانِ[٢]، فالمؤمِنُ كُلَّما جاءه أمرٌ عن اللهِ وصَدَّقَه ولو لم يَعلَمْ حَقيقتَه؛ اكتِفاءً بأنَّه مِن اللهِ، ازداد بهذا التَّصديقِ إيمانًا، وهي مسألةُ ازديادِ الإيمانِ بالطَّاعةِ والتَّصديقِ[٣]. وفيه دليلٌ أيضًا على النَّقصِ؛ لأنَّه لا تُتَصَوَّرُ زيادةٌ إلَّا بما نَقَصَ عنها[٤]، وما جاز عليه الزِّيادةُ، جاز عليه النُّقصانُ[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ كانوا يُنكِرونَ كَونَ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ، فكيف قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾؟

الجوابُ: أمَّا الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، وهم المنافِقونَ، فكانوا في الظَّاهِرِ مُعترِفينَ بأنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ، فلا جَرَمَ قالوا ذلك باللِّسانِ، وأمَّا الكُفَّارُ فقالوه على سَبيلِ التَّهَكُّمِ، أو على سَبيلِ الاستِدلالِ بأنَّ القُرآنَ لو كان مِن عندِ اللهِ لَمَا قال مِثلَ هذا الكلامِ[٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَرِيَّةِ في نِسبةِ الإضلالِ، والمشيئةِ منه سُبحانَه فيه[٧]. فالهدايةُ والإضلالُ بيدِ اللهِ؛ يهدي مَن يشاءُ بفضلِه، ويُضِلُّ مَن يشاءُ بعدلِه، وهو أعلمُ بمواقعِ فضلِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((الغنية لطالبي طريق الحق)) للجيلاني (١/ ١٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

(٧) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤١).

وعدلِه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠]، وله في ذلك الحكمةُ البالغةُ، والحجَّةُ الدَّامغةُ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا ينبغي استصغارُ شيءٍ مِن خلقِ الله تعالى إلَّا مِن حيثُ أذِن الله في استصغارِه؛ فإنَّ الله تعالى إذا سلَّط أضعفَ خلقِه على أشدِّهم أهلَكه، كما سلَّط البعوضَ على نمرودَ فأهلَكه بها، وكما سلَّط الجرادَ والقمَّلَ والضَّفادعَ على فرعونَ وقومِه(٢).

بلاغةُ الآيةِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ صِيغةُ القصْرِ (ما... إلَّا) تُفيدُ قلْبَ اعتِقادِ أبي جَهْلٍ وغيرِه ما توهَّموه أو تَظاهَروا بتوهُّمِه أنَّ المُرادَ تِسعةَ عشَرَ رجُلًا، فطَمِعَ أنْ يَخلُصَ منهم هو وأصحابُه بالقوَّةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تَتميمٌ في إبطالِ تَوهُّم المشركينَ حَقارةَ عدَدِ خزَنةِ النارِ، وهو كَلامٌ جارٍ على تَقديرِ الأُسلوبِ الحَكيمِ(٤)؛ إذ

(١) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) للحكمي (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) لنجم الدين الغزي (٧/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

(٤) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المُخاطَب بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: =

الكلامُ قدْ أثار في النُّفوسِ تَساؤلًا عن فائدةِ جَعْلِ خَزَنةِ جهنَّمَ تِسعةَ عشَرَ، وهلَّا كانوا آلافًا؛ ليكونَ مَرآهُم أشدَّ هَولًا على أهلِ النَّارِ؟ أو هلَّا كانوا مَلَكًا واحدًا؛ فإنَّ قُوَى الملائكةِ تَأتي كلَّ عمَلٍ يُسخِّرُها اللهُ له؟ فكان جَوابُ هذا السُّؤالِ: أنَّ هذا العدَدَ قدْ أظهَرَ لأصنافِ النَّاسِ مَبلَغَ فَهْمِ الكفَّارِ للقُرآنِ، وإنَّما حصَلَت الفِتنةُ مِن ذِكرِ عَددِهم في الآيةِ السَّابقةِ، فقولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تَقديرُه: وما جَعَلْنا ذِكرَ عِدَّتِهم إلَّا فِتنةً...[1].

- والقصرُ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَصْرُ قلْبٍ[2] للرَّدِّ

= ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقَصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) =

على الَّذين كَفَروا؛ إذِ اعتَقَدوا أنَّ عِدَّتَهم أمْرٌ هيِّنٌ، والتَّقديرُ: ما جعَلْنا ذِكرَ عِدَّتِهم لعِلَّةٍ وغرَضٍ إلَّا لغَرضِ فِتنةِ الَّذين كَفروا[١].

- وقيل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وما جَعَلْنا عَدَدَهم إلَّا العددَ الَّذي اقْتَضى فِتنتَهم، وهو التِّسعةَ عشَرَ، فعُبِّرَ بالأثَرِ عن المُؤثِّرِ؛ تَنبيهًا على أنَّه لا يَنفَكُّ منه[٢].

- والاستِيقانُ: قُوَّةُ اليقينِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المَقصودُ مِن ذِكرِه التَّمهيدُ لذِكرِ مُكابَرةِ الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ والكافِرينَ في سُوءِ فَهْمِهم لهذه العِدَّةِ؛ تَمْهيدًا بالتَّعريضِ قبْلَ التَّصريحِ؛ لأنَّه إذا قِيل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ شَعَرَ الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ والكافِرون بأنَّهم لَمَّا ارْتابُوا في ذلك فقدْ كانوا دونَ مَرتبةِ الَّذين أُوتوا الكِتابَ؛ لأنَّهم لا يُنازِعون في أنَّ الَّذين أُوتوا الكِتابَ أرجَحُ منهم عُقولًا، وأسَدُّ قولًا؛ ولذلك عُطِفَ عليه ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، أي: لِيَقولوا هذا القولَ إعرابًا عمَّا في نُفوسِهم مِن الطَّعنِ في القرآنِ غيرَ عالِمينَ بتَصديقِ الَّذين أُوتوا

= للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥).

الكِتابَ[(١)].

- فإنْ قِيل: لِمَ قال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والاستيقانُ وازديادُ الإيمانِ دالَّانِ على انتفاءِ الارتيابِ؟

فالجوابُ: لأنَّه إذا جَمَع لهم إثباتَ اليقينِ ونفْيَ الشَّكِّ، كان آكَدَ وأبلَغَ لِوَصْفِهم بسُكونِ النَّفْسِ، وثَلَجِ الصَّدرِ، فالمقصودُ مِن إعادةِ هذا الكلامِ هو أنَّه حَصَل لهم يقينٌ جازمٌ، بحيثُ لا يحصُلُ عَقِيبَه البتَّةَ شَكٌّ ولا رَيبٌ، ولأنَّ فيه تَعريضًا بحالِ مَن عَداهم، كأنَّه قال: ولِتُخالِفَ حالُهم حالَ الشَّاكِّينَ المُرتابينَ مِن أهلِ النِّفاقِ والكُفْرِ[(٢)].

- وإنَّما لم يُنظَم المؤمنونَ في سَلْكِ أهلِ الكِتابِ في نفْيِ الارتيابِ، حيث لم يُقَلْ: ولا يَرْتابوا؛ للتَّنبيهِ على تَبايُنِ النَّفْيَينِ حالًا، فإنَّ انتفاءَ الارتيابِ مِن أهلِ الكتابِ مُقارِنٌ لِما يُنافيه مِن الجُحودِ، ومِن المؤمنينَ مُقارِنٌ لِما يَقتضيه مِن الإيمانِ، وكمْ بيْنَهما! والتَّعبيرُ عن المؤمنينَ باسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعْدَ ذِكرِهم بالموصولِ والصِّلةِ الفِعليَّةِ المُنبئةِ عن الحُدوثِ؛ للإيذانِ بثَباتِهم على الإيمانِ بعدَ ازديادِه، ورُسوخِهم في ذلك[(٣)].

- قولُه: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ إفرادُ قَولِهم هذا بالتَّعليلِ مع كَونِه مِن بابِ فِتنتِهم؛ للإشعارِ باستقلالِه في الشَّناعةِ[(٤)].

- وقولُهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، وتَقديرُ الكلامِ: ما الأمْرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١، ٧١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذي أراده اللهُ بهذا الكلامِ في حالِ أنَّه مَثَلٌ؟! والمعنى: لم يُرِدِ اللهُ هذا العددَ المُمثَّلَ به، وقدْ كُنِّيَ بنَفْيِ إرادةِ اللهِ العدَدَ عن إنكارِ أنْ يكونَ اللهُ قال ذلك، فكَنَّوْا بنَفْيِ إرادةِ اللهِ وصْفَ هذا العدَدِ عن تَكذيبِهم أنْ يكونَ هذا العدَدُ مُوافقًا للواقعِ؛ لأنَّهم يَنْفُونَ فائدتَه، وإنَّما أرادوا تَكذيبَ أنْ يكونَ هذا وَحْيًا مِن عندِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ تَشبيهٌ، الغرَضُ منه تقريبُ المعْنى المعقولِ إلى المعْنَى المحسوسِ المعروفِ في واقعةِ الحالِ، فمِثلَ ذلك المذكورِ مِن الإضلالِ والهُدى يُضِلُّ الكافِرينَ ويَهْدي المؤمنينَ، وقاله تَعليمًا للمُسلمينَ، وتَنبيهًا للنَّظَرِ في تَحصيلِ ما يَنفَعُ نُفوسَهم. ووَجْهُ الشَّبهِ هو السَّببيَّةُ في اهتداءِ مَن يَهْتدي، وضَلالِ مَن يَضِلُّ، في أنَّ كُلًّا مِن المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به جَعَلَه اللهُ سَببًا وإرادةً لِحكمةٍ اقْتَضاها عِلمُه تعالَى، فتَفاوَتَ النَّاسُ في مَدَى أفهامِهم فيه بيْن مُهتدٍ ومُرتابٍ مُختلِفِ المَرتبةِ في رَيبِه، ومُكابرٍ كافرٍ، وسيِّئِ فَهْمٍ كافرٍ. وهذه كَلمةٌ عَظيمةٌ في اختِلافِ تَلقِّي العُقولِ للحَقائقِ وانتفاعِهم بها أو ضِدِّه، بحسَبِ اختلافِ قَرائحِهم وفُهومِهم وتَراكيبِ جِبِلَّاتِهم المُتسلسلةِ مِن صَوابٍ إلى مِثلِه، أو مِن تَردُّدٍ واضطرابٍ إلى مِثلِه، أو مِن حَنَقٍ وعِنادٍ إلى مِثلِه، فانطَوى التَّشبيهُ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أحوالٍ وصُوَرٍ كثيرةٍ تَظهَرُ في الخارجِ(٢).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مَحلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصْبٌ بالنِّيابةِ عن المفعولِ المُطلَقِ؛ لأنَّ الجارَّ والمجرورَ هنا صِفةٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ دلَّت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٨).

عليه الصِّفةُ، والتَّقديرُ: يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ، ويَهْدي مَن يشاءً إضلالًا وهَدْيًا كذلك الإضلالِ والهَدْي. وقُدِّمَ وصْفُ المفعولِ المُطلَقِ على الفِعلِ؛ للاهتِمامِ بهذا التَّشبيهِ؛ لِما يُرشِدُ إليه مِن تَفصيلٍ عندَ التَّدبُّرِ فيه، وحصَل مِن تقديمِه أيضًا مُحسِّنُ الجمْعِ، ثمَّ التَّقسيم[1]؛ إذ جاء تَقسيمُه بقولِه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[2]. فحُذِفَ المَصدرُ، وأُقيمَ وصْفُه مُقامَه، ثمَّ قُدِّمَ على الفِعلِ لإفادةِ القَصرِ، فصارَ النَّظمُ: مِثلَ ذلك الإضلالِ وتلك الهدايةِ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ إضلالَه؛ لصَرفِ اختيارِه حسَبَ استِعدادِه السَّيِّئِ إلى جانبِ الضَّلالِ عندَ مُشاهَدتِه لآياتِ الله تعالى النَّاطِقةِ بالهُدى، ويَهْدي مَن يَشاءُ هِدايتَه لصَرفِ اختيارِه حسَبَ استِعدادِه الحسَنِ عندَ مُشاهَدةِ تلك الآياتِ إلى جانبِ الهُدى، لا إضلالًا وهِدايةً أدْنَى منهما[3].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ كَلمةٌ جامعةٌ لإبطالِ التَّخرُّصاتِ الَّتي يَتخرَّصُها الضَّالُّون ومَرضَى القُلوبِ عندَ سَماعِ الأخبارِ عن عالَمِ الغَيبِ وأُمورِ الآخِرةِ، مِن نحْوِ ما هَذَى به أبو جهْلٍ في أمْرِ خَزَنةِ جهنَّمَ، يَشملُ ذلك وغيرَه؛ فلذلك كان لهذه الجُملةِ حُكْمُ التَّذييلِ[4].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ إضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إضافةُ تَشريفٍ، وتَعريضٌ بأنَّ مِن شأنِ تلك الجُنودِ أنَّ بَعضَها يكونُ

(١) الجمعُ والتَّقسيمُ: هو جمْعُ متعدِّدٍ تحتَ حُكمٍ، ثمَّ تقسيمُه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

به نصْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ فيه مَعانٍ كَثيرةٌ، أعْلاها أنْ يكونَ هذا تَتِمَّةً لقولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، على أنْ يكونَ جاريًا على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيم[٢]، أي: أنَّ النَّافِعَ لكم أنْ تَعلَموا أنَّ الخبرَ عن خَزَنةِ النَّارِ بأنَّهم تِسعةَ عشَرَ -وذلك على قولٍ-، فائدتُه أنْ يكونَ ذِكرَى للبشَرِ؛ لِيَتذكَّروا دارَ العِقابِ بتَوصيفِ بَعضِ صِفاتِها؛ لأنَّ في ذِكرِ الصِّفةِ عَونًا على زيادةِ استِحضارِ الموصوفِ، فغرَضُ القُرآنِ الذِّكرى، وقدِ اتَّخذه الضَّالُّون ومَرضَى القُلوبِ لَهوًا وسُخريةً ومِراءً بالسُّؤالِ عن جَعْلِهم تِسعةَ عَشَرَ ولم يَكونوا عِشرينَ، أو مِئاتٍ، أو آلافًا[٣]!

- وقيل: قولُه: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ القصْرُ مُتوجِّهٌ إلى مُضافٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: وما ذِكْرُها أو وَصْفُها، أو نحْوُ ذلك[٤].

- وإنَّما حَمَلَتِ الآيةُ المعانيَ الكثيرةَ بحُسنِ مَوقعِها في هذا الموضِعِ، وهذا مِن بَلاغةِ نظْمِ القُرآنِ، ولو وَقَعَت إثرَ قولِه: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩] لَتَمحَّضَ ضَميرُ ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ للعَودِ إلى سَقَرَ، وهذا مِن الإعجازِ بمَواقعِ جُمَلِ القرآنِ[٥].



---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢-٣٧)

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسْفَرَ﴾: أي: أضاء وانتَشَر ضَوؤُه، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على انكِشافٍ وجَلاءٍ[1].

﴿ٱلْكُبَرِ﴾: أي: العَظائِمِ، وهي جمعُ «الكُبْرى»، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ❁ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَذِيرًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه حالٌ ممَّا دلَّت عليه الجُملةُ، أي: كَبُرَت مُنذِرةً، فـ﴿نَذِيرًا﴾ وَصفٌ بمعنى «مُنذِرةً»، وإنَّما لم يُؤَنَّثْ ﴿نَذِيرًا﴾ وهو حالٌ مِن مُؤَنَّثٍ «سَقَر»؛ لأنَّها بمعنى «ذاتَ إنذارٍ» على معنى النَّسَبِ. الثَّاني: أنَّه حالٌ مِنْ «إحْدَى»، أي: إنَّها لكبيرةٌ في حالِ الإنذارِ، والهاءُ في ﴿إِنَّهَا﴾ تعودُ إلى «سَقَر» النَّارِ، وذُكِّرَ الحالُ؛ لأنَّ النَّارَ في معنى «العذابِ». الثَّالثُ: أنَّه تمييزٌ عن «إحدى»؛ لِما تضَمَّنه مِن معنى التَّعظيمِ، كأنَّه قيل: أعظَمُ الكُبَرِ إنذارًا، فـ«نذير» بمعنى الإنذارِ، كالنَّكيرِ بمعنى الإنكارِ. وقيل غيرُ ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٩).

المعنى الإجماليّ:

يقولُ تعالى: ليس الأمرُ كما يظُنُّ المُشرِكونَ في شأنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النَّارِ.

وأُقسِم بالقَمَرِ، وباللَّيلِ وَقتَ ذَهابِه، وبالصُّبحِ إذا ابتدَأَ ظُهورُ ضَوئِه؛ إنَّ النَّارَ لإحْدى الأُمورِ الكُبْرى الَّتي لا نَظيرَ لها، مُنْذِرةً للنَّاسِ؛ لِمَن شاء أن يَقبَلَ النِّذارةَ ويَهتَدِيَ للحَقِّ، فيتقَدَّمَ إلى الإيمانِ، ولِمَن شاء أن يتأخَّرَ عن الإيمانِ، فلا يَرْعويَ بنِذارتِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢)﴾.

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يظُنُّ المُشرِكونَ في شأنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النَّارِ[(١)].

﴿وَالْقَمَرِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وهذا المعنى المذكورُ لـ﴿كَلَّآ﴾ ذهب إليه في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، واستظهره الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: والمعنى: ردُّ زعْمِ مَنْ زعَمَ أنَّه يُقاوِمُ خَزَنةَ جهنَّمَ، أي: ليس الأمرُ كما يقولُ، ثمَّ أقسَمَ على ذلك بالقَمَرِ وبما بَعْدَه. وهذا هو الظَّاهِرُ من معنى الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ هنا بمعنى: حَقًّا. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

أي: وأُقسِم بالقَمَرِ(١).

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وَقتَ ذَهابِه وانصِرافِه(٢).

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾.

أي: وأُقسِمُ بالصُّبحِ إذا ابتدَأَ ظُهورُ ضَوئِه عندَ الفَجرِ(٣).

﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥﴾.

أي: إنَّ النَّارَ لَإِحْدى الأُمورِ الكُبْرى الَّتي لا نَظيرَ لها(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٤٤١).

قال ابن عطية: («أسفَرَ الصُّبحُ»: أضاء وانتَشَر ضَوؤُه قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ بكثيرٍ، والإسفارُ رُتَبٌ: أوَّلُ، ووسَطٌ، وآخِرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ إلى سَقَرَ الَّتي جرى ذِكرُها، وهي النَّارُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، والعُليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٤)، ((تفسير الرسعني)) =

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦﴾.

أي: مُنْذِرةً للنَّاسِ، فتُخَوِّفُهم وتحَذِّرُهم تحذيرًا بالِغًا[1].

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾.

أي: لِمَن شاء أن يَقبَلَ النِّذارةَ، ويهتَدِيَ للحَقِّ، فيتقَدَّمَ إلى الإيمانِ والخَيرِ، ولِمَن شاء أنْ يتأخَّرَ عن الإيمانِ والخيرِ، فلا يَرْعويَ بنِذارتِها[2].

= (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ -أي: أنَّ المرادَ النَّارُ-: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

قال الماوَرْدي: (﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ فيها ثلاثةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: أي أنَّ تكذيبَهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم لَإِحْدى الكُبَرِ، أي: الكبيرةُ مِن الكبائرِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أي أنَّ هذه النَّارَ لَإِحْدى الكُبَرِ، أي: لَإِحْدى الدَّواهي.

الثَّالثُ: أنَّ هذه الآيةَ لَإِحْدى الكُبَرِ، حكاه ابنُ عيسى.

ويحتمِلُ رابعًا: أنَّ قيامَ السَّاعةِ لَإِحْدى الكُبَرِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (يحتمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ للنِّذارةِ وأمرِ الآخِرةِ، فهو للحالِ والقِصَّةِ، وتكونَ هذه الآيةُ مِثلَ قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّذيرِ هنا: النَّارُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

قال ابنُ عاشور: (أي: إنَّها لَعُظمى العَظائمِ في حالِ إنذارِها للبَشَرِ، وكفى بها نذيرًا!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

إنَّ إضاعةَ الوَقتِ الصَّحيحِ يَدْعو إلى دَرَكِ النَّقيصةِ؛ إذ صاحِبُ حِفْظِه مُتَرَقٍّ على دَرَجاتِ الكمالِ، فإذا أضاعه لم يقِفْ مَوضِعَه، بل يَنزِلُ إلى دَرَجاتٍ مِنَ النَّقصِ، فإنْ لَمْ يكنْ في تَقدُّمٍ فهو مُتَأَخِّرٌ ولا بُدَّ، فالعبدُ سائرٌ لا واقفٌ؛ فإمَّا إلى فوقٍ وإمَّا إلى أسفلَ، إمَّا إلى أمامٍ وإمَّا إلى وراءٍ، وليس في الطبيعةِ ولا في الشَّريعةِ وُقوفٌ البَتَّةَ، ما هو إلَّا مراحِلُ تُطْوَى أسرعَ طيٍّ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ، فمُسْرِعٌ ومُبْطِئٌ، ومُتَقَدِّمٌ ومُتَأَخِّرٌ، وليس في الطَّريقِ واقفٌ البَتَّةَ! وإنَّما يَتخالَفونَ في جهةِ المسيرِ، وفي السُّرعةِ والبُطءِ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧]، فلَمْ يَذْكُرْ واقفًا؛ إذْ لا مَنْزِلَ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ، ولا طريقَ لسالكٍ إلى غيرِ الدَّارينِ البَتَّةَ، فمَن لم يَتَقَدَّمْ إلى هذه بالأعمالِ الصَّالحةِ، فهو متأخِّرٌ إلى تلك بالأعمالِ السَّيِّئةِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أقْسَم سُبحانَه بهذه الأشياءِ الثَّلاثةِ -وهي: القمرُ، واللَّيلُ إذا أدْبَر، والصُّبحُ إذا أسْفَر- على المَعادِ؛ لِمَا في القَسَمِ مِنَ الدَّلالةِ على ثُبوتِ المُقْسَمِ عليه؛ فإنَّه يَتضمَّنُ كمالَ قدرتِه وحكمتِه وعنايتِه بخَلْقِه، وإبداءَ الخَلْقِ وإعادتَه، كما هو مشهودٌ في إبداءِ النَّهارِ واللَّيلِ وإعادتِهما، وفي إبداءِ النُّورِ وإعادتِه في القمرِ، وفي إبداءِ الزَّمانِ

= عطية)) (٥/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٧٨).

وإعادتِه -الَّذي هو حاصلٌ بسَيرِ الشَّمسِ والقمرِ-، وإبداءِ الحيوانِ والنَّباتِ وإعادتِهما، وإبداءِ فصولِ السَّنَةِ وإعادتِها، وإبداءِ ما يَحْدُثُ في تلك الفصولِ وإعادتِه، فكلُّ ذلك دليلٌ ظاهرٌ على المبدأِ والمعادِ الَّذي أخْبَرَتْ به الرُّسُلُ كلُّهم عنه؛ فصَرَّفَ سُبحانَه الآياتِ الدَّالَّةَ على صِدْقِ رُسُلِه، ونَوَّعَها، وجَعَلَها للفِطَرِ تارةً، والسَّمعِ تارةً، والمُشاهَدةِ تارةً، فجعَلَها آفاقيَّةً ونفسيَّةً، ومنقولةً ومعقولةً، ومشهودةً بالعِيَانِ ومذكورةً بالجَنانِ؛ فأبَى الظَّالِمونَ إلَّا كُفورًا! ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾(1) [الفرقان: ٣].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ * وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ * وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ * إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾ (كلَّا) حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ، وهو رَدْعٌ لقَولِ مَن قالوا: إنَّهم يَقدِرونَ على مُقاوَمةِ خَزَنةِ جَهنَّمَ(2). ويحتمِلُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما قبْلَه مِن قولِهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾، فيَكونَ ما بيْنَهما اعتراضًا، ويكونَ قولُه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ ابتداءَ كَلامٍ، فيَحسُنُ الوقفُ على ﴿كَلَّا﴾. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ حرْفَ إبطالٍ مُقدَّمًا على الكلامِ الَّذي بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥، ٣٦] تَقديمَ اهتِمامٍ لإبطالِ ما يَجِيءُ بعْدَه مِن مَضمونِ قولِه: ﴿نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ﴾، أي: مِن حقِّهم أنْ يَنتذِروا بها، فلمْ يَنتذِرْ أكثَرُهم، على نحْوِ معْنى قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، فيَحسُن أنْ تُوصَلَ في القراءةِ بما

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

بعْدَها[١].

- الواوُ في ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ واوُ القسَم، وهذا القسَمُ يجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا لِما قبْلَه مُؤكِّدًا لِما أفادَتْه ﴿كَلَّا﴾ مِن الإنكارِ والإبطالِ لمَقالتِهم في شأْنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النارِ؛ فتَكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ تَعليلًا للإنكارِ الَّذي أفادَتْه ﴿كَلَّا﴾، ويكونَ ضَميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عائدًا إلى ﴿سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، أي: هي جَديرةٌ بأنْ يُتذكَّرَ بها؛ فلذلك كان مَن لم يَتذكَّرْ بها حَقيقًا بالإنكارِ عليه ورَدْعِه، وجُملةُ القَسَمِ على هذا الوجْهِ مُعترِضةٌ بيْن الجُملةِ وتَعليلِها. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ القسَمُ صَدْرًا للكلامِ الَّذي بعْدَه، وجُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جَوابَ القسَمِ[٢].

- قولُه: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ هذه ثلاثةُ أيْمانٍ لزِيادةِ التَّأكيدِ؛ فإنَّ التَّأكيدَ اللَّفظيَّ إذا أُكِّد بالتَّكرارِ يُكرَّرُ ثلاثَ مرَّاتٍ غالبًا، أقسَمَ بمَخلوقٍ عَظيمٍ، وبحالَينِ عَظيمَينِ مِن آثارِ قُدرةِ اللهِ تعالَى[٣].

- ومُناسَبةُ القسَمِ بـ ﴿وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أنَّ هذه الثَّلاثة تَظهَرُ بها أنوارٌ في خِلالِ الظَّلامِ، فناسَبَت حالَيِ الهُدى والضَّلالِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]، ومِن قولِه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]؛ ففي هذا القسَمِ تَلويحٌ إلى تَمثيلِ حالِ الفَريقَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

مِن النَّاسِ عندَ نُزولِ القُرآنِ بحالِ اختراقِ النُّورِ في الظُّلمةِ[(١)].

- وأقسَمَ تعالَى بهذه الأشياءِ تَشريفًا لها، وتَنبيهًا على ما يَظهَرُ بها وفيها مِن عَجائبِ اللهِ وقُدرتِه، وقِوامِ الوُجودِ بإيجادِها[(٢)].

قولُه: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ أقسَمَ باللَّيلِ في حالةِ إدْبارِه الَّتي مضَتْ، وهي حالةٌ مُتجدِّدةٌ تَمضي وتَحْضُرُ وتُستقبَلُ، فأيُّ زَمنٍ اعتُبِرَ معها فهي حقيقةٌ بأنْ يُقسَمَ بكَونِها فيه؛ ولذلك أقْسَمَ بالصُّبحِ إذا أسفَرَ مع اسمِ الزَّمنِ المستقبَلِ، فحصَل تفنُّنٌ في القَسمِ[(٣)].

- وقد أُجريَت جُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥] مُجْرى المثَلِ، ومعنَى (إحْدَى) أنَّها المتوحدَّةُ المتميِّزةُ مِن بيْنِ الكُبَرِ في العِظَمِ لا نظيرةَ لها، كما يُقالُ: هو أحدُ الرِّجالِ، لا يُرادُ: أنَّه واحدٌ منهم، بل يُرادُ: أنَّه مُتوحِّدٌ فيهم بارزٌ ظاهرٌ[(٤)].

- قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدَلُ مُفصَّلٌ مِن مُجمَلٍ مِن قولِه: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾، وأُعِيدَ حرْفُ الجرِّ مع البدَلِ للتَّأكيد، والمعْنى: أنَّها نَذيرٌ لِمَن شاء أنْ يَتقدَّمَ إلى الإيمانِ والخَيرِ ليَنتذِرَ بها، ولِمَن شاء أنْ يَتأخَّرَ عن الإيمانِ والخَيرِ فلا يَرْعوي بنِذارتِها؛ لأنَّ التَّقدُّمَ مشْيٌ إلى جِهةِ الأمامِ، فكأنَّ المُخاطَبَ يَمْشي إلى جِهةِ الدَّاعي إلى الإيمانِ، وهو كِنايةٌ عن قَبولِ ما يَدْعو إليه، وبعكْسِه التَّأخُّرُ، فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ و﴿يَتَأَخَّرَ﴾ لظُهورِه مِن السِّياقِ. ويَجوزُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

يُقدَّرَ: لِمَن شاء أنْ يَتقدَّمَ إليها، أي: إلى سَقَرَ؛ بالإقدامِ على الأعمالِ الَّتي تُقدِّمُه إليها، أو يَتأخَّرَ عنها؛ بتَجنُّبِ ما مِن شَأنِه أنْ يُقرِّبَه منها[١].

- وتَعليقُ ﴿نَذِيرًا﴾ بفِعلِ المشيئةِ إنذارٌ لِمَن لا يَتذكَّرُ بأنَّ عدَمَ تَذكُّرِه ناشئٌ عن عدَمِ مَشيئتِه، فتَبِعَتُه عليه؛ لتَفريطِه، على نحْوِ قولِ المثَلِ: «يَداكَ أَوْكَتَا، وفُوكَ نَفَخ»[٢].

- وذُكِّر ﴿نَذِيرًا﴾؛ لأنَّ معناه معنَى العذابِ، أو أرادَ ذاتَ إنذارٍ على معنَى النَّسَبِ، كقولِهم: امرأةٌ طالِقٌ وطاهِرٌ، أو لأنَّ النَّذيرَ مصدرٌ كالنَّكيرِ؛ ولذلك يُوصَفُ به المؤنَّثُ[٣].

- وفي ضَميرِ ﴿مِنكُمْ﴾ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: لِمَن شاء مِنْهم، أي: مِن البشَرِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤).

الآيات (٢٨-٤٨)

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿رَهِينَةٌ﴾: أي: محبوسةٌ بكَسْبِها، مأخوذةٌ بعمَلِها، ومُرتَهَنةٌ به غيرُ مفكوكةٍ، وكلُّ ما احتُبِس به شيءٌ فرهينُه ومُرْتهَنُه، والرَّهينةُ اسمٌ بمعنى الرَّهنِ، كالشَّتيمةِ بمعنى الشَّتمِ، وأصلُ (رهن): يدُلُّ على ثباتِ شيءٍ يُمْسَكُ بحقٍّ أو غيرِه(١).

﴿سَلَكَكُمْ﴾: أي: أدخلَكم، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ أَسْلُكُه، وسَلَكْتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ: أَنْفَذْتُه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ(٢).

﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾: أي: الغاوِينَ الكاذِبينَ أهلِ الباطِلِ، والخَوضُ: الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُستعمَلُ في الدُّخولِ في الأمرِ بالقَولِ، وأكثَرُ ما ورَدَ في القُرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على توسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير =

﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: أي: يوم الجزاءِ والحسابِ، وهو يومُ القيامةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[(١)].

﴿ٱلْيَقِينُ﴾: أي: الموتُ المُوقَنُ به؛ فإنَّه أمرٌ متيقَّنٌ لا شكَّ في إتيانِه، واليَقينُ: اسمُ مصدَرِ يَقِنَ -كفَرِحَ-، إذا عَلِم عِلْمًا لا شَكَّ معه ولا تَرَدُّدَ، وأصلُ اليقينِ: زوالُ الشَّكِّ[(٢)].

﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾: الشَّفاعةُ: الانضِمامُ إلى آخَرَ؛ نُصرةً له، وسؤالًا عنه، يُقالُ: شفَع لفُلانٍ إذا جاء مُلتَمِسًا مَطلبَه، ومُعينًا له، وأصْلُ الشَّفْعِ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ عدلِه، والأسبابَ الَّتي أدَّتْ إلى دُخولِ الكافِرينَ النَّارَ، فيقولُ: كلُّ نَفْسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا مِن سَيِّئاتٍ وذُنوبٍ: مَحبوسةٌ بها في النَّارِ، إلَّا المؤمِنينَ الَّذين يُعطَونَ كُتُبَ أعمالِهم بأيْمانِهم؛ فإنَّهم تُغفَرُ ذُنوبُهم، ولا يُحبَسُونَ في النَّارِ بها.

إنَّ أصحابَ اليَمينِ في جَنَّاتِ النَّعيمِ يَسألونَ عن أصحابِ النَّارِ، يقولونَ لهم: ما الَّذي أوجَبَ دُخولَكم النَّارَ؟ قالوا لهم: لم نكُنْ في الدُّنيا مِنَ المصَلِّينَ،

= القرطبي)) (١٩/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

ولم نكُنْ نُطعِمُ المِسكِينَ، وكنَّا نخوضُ في الباطِلِ مع مَن يَخوضونَ فيه، وكُنَّا نُكذِّبُ بيومِ الحِسابِ والجَزاءِ، حتَّى أتانا الموتُ. فما تَنفَعُ أولئك الكافِرينَ شَفاعةُ الشَّافِعينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾.

أي: كلُّ نَفْسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا مِن سَيِّئاتٍ وذُنوبٍ: مَحبوسةٌ بها في النَّارِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه تعالى: ﴿رَهِينَةٌ﴾ في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٢).

وقال السعدي: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِن أعمالِ السُّوءِ، وأفعالِ الشَّرِّ ﴿رَهِينَةٌ﴾ بها، موثَقةٌ بسَعْيِها، قد أُلزِمَ عُنُقَها، وغُلَّ في رقبتِها، واستوجَبَتْ به العذابَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ يقولُ: كلُّ كافرٍ مُرتَهَنٌ بذُنوبِه في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩).

قال الماوَرْدي: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أحَدُها: أنَّ كُلَّ نفسٍ مُرتَهَنةٌ مُحتبَسةٌ بعَمَلِها؛ لِتُحاسَبَ عليه، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم أطفالُ المسلِمينَ؛ فإنَّه لا حسابَ عليهم؛ لأنَّه لا ذُنوبَ لهم. قاله عليٌّ رضيَ اللهُ عنه.

الثَّاني: كلُّ نفسٍ مِن أهلِ النَّارِ مُرتَهَنةٌ في النَّارِ، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم المسلِمون؛ فإنَّهم لا يُرتَهَنونَ، وهم إلى الجنَّةِ يُسارِعونَ. قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّالثُ: كُلُّ نفْسٍ بعَمَلِها مُحاسَبةٌ، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم أهلُ الجنَّةِ؛ فإنَّهم لا يُحاسَبونَ. قاله ابنُ جُرَيجٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٨).

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩﴾.

أي: إلَّا المؤمنينَ الَّذين يُعطَونَ كُتُبَ أعمالِهم بأيْمانِهم؛ فإنَّهم لا يُحبَسُونَ في النَّارِ بذُنوبِهم؛ لأنَّ اللهَ يَغفِرُها لهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٢].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه(٢) ويَستُرُه، فيقولُ: أتعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قَرَّره بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هلَكَ، قال: ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))(٣).

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٤١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧١).
قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ الَّذين أُعطوا كُتُبَهم بأيْمانِهم، لا يُرتَهنون بذُنوبِهم في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩).
وقال البغوي: (لا يُرتَهنونَ بذُنوبِهم في النَّارِ، ولكنْ يَغفِرُها اللهُ لهم). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩).
وقال جلال الدِّين المحلِّي: (﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم المؤمنونَ؛ فناجُونَ منها). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧).

(٢) كَنَفَه: سَتْرَه وعَفْوَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

أي: إنَّ أصحابَ اليَمينِ في جَنَّاتِ النَّعيمِ يَسألونَ عن أصحابِ النَّارِ المُجرِمينَ[١].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: يَقولونَ لهم: ما الَّذي أوجَبَ دُخولَكم النَّارَ[٢]؟

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: قال المجرِمونَ لهم: الَّذي أدخَلَنا النَّارَ هو أنَّنا لم نكُنْ في الدُّنيا مِنَ المصَلِّينَ للهِ وَحْدَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال الشوكاني: (قولُه: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يجوزُ أن يكونَ على بابِه، أي: يَسألُ بعضُهم بعضًا، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: يَسألون، أي: يَسألون غيرَهم، نحو دَعَيْتُه وتَداعَيْتُه؛ فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكونُ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: يَسألُ بعضُهم بعضًا عن أحوالِ المجرمين، وعلى الوجهِ الثَّاني تكونُ «عن» زائدةً، أي: يَسألونَ المجرِمين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٩).

وقال ابن عاشور: (إنْ كان السُّؤالُ على حقيقتِه والاستفهامُ مُستعمَلًا في أصلِ معناه كانَ الباعِثُ على السُّؤالِ: إمَّا نسيانُ الَّذي كانوا عَلِموه في الدُّنيا مِن أسبابِ الثَّوابِ والعقابِ فيَبقَى عُمومُ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ الرَّاجعُ إلى أصحابِ اليمينِ وعُمومُ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ على ظاهِرِه، فكلٌّ مِن أصحابِ اليمينِ يُشرِفُ على المجرِمينَ مِن أعالي الجنَّةِ، فيَسألُهم عن سببِ وُلُوجِهم النَّارَ، فيحصلُ جوابُهم، وذلك إلهامٌ مِن اللهِ ليَحمَدَه أهلُ الجنَّةِ على ما أخَذوا به مِن أسبابِ نجاتِهم ممَّا أصاب المجرِمينَ، ويَفرَحوا بذلك. وإمَّا أن يكونَ سؤالًا موَجَّهًا مِن بعضِ أصحابِ اليمينِ إلى ناسٍ كانوا يَظُنُّونَهم مِن أهلِ الجنَّةِ فرَأَوْهم في النَّارِ مِن المُنافقينَ أو المرتَدِّينَ بعدَ موتِ أصحابِهم، فيكونَ المرادُ بأصحابِ اليمينِ بعضَهم، وبالمجرِمينَ بعضَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾.

أي: ولم نكُنْ نُطعِمُ المِسكِينَ؛ بُخلًا بما أعطانا اللهُ، ومَنْعًا لِما أوجَبَ علينا مِن الزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ(١).

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٥﴾.

أي: وكنَّا في الدُّنيا نَخوضُ في الباطِلِ مع مَن يَخوضونَ فيه، فنُخالِطُهم في باطِلِهم(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦﴾.

أي: وكُنَّا في الدُّنيا نُكذِّبُ بيومِ الحِسابِ والجَزاءِ، فلا نُصدِّقُ بالقيامةِ ولا بالجنَّةِ والنَّارِ(٣).

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۝٤٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

قال ابنُ كثير: (أي: ما عبَدْنا رَبَّنا، ولا أحسَنَّا إلى خَلْقِه مِن جِنْسِنا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

قال البقاعي: (﴿مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ بحيث صار لنا هذا وَصفًا راسِخًا، فنَقولُ في القُرآنِ: إنَّه سِحرٌ، وإنَّه شِعرٌ، وإنَّه كِهانةٌ، وغيرَ هذا مِن الأباطيلِ، لا نتورَّعُ عن شيءٍ مِن ذلك، ولا نَقِفُ مع عَقلٍ، ولا نرجِعُ إلى صحيحِ نَقلٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

أي: فاستَمرَرْنا على كُفْرِنا وضَلالِنا حتَّى أتانا الموتُ[١].

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾.

أي: فما تَنفَعُ الكافِرينَ شَفاعةُ الشَّافِعينَ؛ مِنَ الملائكةِ والأنبياءِ، والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، حينَ يَقبَلُ اللهُ شفاعتَهم في المُذنِبينَ الموَحِّدينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أنَّه لا أحدَ يُعطَى مِن عَمَلِ أحَدٍ، ولا يُؤْخَذُ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال ابن تيمية: (المرادُ به ما يُوقَنُ به من الموتِ وما بَعْدَه، باتِّفاقِ السَّلَفِ). ((الرد على الشاذلي)) (ص: ٥١).

وقال ابن القيم: (اليقينُ هاهنا هو الموتُ، بإجماعِ أهلِ التَّفسيرِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ١٢٤). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

وقال الشوكاني: (هو الموتُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٦).

قال ابنُ جزي: (أجمعَ العُلَماءُ أنَّه لا يَشفَعُ أحَدٌ في الكُفَّارِ، وجَمْعُ ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ دليلٌ على كثرتِهم، كما ورد في الآثارِ؛ تَشفَعُ الملائكةُ والأنبياءُ، والعُلَماءُ والشُّهَداءُ والصالحونَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: كلُّ نفسٍ مرتهنةٌ محبوسةٌ وموثقةٌ بكسبِها السيئِ، وحبسُها في العذابِ السيئِ؛ وذلك لأنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ، فكما حبَس المجرمونَ ما لديهم لله ولخلقِه مِن الحقوقِ اللَّازمةِ؛ فلم يُؤدُّوا الصَّلاةَ التي هي أكبرُ العباداتِ المتضمِّنةِ للإخلاصِ للمعبودِ، ولا أطعَموا المساكينَ مِن الحقِّ الذي أوجَبه الله لهم في أموالِهم، ولا حبَسوا نفوسَهم على ما شرَع، وقيَّدوها بقيودِ الدين، بل أطلَقوها فيما شاؤوا مِن المراداتِ الفاسدةِ، فخاضوا بالباطلِ معَ الخائضينَ، ولا صدَّقوا ربَّهم ورسلَه معَ تواترِ الآياتِ، بل كانوا يُكذِّبونَ بيومِ الدِّينِ؛ فلذلك حُبِسوا في هذا المحبسِ الفظيعِ، وأُدخِلوا في سقرَ. ولمَّا كان أصحابُ اليمينِ قد حبَسوا نفوسَهم في الدُّنيا على شرعِ الله تصديقًا وعملًا، وأطلَقوا ألسنتَهم وجوارحَهم في طاعةِ الله ومرضاتِه؛ أطلَق الله إسارَهم، وفكَّ رهنَهم، فلم يكونوا في ذلك اليومِ مرتهنينَ، بل كانوا مطلَقينَ فيما اشتَهتْ أنفسُهم، ولذَّت عيونُهم.

فعملُ العبدِ في الدُّنيا إمَّا أنْ يكونَ سببًا لارتهانِه، أو سببًا لخلاصِه، بل الأصلُ أنَّ الإنسانَ في حبسٍ، وأنَّ عملَه سيُرتهَنُ؛ لأنَّه ظلومٌ وجهولٌ طبعًا، إلَّا مَن خلَّصه الله من هذا، ومَنَّ عليه بالصبرِ وعملِ الصالحاتِ، فلهذا جعَل الارتهانَ، واستثنَى منه أصحابَ اليمينِ، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ رُسوخَ القَدَمِ في الصَّلاةِ مانِعٌ مِن مِثْلِ حالِهم، وعلى أنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ الأعمالِ، وأنَّ الحِسابَ

(١) يُنظر: ((المواهب الربانية)) للسعدي (ص: ٨٢، ٨٣).

بها يُقَدَّمُ على غَيرِها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ * فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قال تعالى أيضًا: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩]!

الجوابُ: أنَّه لا يُسأَلُ عن ذنْبِه سؤالَ استرِشادٍ واستِعلامٍ، وإنَّما يُسألونَ سؤالَ تبكيتٍ وتوبيخٍ، وما جاء مِن سؤالِ الإنسِ والجِنِّ عن ذُنوبِهم: هل أنت عَمِلْتَ أو لم تَعمَلْ؟ فهو سؤالُ تبكيتٍ وتوبيخٍ، وهناك فرقٌ بيْن سؤالِ الاسترشادِ وسؤالِ التَّوبيخِ؛ فلا تَتناقَضُ الآياتُ[٢].

وقيل: إنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

وقيل: إنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدَمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يَستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[٣]، وقيل غيرُ ذلك[٤].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ مَجموعَ ما ذَكَروه سَبَبٌ لدُخولِ مَجموعِهم النَّارَ، فلا يَضُرُّ في ذلك أنَّ مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠، ٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

أهلِ النَّارِ مَن لم يكُنْ وَجَب عليه إطعامُ مِسْكينٍ، كفُقَراءِ الكَفَرةِ المُعْدِمينَ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أنَّ الكافرَ يُعاقَبُ على أصلِ الكفرِ وعلى المعاصي أيضًا الَّتي عَمِلَها؛ فالمُشرِكُ إذا زنا وسَرَق وشَرِب الخَمْرَ يُعاقَبُ على ذلك، فيُعاقَبُ على الأصلِ والفرعِ، فالصَّدَقةُ ليست مِن الأُصولِ، وكذلك الزَّكاةُ -على القَولِ الصَّحيحِ- لا يَكْفُرُ تارِكُها، ومع ذلك ذَكَروا أنَّها مِن أسبابِ دُخولِهم النَّارَ، ولولا أنَّ لها تأثيرًا في الجزاءِ ما صارتْ مِن الأسبابِ، أمَّا الصَّلاةُ فمِن أهلِ العِلمِ مَن ذهَب إلى أنَّها مِن الأُصولِ، وأنَّ تارِكَها يَكْفُرُ[(٢)]، فالآيةُ احتُجَّ بها على أنَّ الكُفَّارَ يُعَذَّبونَ بتَرْكِ فُروعِ الشَّرائِعِ[(٣)]، وإن كانت لا تَصِحُّ منهم، فلو فَعَلوها قبْلَ الإيمانِ لم يُعْتَدَّ بها[(٤)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ الكفارَ مكلَّفونَ بالفُروعِ[(٥)]. ففي الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ مِن الأسبابِ الَّتي سلَكَتْهم في سَقَرَ عدَمَ إطعامِ المسكينِ، وهو فرعٌ مِن الفُروعِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧).

(٦) يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٤٠).

قال ابن عاشور: (معنَى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ يَعْنونَ خِطابَ المُؤاخَذةِ على ما نُهُوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنَّهم يُطلَبُ منهم العَملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصَّالحاتُ بدونِ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

وقال ابن عثيمين: (الكفَّارُ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ... ولكن ليس معنَى خِطابِهم بها أنَّهم =

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ دليلٌ على توكيدِ حُرْمةِ المسكينِ حينَ قَرَنَ تضييعَه بتَركِ الصَّلاةِ، وخَوضِ الخائِضينَ، وتَكذيبِ يوم الدِّينِ! وكما قال تبارك وتعالى في سورةِ (الحاقَّة): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]، وكقَولِه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1] [الماعون: ١ - ٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المسلِمَ الَّذي أضاع إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ مُستَحِقٌّ حَظًّا مِن سَقَرَ على مِقدارِ إضاعتِه، وعلى ما أراد اللهُ مِن مُعادَلةِ حسَناتِه وسَيِّئاتِه، وظَواهِرِه وسَرائِرِه، وقبْلَ الشَّفاعةِ وبَعْدَها[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ أخَّرَ التَّكذيبَ، وهو أفحَشُ تلك الخِصالِ الأربَعةِ؟

الجوابُ: أُريدَ أنَّهم بعدَ اتِّصافِهم بتلك الأُمورِ الثَّلاثةِ كانوا مُكَذِّبينَ بيَومِ الدِّينِ، والغَرَضُ تعظيمُ هذا الذَّنْبِ، كقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3] [البلد: ١٧].

= مُلزَمونَ بها في حالِ الكفرِ؛ لأنَّنا نَدْعوهم أوَّلًا إلى الإسلامِ، ثمَّ نُلزِمُهم بأحكامِه، وليس معنى كَونِهم مُخاطَبينَ بها أنَّهم يُؤْمَرونَ بقضائِها... والفائدةُ مِن قولِنا: إنَّهم مُخاطَبونَ بها -كما قال أهلُ العِلمِ-: زيادةُ عُقوبتِهم في الآخرةِ، وهذا يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ احتُجَّ على ثُبوتِ الشَّفاعةِ للفُسَّاقِ بمفهومِ هذه الآيةِ؛ فإنَّ تخصيصَ هؤلاء بأنَّهم لا تَنفَعُهم شَفاعةُ الشَّافِعينَ يدُلُّ على أنَّ غيرَهم تَنفَعُهم شفاعةُ الشَّافِعينَ[1]، وأنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه مُشَفِّعٌ بَعْضَ خَلْقِه في بَعْضٍ[2]. ووردت أحاديثُ في صِحَّةِ ذلك[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ يُبيِّنُ للسَّامعِ عُقْبَى الاختيارِ الَّذي في قولِه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[4] [المدثر: ٣٧].

- قولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ مُرادٌ به خُصوصُ أنفُسِ المُنذَرينَ مِن البشَرِ؛ فهو مِن العامِّ المرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ، أي: قَرينةُ ما تُعْطيهِ مادَّةُ رَهينةٍ مِن معْنى الحبْسِ والأَسْرِ[5].

- و﴿رَهِينَةٌ﴾: مَصدرٌ بوَزنِ فَعيلةٍ، كالشَّتيمةِ، والإخبارُ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ[6].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بقولِه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، قُدِّمَ للاهتِمامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٢٥).

و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حالٌ مِن أصحابِ اليمينِ، وهو مَناطُ التَّفصيلِ الَّذي جِيءَ مِن أجْلِه بالاستثناءِ المُنقطِعِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: هِمْ في جنَّاتٍ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ لِمَضمونِ جُملةِ الاستثناءِ، والتَّقديرُ: فما شَأنُهم وحالُهم[(١)]؟

- ومعْنى ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ على ظاهرِ صِيغةِ التَّفاعُلِ؛ للدَّلالةِ على صُدورِ الفِعلِ مِن جانبَينِ، أي: يَسأَلُ أصحابُ اليمينِ بعضُهم بعضًا عن شأْنِ المُجرمين، وتكونَ جُملةُ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. وضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿سَلَكَكُمْ﴾ يُؤذِنُ بمَحذوفٍ، والتَّقديرُ: فيَسْأَلون المُجرِمين: ما سلَكَكُم في سَقَرَ؟ وليس الْتِفاتًا، أو يقولُ بعضُ المَسؤولينَ لأصحابِهم جَوابًا لِسائِليهم: قُلْنا لهم: ما سَلَكَكم في سَقَرَ؟ ويجوزُ أنْ تكونَ صِيغةُ التَّفاعُلِ مُستعمَلةً في معْنى تَكريرِ الفِعلِ، أي: يَكثُرُ سُؤالُ كلِّ أحدٍ منهم سُؤالًا مُتكرِّرًا، أو هو مِن تَعدُّدِ السُّؤالِ مِن أجْلِ تَعدُّدِ السَّائلينَ، وعلى هذا يكونُ مَفعولُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مَحذوفًا يدُلُّ عليه قولُه: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، والتَّقديرُ: يَتساءلون المُجرِمين عنهم، أي: عن سَببِ حُصولِهم في سَقَرَ، ويدُلُّ عليه بَيانُ جُملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ بجُملةِ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؛ فإنَّ ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ فيه بَيانٌ للتَّساؤُلِ[(٢)].

وقيل: قولُه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يَسألونَهم عن أحوالِهم، وقد حُذِفَ المَسؤولُ لكَونِه عينَ المسؤولِ عنه، وقولُه تعالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ مُقدَّرٌ بقَولٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥، ٣٢٦).

هو حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، أيْ: يَسألونَهم قائلينَ: أيُّ شَيءٍ أدْخَلَكم فيها[(١)]؟

- قولُه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ يَسألونهم وهم عالِمونَ بحالِهم؛ تَوبيخًا لهم وتَحسيرًا، وليكونَ حِكايةُ اللهِ ذلك في كِتابِه تَذكرةً للسَّامعينَ[(٢)].

- و(ما) الاستفهاميةُ مُحتمِلةٌ للتَّوبيخِ والتَّعجيبِ[(٣)].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ إيمانِهم، وسَلَكوا بها طَريقَ الإطنابِ المناسِبَ لمَقامِ التَّحسُّرِ والتَّلهُّفِ على ما فاتَ، فكأنَّهم قالوا: لأنَّا لم نكُنْ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ أهلَ الإيمانِ اشتَهَروا بأنَّهم أهلُ الصَّلاةِ، وبأنَّهم في أموالِهم حقٌّ مَعلومٌ للسَّائلِ والمَحرومِ، وبأنَّهم يُؤمِنون بالآخِرةِ وبيَومِ الدِّينِ، ويُصدِّقون الرُّسلَ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: بيَومِ الجَزاءِ، أضافُوه إلى الجزاءِ مع أنَّ فيه مِن الدَّواهِي والأهوال ما لا غايةَ له؛ لأنَّه أدْهاهَا وأهْوَلُها، وأنَّهم مُلابِسوه[(٥)].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تَأخيرُ جِنايتِهم هذه مع كَونِها أعظَمَ مِنَ الكُلِّ؛ لتَفخيمِها، كأنَّهم قالُوا: وكنَّا بعْدَ ذلكَ كلِّه مُكذِّبينَ بيَوم الدِّينِ، ولبَيانِ كَونِ تَكذيبِهم به مُقارنًا لسائرِ جِناياتِهم المَعدودةِ مُستمرًّا إلى آخِرِ عُمرِهم، حسبَما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

نطَقَ به قولُهم: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾(١).

- وفي الأفعالِ المُضارِعةِ في قولِه: ﴿لَمۡ نَكُ﴾، و﴿نَخُوضُ﴾، و﴿نُكَذِّبُ﴾ إيذانٌ بأنَّ ذلك دَيدنُهم، ومُتجدِّدٌ منهم طُولَ حَياتِهم(٢).

- وفاءُ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾، أي: فهمْ دائِمون في الارتهانِ في سَقَرَ(٣).

- وفي قولِه تعالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بنفْيِ الشَّيءِ بإيجابِه(٤)؛ فهنا ليس المعْنى أنَّهم يُشفَعُ لهم فلا تَنفَعُهم شفاعةُ مَن يَشفَعُ لهم، وإنَّما المعْنى نفْيُ الشَّفاعةِ، فانْتفى النَّفعُ، أي: لا شَفاعةَ شافِعينَ لهم فتَنفَعَهم، مِن بابِ «على لاحِبٍ لا يُهتَدى بمَنارِه»(٥)، أي: لا مَنارَ له فيُهتَدى به(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) نفْيُ الشَّيءِ بإيجابِه: هو أنْ يكونَ الكلامُ ظاهِرُه إيجابُ الشَّيءِ وباطنُه نفْيُه، بأنْ يُنفَى ما هو مِن سببِه وهو المنفيُّ في الباطِنِ، أو أنْ يُذكرَ كَلامٌ يدُلُّ ظاهِرُه أنَّه نفْيٌ لِصفةِ مَوصوفٍ، وهي نفْيٌ للمَوصوفِ أصْلًا، وهو مِن مَحاسِنِ الكلامِ، فإذا تأمَّلْتَه وجَدْتَ باطنَه نفيًا، وظاهِرَه إيجابًا. يُنظر: ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشيق (٢/ ٨٠)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٢٠٣)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٧٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حِجَّة الحَمَوي (٢/ ٢٤)، ((شرح عقود الجُمَان)) للسيوطي (ص: ١٣٤)، ((أنوار الربيع)) لابن معصوم (٤/ ٣٦٤).

(٥) القائلُ هو امرُؤ القَيس. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحِبُ: الطَّريقُ الواضِحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٣).

الآيات (٤٩-٥٦)

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: أي: نافِرةٌ هارِبةٌ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تباعُدٍ[١].

﴿قَسْوَرَةٍ﴾: أي: رُمَاةٍ، أو أَسَدٍ؛ مِنَ «القَسْرِ» وهو: القَهْرُ، وسُمِّيَ الأسدُ بذلك؛ لأنَّه يَقهَرُ السِّباعَ، وأصلُ (قسر): يدُلُّ على الغَلَبةِ والقَهْرِ[٢].

﴿مُّنَشَّرَةً﴾: أي: مَنشورةً مفتوحةً غيرَ مَطويَّةٍ، تُنشَرُ وتُقرأُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا شدَّةَ إعراضِ المشركِينَ وعِنادِهم: فما لِهؤلاء المُشرِكين عن القُرآنِ مُعرِضينَ؟! كأنَّهم في إعراضِهم عنه حَميرُ وَحْشٍ هارِبةٌ، هرَبَت مِن أَسَدٍ أو رُماةٍ!

إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَكْتَفونَ بتلك التَّذكِرةِ، ولا يَرضَونَ بها، بل يُريدُ كُلُّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠).

واحدٍ مِنهم أن يُنزِلَ اللهُ عليه كِتابًا مِن السَّماءِ مَفتوحًا يأمُرُه باتِّباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! كلَّا لن نُجيبَهم إلى مُقتَرَحاتِهم؛ فهم قومٌ لا يخافُونَ عَذابَ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُؤمِنونَ ببَعثٍ ولا جنَّةٍ ولا نارٍ، وليس الأمرُ كما يَزعُمُ هؤلاء المُشرِكونَ في القُرآنِ مِن أنَّه سِحرٌ يُؤثَرُ، وأنَّه قَولُ البَشَرِ، وإنَّما هو تَذكِرةٌ بليغةٌ مِنَ اللهِ تعالى، فمَن شاء مِن العِبادِ تذَكَّرَ بهذا القُرآنِ واتَّعَظَ، وما يَذكُرونَ بهذا القُرآنِ ويتَّعِظونَ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لهم ذلك؛ هو سُبحانَه أهْلٌ لِأَنْ يَخافَه عِبادُه ويَحذَروا سَخَطَه وعِقابَه، وهو وَحْدَه أهْلٌ لِأنْ يَغفِرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَرحَمَهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩)﴾.

أي: فما لِهؤلاء المُشرِكينَ عن القُرآنِ الَّذي يُذكَّرونَ به مُعرِضينَ، فلا يُؤمِنونَ به ولا يتَّبِعونَه(١)؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠)﴾.

أي: كأنَّ المُشرِكينَ في إعراضِهم عن القُرآنِ ونُفورِهم مِن الحَقِّ: حَميرُ وَحْشٍ هارِبةٌ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾.

أي: هرَبَت أشدَّ الهرَبِ ممَّن يُريدُ صَيْدَها مِن أَسَدٍ أو رُماةٍ[1].

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾.

= (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (الحُمُرُ: جمعُ حِمارٍ، وهو الحِمارُ الوَحْشيُّ، وهو شديدُ النِّفارِ إذا أحَسَّ بصَوتِ القانِصِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: الرُّماةُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، ونسَبَه ابنُ كثيرٍ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو موسى الأشعريُّ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، وابنُ كَيْسانَ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ: القُنَّاصُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: الأسدُ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وعَطاءٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا وأبو هُرَيرةَ وجمهورٌ مِنَ اللُّغَويِّينَ: القَسْوَرةُ: الأسَدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٩).

وقيل: القَسْوَرةُ: حِبالُ الصَّيَّادينَ. وقيل: النَّبْلُ. وقيل: أصواتُ النَّاسِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

أي: لا يَكْتَفون بتلك التَّذكِرةِ ولا يَرضَونَ بها، بل[(١)] يُريدُ كُلُّ واحدٍ مِنَ المُشرِكينَ أن يُنزِلَ اللهُ عليه كِتابًا مِن السَّماءِ مَفتوحًا غيرَ مَطْويٍّ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها رَدعٌ للكافِرينَ عن تلك الإرادةِ، وزَجرٌ عن اقتِراحِ الآياتِ؛ فإنَّه لَمَّا حَصَلَت

(١) قال الشَّوكاني: (عطفٌ على مُقدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ، كأنَّه قيل: لا يكتَفون بتلك التَّذكرة، ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٨).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ما بهؤلاء المشركين في إعراضِهم عن هذا القرآنِ أنَّهم لا يَعلَمون أنَّه مِن عندِ الله، ولكنْ كلُّ رجُلٍ منهم يُريدُ أن يُؤتَى كتابًا من السَّماءِ يَنزِلُ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٠، ٤٦١).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان الجوابُ قَطعًا: لا شَيءَ لهم في إعراضِهم هذا، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٨).

وقال السعدي: (ومع هذا الإعراضِ وهذا النُّفورِ يَدَّعونَ الدَّعاوى الكِبارَ؛ فـ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ نازلةً عليه مِن السَّماءِ، يَزعُمُ أنَّه لا يَنقادُ للحَقِّ إلَّا بذلك!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: وذلك أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِيُصبِحْ عندَ رأسِ كلٍّ مِنَّا كتابٌ مَنشورٌ مِنَ اللهِ: أنَّ آلهتَنا باطِلةٌ، وأنَّ إلهَك حَقٌّ، وأنَّك رسولُه، نُؤمَرُ فيه باتِّباعِك! كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٦٤).

وقال ابنُ جُزَي: (معنى ﴿مُّنَشَّرَةٗ﴾: منشورةً غيرَ مَطويةٍ، أي: طريَّةً كما كُتِبَت، لم تُطْوَ بَعْدُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١).

وقال ابنُ عاشور: (المُنَشَّرةُ: المفتوحةُ المقروءةُ، أي: لا نَكتفي بصَحيفةٍ مَطويَّةٍ لا نَعلَمُ ما كُتِب فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

المُعجِزاتُ الكثيرةُ كَفَت في الدَّلالةِ على صِحَّةِ النُّبُوَّة، فطَلَبُ الزِّيادةِ يكونُ مِن بابِ التَّعَنُّتِ(١).

﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: لن نُعطِيَ كُلَّ واحدٍ منهم كتابًا خاصًّا، وليس الأمرُ كما زَعَموا أنَّهم سيُؤمِنون لو أتَتْهم صُحُفٌ مُنَشَّرةٌ، وإنَّما هم قومٌ لا يَخافونَ عذابَ اللهِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم لا يؤمِنونَ بالبَعثِ والجنَّةِ والنَّارِ، فأعرَضوا بسَبَبِ ذلك عن القُرآنِ، وامتَنَعوا عن اتِّباعِ الحَقِّ، واغتَرُّوا بالدُّنيا حتَّى هَلَكوا(٢).

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ هؤلاء المُشرِكونَ في القُرآنِ مِن أنَّه سِحرٌ يُؤْثَرُ، وأنَّه قَولُ البَشَرِ، وإنَّما هو تَذكِرةٌ بليغةٌ مِنَ اللهِ تعالى لخَلْقِه، يُذَكِّرُهم به(٣).

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٥٢).

وقال البقاعي: (﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمرُ قَطعًا كما تَزعُمونَ مِن أنَّ هذا القُرآنَ لا يَستحِقُّ الإقبالَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٩).

أي: فمَن شاء مِن العِبادِ تذكَّرَ بهذا القُرآنِ واتَّعظَ، وعَمِلَ بما فيه مِن أوامِرَ ونَواهٍ[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾.

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وما يَذكُرونَ بهذا القُرآنِ ويتَّعِظونَ به ويَعمَلونَ، إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لهم ذلك[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الحقيقُ بأن يَخافَه عِبادُه، ويَحذَروا سَخَطَه وعِقابَه؛ بفِعلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال الزمخشري: (فمَن شاء أن يَذكُرَه ولا يَنساه، ويَجعَلَه نُصْبَ عَيْنِه، فعَل؛ فإنَّ نَفْعَ ذلك راجِعٌ إليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧).

وقال السعدي: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنَّه قد بُيِّن له السَّبيلُ، ووُضِّحَ له الدَّليلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال ابن الجوزي: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الهاءُ عائدةٌ على القرآنِ، فالمعنى: فمَن شاء أن يذكرَ القرآنَ ويتَّعِظَ به ويَفْهَمَه، ﴿ذَكَرَهُۥ﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٧).

وقيل: الضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى الله تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

أوامِره، واجتِنابِ نواهيه، وهو وَحْدَه الحقيقُ بأن يَغفِرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَرحَمَهم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ذَمُّ المُعْرِضينَ عن سَماعِ القُرآنِ[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ هذا تعريضٌ بالتَّحريضِ للعُصاةِ أن يُقلِعوا عن الذُّنوبِ[(٣)].

٣- أصلُ التَّقوَى أنْ يجعلَ العبدُ بينَه وبينَ ما يخافُه ويحذرُه وقايةً تَقيه منه، فتقوَى العبدِ لربِّه أنْ يجعَلَ بينَه وبينَ ما يخشاه مِن ربِّه مِن غضبِه وسخطِه وعقابِه وقايةً تقيه مِن ذلك، وهو فعلُ طاعتِه، واجتنابُ معاصيه.

والتَّقوى تارةً تُضافُ إلى اسمِ الله عزَّ وجلَّ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]، فإذا أُضيفَت التَّقوَى إليه سبحانَه وتعالى، فالمعنى: اتَّقوا سخطَه وغضبَه، وهو أعظمُ ما يُتقَّى، وعن ذلك ينشأُ عقابُه الدُّنيويُّ والأخرويُّ، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، فهو سبحانَه أهلٌ أنْ يُخشَى ويُهابَ ويجلَّ ويعظَّمَ في صدورِ عبادِه حتَّى يَعبدوه ويُطيعوه، لما يستحقُّه مِن الإجلالِ والإكرامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

قال ابنُ جُزَي: (أي: هو أهلٌ لأن يُتَّقى؛ لشِدَّةِ عِقابِه، وهو أهلٌ لأن يَغفِرَ الذُّنوبَ؛ لكَرَمِه، وسَعةِ رَحمتِه وفَضْلِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

وصفاتِ الكبرياءِ والعظمةِ وقوةِ البطشِ، وشدةِ البأس...

وتارةً تُضافُ التَّقوَى إلى عقابِ الله وإلى مكانِه كالنَّارِ، أو إلى زمانِه كيومِ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] [البقرة: ٢٨١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ سؤالٌ: أنَّه في قَولِه سُبحانَه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] أنَّه إذا كان هو الَّذي صَرَفهم وجَعَلهم مُعْرِضِينَ ومأفوكِينَ، فكيف يَنبغي إنكارُ ذلك عليهم؟!

قيل: هم دائِرونَ بيْنَ عَدْلِه وحُجَّتِه عليهم، فمَكَّنَهم، وفَتَح لهم البابَ، ونَهَج لهم الطَّريقَ، وهَيَّأَ لهم الأسبابَ؛ فأرْسَلَ إليهم رُسُلَه، وأنْزَل عليهم كُتُبَه، ودعاهم على ألْسِنَةِ رُسُلِه، وجَعَل لهم عقولًا تُمَيِّزُ بيْنَ الخَيرِ والشَّرِّ، والنَّافعِ والضَّارِّ، وأسبابِ الرَّدَى وأسبابِ الفلاحِ، وجَعَل لهم أسماعًا وأبصارًا؛ فآثَروا الهوى على التَّقْوى، واستَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى، وقالوا: مَعصيتُك آثَرُ عندَنا مِن طاعتِك! والشِّرْكُ أحَبُّ إلينا من توحيدِك! وعبادةُ سِواك أنْفَعُ لنا في دُنيانا مِن عبادتِك! فأعْرَضَتْ قلوبُهم عن ربِّهم وخالقِهم ومَليكِهم، وانصرفَتْ عن طاعتِه ومحبَّتِه، فهذا عَدْلُه فيهم، وتلك حُجَّتُه عليهم، فهم سَدُّوا على أنفُسِهم بابَ الهدَى إرادةً منهم واختيارًا، فسَدَّه عليهم اضطرارًا، فخَلَّاهم وما اختاروا لأنْفُسِهم، ووَلَّاهم ما تَوَلَّوه، ومَكَّنَهم فيما ارتَضَوه، وأدْخَلَهم مِن البابِ الَّذي اسْتَبَقُوا إليه، وأَغْلَقَ عنهم البابَ الَّذي تَوَلَّوا عنه وهم مُعْرِضُون، فلا أقْبَحَ مِن

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٩٨، ٣٩٩).

فِعْلِهم، ولا أحسَنَ مِن فِعْلِه[١]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين لا يُدخِلونَ أفعالَ العِبادِ تحتَ مَشيئةِ اللهِ، والجَبْريَّةِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّه ليس للعَبدِ مَشيئةٌ، ولا فِعلٌ حَقيقةً، وإنَّما هو مجبورٌ على أفعاله! فأثبت تعالى للعِبادِ مَشيئةً حَقيقةً وفِعلًا، وجَعَل ذلك تابِعًا لمَشيئتِه[٢]. ومَشيئتُه جَلَّ وتعالى مُتقَدِّمةٌ على مَشيئةِ العَبدِ، لولا ذلك ما استطاعَ العبدُ فِعْلَ شَيءٍ، ولا كانت مَشيئةٌ في شَيءٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «أهلٌ للتَّقْوى»، بل قال: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ فهو وَحْدَه أهلٌ أنْ يُتَّقى فيُعْبَدَ دونَ ما سِواه، ولا يَستَحِقُّ غيرُه أنْ يُتَّقى، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[٤] [النحل: ٥٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ تَفريعٌ للتَّعجيبِ مِن إصرارِهم على الإعراضِ عمَّا فيه تَذكِرةٌ[٥]؛ فالفاءُ لتَرتيبِ إنكارِ إعْراضِهم عنِ القُرآنِ بغيرِ سَببٍ على ما قبْلَها مِن مُوجباتِ الإقبالِ عليه، والاتِّعاظِ به مِن سُوءِ حالِ المُكذِّبينَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

- وجِيءَ باسمِ التَّذكرةِ الظَّاهِرِ دونَ أنْ يُؤتَى بضَميرٍ، نحْو أنْ يُقالَ: (عنها مُعرِضينَ)؛ لئلَّا يَختصَّ الإنكارُ والتَّعجيبُ بإعراضِهم عن تَذكرةِ الإنذارِ بسَقَرَ، بلِ المقصودُ التَّعميمُ لإعراضِهم عن كلِّ تَذكرةٍ، وأعظَمُها تَذكرةُ القُرآنِ، كما هو المناسِبُ للإعراضِ؛ قال تبارك وتعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] [التكوير: ٢٧].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن غَرابةِ حالِهم، بحيث تَجدُرُ أنْ يَستفهِمَ عنها المُستفهِمون، أيْ: فإذَا كان حالُ المُكذِّبينَ به على ما ذُكِرَ، فأيُّ شَيءٍ حصَلَ لهم مُعرِضينَ عن القُرآنِ مع تَعاضُدِ مُوجباتِ الإقبالِ عليه، وتآخُذِ الدَّواعِي إلى الإيمانِ به[2]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ شَبَّهَهم في إعراضِهم ونُفورِهم عن القُرآنِ بحُمُرٍ رأت الأسَدَ أو الرُّماةَ ففَرَّت منه، وهذا مِن بديعِ التَّمثيلِ؛ فإنَّ القَومَ مِن جَهْلِهم بما بعَثَ اللهُ سبحانه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كالحُمُرِ، فهي لا تَعقِلُ شَيئًا، فإذا سَمِعَت صوتَ الأسَدِ أو الرَّامي نفَرَت منه أشَدَّ النُّفورِ، وهذا غايةُ الذَّمِّ لهؤلاء؛ فإنَّهم نَفَروا عن الهدى الَّذي فيه سعادتُهم وحياتُهم كنُفورِ الحُمُرِ عمَّا يُهلِكُها ويَعقِرُها، وتحتَ المُستَنفِرةِ معنًى أبلَغُ مِنَ النَّافِرةِ؛ فإنَّها لشِدَّة نُفورِها قد استنفَرَ بَعضُها بعضًا، وحَضَّه على النُّفورِ، فكأنَّها تواصت بالنُّفورِ، وتواطَأَت عليه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩)، ((إعراب =

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ للمُبالَغةِ في الوصْفِ، مِثلُ: استَكمَلَ واستجابَ، واستعْجَبَ واستَسخَرَ، واستَخرَجَ واستَنبَطَ، أي: نافرةٌ نِفارًا قويًّا، فهي تَعْدو بأقْصى سُرعةِ العَدْوِ[١].

- وقولُه: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قُرِئَ ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ بفتْحِ الفاءِ[٢]، أي: استَنفَرَها مُستنفِرٌ، أي: أنْفَرَها، فهو مِن (استَنْفَره) المُتعدِّي بمعْنى أنْفَرَه، وبِناءُ الفعلِ للنَّائبِ يُفيدُ الإجمالَ ثمَّ التَّفصيلَ بقولِه: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، وقُرِئَ بكسْرِ الفاءِ، أي: استَنْفَرَت، هي مِثلُ: استجابَ، فيكونُ جُملةُ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ بيانًا لسَببِ نُفورِها[٣].

- و﴿قَسْوَرَةٍ﴾ قِيل: هو اسمُ جمْعِ قَسْوَرٍ، وهو الرَّامي؛ فيَكونُ التَّشبيهُ جارِيًا على مُراعاةِ الحالةِ المشهورةِ في كَلامِ العرَبِ. وقيل: القَسورةُ مُفرَدٌ، وهو الأَسَدُ، وعلى هذا فهو تَشبيهٌ مُبتكَرٌ لحالةِ إعراضٍ مَخلوطٍ برُعْبٍ ممَّا تَضمَّنَتْه قَوارِعُ القرآنِ. وإيثارُ لَفظِ قَسورةٍ هنا لصَلاحيتِه للتَّشبيهَينِ، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ لذِكرِ حالةٍ أُخرى مِن أحوالِ عِنادِهم[٥]، قيل: هو إضرابٌ انتقاليٌّ عن مَحذوفٍ

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

(٢) قرأها نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بفتحِ الفاءِ، والباقونَ بكسرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٣١).

هو جَوابُ الاستفهامِ السَّابقِ، كأنَّه قِيل: فلا جَوابَ لهم عن هذا السُّؤالِ -أي: لا سبَبَ لهم في الإعراضِ- ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾[(١)].

وقيل: هو عطْفٌ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المقامُ، كأنَّه قيل: لا يَكتفونَ بتلك التَّذكرةِ ولا يَرْضَون بها، بلْ يُريدُ كلُّ واحدٍ منهم...[(٢)].

- قيل: جَمَعَ ﴿صُحُفًا﴾؛ إمَّا لأنَّهم سَأَلوا أنْ يكونَ كلُّ أمرٍ أو نهْيٍ تَأتي الواحدَ منهم في شأنِه صَحيفةٌ، وإمَّا لأنَّهم لَمَّا سَأَلوا أنْ تَأتيَ كلَّ واحدٍ منهم صَحيفةٌ باسمِه، وكانوا جَماعةً مُتَّفِقينَ جُمِعَ لذلك، فكأنَّ الصُّحفَ جَميعُها جاءت لكلِّ امرئٍ منهم[(٣)].

- و﴿مُّنَشَّرَةً﴾ مُبالَغةٌ في مَنْشورةٍ، والمُبالَغةُ واردةٌ على ما يَقتضيهِ فِعلُ (نَشَرَ) المُجرَّدِ مِن كَونِ الكتابِ مَفتوحًا واضحًا مِن الصُّحفِ المُتعارَفةِ[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ إبطالٌ لظاهرِ كَلامِهم ومُرادِهم منه، وردْعٌ عن إرادتِهم تلك، وزَجْرٌ لهم عن اقتِراحِ الآياتِ، أي: لا يكونُ لهم ذلك[(٥)].

- ثمَّ أضرَبَ على كَلامِهم بإبطالٍ آخَرَ بحرْفِ الإضرابِ، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: ليس ما قالوه إلَّا تَنصُّلًا، فلو أُنزِلَ عليهم كِتابٌ ما

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦، ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

آمَنوا، وهم لا يَخافون الآخرةَ، أي: لا يُؤمِنون بها، فكُنِّيَ عن عدَمِ الإيمانِ بالآخرةِ بعدَمِ الخَوفِ منها؛ لأنَّهم لو آمَنوا بها لَخافوها؛ إذ الشَّأنُ أنْ يُخافَ عَذابُها إذ كانت إحالتُهم الحياةَ الآخرةَ أصْلًا لتَكذيبِهم بالقرآنِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ (كَلَّا) ردْعٌ ثانٍ مُؤكِّدٌ للرَّدعِ الَّذي قبْلَه، أي: لا يُؤتَون صُحفًا مَنشورةً، ولا يُوزَعون إلَّا بالقرآنِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عن سُؤالِهم أنْ تُنزَّلَ عليهم صُحُفٌ مُنشَّرةٌ، بأنَّ هذا القرآنَ تَذكرةٌ عَظيمةٌ[3].

- وتَنكيرُ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ للتَّعظيمِ، يعْني أنَّه تَذكرةٌ بَليغةٌ كافيةٌ، مُبهَمٌ أمْرُها في الكِفايةِ[4].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ تفريعٌ على ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾، وهذا تَعريضٌ بالتَّرغيبِ في التَّذكُّرِ، أي: التَّذكُّرُ طَوعُ مَشيئتِكم، فإنْ شِئتُم فتَذَكَّروا[5].

- والضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ إلى ما عاد إليه ضَميرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

﴿إِنَّهُۥ﴾ -وهو القرآنُ- فيكونَ على الحَذْفِ والإيصالِ[١]، وأصْلُه: ذَكَر به. ويجوزُ أنْ يعودَ إلى اللهِ تعالَى وإنْ لم يَتقدَّمْ لاسْمِه ذِكرٌ في هذه الآياتِ؛ لأنَّه مُستحضَرٌ مِن المَقامِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ إنذارٌ للنَّاسِ بأنَّ التَّذكُّرَ بالقرآنِ يَحصُلُ إذا شاؤوا التَّذكُّرَ به، والمشيئةُ تَستدعي التَّأمُّلَ فيما يُخلِّصُهم مِن المؤاخَذةِ على التَّقصيرِ، وهمْ لا عُذْرَ لهم في إهمالِ ذلك[٣]!

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أنْ يَذكُرَه[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ؛ لإفادةِ تَعلُّمِهم بهذه الحَقيقةِ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٥].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٥]؛ تَقويةً للتَّعريضِ بالتَّرغيبِ في التَّذكُّرِ،

---

(١) الحذفُ والإيصالُ: هو حذْفُ حرفِ الجرِّ لتضمُّنِ الفِعلِ معنى فِعلٍ مُتعَدٍّ، وهو ما يُعرَفُ عندَ النُّحاةِ بنزْعِ الخافِضِ، وهذا مِن أَسَدِّ وأَدمثِ مذاهبِ العربيَّةِ؛ وذلك أنَّه موضعٌ يَملِكُ فيه المعنى عِنانَ الكلامِ فيأخُذُه إليه، ويُصرِّفُه بحسَبِ ما يُؤثِرُه عليه، مِثلُ قوله تعالَى: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: ٦٦]؛ فتعديةُ فِعلِ الاستباقِ إليه على حذْفِ (إلى) بطريقةِ الحذفِ والإيصالِ، أو على تَضمينِ (استبَقوا) معنى (ابْتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرِعينَ لِمَا دهمَهم؛ رجاءَ أن يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلمْ يُبصِروا الطَّريقَ، ومِثلُ قولِه عزَّ اسمُه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((المحتسب)) لابن جِنِّي (١/ ٥١)، ((الإيضاح)) للقزويني (٢/ ١٧٣)، ((السماع والقياس)) لأحمد تَيْمور باشا (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢) و(٢٧/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

والتَّذكُّرُ يُفْضي إلى التَّقْوى، فالمعْنى: فعليكمْ بالتَّذكُّرِ، واتَّقوا اللهَ تعالَى؛ لأنَّ اللهَ هو أهلٌ للتَّقوى(١).

- وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يُفيدُ قصْرَ مُستحِقِّ اتِّقاءِ العِبادِ إيَّاه على اللهِ تعالَى، وأنَّ غيرَه لا يَستحِقُّ أنْ يُتَّقى ويُتجنَّبَ غضَبُه، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فإمَّا أنْ يكونَ القصرُ قصْرًا إضافيًّا(٢) للرَّدِّ على المشركين الَّذين يَخشَون غضَبَ الأصنامِ، ويَطلُبون رِضاها، أو يكونَ قصْرًا ادِّعائيًّا(٣) لتَخصيصِه تعالَى بالتَّقْوى الكاملةِ الحقِّ؛ وإلَّا فإنَّ بعضَ التَّقْوى مأمورٌ بها، كتَقْوى حُقوقِ ذوي الأرحامِ في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. وقد يُقالُ: إنَّ ما ورَدَ الأمرُ به مِن التَّقوى في الشَّريعةِ راجِعٌ إلى تَقْوى اللهِ، وهذا مِن مُتمِّماتِ القصْرِ الادِّعائيِّ(٤).

- وهذا تَعريضٌ بالتَّحريضِ للمشركين أنْ يُقلِعوا عن كُفْرِهم بأنَّ اللهَ يَغفِرُ لهم ما أسْلَفوه؛ قال تعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وبالتَّحريضِ للعُصاةِ أنْ يُقلِعوا عن الذُّنوبِ؛ قال تعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥) [الزمر: ٥٣].

- وأُعِيدَت كَلمةُ ﴿أَهْلُ﴾ في الجُملةِ المعطوفةِ دونَ أنْ يُقالَ: (والمَغفرة)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

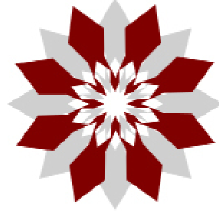
للإشارةِ إلى اختلافِ المعْنى بيْن (أهْلٍ) الأوَّلِ و(أهْلٍ) الثَّاني، على طَريقةِ إعادةِ فِعلِ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[1] [النساء: ٥٩].

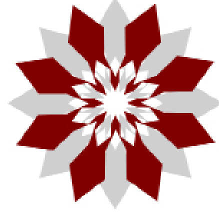


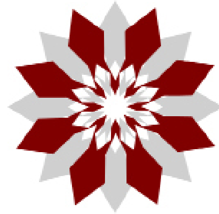
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٥).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ القيامةِ







سورةُ القيامةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (القيامةِ)[1].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ القيامةِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[2].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

وصْفُ يومِ القِيامةِ، والحديثُ عن أهوالِه، وعن أحوالِ النَّاسِ فيه[3].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّذكيرُ بيومِ القيامةِ وما يكونُ فيه.

٢- بيانُ إمكانيَّةِ البَعثِ، وحَتميَّةِ وُقوعِه والجزاءِ فيه على الأعمالِ.

٣- ذِكرُ آدابِ سَماعِ الوَحيِ.

٤- ذِكرُ اختلافِ أحوالِ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاءِ، وتكريمِ أهلِ السَّعادةِ ووَعْدِهم برؤيةِ اللهِ تعالى.

٥- التَّذكيرُ بالموتِ، وأنَّه أوَّلُ مَراحِلِ الآخِرةِ.

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ بيومِ القيامةِ، ولم يُقسَمْ به فيما نَزَل قَبْلَها مِن السُّوَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٦).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤٣٦٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ١٩٥).

الآيات (١-٦)

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نُّسَوِّىَ﴾: أي: نُتقِنَها سَويَّةً، والتَّسويةُ: تَقويمُ الشَّيءِ، وإتقانُ الخَلْقِ، وقيل: نَجعَلَها شيئًا واحدًا، مُستويةً كخُفِّ البعيرِ ونحوِه، وأصْلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[١].

﴿بَنَانَهُۥ﴾: البَنانُ: الأصابِعُ أو أطرافُها، وهو جَمعُ «بَنَانةٍ»، قيل: سُمِّيَت بَنانًا مِن قولِهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقامَ؛ فالبَنانُ به يُعتمَلُ كلُّ ما يكونُ للإقامةِ والحياةِ[٢].

﴿لِيَفْجُرَ﴾: أي: يَعْصيَ ويُخالِفَ، والفُجورُ: الانبِعاثُ في المعاصي، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تفَتُّحٍ في شَيءٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالقَسَم بيومِ القيامةِ الَّذي يقومُ النَّاسُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٩٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٣٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩١).

فيه للحِسابِ والجَزاءِ، والقَسَمِ بالنَّفْسِ الَّتي تَلُومُ صاحِبَها، ثمَّ قال تعالى: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّنا لن نَجمَعَ عِظامَه بعدَ تفَتُّتِها وتفَرُّقِها؛ لإحيائِه وبَعْثِه مِن قَبْرِه؟! بلى نحن نَقدِرُ على جَمعِ عِظامِه، ونَقدِرُ على ما هو أعظَمُ، وذلك بتسويةِ أصابعِه بعدَ ما تفَرَّقَت وتفَتَّتَت في التُّرابِ، فمَن قَدَر على جمعِ صِغارِ العِظامِ، كان على جَمعِ كِبارِها أقدَرَ!

بل يُريدُ الإنسانُ أن يَعصيَ في مُستَقبَلِ أيَّامِه، يَسألُ: متى يومُ القيامةِ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ الَّذي يقومُ النَّاسُ فيه للحِسابِ والجَزاءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

حكى الإجماعَ على أنَّ المعنى: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

قال الزَّجَّاج: (لا اختِلافَ بيْنَ النَّاسِ أنَّ معناه: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ، واختَلَفوا في تفسيرِ «لا»). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٥١). ويُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨، ٢٦٣).

واختلَف المفسِّرونَ في «لا» المذكورةِ هنا قبلَ القَسَمِ؛ فقيل: هي نافيةٌ لكلامٍ محذوفٍ تقديرُه: ما الأمرُ كما تقولون -أيُّها النَّاسُ- مِن أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ عِبادَه بعدَ مماتِهم أحياءً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

قال ابن كثير: (المُقسَمُ عليه إذا كان مُنتفيًا، جاز الإتيانُ بـ «لا» قبْلَ القسَمِ لتأكيدِ النَّفيِ. والمقسومُ عليه هاهنا هو إثباتُ الميعادِ، والرَّدُّ على ما يَزعُمُه الجهلةُ مِن العبادِ مِن عدمِ بعثِ الأجسادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥).
=

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّفْسِ الَّتي تَلُومُ صاحِبَها[1].

= وقيل: دخلت توكيدًا للكلامِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤).

وقيل: «لا» هنا للتَّنبيهِ. وممَّن اختاره: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠١).

قال السعدي: (ليست ﴿لَآ﴾ هاهنا نافيةً ولا زائدةً، وإنَّما أُتِيَ بها للاستِفتاحِ والاهتمامِ بما بعدَها، ولكثرةِ الإتيانِ بها مع اليمينِ لا يُستغرَبُ الاستفتاحُ بها، وإن لم تكُنْ في الأصل موضوعةً للاستفتاحِ، فالمقسَمُ به في هذا الموضِعِ هو المقسَمُ عليه، وهو البعثُ بعدَ الموتِ، وقيامُ النَّاسِ مِن قُبورِهم، ثمَّ وُقوفُهم يَنتظِرونَ ما يَحكُمُ به الرَّبُّ عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال الرازي: (﴿لَآ﴾ هاهنا لنَفْيِ القَسَمِ، كأنَّه قال: لا أُقسِمُ عليكم بذلك اليومِ وتلك النَّفْسِ، ولكنِّي أسأَلُك غيرَ مُقسِمٍ: أتحسَبُ أنَّا لا نَجمَعُ عِظامَك إذا تفرَّقَت بالموتِ؟ فإن كنتَ تحسَبُ ذلك، فاعلَمْ أنَّا قادِرونَ على أن نفعلَ ذلك. وهذا القولُ اختيارُ أبي مسلمٍ، وهو الأصَحُّ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٠).

وقال البِقاعي: (أشار سُبحانَه وتعالى إلى أنَّ الأمرَ قد صار غنيًّا عن الإقسامِ؛ لِما له مِن الظُّهورِ الَّذي لا يُنكِرُه إلَّا معانِدٌ، فقال مشيرًا إلى تعظيمِها، والتَّهويلِ في أمرِها، بذِكْرِها، وإثباتِ أمْرِها بعدَمِ الإقسامِ، أو تأكيدِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: لا أُوقِعُ الإقسامَ، أو أُوقِعُه مُؤكَّدًا ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على وُجودِ يومِ القيامةِ، أو بسبَبِ وُجودِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٤). ويُنظر في الخلافِ في (لا) المذكورةِ قبلَ القَسَمِ: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٨٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال ابنُ جرير: (إنَّ الجميعَ مِن الحُجَّةِ مُجْمِعونَ على أنَّ قولَه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قَسَمٌ، =

= فكذلك قَولُه: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، إلَّا أن تأتيَ حُجَّةٌ تدُلُّ على أنَّ أحَدَهما قَسَمٌ، والآخَرَ خَبَرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (جمهورُ المتأوِّلينَ على أنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ بالأمْرَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه تعالى أقسَمَ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ كما أقسَمَ بيومِ القيامةِ، فيَكونانِ قَسَمَينِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: أنَّه أقسَمَ بيومِ القيامةِ، ولم يُقسِمْ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ. قاله الحسَنُ. ويكونُ تقديرُ الكلامِ: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ، ولا أُقسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥١).

وقال البِقاعي: (لا أُقسِمُ على ذلك بهذا الَّذي هو مِن أدَلِّ الأمورِ على عَظَمتِه سُبحانَه؛ فإنَّ الأمرَ في ذلك غَنِيٌّ عن القَسَمِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٧).

وأمَّا جوابُ القَسَمِ فقيل: هو ما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، وهو: لَتُبعَثُنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥).

وقال أبو حيَّان: (قولُ مَن قال: جوابُ القسَمِ هو: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٣]، وما رُوِيَ عن الحسَنِ أنَّ الجوابَ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ [القيامة: ٤]، وما قيل: إنَّ «لا» في القَسَمَينِ لِنَفْيِهما، أي: لا أُقسِمُ على شَيءٍ، وأنَّ التَّقديرَ: ولكنِّي أسألُك أيَحْسَبُ الإنسانُ؟ أقوالٌ لا تَصلُحُ أن تُرَدَّ، بل تُطرَحُ ولا يُسَوَّدُ بها الورَقُ، ولولا أنَّهم سرَدوها في الكتبِ لم أُنَبِّهْ عليها). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤).

وقال ابنُ القيِّم في جوابِ القسَمِ: (يجوزُ أن يكونَ مِمَّا حُذِفَ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، والعِلمِ به، ويجوزُ أن يكونَ مِن القَسَمِ المقصودِ به التَّنبيهُ على دَلالةِ المُقسَمِ به، وكَونِه آيةً، ولم يَقصِدْ به مُقسَمًا عليه مُعَيَّنًا، فكأنَّه يقولُ: أذكُرُ يومَ القيامةِ والنَّفْسَ اللَّوَّامةَ مُقسِمًا بها؛ لكَونِها مِن آياتِنا، وأدِلَّةِ ربُوبيَّتِنا). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٧).

واختُلِف في المرادِ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ؛ فقيل: هي النَّفْسُ المؤمِنةُ، تَلومُ نَفْسَها في الدُّنيا وتُحاسِبُها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السمعانيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨، ٣٣٩).

وقيل: المرادُ: النَّفسُ المتَّقيَةُ الَّتي تَلومُ صاحِبَها يومَ القيامةِ على تقصيرِها في التَّقْوى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩). =

= ومِنهم مَن خَصَّص النَّفْسَ هنا بالكافِرةِ، وبوُقوعِ ذلك في الآخِرةِ. وممَّن ذهب إليه: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠٩).

ومِنهم مَن عَمَّم، فأدخَل في ذلك كلَّ نَفْسٍ، ولكِنْ خَصَّص بوُقوعِ ذلك في الآخِرةِ. كـ: الزَّجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وقد قيل: إنَّ النَّفْسَ تكونُ لَوَّامةً وغَيرَ لَوَّامةٍ، وليس كذلك. بل نَفْسُ كُلِّ إنسانٍ لَوَّامةٌ؛ فإنَّه ليس بَشَرٌ إلَّا يَلومُ نَفْسَه ويَندَمُ؛ إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخرةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٤).

وقال العُلَيمي: (والنَّفْسُ في الآيةِ اسمُ جنسٍ لِنُفوسِ البشَرِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٩).

وقال السمرقنديُّ: (هي نفْسُ ابنِ آدَمَ، يَلومُ نفْسَه، كما رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وعن عُمَرَ رضيَ الله عنهم: ما مِن نَفْسٍ بَرَّةٍ وفاجِرةٍ إلَّا تَلومُ نفْسَها؛ إن كانت مُحْسِنةً تقولُ: يا لَيْتَني زِدْتُ إحسانًا، وإن كانت سَيِّئةً تقولُ: يا لَيْتَني ترَكْتُ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٠).

وقال السعدي: (﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وهي جميعُ النُّفوسِ الخَيِّرةِ والفاجِرةِ، سُمِّيَت لَوَّامةً؛ لكثرةِ ترَدُّدِها وتلَوُّمِها، وعدَمِ ثبوتِها على حالةٍ مِن أحوالِها، ولأنَّها عندَ الموتِ تَلومُ صاحِبَها على ما عَمِلَتْ، بل نفْسُ المؤمنِ تَلومُ صاحِبَها في الدُّنيا على ما حصَل منه؛ مِن تفريطٍ، أو تقصيرٍ في حقٍّ مِنَ الحقوقِ، أو غفلةٍ؛ فجَمَع بيْن الإقسامِ بالجزاءِ، وعلى الجزاءِ، وبيْن مُستَحِقِّ الجزاءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: الَّتي تَلومُ صاحِبَها، وهي خَيِّرةٌ وشرِّيرةٌ؛ فالخَيِّرةُ تكونُ سببًا للنَّجاةِ فيه، والأُخرى تكون سببًا للهلاكِ فيه، فإنْ لامَتْ على الشَّرِّ أو على التَّهاوُنِ بالخَيرِ أنجَتْ، وإن لامتْ على ضِدِّ ذلك أهلَكَت، وكيفما كانت لا بُدَّ أن تَلومَ، وهي بيْن الأمَّارةِ والمُطمَئِنَّةِ، فما غلَب عليها منهما كانت في حَيِّزِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال البِقاعي أيضًا: (واللَّوَّامةُ يَشتَدُّ لَومُها في ذلك اليَومِ على عَدَمِ الخيرِ، أو عَدَمِ الزِّيادةِ منه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٧).

وقال ابن جرير: (اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ قولِه: ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾؛ فقال بعضُهم: معناه: ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ الَّتي تَلومُ على الخَيرِ والشَّرِّ... وقال آخَرونَ: بل معنَى ذلك: أنَّها تَلومُ على ما فاتَ وتَندَمُ... وقال آخَرونَ: بل اللَّوَّامةُ: الفاجِرةُ... وقال آخَرونَ: بل هي المَذْمومةُ... وهذه =

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّا لن نَجمَعَ عِظامَه الباليَةَ، فتَعودَ كما كانت بعدَ تمَزُّقِها وتفَتُّتِها وتفَرُّقِها؛ لإحيائِه وبَعْثِه مِن قَبْرِه[(١)]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

أي: نحن نَقدِرُ على جَمعِ عِظامِه، ونَقدِرُ على ما هو أعظَمُ، وذلك بتسويةِ أصابِعِه مع أنَّ عِظامَها أكثَرُ العِظامِ تفَرُّقًا، وأصغَرُها وأدَقُّها أجزاءً، فنَرُدُّها ونُؤَلِّفُ بيْنَها كما كانت في حياةِ صاحِبِها، بعد ما تفَرَّقَت وتفَتَّتَت في التُّرابِ، فمَن قَدَر على جمعِ صِغارِ العِظامِ، كان على جَمعِ كِبارِها أقدَرَ[(٢)]!

= الأقوالُ الَّتي ذَكَرْناها عمَّنْ ذَكَرْناها عنه وإنِ اختَلَفَتْ بها ألفاظُ قائِليها، فمُتَقارِباتُ المعاني. وأشْبَهُ القولِ في ذلك بظاهِرِ التَّنْزيلِ أنَّها تَلومُ صاحِبَها على الخَيرِ والشَّرِّ، وتَندَمُ على ما فات). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٩-٤٧١).

وقال الشوكاني: (ومعنى النَّفْسِ اللَّوَّامةِ: النَّفسُ الَّتي تَلومُ صاحِبَها على تقصيرِه، أو تَلومُ جميعَ النُّفوسِ على تقصيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦، ٢٠٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج =

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾.

أي: بل يريدُ الإنسانُ أنْ يَعصيَ اللهَ في مُستقبَلِ أيَّامِه وطوالَ عُمُرِه، دونَ أن يَتوبَ[1].

= (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٨، ٨٩).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، واختاره ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، واستظهره أبو حيَّان، ورجَّحه ابنُ القيِّم، وذهب إليه البِقاعي. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

قال السعدي: (استبعَدَ مِن جَهلِه وعُدوانِه قُدرةَ الله على خَلْقِ عِظامِه الَّتي هي عِمادُ البَدَنِ، فرَدَّ عليه بقَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، أي: أطرافَ أصابعِه وعِظامِه، المُستلزِم ذلك لخَلْقِ جميعِ أجزاءِ البدَنِ؛ لأنَّها إذا وُجِدَت الأنامِلُ والبَنانُ، فقد تمَّت خِلقةُ الجسَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقد اكتشف العلماءُ أنَّ لكلِّ إنسانٍ في أطرافِ أصابعِه بَصماتٍ تُميِّزُه عن غيرِه، وتختلِفُ مِن شخصٍ لآخَرَ، وهي الخطوطُ الدقيقةُ الموجودةُ فيها. يُنظر: ((فوائد المجاميع)) للمعلمي (٢٤/ ٧٥).

وقيل: المرادُ بتَسويةِ بَنانِه: جَعْلُ أصابعِ يَدَيه وقدَمَيه في الدُّنيا شيئًا واحدًا مِثلَ خُفِّ البعيرِ، أو حافِرِ الحِمارِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ وغيرُه إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢).

قال ابنُ جرير: (فكان لا يأخُذُ ما يأكُلُ إلَّا بفِيه كسائِرِ البهائِمِ، ولكِنَّه فرَّق أصابعَ يَدَيه يأخُذُ بها ويتناوَلُ، ويَقبِضُ إذا شاء ويَبسُطُ، فحَسَّن خَلْقَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن عطية، وابن القيم، والبِقاعي، =

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

أي: يَسألُ هذا الإنسانُ: متى يومُ القيامةِ[(١)]؟

= وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

وقيل: المرادُ: أنَّ الإنسانَ يريدُ أن يُكذِّبَ بما أمامَه مِن البعثِ ويومِ القيامةِ. واستحسن هذا المعنى: ابنُ قُتَيْبةَ، وجوَّزه الزَّجَّاجُ، وابنُ القيِّمِ وذكر أنَّه قولٌ قويٌّ، واستظهره ابنُ كثير، وذهب إليه السعديُّ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧، ٢٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

قال ابن جُزَي: (وفي معنى ﴿أَمَامَهُۥ﴾ ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: أنَّه عبارةٌ عمَّا يستقبلُ مِن الزَّمانِ، أي: يَفجُرَ بقيَّةَ عُمُرِه.

الثَّاني: أنَّه عبارةٌ عن اتِّباعِ أغراضِه وشَهَواتِه، يُقالُ: مشى فُلانٌ قُدَّامَه، إذا لم يَرجِعْ عن شَيءٍ يُريدُه. والضَّميرُ على هذَينِ القولَينِ يعودُ على الإنسانِ.

الثَّالثُ: أنَّ الضَّميرَ يعودُ على يومِ القيامةِ، والمعنى: يريدُ الإنسانُ أن يَفجُرَ قبلَ يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

قيل: المعنى: يَسألُ ابنُ آدَمَ السَّائِرُ في معصيةِ اللهِ قُدُمًا: متى يومُ القيامةِ؟ تسويفًا منه للتَّوبةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٦٣).

وقيل المراد: سؤالُ الكافِرِ عن موعِدِ يومِ القيامةِ على جهةِ التَّكذيبِ والاستبعادِ والاستهزاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فيه أنَّ كُلَّ نَفْسٍ مُتوسِّطةٍ ليست بمُطمَئِنَّةٍ ولا أمَّارةٍ بالسُّوءِ، فإنَّها لَوَّامةٌ في الطَّرَفينِ؛ مرَّةً تلومُ على تَركِ الطَّاعةِ، ومرَّةً تَلومُ على فَوتِ ما تَشتهي، فإذا اطمأنَّت خلَصَت وصَفَت[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ جَمَعَ سُبحانَه في القَسَمِ بيْن مَحَلِّ الجزاءِ -وهو يومُ القيامةِ-، ومَحَلِّ الكَسْبِ -وهو النَّفْسُ اللَّوَّامةُ-، ونَبَّهَ سُبحانَه بكَونِها لَوَّامةً على شِدَّةِ حاجتِها وفاقتِها وضَرورتِها إلى مَن يُعَرِّفُها الخَيرَ والشَّرَّ، ويَدُلُّها عليه، ويُرْشِدُها إليه، ويُلْهِمُها إيَّاه، فيَجْعَلُها مُريدةً للخَيرِ مُؤْثِرةً له، كارِهةً للشَّرِّ مُجانِبةً له؛ لِتَخْلُصَ مِن اللَّومِ ومِن شَرِّ ما تَلُومُ عليه، ولأنَّها مُتَلَوِّمةٌ مُتَرَدِّدةٌ لا تَثْبُتُ على حالٍ واحدةٍ، فهي مُحتاجةٌ إلى مَن يُعَرِّفُها ما هو أنفَعُ لها في مَعاشِها ومَعادِها، فتُؤْثِرُه وتَلُومُ نفْسَها عليه إذا فاتَها، فتَتُوبُ منه إنْ كانت سعيدةً، ولِتَقومَ عليها حُجَّةُ عَدْلِه، فيَكونَ لَومُها في القيامةِ لنَفْسِها عليه لومًا بحقٍّ قد أَعْذَرَ اللهُ خالقُها وفاطرُها إليها فيه، ففي صِفةِ اللَّومِ تنبيهٌ على ضرورتِها إلى التَّصديقِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وأنَّها لا غِنَى لها عن ذلك، ولا صلاحَ ولا فلاحَ بدونِه البَتَّةَ، ولَمَّا كان يومُ مَعادِها هو مَحَلَّ ظهورِ هذا اللَّومِ، وتَرَتُّبِ أثَرِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣).

عليه؛ قَرَنَ بينهما في الذِّكْرِ[(١)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ فيه تنبيهٌ على التَّأمُّلِ في لُطفِ تَفصيلِ الأناملِ، وبَديعِ صُنْعِها؛ الموجِبِ للقَطعِ بأنَّ صانِعَها قادِرٌ على كُلِّ ما يُريدُ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ألَا يُعارِضُ إقسامَه تعالى به في قَولِه: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامِ الكُفَّارِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّها صِلةٌ، وذلك على عادة العرب؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَتْ (لا) مِن غيرِ قصدِ معناها الأصليِّ، بل لِمُجَرَّدِ تقويةِ الكلامِ وتوكيدِه[(٣)].

٢- في ذِكْرِ البَنَانِ في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ لطيفةٌ، وهي أنَّها أطرافُه، وآخِرُ ما يَتِمُّ به خَلْقُه، فمَن قَدَرَ على جَمْعِ أطرافِه وآخِرِ ما يَتِمُّ به خَلْقُه -مع دِقَّتِها وصِغَرِها ولطافتِها- فهو على ما دونَ ذلك أَقْدَرُ؛ فالقومُ لَمَّا استبعَدوا جَمْعَ العظامِ بعدَ الفناءِ والإرمامِ، قيل: إنَّا نَجْمَعُ ونُسَوِّي أكثرَها تفرُّقًا وأَدَقَّها أجزاءً، وآخِرَ أطرافِ البدنِ، وهي عظامُ الأناملِ ومَفاصِلُها[(٤)].

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨، ٢٦٣). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالقسَمِ مُؤذِنٌ بأنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه أمْرٌ مُهِمٌّ؛ لتَستشرِفَ به نفْسُ السَّامعِ[1].

- وكَوْنُ القسَمِ بيومِ القِيامةِ بَراعةُ استِهلالٍ؛ لأنَّ غرَضَ السُّورةِ وصْفُ يومِ القِيامةِ. وفيه أيضًا كونُ المقسَمِ به يومَ القِيامةِ، وهو المقسَمُ على أحوالِه؛ تَنبيهًا على زِيادةِ مَكانتِه عندَ المقسِمِ[2].

- وصِيغةُ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ صِيغةُ قسَمٍ، أُدخِلَ حرْفُ النَّفيِ على فِعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾؛ لقصْدِ المبالَغةِ في تَحقيقِ حُرمةِ المقسَمِ به إعظامًا له، بحيث يُوهِمُ للسَّامعِ أنَّ المُتكلِّمَ يَهُمُّ أنْ يُقسِمَ به، ثمَّ يَترُكُ القسَمَ مَخافةَ الحِنثِ بالمقسَمِ به، فيقولُ: لا أُقسِمُ به، أي: ولا أُقسِمُ بأعزَّ منه عِندي، وذلك كِنايةٌ عن تأكيدِ القسَمِ[3]. وذلك على قولٍ.

- وقيل: (لا) للنَّفيِ، والمعْنى في ذلك أنَّه لا يُقسِمُ بالشَّيءِ إلَّا إعظامًا له، فكأنَّه بإدخالِ حرْفِ النَّفيِ يقولُ: إنَّ إعْظامي له بإقْسامي به كَلا إعظامٍ، يعْني أنَّه يَستأهِلُ فوقَ ذلك[4]. أو يُقالُ: كأنَّه تعالَى يقولُ: لا أُقسِمُ بهذه الأشياءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٥، ٢٩٦).

على إثباتِ هذا المطلوبِ؛ فإنَّه أعظَمُ وأجَلُّ مِن أنْ يُقسَمَ عليه بهذه الأشياءِ، والغرَضُ تَعظيمُ المُقسَمِ عليه. أو يُقالُ: لا أُقسِمُ بهذه الأشياءِ على إثباتِ هذا المطلوبِ؛ فإنَّه أظهَرُ وأجْلى أنْ تُحاوِلَ إثباتَه بمِثلِ هذا القسَمِ(١).

- وفيه مُحسِّنٌ بَديعيٌّ مِن قَبيلِ ما يُسمَّى تَأكيدَ المدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ(٢).

- والقسَمُ بيومِ القيامةِ باعتبارِه ظَرفًا لِما يَجْري فيه مِن عدْلِ اللهِ وإفاضةِ فضْلِه، وما يَحضُرُه مِن الملائكةِ والنُّفوسِ المبارَكةِ(٣).

- وفي الإقسامِ على تَحقُّقِ البعثِ بيومِ القِيامةِ مِن الجَزالةِ ما لا مَزيدَ عليهِ(٤).

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصِحَّةِ الأقسامِ، أو التَّناسُبِ بيْن المعاني(٥)، وهذه الآيةُ تُعَدُّ مِن

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤).

(٥) التَّقسيمُ أو صحَّةُ الأقسامِ: هو عبارةٌ عن استيفاءِ المتكلِّمِ جميعَ أقسامِ المعنى الَّذي هو آخِذٌ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢]، فقولُه: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ استوفى جميعَ الهيئاتِ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ. وفي قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢]، استوفى قِسمَيْ رؤيةِ البَرقِ؛ إذ ليس فيها إلَّا الخَوفُ مِنَ الصَّواعقِ والطَّمعُ في الأمطارِ، ولا ثالثَ لهذين القِسْمَينِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٣)، ((نهاية الأرب)) للنويري (٧/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٢١٤).

والتَّناسُبُ بيْنَ المعاني -وسمَّاهُ بعضُهم: صحَّةَ التَّفسيرِ والتَّبيينِ-: هو أن يأتيَ المتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يستقِلُّ الفَهمُ بمعرفةِ فَحْواهُ؛ إمَّا أن يكونَ مُجمَلًا يحتاجُ الى تفصيلٍ، أو موَجَّهًا يفتقرُ إلى توجيهٍ، أو محتملًا يحتاجُ المرادُ منه إلى ترجيحٍ لا يحصُلُ إلَّا بتفسيرِه وتبيينِه. يُنظر: ((الصناعتين)) لأبي هلال العسكري (ص: ٣٤٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: =

مَحاسِنِ التَّقسيمِ؛ لتَناسُبِ الأمْرَينِ المقسَمِ بهما؛ فقدْ أقسَمَ بيومِ البَعثِ أوَّلًا، ثمَّ أقسَمَ بالنُّفوسِ المَجْزيَّةِ فيه على حَقيقةِ البَعثِ والجَزاءِ، فسُبحانَ المتكلِّمِ بهذا الكلامِ[١]!

- وجَوابُ القسَمِ محذوفٌ يدُلُّ عليه يومُ القِيامةِ المُقسَمُ به وما بَعْدَه مِن قولِه ﴿أَيَحْسَبُ ...﴾ الآيةَ، وتقديرُه: لَتُبعَثُنَّ، فيُؤخَذُ الجوابُ مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ لأنَّه دَليلُ الجوابِ، وهو لَنَجمَعَنَّ عِظامَكم ولنَبْعثَنَّكم لِلحِسابِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾ تأكيدًا للجُملةِ المعطوفِ عليها[٣].

- وتَعريفُ النَّفْسِ في قولِه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: الأنفُسُ اللَّوَّامةُ، قيل: المرادُ نُفوسُ المؤمنينَ[٤]، ومُناسَبةُ القسَمِ بها مع يومِ القيامةِ أنَّها النُّفوسُ ذاتُ الفَوزِ في ذلك اليومِ[٥]. وقيل: المناسَبةُ بيْنَ القسَمينِ مِن حيثُ أحوالُ النَّفسِ مِن سَعادتِها وشَقاوتِها، وظُهورُ ذلك في يومِ القِيامةِ[٦]. أو ضَمَّ النَّفسَ اللَّوَّامةِ إلى يومِ القِيامةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن إقامتِها

= ١٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣١) و(٨/ ١٩٧، ١٩٨).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣).

مُجازاتُها[١].

- ووصْفُ اللَّوَّامةِ مُبالَغةٌ؛ لأنَّها تُكثِرُ لَومَ صاحِبِها[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ الاستِفهامُ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ، ولإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه؛ حيث يُنكِرُ الإنسانُ قُدرةَ اللهِ تعالَى على إعادةِ المعدومِ[٣]!

- وتَعريفُ الإنسانِ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في سِياقِ الإنكارِ الَّذي هو في معْنى النَّفيِ يَقْتضي العُمومَ، وهو عُمومٌ عُرفيٌّ مَنظورٌ فيه إلى غالِبِ النَّاسِ يَومَئذٍ؛ إذ كان المؤمنون قليلًا؛ فالمعنى: أيحسَبُ الإنسانُ الكافرُ المكذِّبُ بالبَعثِ[٤]. وإسنادُ الفِعلِ إلى جِنسِ الإنسانِ؛ لأنَّ فيهم مَن يَحسَبُ، وقيل غيرُ ذلك[٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ لإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه[٦].

- وجِيءَ بحرْفِ (لن) الدَّالِّ على تأكيدِ النَّفيِ، لحِكايةِ اعتِقادِ المشْركين استِحالةَ جمْعِ العِظامِ بعْدَ رِمامِها وتَشتُّتِها[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

- والعِظامُ هنا: كِنايةٌ عن الجسَدِ كلِّه، وإنَّما خُصَّت بالذِّكرِ لحِكايةِ أقوالِهم، مِثل: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]؛ فهم احتَجُّوا باستِحالةِ قَبولِ العِظامِ للإعادةِ بعْدَ البلى، على أنَّ استِحالةَ إعادةِ اللَّحمِ والعصَبِ والفؤادِ بالأَولى، فإثباتُ إعادةِ العِظامِ اقْتَضى أنَّ إعادةَ بَقيَّةِ الجسْمِ مُساوٍ لإعادةِ العَظْمِ، وفي ذلك كِفايةٌ مِن الاستِدلالِ مع الإيجازِ[(١)].

وأيضًا ذِكرُ العِظامِ، وإنْ كان المعنى إعادةَ الإنسانِ وجمْعَ أجزائِه المتفرِّقةِ؛ لأنَّ العِظامَ هي قالَبُ الخلْقِ[(٢)].

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ حرْفُ إبطالٍ للنَّفيِ الَّذي دلَّ عليه ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ فمَعْناهُ: بلْ تُجمَعُ عِظامُه[(٣)].

- و﴿قَٰدِرِينَ﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ لِما أُوجِبَ بعْدَ النَّفيِ: إمَّا مُكمِّلةٌ له على سَبيلِ التَّرقِّي، أي: نَجمَعُ العِظامَ قادِرينَ على تأليفِ جَميعِها، وإعادتِها إلى التَّركيبِ الأوَّلِ إلى أنْ نُسوِّيَ بَنانَه، أو واردةٌ مُبالَغةً، أي: فكيف بكِبارِ العِظامِ؟ أو مُوبِّخةٌ، أي: نَجعَلُها مُستويةً كخُفِّ البَعيرِ، وحافِرِ الحِمارِ، على أُسلوبِ قولِه تعالَى: ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]، في جَوابِ قولِه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ [الصافات: ١٦] الآيةَ[(٤)].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَلَىٰ﴾ إبطالًا للنَّفيَينِ: النَّفيِ الَّذي أفادَه الاستِفهامُ الإنكاريُّ مِن قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، والنَّفيِ الَّذي في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

مَفعولِ (يَحسَبُ)، وهو إبطالٌ بزَجْرٍ، أي: بلْ لِيَحسَبْنا قادِرين؛ لأنَّ مُفادَ ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ ألَّا نَقدِرَ على جمْعِ عِظامِه، فيكونُ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ مَفعولًا ثانيًا لـ (يَحسَبْنا) المقدَّرِ[١].

- وعُدِلَ في مُتعلقِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عن أنْ يُقالَ: قادِرين على جمْعِ عِظامِه إلى ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]؛ لأنَّه أوفَرُ معنًى، وأوفَقُ بإرادةِ إجمالِ كَيفيَّةِ البَعثِ والإعادةِ، ولمُراعاةِ هذه المعاني عُدِل عن رفْعِ (قادِرون)، بتَقديرِ: نحْنُ قادِرون، فلمْ يُقرَأْ بالرَّفعِ[٢].

- والتَّسويةُ: تَقويمُ الشَّيءِ وإتقانُ الخلْقِ، وأُريدَ بالتَّسويةِ إعادةُ خلْقِ البَنانِ مُقوَّمةً مُتقَنةً؛ فالتَّسويةُ كِنايةٌ عن الخلْقِ؛ لأنَّها تَستلزِمُه؛ فإنَّه ما سُوِّيَ إلَّا وقد أُعِيدَ خلْقُه[٣].

- والبَنانُ: أصابعُ اليَدينِ والرِّجلينِ، أو أطرافُ تلك الأصابعِ، وإذ كانتْ هي أصغَرَ الأعضاءِ الواقعةِ في نِهايةِ الجسَدِ كانتْ تَسويتُها كِنايةً عن تَسويةِ جَميعِ الجَسدِ؛ لظُهورِ أنَّ تَسويةَ أطرافِ الجسَدِ تَقْتضي تَسويةَ ما قبْلَها[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ﴿بَلۡ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ مِن غيرِ إبطالٍ، وإلى ذِكرِ حالٍ آخَرَ مِن أحوالِ فُجورِهم؛ فمَوقعُ الجُملةِ بعْدَ ﴿بَلۡ﴾ بمَنزلةِ الاستِئنافِ الابتدائيِّ؛ للمُناسَبةِ بيْنَ معْنى الجُملتَينِ، أي: لَمَّا دُعُوا إلى الإقلاعِ عن الإشراكِ وما يَسْتدعِيه مِن الآثامِ، وأُنْذِروا بالعِقابِ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يومَ القِيامةِ؛ كانوا مُصمِّمينَ على الاسترسالِ في الكُفْرِ[(١)].

- قولُه: ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ إخبارًا عمَّا في نُفوسِ أهْلِ الشِّركِ مِن مَحبَّةِ الاسترسالِ فيما همْ عليه مِن الفِسقِ والفُجورِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استفهامًا إنكاريًّا مُوافقًا لسِياقِ ما قبْلَه مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[(٢)] [القيامة: ٣].

- ومَفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه التَّعليلُ في ﴿لِيَفْجُرَ﴾، والمعْنى: بلْ يُريدُ الإنسانُ الثَّباتَ والدَّيمومةَ على ما هو عليه مِن عدَمِ التَّقيُّدِ بقَيدِ الإيمانِ؛ ليَسترسِلَ على فُجورِه، ويَدومَ على غيِّه[(٣)].

- وأُعِيدَ لَفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ المَقامَ لتَقريعِه، والتَّعجيبِ مِن ضَلالِه، وكُرِّرَ لَفظُ الإنسانِ في هذه السُّورةِ خمْسَ مرَّاتٍ لذلك، مع زِيادةِ ما في تكرُّرِه في المرَّةِ الثَّانيةِ والمرَّتينِ الرَّابعةِ والخامسةِ مِن خُصوصيَّةٍ؛ لِتَكونَ تلك الجُمَلُ الثَّلاثُ الَّتي ورَدَ ذِكرُه فيها مُستقِلَّةً بمُفادِها[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مُتَّصِلةً بالَّتي قبْلَها على أنَّها بدَلُ اشتِمالٍ منها؛ لأنَّ إرادةَ الإنسانِ الاسترسالَ على الفُجورِ يَشتمِلُ على التَّهكُّمِ بيَومِ البعثِ، أو على أنَّها بدَلٌ مُطابقٌ على تَفسيرِ ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥] بالتَّكذيبِ بيَومِ البَعثِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً للتَّعجيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

مِن حالِ سُؤالِهم عن وقْتِ يومِ القيامةِ، وهو سُؤالُ استِهزاءٍ لاعتِقادِهم استحالةَ وُقوعِه[١]. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا جيء به تعليلًا لإرادةِ الدَّوامِ على الفجورِ، فكأنَّه قيل: لِمَ يريدُ الدَّوامَ على الفُجورِ؟ قيل: لأنَّه أنكَر البعثَ واستهزَأ به. وقيل غير ذلك[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٣).

الآيات (٧-١٥)

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَرِقَ﴾: أي: شَخَصَ فلا يَطرِفُ، وفَزِعَ وتحَيَّرَ؛ وبَرَقَ وبَرِقَ: يُقالُ في العَينِ إذا اضطَرَبَتْ وجالتْ مِن خَوفٍ، والإنسانُ إذا بَقِيَ كالمُتَحَيِّرِ قيل: بَرِقَ بَصَرُه بَرَقًا، وأصلُ (برق) هنا: يدُلُّ على لَمعانٍ في شَيءٍ[1].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾: أي: ذهَب ضَوؤُه، وقيل: غاب القَمَرُ وذهب، قيل: خسَف وكسَف واحدٌ، وقيل: إذا ذَهَب بعضُه فهو الكُسوفُ، وإذا ذَهَب كلُّه فهو الخُسوفُ، وقيل: الخُسوفُ للقَمَرِ، والكُسوفُ للشَّمسِ، وأصل (خسف): يدُلُّ على غُموضٍ وغُؤورٍ[2].

﴿وَزَرَ﴾: أي: مَلْجَأَ، والوَزَرُ: الملجأُ الَّذي يُلتجَأُ إليه مِن الجَبَلِ ونحوِه، وأصلُ (وزر) هنا: يدُلُّ على مَلجأٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) =

﴿بَصِيرَةٌ﴾: أي: شاهدٌ، وأصلُ (بصر) هنا: العِلمُ بالشَّيءِ[(١)].

﴿مَعَاذِيرَهُ﴾: أي: ما اعتَذر به، أو اعتذارَه، جمعُ مَعْذرةٍ، والعُذْرُ هو رَوْمُ الإنسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِر عليه بكَلامٍ، أو: تحرِّيه ما يمحو به ذُنوبَه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ القيامةِ، فيقولُ: فإذا لَمَع بَصَرُ الإنسانِ وشَخَصَ مَبهوتًا متحَيِّرًا فلم يَطرِفْ، وذَهَب ضَوءُ القَمَرِ وجُمِع بيْنَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ يقولُ الإنسانُ يَومَئِذٍ: أين المَهرَبُ والخَلاصُ؟! كَلَّا لا مَلجَأَ مِنَ اللهِ! إلى ربِّك في ذلك الوَقتِ المرجِعُ والاستِقرارُ، يُخبَرُ الإنسانُ يَومَئذٍ بما قدَّمَه أو أخَّرَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، بل الإنسانُ شاهِدٌ على نَفْسِه فيما عَمِل، فلا تخفَى عليه أعمالُه، ولو اعتَذَر أو جادَل بالباطِلِ عن كُفْرِه أو مَعاصيه، فهو يَعلَمُ أنْ لا عُذرَ له!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧﴾.

أي: فإذا لَمَع بَصَرُ الإنسانِ وشَخَصَ مَبهوتًا متحَيِّرًا فلم يَطرِفْ[(٣)]!

= للراغب (ص: ٨٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٨)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٤).

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

أي: وإذا ذَهَب ضَوءُ القَمَرِ[(١)]!

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

أي: وإذا جُمِع بيْنَ الشَّمسِ والقَمَرِ[(٢)]!

عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشَّمْسُ والقَمَرُ مُكَوَّرانِ[(٣)] يومَ القِيامةِ))[(٤)].

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

قال ابن عاشور: (خُسوفُ القمَرِ أُريدَ به انطِماسُ نُوره انطماسًا مُستَمِرًّا... فهذا خُسوفٌ ليس هو خُسوفَه المعتادَ عندَ ما تَحُولُ الأرضُ بيْن القَمَرِ وبيْن مُسامتَتِه الشَّمسَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

قال الرَّسْعَني: (قال الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ: المعنى: جُمِع بيْنَهما في ذَهابِ نُورِهما. وقال جمهورُ المفسِّرينَ: جُمِع بيْن ذاتَيْهِما). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٨٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٣).

(٣) مُكَوَّرانِ: أي: مطويَّانِ ذاهِبا الضَّوءِ، وقيل: يُلَفَّانِ ويُجْمَعانِ، ويُلْقَيانِ في النار. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٠).

قال القَسْطَلَّاني: (لأنَّهما عُبِدا مِن دونِ الله، وليسَ المرادُ مِن تكويرِهما فيها تعذيبَهما بذلك، لكنَّه زيادةُ تبكيتٍ لمَن كان يعبدُهما في الدُّنيا؛ ليَعْلموا أنَّ عبادتَهم لهما كانتْ باطِلةً). ((إرشاد الساري)) (٥/ ٢٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٠).

أي: إذا بَرِقَ البَصَرُ وخَسَفَ القَمَرُ وجُمِعَ الشَّمسُ والقَمَرُ، يقولُ الإنسانُ: أين المَهرَبُ والخَلاصُ[(١)]؟!

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾.

أي: ليس ثَمَّةَ مكانٌ يومَئذٍ تَلجَؤون إليه، وتَعتَصِمونَ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾.

أي: إلى ربِّك في ذلك الوَقتِ المرجِعُ والاستقرارُ: إمَّا في الجنَّةِ، وإمَّا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

قال الماوَرْدي في جملة ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾: (يحتَمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ مِنَ اللهِ؛ استحياءً منه. الثَّاني: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ مِن جهنَّمَ؛ حَذَرًا منها. ويحتَمِلُ هذا القَولُ مِنَ الإنسانِ وجهَينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ مِن الكافِرِ خاصَّةً مِن عَرَصةِ القيامةِ دون المؤمِنِ؛ لِثِقَةِ المؤمِنِ ببُشْرى رَبِّه. الثَّاني: أن يكونَ مِن قَولِ المؤمِنِ والكافِرِ عندَ قيامِ السَّاعةِ؛ لِهَولِ ما شاهَدوه منها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مُستأنَفًا مِن جانبِ اللهِ تعالى جوابًا لِمَقالةِ الإنسانِ، أي: لا وَزَرَ لك... ويجوزُ أن يكونَ مِن تمامِ مقالةِ الإنسانِ، أي: يقولُ: أين المفَرُّ؟ ويُجيبُ نَفْسَه بإبطالِ طَمَعِه، فيقولُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا وَزَرَ لي!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٣).

النَّارِ[١].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

أي: يُخبَرُ الإنسانُ يومَئذٍ بجميعِ عَمَلِه الَّذي قدَّمَه أو أخَّرَه؛ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

قيل: هذا خِطابٌ مِن الله تعالى للإنسانِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٨).

وقيل: هي حكايةٌ لِقَولِ الإنسانِ ذلك لنَفْسِه. واستظهَر هذا القولَ أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٦).

وقيل: هو كلامُ اللهِ تعالى خاطَبَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا، بقرينةِ قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧).

قيل: معنى: ما قدَّم وأخَّرَ: ما قَدَّمَ لآخِرتِه، وما أَخَّرَ مِن خَيرٍ أو شرٍّ بعدَ مَوتِه في دنياه، فاستَنَّ به قومٌ بَعْدَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعودٍ، وأبو صالح. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٤٦).

قال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندَنا، أنَّ ذلك خَبَرٌ مِن اللهِ أنَّ الإنسانَ يُنَبَّأُ بكلِّ ما قَدَّم أمامَه مِمَّا عَمِل مِن خيرٍ أو شَرٍّ في حياته، وأخَّر بعدَه مِن سُنَّةٍ حسَنةٍ أو سَيِّئةٍ مِمَّا قَدَّم وأخَّر، كذلك ما قَدَّمَ من عمَلٍ عَمِلَه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وأخَّر بعدَه مِن عمَلٍ كان عليه فضَيَّعه، فلم يَعمَلْه مِمَّا قَدَّم وأخَّر، ولم يَخْصُصِ اللهُ من ذلك بعضًا دونَ بعضٍ، فكلُّ ذلك مِمَّا يُنَبَّأُ به الإنسانُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١).

وقيل: المرادُ بـ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: بأوَّلِ عَمَلِه وآخِرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في الآيةِ الأولى أنَّ الإنسانَ يُخبَرُ يومَ القيامةِ بأعمالِه، ثمَّ ذَكَر في هذه الآيةِ أنَّه شاهِدٌ على نَفْسِه بما عَمِلَ[1].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ١٤﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على نَفْسِه فيما عَمِلَ، فلا تَخفى عليه أعمالُه الَّتي استحَقَّ

= جرير)) (٢٣/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٤).

وقيل: المعنى: أنَّه يُخبَرُ بجميعِ أعمالِه؛ قديمِها وحديثِها، أوَّلِها وآخِرِها، صغيرِها وكبيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٢).

وقيل: المعنى: ما قدَّمه مِن عَمَلِه الَّذي يوجِبُ نجاتَه وثوابَه؛ مِن الخَيراتِ والصَّالحاتِ، وما أخَّره منه ففرَّط وقصَّر فيه ولم يَعمَلْه. وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢).

وقيل: المرادُ بما قَدَّم: ما فعَلَه الكافرُ مِن سُوءٍ، وبما أخَّرَ: ما ترَكَه ممَّا أُمِرَ بفِعْلِه أو نُهِيَ عن فِعْلِه في الحالَينِ، فخالَف ما كُلِّف به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٤).

عليها العِقابَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٣).

قال الماتُريدي: (جائزٌ أن يكونَ أرادَ بهذا في الدُّنيا: أنَّ الإنسانَ بَصيرٌ بعَمَلِ نَفْسِه، وإن جادَل عنها أنَّه لم يَفعَلْ ذلك، وأسَرَّ ذلك عن النَّاسِ...

والوجهُ الثَّاني: أن يكونَ في الآخرةِ، وهو يحتَمِلُ وَجهَين:

أحدُهما: أنَّ الإنسانَ وإن كان يَعتَذِرُ يومَ القيامةِ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]، فيُقْدِمون على الحَلِفِ؛ اعتِذارًا منهم، على العِلمِ منهم أنَّهم مُبطِلونَ في جدالِهم.

والثَّاني: أن يكونَ معنى البصيرةِ: الشَّاهِدَ، أي: أنَّ الإنسانَ على نَفْسِه شاهدٌ يومَ القيامةِ بسُوءِ أفعالِه، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، أي: وإنْ سَتَرَ على نَفْسِه شهِدَت عليه جَوارِحُه). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٤٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّ جوارِحَه تَشهَدُ عليه يومَ القيامةِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو شَهيدٌ على نَفْسِه، عالِمٌ بما فعَلَه، ولو اعتَذَر وأنكَرَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٥، ٩٦).

أي: ولو اعتَذَر أو جادَلَ بالباطِلِ عن كُفْرِه أو مَعاصيه، فهو يَعلَمُ أنْ لا عُذرَ له[١]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۞ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فيه سؤالٌ: طَعَنَت الملاحِدةُ في الآيةِ، وقالوا: خُسوفُ القَمَرِ لا يَحصُلُ حالَ اجتماعِ الشَّمسِ والقَمَرِ!

الجوابُ: اللهُ تعالى قادِرٌ على أن يجعَلَ القَمَرَ مُنخَسِفًا، سواءٌ كانت الأرضُ متوسِّطةً بيْنَه وبيْنَ الشَّمسِ، أو لم تكُنْ، واللهُ قادِرٌ على كلِّ الممكِناتِ، فوجَبَ أن يَقدِرَ على إزالةِ الضَّوءِ عن القَمَرِ في جميعِ الأحوالِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ردٌّ على مَن يَقولُ بالدَّهرِ، وقِدَمِ العالَمِ، ومَن يقولُ: إنَّ المعتادَ مِن مجاري اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ: لا يَتغَيَّرُ! وقد أخْبَرَ اللهُ تعالى نصًّا -كما ترى- أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يُجْمَعُ بيْنَهما، وفي الجَمعِ بيْنَهما ذَهابُ المعتادِ من مَجاريهِما[٣].

٣- قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ جُمِع الشَّمسُ والقَمَرُ ولم يَجتَمِعا قبْلَ ذلك، بل يَجمَعُهما الَّذي يجمَعُ عِظامَ الإنسانِ بعدَ ما فَرَّقها البِلَى ومَزَّقها[٤].

٤- قولُه سُبحانَه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ غَلَّب المذكَّرَ على المؤنَّثِ؛ لاجتماعِهما، ولو قُلتَ: طلَعَ الشَّمسُ والقَمَرُ، لَقَبُحَ ذلك، كما يَقبُحُ: قام هندٌ وزَيدٌ، إلَّا أن تريدَ الواوَ الجامِعةَ لا العاطفةَ، وأمَّا في الآيةِ فلا بُدَّ أن تكونَ الواوُ جامِعةً، ولَفظُ الفِعلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩٣، ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٤، ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٠).

(٤) ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢).

-﴿وَجُمِعَ﴾- يقتضي ذلك(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ دليلٌ على قَبولِ إقرارِ المرءِ على نَفْسِه؛ لأنَّها شَهادةٌ منه عليها؛ قال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ولا خِلافَ فيه؛ لأنَّه إخبارٌ على وَجهٍ تَنتفي التُّهمةُ عنه؛ لأنَّ العاقِلَ لا يَكْذِبُ على نفْسِه. وقولُه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: لو اعتذرَ بعدَ الإقرارِ لم يُقْبَلْ منه؛ ففيه دليلٌ على أنَّ الرُّجوعَ عن الإقرارِ لا يُقْبَلُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الجَوابِ عن السُّؤالِ، وعُدِلَ عن أنْ يُجابوا بتَعيينِ وقْتٍ ليومِ القِيامةِ إلى أنْ يُهدَّدوا بأهوالِه؛ لأنَّهم لم يَكونوا جادِّينَ في سُؤالِهم؛ فكان مِن مُقتَضى حالِهم أنْ يُنذَروا بما يقَعُ مِن الأهوالِ عندَ حُلولِ هذا اليومِ مع تَضمينِ تَحقيقِ وُقوعِه؛ فإنَّ كَلامَ القُرآنِ إرشادٌ وهدْيٌ، ما يَترُكُ فُرصةً للهدْيِ والإرشادِ إلَّا انتَهَزَها، وهذا تَهديدٌ في ابتدائِه جاء في صُورةِ التَّعيينِ لوقْتِ يومِ القِيامةِ إيهامًا بالجوابِ عن سُؤالِهم، كأنَّه حمْلٌ لِكلامِهم على خِلافِ الاستِهزاءِ، على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ(٣). وفيه تَعريضٌ بالتَّوبيخِ على

---

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٩٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٤٤ - ٣٤٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

والإقرارُ إن كان بحقٍّ مِن حقوقِ الله التي تسقطُ بالشُّبهةِ كالزِّنا، فمذهبُ جمهورِ الفقهاءِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة -في المشهورِ عندَهم- والشَّافعيَّة والحنابلة؛ على أنَّ الرُّجوعَ في إقرارِه يُعتبَرُ، ويسقُطُ الحدُّ عنه. أمَّا مَن أقرَّ بحقٍّ مِن حقوقِ العبادِ أو بحقٍّ لله تعالى لا يسقطُ بالشُّبهةِ -كالقصاصِ وحدِّ القذفِ وكالزكاةِ والكفَّاراتِ- ثمَّ رجَع في إقرارِه فإنَّه لا يُقبَلُ رجوعُه عنها مِن غيرِ خلافٍ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٦/ ٧٢، ٧٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٢).

أنْ فرَّطوا في التَّوقِّي مِن ذلك اليومِ، واشتَغَلوا بالسُّؤالِ عن وقْتِه، وقَريبٌ منه ما جاء في الحديثِ أنَّ رجُلًا مِن المسلمينَ سأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((متى السَّاعةُ؟ فقال له: ماذا أعدَدْتَ لها؟))(١)؛ فإنَّ هذه الأحوالَ المذكورةَ في الآيةِ ممَّا يقَعُ عندَ حُلولِ السَّاعةِ وقِيامِ القِيامةِ، فكان ذلك شيئًا مِن تَعيينِ وقْتِه بتَعيينِ أشراطِه(٢).

- قولُه: ﴿بَرِقَ﴾ معْناه: دُهِش وبُهِتَ، وإنَّما أُسنِدَ في الآيةِ إلى البصَرِ تَنزيلًا له مَنزِلةَ مَكانِ البَرْقِ؛ لأنَّه إذا بُهِتَ شخَصَ بَصَرُه. وعلى قراءةِ «بَرَقَ» بفتْحِ الرَّاءِ(٣)، مِن البريقِ بمعْنى اللَّمَعانِ، أي: لَمَعَ البصَرُ مِن شِدَّةِ شُخوصِه، ومآلُ معْنى القِراءتينِ واحدٌ، وهو كِنايةٌ عن الفزَعِ والرُّعبِ(٤).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ للجنسِ المرادِ به الاستغراقُ، أي: أبصارُ النَّاسِ كلِّهم مِن الشِّدَّةِ الحاصلةِ في ذلك الوقتِ، على أنَّهم مُتفاوتون في الرُّعبِ الحاصِلِ لهم على تَفاوتِهم فيما يُعرَضونَ عليه مِن طَرائقِ مَنازِلِهم(٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ١٠]، وإنَّما قُدِّمَ على عامِلِه للاهتِمامِ بالظَّرفِ؛ لأنَّه المقصودُ مِن سِياقِ مُجاوَبةِ قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]. وطُوِيَ التَّصريحُ بأنَّ ذلك حُلولُ يومِ القِيامةِ اكتِفاءً بذِكْرِ ما يدُلُّ عليه، وهو قولُهم: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠]،

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلمٌ (٢٦٣٩) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٣) قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ بفتحِ الرَّاءِ، والباقون بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فكأنَّه قِيل: حلَّ يومُ القِيامةِ، وحَضَرَت أهوالُه، يقولُ الإنسانُ يومئذٍ... ثمَّ تأكَّدَ بقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾(١) [القيامة: ١٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أُعِيدَ لَفظُ (القمَر) في الفاصلتَينِ المُتواصلَتينِ؛ لأنَّ ذلك لبَيانِ أهوالِ القِيامةِ وتَعظيمِها، والعرَبُ تَستعمِلُ هذا فيما تَقصِدُ به التَّهويلَ والتَّعظيمَ، وقدِ اجتَمَعَ هنا قصْدُ التَّعظيمِ، ورَعْيُ الأسجاعِ، فتأكَّدَ الحاملُ على التَّكريرِ، وإذا تَكرَّرَ أحدُ النَّيِّرينِ المرادُ اجتماعُهما أغْنى عن تَكرُّرِ الآخَرِ، وطَلَبَت الفواصلُ منها ما يُناسِبُ، فجاء على أتمِّ وَجهٍ في البلاغةِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَقُولُ﴾ أيضًا، أي: يومَ إذْ يَبرُقُ البصَرُ، ويَخسِفُ القمَرُ، ويُجمَعُ الشَّمسُ والقمَرُ؛ فتَنوينُ (إذْ) تَنوينُ عِوَضٍ عن الجُملِ المحذوفةِ الَّتي دلَّت عليها الجُملةُ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذ)(٣).

- وذِكرُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معَ أنَّ قولَه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ...﴾ إلخ مُغْنٍ عنه؛ للاهتِمامِ بذِكرِ ذلك اليومِ الَّذي كانوا يُنكِرون وُقوعَه، ويَستهْزِئون فيَسأَلون عن وقْتِه، وللتَّصريحِ بأنَّ حُصولَ هذه الأحوالِ الثلاثةِ في وقْتٍ واحدٍ(٤).

- والاستِفهامُ ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ مُستعمَلٌ في التَّمنِّي، أي: لَيْتَ لي فِرارًا في مكانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٢، ١٣١٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَجاةٍ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ لِما تَضمَّنَه ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ مِن الطَّمَعِ في أنْ يَجِدَ للفِرارِ سَبيلًا[(٢)].

- والوَزَرُ: المكانُ الَّذي يُلجَأُ إليه للتَّوقِّي مِن إصابةِ مَكروهٍ، مِثلُ الجِبالِ والحُصونِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مُستأنَفًا مِن جانبِ اللهِ تعالَى جوابًا لمَقالةِ الإنسانِ، أي: لا وَزَرَ لك. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن تَمامِ مَقالةِ الإنسانِ، أي يقولُ: أين المفرُّ؟ ويُجيبُ نفْسَه بإبطالِ طَمَعِه فيقولُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا وَزَرَ لي، وذلك بأنْ نظَرَ في جِهاتِه فلم يَجِدْ إلَّا النَّارَ، كما ورَدَ في الحَديثِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ كَلامٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى خاطَبَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فهو اعتراضٌ وإدماجٌ[(٤)] للتَّذكيرِ بمُلكِ ذلك اليومِ، وذلك على قولٍ. وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيماءٌ إلى أنَّه ناصِرُه يومَئذٍ بالانتقامِ مِن الَّذين لم يَقبَلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).
ويُنظر ما أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

دَعوتَه[١].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ[٢].

- والمُستقَرُّ: مَصدرٌ مِيميٌّ مِن استقَرَّ، إذا قَرَّ في المكانِ ولم يَنتقِلْ، والسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في الوصْفِ[٣].

- وجُملةُ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا أثارَه قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ تلك الجُملةِ، أي: إلى اللهِ مَصيرُهم، وفي مَصيرِهم يُنبَّؤون بما قدَّموا وما أخَّروا[٤].

- وتَنْبِئةُ الإنسانِ بما قدَّمَ وأخَّرَ كِنايةٌ عن مُجازاتِه على ما فَعَلَه: إنْ خيرًا فخَيرٌ، وإنْ سُوءًا فسُوءٌ؛ إذ يُقالُ له: هذا جَزاءُ الفعلةِ الفُلانيَّةِ، فيَعلَمُ مِن ذلك فِعلتَه، ويَلْقى جَزاءَها، فكان الإنباءُ مِن لَوازمِ الجزاءِ، ويَحصُلُ في ذلك الإنباءِ تَقريعٌ وفضْحٌ لحالِه[٥].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ، وهو للتَّرقِّي مِن مَضمونِ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] إلى الإخبارِ بأنَّ الكافرَ يَعلَمُ ما فَعَلَه؛ لأنَّهم تَشهَدُ عليهم ألْسنتُهم وأيْديهم وأرْجُلُهم بما كانوا يَعمَلون[٦].

- ونظْمُ قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ صالحٌ لإفادةِ مَعنيَينِ؛ أوَّلُهما: أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بمعْنى مُبصِرٍ شَديدِ المُراقَبةِ، فيكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبَرًا عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿بَصِيرَةٌ﴾، أي: الإنسانُ بَصيرٌ بنفْسِه، وعُدِّيَ بحرْفِ (على) لتَضمينِه معْنى المُراقَبةِ، وهو معْنى قولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وهاءُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ تكونُ للمُبالَغةِ، مِثلُ هاءِ علَّامةٍ ونسَّابةٍ، أي: الإنسانُ عليمٌ بَصيرٌ قويُّ العِلمِ بنفْسِه يومَئذٍ. والمعْنى الثَّاني: أنْ يكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مُبتدأً ثانيًا، والمرادُ به قَرينُ الإنسانِ من الحفَظةِ، ويكونَ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ خبَرَ المبتدأِ الثَّاني مُقدَّمًا عليه، ومَجموعُ الجُملةِ خبرًا عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ حِينَئذٍ يَحتمِلُ أنْ يكونَ بمعْنى بَصيرٍ، أي: مُبصِرٍ، والهاءُ للمُبالَغةِ، وتكونَ تَعديةُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتَضمينِه معْنى الرَّقيبِ.

ويَحتمِلُ أنْ تكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ صِفةً لمَوصوفٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: حُجَّةٌ بَصيرةٌ، أو عينٌ بَصيرةٌ، وتكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ معبَّرًا بها عن كَونِها بيِّنةً، والتَّأنيثُ لتَأنيثِ الموصوفِ. وقد جرَت هذه الجُملةُ مَجرى المثَلِ؛ لإيجازِها ووَفْرةِ مَعانيها(١).

- و﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: جمْعٌ مُعرَّفٌ بالإضافةِ، يدُلُّ على العُمومِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٨).

الآيات (١٦-١٩)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما يَنبغي أنْ يكونَ عليه عندَ تلَقِّي القرآنِ، فيقولُ: لا تُحرِّكْ بالقُرآنِ لِسانَك -يا محمَّدُ- مُتعَجِّلًا بأخْذِه قبْلَ أن يَفرُغَ جِبريلُ مِن قراءَتِه عليك؛ إنَّ علينا أن نجْمَعَ هذا القُرآنَ في صَدْرِك، وأن تَقرَأَه بعْدَ ذلك؛ فلَسْتَ بحاجةٍ إلى تحريكِ شَفَتَيك عندَ نُزولِه، فإذا قرأ جِبْريلُ عليك القُرآنَ فاستَمِعْ لِقراءتِه حتَّى يَفرُغَ، ثمَّ اقْرَأْه كما أقرَأَك، ثمَّ إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ لك معانيَ القُرآنِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مُنكِرَ القِيامةِ والبَعثِ مُعرِضًا عن آياتِ اللهِ تعالَى ومُعجِزاتِه، وأنَّه قاصِرٌ شَهَواتِه على الفُجورِ، غيرُ مُكترِثٍ بما يَصدُرُ منه- ذكَرَ حالَ مَن يُثابِرُ على تَعلُّمِ آياتِ اللهِ وحِفظِها وتَلَقُّفِها، والنَّظَرِ فيها وعَرْضِها على مَن يُنكِرُها؛ رَجاءَ قَبولِه إيَّاها، فظَهَرَ بذلك تَبايُنُ مَن يَرغَبُ في تَحصيلِ آياتِ اللهِ ومَن يَرغَبُ عنها، وبضِدِّها تَتميَّزُ الأشياءُ. ولَمَّا كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -لِمُثابَرتِه على ذلك- كان يُبادِرُ للتَّحفُّظِ بتَحريكِ لِسانِه، أخبَرَه تعالَى أنَّه يَجمَعُه له ويُوضِّحُه[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠). =

وقيل: هذه الآيةُ وما بعدَها نَزَلَتْ في خلالِ توبيخِ المشركينَ على إنكارِهم البعثَ ووصْفِ يومِ الحشرِ وأهوالِه، وليسَتْ لها مناسبةٌ بذلك، ولكنْ سَبَبُ نُزولِها حَصَل في خلالِ ذلك(١).

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعالِجُ مِن التَّنزيلِ شِدَّةً، وكان مِمَّا يُحرِّكُ شَفَتَيه، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جَمْعَه لك في صَدْرِك وتَقرَأَه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] قال: فاستَمِعْ له وأنصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]: ثمَّ إنَّ علينا أن تقرَأَه، فكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعْدَ ذلك إذا أتاه جِبريلُ استَمَعَ، فإذا انطَلَق جِبريلُ قَرَأَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما قَرَأَه))(٢).

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾.

أي: لا تُحرِّكْ بالقُرآنِ لِسانَك -يا محمَّدُ- مُتعَجِّلًا بحَمْلِه وأخْذِه قبْلَ أن يَفرُغَ جِبريلُ مِن قراءتِه عليك(٣).

= وذكر الرازيُّ وُجوهًا أخرى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٦، ٧٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٠).

قال الإيجي: (قولُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ اعتراضٌ بذِكرِ ما اتفقَ في أثناءِ نزولِ هذه الآياتِ). ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٤١٣). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦).

(٢) رواه البخاري (٥) واللفظ له، ومسلم (٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه عَلَّل النَّهيَ عن العَجَلةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صَدْرِك، وإثباتَ قِراءتِه في لسانِك[1].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إنَّ علينا -يا محمَّدُ- أن نجْمَعَ هذا القُرآنَ في صَدْرِك، فنُثْبِتَه فيه، وأن تَقرَأَه بعْدَ ذلك؛ فلَسْتَ بحاجةٍ إلى تحريكِ شَفَتَيك عندَ نُزولِه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

أي: فإذا قرأ جِبْريلُ عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- فاستَمِعْ لقِراءتِه حتَّى يَفرُغَ، ثمَّ اقْرَأْه كما أقرَأَك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (مَذهَبُ سَلَفِ الأمَّةِ وأئمَّتِها وخَلَفِها: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَمِع =

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾.

أي: ثمَّ إنَّ علينا أن نُبيِّنَ لك -يا محمَّدُ- معانيَ القُرآنِ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ...﴾ فيه التوبيخُ على حُبِّ العَجلةِ؛ لأنَّ العَجلةَ إذا كانتْ مذمومةً فيما هو أهمُّ الأمورِ، وأصلُ الدِّينِ، فكيفَ بها في غيرِه(٢)؟ فالنَّهيُ عن العجلةِ في هذا يَقتضي النهيَ فيما عداه على آكدِ وجهٍ، ومن

= القرآنَ مِن جبريلَ، وجِبريلَ سَمِعَه مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأمَّا قَولُه: ﴿نَتْلُواْ﴾ [القصص: ٣] و﴿نَقُصُّ﴾ [يوسف: ٣] ونحوه؛ فهذه الصِّيغةُ في كلامِ العَرَبِ للواحِدِ العظيمِ الَّذي له أعوانٌ يُطيعونَه، فإذا فعَل أعوانُه فِعلًا بأمْرِه، قال: نحنُ فَعَلْنا، كما يقولُ الملِكُ: نحنُ فَتَحْنا هذا البَلَدَ... قولُه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ هو قراءةُ جبريلَ له عليه، واللهُ قرَأه بواسِطةِ جِبريلَ كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]؛ فهو مكَلِّمٌ لمحمَّدٍ بلِسانِ جِبريلَ وإرسالِه إليه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٢٨، ٢٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بيانُ معاني القُرآنِ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصدران السابقان.

وقيل: المرادُ: بيانُ أحكامِه وحلالِه وحَرامِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩).

وقيل: البيانُ هنا بيانُ ألفاظِه، وليس بيانَ معانيه. وممَّن ذهب إليه: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

وقيل: بيانُ ألفاظِه ومعانيه. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦).

محبةِ العاجلِ وإيثارِه على الآجلِ تقديمُ الدُّنيا الحاضرةِ على الآخرةِ[١].

٢- مِن الأسرارِ الَّتي تَضَمَّنَها قولُه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ التَّأنِّي والتَّثَبُّتُ في تلَقِّي العِلمِ، وألَّا يَحمِلَ السَّامِعَ شِدَّةُ محبَّتِه وحِرْصِه وطَلَبِه على مُبادَرةِ المعلِّمِ بالأخذِ قبْلَ فراغِه مِن كلامِه، بل مِن آدابِ الرَّبِّ الَّتي أَدَّبَ بها نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَمْرُه بتركِ الاستعجالِ على تلَقِّي الوَحيِ، بل يَصبرُ إلى أنْ يَفْرُغَ جبريلُ مِن قراءتِه، ثُمَّ يَقرؤُه بعدَ فراغِه عليه، فهكذا يَنبغي لطالبِ العلمِ ولسامعِه أنْ يَصبرَ على مُعَلِّمِه حتَّى يَقضيَ كلامَه، ثُمَّ يُعيدَه عليه، أو يَسألَ عمَّا أَشْكَلَ عليه منه، ولا يُبادِرَه قبْلَ فراغِه[٢]؛ فإنَّ الإنسانَ إذا تَسَرَّعَ في تلَقِّي العِلمِ، فرُبَّما يَتلقَّاه على غيرِ ما ألقاه إليه شَيخُه[٣]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ دليلٌ إلى الإشارةِ إلى المعنى وإنْ لم يَجْرِ لفْظُه في أوَّلِ الكلامِ؛ لأنَّ «الهاء» في ﴿بِهِۦ﴾ راجعةٌ على القُرآنِ، ولم يُذْكَرْ قَبْلَها؛ فاستغنى بما دلَّ عليه آخرُ الكلامِ؛ إذْ يقولُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وهو مِن المواضعِ الَّتي يُبينُ آخِرُ اللَّفظِ فيه عن أوَّلِه[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أنَّ القرآنَ المسموعَ مِن لسانِ العِبادِ هو كلامُ اللهِ، غيرُ مخلوقٍ، ولم يَصِرْ لفظًا ولا حِكايةً، وأنَّه القرآنُ المَحْضُ الَّذي تَكَلَّمَ اللهُ به، وليس للعِبادِ به لفظٌ أصلًا، إنَّما حَمَلُوه حَملًا، وأَدَّوه أداءً كما يَحمِلُه الكاتبُ بكتابتِه مِن غيرِ أنْ يكونَ له فيه ممازَجةُ لَفظٍ، فليس

(١) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٢).

للتَّالي، ولا للكاتبِ، ولا للحافظِ، ولا للسَّامعِ صنعٌ في اللَّفظِ، ولا في الحكايةِ؛ لأنَّ اللَّفظَ لا يكونُ مِن لافظَينِ في حالٍ واحدةٍ، ولا الكلامُ يكون حكايةً ومحكيًّا مِن واحدٍ في حالٍ واحدةٍ؛ إذ لا بدَّ مِن عدمِ أحدِهما بوجودِ الآخَرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ نَزَل مُفرَّقًا، وإشارةٌ إلى أنَّ جَمْعَه على هذا النَّحوِ الموجودِ برعايةٍ وعنايةٍ مِنَ اللهِ تعالى، وتحقيقًا لقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، ويَشهَدُ لذلك أنَّ هذا الجَمعَ الموجودَ مِن وسائِلِ حِفْظِه، كما تعَهَّدَ تعالى بذلك[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ سؤالٌ: أنَّ المرادَ هنا قراءةُ جِبريلَ القرآنَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ اللهَ تعالى أضاف القراءةَ إليه!

الجوابُ: لَمَّا كان جبريلُ يَقْرَؤُه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمرِ اللهِ تعالى، صَحَّتْ إضافةُ القراءةِ إليه تعالى، وكذلك جاء في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وإبراهيمُ إنَّما كان يجادِلُ الملائكةَ الَّذين هم رُسُلُ اللهِ تعالى[٣]. وأيضًا فقد جعَل قراءةَ جبريلَ قراءةَ اللهِ؛ لأنَّها مِن عندِه[٤]. وأيضًا فما يُسندُه سُبحانَه إلى نفْسِه بصيغةِ ضَميرِ الجَمعِ قد يريدُ به ملائكتَه، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، وقَولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣] ونَظائِرِه؛ فتأمَّلْه[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ احتجَّ مَن جوَّزَ تأخيرَ البيانِ عن وَقتِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٢، ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

الخِطابِ بهذه الآيةِ(١)، فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي، فدلَّت على تراخي البيان عن وقتِ الخِطابِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أنَّه سُبحانَه تَكَفَّلَ بأنْ يُبَيِّنَ هذا القرآنَ لعبادِه لفظًا ومعنًى؛ ولهذا لا يوجَدُ في القرآنِ كلمةٌ لا يَفْهَمُ أحدٌ معناها، بمعنى: أنَّ الأُمَّةَ كلَّها تُطْبِقُ على عدمِ معرفتِها! هذا لا يمكنُ، صحيحٌ أنَّ مِن القرآنِ ما يَخفى على بعضِ النَّاسِ دونَ بعضٍ، وهذا واضحٌ. لكنْ لا يمكِنُ أنْ يوجَدَ في القرآنِ شيءٌ لا تَفْهَمُه الأُمَّةُ كلُّها أبدًا(٣).

٧- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لم يُخْفِ على العِبادِ ما يُكَلِّفُهم به، فإنَّ رحمتَه وحِكمتَه تأبى ذلك؛ ولهذا قال اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، فاللهُ تعالى قد بيَّنَ للخَلْقِ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وينبني على هذه الفائدةِ -وهي فائدةُ البيانِ-: أهمِّيَّةُ التَّرجمةِ، وأنَّ على المسلمينَ أنْ يُترجِموا الشَّريعةَ إلى لغةِ مَن يُخاطِبونَهم بها حتَّى تَتِمَّ الحُجَّةُ؛ لأنَّك لو أَتيتَ إلى قومٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((روضة الناظر وجنة المناظر)) لابن قدامة (١/ ٥٣٦)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٢٣).

لكن قال ابنُ عاشور: (قد احتجَّ بهذه الآيةِ بعضُ علمائِنا الذين يرونَ جوازَ تأخيرِ البيانِ عن المبينِ متمسكينَ بأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي، وهو متمسكٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ التَّراخيَ الذي أفادَتْه ﴿ثُمَّ﴾ إنَّما هو تراخٍ في الرُّتبةِ، لا في الزَّمنِ، ولأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ قد عطَفت مجموعَ الجملةِ، ولم تعطِفْ لفظَ ﴿بَيَانَهُۥ﴾ خاصَّةً، فلو أُريد الاحتجاجُ بالآيةِ للزِم أنْ يكونَ تأخيرُ البيانِ حقًّا لا يخلو عنه البيانُ، وذلك غيرُ صحيحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣).

عَجَمٍ وتكلَّمْتَ عندَهم بأبلَغِ الكلامِ العربيِّ وأفصَحِه، ما استفادوا مِن هذا شيئًا، ولا يَدرون ما تقولُ، وعليه فمَن أراد أنْ يَذهبَ إلى قومٍ يَدْعوهم إلى اللهِ لا بُدَّ أنْ يَتَعَلَّمَ لُغتَهم؛ حتَّى يتمكَّنَ مِن دَعوتِهم، أو يَصْطَحِبَ شخصًا يُترجِمُ له يكونُ عالِمًا باللُّغَتَينِ الأصليَّةِ والفرعيَّةِ، ويكونُ له إلمامٌ بموضوعِ ما يُتَرْجِمُه، فإذا أراد أن يُترجِمَ في الكلامِ على التَّوحيدِ -مثلًا- فلا بُدَّ أنْ يكونَ عندَه إلمامٌ بذلك؛ لئلَّا يُفْهِمَ الأمرَ على خِلافِه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فإذا أتْمَمْنا قِراءتَه عليك بلسانِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، فكُنْ مُتَّبِعًا له ولا تُسابِقْه، وإسنادُ القِراءةِ إلى نُونِ العَظَمةِ للمُبالَغةِ في إيجابِ التَّأنِّي(٢).

- وتقديمُ شِبه الجُملةِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على اسم (إنَّ) في ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾، و﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: أسلوبُ قَصرٍ(٣) يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالَى المتولِّي مُهمَّةَ الحِفظِ والبَيانِ، لم يَكِلْ ذلك إلى بَشرٍ، وبهذا سَلِمَ مِن التَّغييرِ والنَّقْصِ والتَّحريفِ(٤).

- لَفظُ ﴿عَلَيْنَا﴾ في الموضعَينِ للتَّكفُّلِ والتَّعهُّدِ(٥).

- و(ثُمَّ) في ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ قيل: للتَّراخي في الرُّتبةِ، أي: التَّفاوتِ بيْن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٧).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٨٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

رُتبةِ الجُملةِ المعطوفِ عليها -وهي قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾- وبيْن رُتبةِ الجُملةِ المعطوفةِ، وهي ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، أي: ليس فقط علينا حِفظُه وجَمْعُه وقِراءتُه عليك، وتَثبيتُ حِفظِه في قلبِكَ، بلْ فوقَ ذلك بَيانُه لك، وتفسيرُ معانِيه، وشرْحُ أحكامِه، وتَفصيلُ مُجمَلِه، وتَيسيرُ تِبيانِه للنَّاسِ على لِسانِك بما أُوتيتَ مِن جَوامِعِ الكَلِمِ وفَصْلِ الخِطابِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

الآيات (٢٠-٢٥)

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَاضِرَةٌ﴾: أي: مُشرِقةٌ مُتهَلِّلةٌ حَسَنةٌ؛ يقالُ: نَضَرَ وَجهُ فلانٍ: إذا حَسُنَ مِن النِّعمةِ، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ[١].

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي: كَئيبةٌ مُتكَدِّرةٌ عابِسةٌ مُسْوَدَّةٌ[٢].

﴿فَاقِرَةٌ﴾: أي: داهِيةٌ عظيمةٌ تَكسِرُ فَقَارَ الظَّهرِ، وأصلُ (فقر): يدُلُّ على انفِراجٍ في شَيءٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ مِن إنكارِ البَعْثِ أو غيرِه مِنَ الحَقِّ، وإنَّما الَّذي دعاكم لذلك حُبُّكم للدُّنيا، وتَرْكُكم للآخِرةِ وإعراضُكم عنها.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٥، ٥٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩).
قال الخليل: (عَبَسَ يَعْبِسُ عُبوسًا فهو عابِسُ الوجهِ غَضْبانُ. فإنْ أبدى عن أسنانه في عُبوسِه قلتَ: كَلَحَ. وإنِ اهتَمَّ لذلك وفكَّر فيه، قلتَ: بَسَرَ). ((العين)) (١/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، وتَفاوُتَهم فيه، فيقولُ: وُجوهٌ يومَ القيامةِ حَسَنةٌ مُشرِقةٌ ناظِرةٌ إلى رَبِّها سُبحانَه وتعالى في الآخِرةِ، ووُجوهٌ مُظلِمةٌ مُتجَهِّمةٌ كَئيبةٌ مِن شَقاءِ أصحابِها وبُؤسِهم، يَظُنُّ الكُفَّارُ أن تُصيبَهم داهِيةٌ عَظيمةٌ تَقصِمُ ظُهورَهم في ذلك اليَومِ العَصيبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فرَغَ مِن خِطابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ رجَعَ إلى حالِ الإنسانِ السَّابقِ ذِكرُه المنكِرِ البَعثَ، وأنَّ همَّه إنَّما هو في تَحصيلِ حُطامِ الدُّنيا الفاني، لا في تَحصيلِ ثَوابِ الآخرةِ؛ إذ هو مُنكِرٌ لذلك[(١)]، فقال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ مِن إنكارِ البَعْثِ أو غيرِه مِنَ الحَقِّ، وإنَّما الَّذي دعاكم لذلك: هو أنَّكم تُحِبُّونَ الدُّنيا، وتَنشَغِلونَ بها[(٢)]!

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾.

أي: وتَترُكونَ الآخِرةَ، وتُعرِضُونَ عنها[(٣)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الآخِرةَ الَّتي أعرَضوا عنها، ذكَرَ ما يكونُ فيها؛ بيانًا لِجَهْلِهم وسَفَهِهم وقِلَّةِ عُقولِهم، وترهيبًا لِمَن أدبَرَ عنها، وترغيبًا لِمَن أقبَلَ عليها؛ لُطفًا بهم، ورحمةً لهم[١].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢)﴾.

أي: وُجوهٌ يومَ القيامةِ حَسَنةٌ بَهِيَّةٌ مُشرِقةٌ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾.

أي: تَنظُرُ إلى رَبِّها سُبحانَه وتعالى في الآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).

قال مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ: (أي: حَسَنةٌ ناعِمةٌ جميلةٌ؛ مِنَ السُّرورِ والغِبْطةِ، هذا قولُ جميعِ أهلِ التَّفسيرِ). ((الهداية)) (١٢/ ٧٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٦، ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).

قال أبو الحَسَنِ الأشعريُّ: (أجمَعوا على أنَّ المؤمنينَ يَرَونَ اللهَ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ بأعيُنِ =

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

عن صُهَيب رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ الجَنَّةَ يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ!))، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1] [يونس: ٢٦].

وعن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّاسَ قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هل نرى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: هل تُمارُونَ[2] في القَمَرِ لَيلةَ البَدْرِ ليس دُونَه سَحابٌ؟ قالوا: لا يا رَسولَ اللهِ. قال: فهل تمارُونَ في الشَّمسِ ليس

= وُجوهِهم، على ما أخبَرَ به تعالى في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. ((رسالة إلى أهل الثغر)) (ص: ١٣٤).

وقال ابنُ جُزَي: (هذا مِنَ النَّظَرِ بالعَينِ، وهو نَصٌّ في نظرِ المؤمنينَ إلى اللهِ تعالى في الآخرةِ، وهو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ، وأنكرَه المعتَزِلةُ، وتأوَّلوا ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بأنَّ معناه: مُنتَظِرةٌ! وهذا باطِلٌ؛ لأنَّ «نَظَر» بمعنى «انتَظَر» يَتعدَّى بغيرِ حرفِ جَرٍّ، تقولُ: نظَرْتُك، أي: انتَظَرْتُك، وأمَّا المتعدِّي بـ«إلى» فهو مِن نَظَرِ العَينِ، ومنه قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣]... وقد جاء عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّظَرِ إلى اللهِ أحاديثُ صَحيحةٌ مُستفيضةٌ صريحةُ المعنى، لا تحتَمِلُ التَّأويلَ، فهي تفسيرٌ للآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ٣٥-٤٠)، ((تمهيد الأوائل)) للباقلاني (ص: ٣٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٣).

(١) رواه مسلم (١٨١).

(٢) تُمارُونَ: أي: تَشُكُّون، والمِرْيةُ: الشَّكُّ. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ: هل يَحصُلُ لكم تَمارٍ واختِلافٌ في رؤيتِهما؟ فكما لا يَحصُلُ لكم في رؤيتِهما تَمارٍ واختِصامٌ، فكذلك رؤيةُ اللهِ عزَّ وجل. والتَّماري والتَّنازُعُ إنَّما يقعُ مِن الشَّكِّ وعدمِ اليقينِ، كما يقعُ في رؤيةِ الأهِلَّةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٤١٥).

دُونَها سَحابٌ؟ قالوا: لا. قال: فإنَّكم تَرَونَه كذلك))[١].

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ أهلَ النِّعْمةِ؛ أتْبَعَه أضْدادَهم مِن أهلِ النِّقْمةِ[٢].

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: ووُجوهٌ يومَ القيامةِ مُظلِمةٌ مُتجَهِّمةٌ كَئيبةٌ مُتكَدِّرةٌ؛ مِن شَقاءِ أصحابِها وبُؤسِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي: يَظُنُّ الكُفَّارُ أنَّ داهيةً عَظيمةً وعُقوبةً شَديدةً ستُصيبُهم؛ فلذلك تغيَّرتْ وُجوهُهم[٤]!

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ: كالِحةٌ، عابسةٌ، كاشِفةٌ، كئيبةٌ، مُصْفَرَّةٌ، مُتغيِّرةُ اللَّونِ، كريهةٌ، مُقطبةٌ؛ كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (٢٢/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١ - في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ذَمُّ مَن يُحِبُّ الدُّنيا ويُؤْثِرُها على الآخِرةِ[1].

٢ - قَال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، الكلامُ مُشعِرٌ بالتَّوبيخِ، ومَناطُ التَّوبيخ هو حُبُّ العاجلةِ مع نَبْذِ الآخرةِ، فأمَّا لو أحبَّ أحَدٌ العاجلةَ وَراعى الآخرةَ -أي: جَرى على الأمرِ والنَّهيِ الشَّرعيَّينِ- لم يكُنْ مَذمومًا؛ قال تعالَى فيما حَكاهُ عن الَّذين أُوتوا العِلمَ مِن قوم قارونَ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2] [القصص: ٧٧].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١ - قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ، وإن كان مبنى الخِطابِ مع الإنسانِ؛ نظَرًا للمعنى، إشارةً إلى أنَّه لا يَسلَمُ مِنَ العَجَلةِ المذمومةِ إلَّا أفرادٌ حَفِظَهم اللهُ بقُدرتِه الباهِرةِ[3].

= القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

ذهب كثيرٌ مِنَ المفَسِّرينَ إلى أنَّ الظَّنَّ هنا بمعنى اليقينِ. ومنهم: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

وقيل: هو على بابِه بمعنى التَّوقُّعِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي، قال: (﴿تَظُنُّ﴾ أي: تتوَقَّعُ بما تَرى مِنَ المخايِلِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠٧).

وقال البِقاعي أيضًا في معنى ﴿فَاقِرَةٌ﴾: (داهيةٌ تَكْسِرُ الفَقَارَ: وهو عَظمُ سِلسلةِ الظَّهرِ الَّذي هو أصلَبُ ما في العِظامِ، فتكونُ قاصِمةَ الظَّهرِ!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أنَّ النَّفْسَ مُولَعةٌ بحُبِّ العاجِلِ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ إثباتُ رؤيةِ المؤمِنينَ لربِّهم في الآخِرةِ[(٢)]، وفيه ردٌّ على المعتَزلةِ في إنكارِهم الرُّؤْيةَ[(٣)]. وإضافةُ النَّظَرِ إلى الوجهِ -الَّذي هو مَحَلُّه- في هذه الآيةِ، وتعديتُه بأداةِ «إلى» الصَّريحةِ في نَظَرِ العَينِ، وإخلاءُ الكلامِ مِن قرينةٍ تدُلُّ على أنَّ المرادَ بالنَّظَرِ المضافِ إلى الوجهِ، المُعَدَّى بـ«إلى»: خِلافُ حقيقتِه ومَوضوعِه- صريحٌ في أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أراد بذلك نَظَرَ العَينِ الَّتي في الوجهِ، إلى نَفْسِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه؛ فإنَّ النَّظرَ له عِدَّةُ استعمالاتٍ بحَسَبِ صِلاتِه وتَعَدِّيه بنَفْسِه؛ فإنْ عُدِّيَ بنَفْسِه فمعناه التَّوقُّفُ والانتِظارُ، كقَولِه: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وإنْ عُدِّيَ بـ«في» فمعناه التَّفَكُّرُ والاعتبارُ، كقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وإنْ عُدِّيَ بـ«إلى» فمعناه المُعاينةُ بالأبصارِ، كقولِه: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فكيف إذا أُضيفَ إلى الوَجهِ الَّذي هو مَحَلُّ البَصَرِ[(٤)]؟!

٤- قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ إنَّما ذكر تعالى الوُجوهَ؛ لأنَّه فيها يَظهَرُ ما في النَّفْسِ مِن سُرورٍ أو غَمٍّ[(٥)].

٥- عن الحَسَنِ، في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ قال: (حَسَنةٌ). ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: (تَنظُرُ إلى الخالِقِ، وحُقَّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظُرُ إلى الخالِقِ!)[(٦)].

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٧).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ جَمَعَ سُبحانَه بيْن الجمالَين؛ فالنَّضْرةُ تُزَيِّنُ ظواهِرَهم، والنَّظَرُ يُجمِّلُ بواطِنَهم(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ رُجوعٌ إلى مَهيعِ (طريقِ) الكلامِ الَّذي بُنِيَت عليه السُّورةُ، كما يَرجِعُ المتكلِّمُ إلى وصْلِ كَلامِه بعْدَ أنْ قَطعَه عارضٌ أو سائلٌ(٢).

- وكَلمةُ ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ؛ يَجوزُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما سبَقَ مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣] إلى قولِه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ٣- ١٥]، فأُعِيدَ ﴿كَلَّا﴾ تأكيدًا لنَظيرِه، ووصْلًا للكلامِ بإعادةِ آخِرِ كَلمةٍ منه، والمعْنى: أنَّ مَزاعمَهم باطلةٌ. وقولُه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ إضرابٌ إبطاليٌّ يُفصِّلُ ما أجْمَلَه الرَّدعُ بـ﴿كَلَّا﴾ مِن إبطالِ ما قبْلَها وتَكذيبِه، أي: لا مَعاذيرَ لهم في نفْسِ الأمرِ، ولكنَّهم أحَبُّوا العاجلةَ، أي: شَهَواتِ الدُّنيا، وتَركوا الآخرةَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٥]؛ فهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ، والمعْنى: أنَّ مَعاذيرَهم باطلةٌ، ولكنَّهم يُحِبُّون العاجلةَ، ويَذَرون الآخرةَ، أي: آثَروا شَهَواتِهم العاجلةَ، ولم يَحسَبوا للآخرةِ حِسابًا(٣).

- وقيل: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن عادةِ العجَلةِ، وإنكارٌ لها عليه، وحثٌّ على الأناةِ والتُّؤدَةِ، وقد بالَغَ في ذلك بإتْباعِه قولَه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْعَاجِلَةَ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ تَعميمٌ للخِطابِ؛ إشعارًا بأنَّ بَني آدَمَ مَطبوعونَ على الاستِعجالِ، وإنْ كان الخِطابُ للإنسانِ، والمرادُ به الجِنسَ، فجُمِع الضَّميرُ للمعْنى[(٢)].

- قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ﴿تُحِبُّونَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ بتاءٍ فَوقيَّةٍ على الالْتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ في مَوعظةِ المشْرِكين مُواجهةً بالتَّفريعِ؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ فيه، وقُرِئَ بياءٍ تَحتيَّةٍ على نسَقِ ضَمائرِ الغَيبةِ السَّابقةِ، والضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، جاء ضَميرَ جمْعٍ؛ لأنَّ الإنسانَ مُرادٌ به النَّاسُ المشْرِكون[(٣)]. وعلى قِراءةِ ﴿يُحِبُّونَ﴾ ﴿وَيَذَرُونَ﴾ بالياءِ[(٤)]، قيل: هو أبلَغُ؛ للالْتفاتِ بعْدَ تَعميمِ الخِطابِ؛ قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، ثمَّ عمَّ وقال: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وعلى الغَيبةِ يَعْني مِن شأنِ بني آدَمَ العَجَلةُ[(٥)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لَمَّا وبَّخهم بحُبِّ العاجِلةِ، وترْكِ الاهتِمامِ بالآخِرةِ، تَخلَّصَ إلى شَيءٍ مِن أحوالِ الآخِرةِ؛ فقدْ تَخلَّصَ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦١، ٦٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٤) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ ويعقوبُ بالياءِ فيهما، وقرأ الباقونَ بالتَّاءِ فيهما. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٥).

إجمالِ حالِ النَّاسِ يومَ القِيامةِ بيْن أهلِ سَعادةٍ وأهْلِ شَقاوةٍ[١].

- وتَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ للتَّنويعِ والتَّقسيمِ[٢].

- وكُنِّيَ بنَضْرةِ الوُجوهِ عن فرَحِ أصحابِها ونَعيمِهم؛ قال تعالَى في أهلِ السَّعادةِ: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]؛ لأنَّ ما يَحصُلُ في النَّفْسِ مِن الانفِعالاتِ يَظهَرُ أثَرُه[٣].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾، ظاهِرُ لَفظِ (ناظِرة) أنَّه مِن (نَظَرَ) بمعْنى: عايَنَ ببَصرِه، إعلانًا بتَشريفِ تلك الوُجوهِ أنَّها تَنظُرُ إلى اللهِ تعالَى نظَرًا خاصًّا لا يُشارِكُها فيه مَن يكونُ دونَ رُتَبِهم[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بهذا العَطاءِ العَجيبِ، وليس للاختِصاصِ؛ لأنَّهم يَرونَ بهَجاتٍ كثيرةً في الجنَّةِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ * تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾

- قولُه: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ﴾ أُعيدَ لَفظُ ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾؛ تَأكيدًا للاهتِمامِ بالتَّذكيرِ بذلك اليومِ[٦].

- قولُه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لبَيانِ سَببِ بُسُورِها[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢، ٣٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٦).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿فَاقِرَةٌ﴾، أي: داهيةٌ عَظيمةٌ، وإفرادُها إفرادُ الجِنسِ، أي: نوعًا عظيمًا مِن الدَّاهيةِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

الآيات (٢٦-٣٥)

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمعُ تَرْقُوة: وهي ثُغْرةُ النَّحرِ، أو عَظْمٌ يَصِلُ ما بيْن ثُغْرةِ النَّحرِ والعاتِقِ، ولكُلِّ إنسانٍ تَرْقُوتانِ عن يمينِه وعن شمالِه، ويُكْنَى ببُلوغِ النَّفْسِ التَّراقيَ عن الإشفاءِ على الموتِ[١].

﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾: أي: مَنْ صاحِبُ رُقيةٍ أو طَبيبٌ يَرقِيه فيَشفيه برُقْيَتِه أو دَوائِه؟ يُقالُ: رَقاه يَرْقِيه رُقْيةً: إذا عَوَّذَه بما يَشْفِيه، كأنَّهم طَلَبوا له الرُّقْيةَ والشِّفاءَ. وقيل: مَن يَرْقَى ويَصعَدُ برُوحِه مِن الملائِكةِ؟ مِن رَقِيَ يَرْقَى رُقِيًّا. وأصلُ (رقي) هنا: يدُلُّ على عُوذةٍ يُتعَوَّذُ بها، ويدُلُّ على الصُّعودِ[٢].

﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾: أي: المَرجِعُ والمآبُ، وأصلُ (سوق): يدُلُّ على حَدْوِ الشَّيءِ[٣].

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: أي: يَتبختَرُ ويَختالُ في مِشْيَتِه؛ مِنَ المَطَا، وهو الظَّهرُ، فيَلْوي ظَهْرَه تبختُرًا. أو مِنَ المطِّ: وهو المَدُّ؛ لأنَّه يتبَختَرُ ويمُدُّ يَدَيه في المشْيِ، وأصلُه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥١٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢).

«يتمَطَّطُ»، فجُعِلَت الطَّاءُ الثَّالثةُ ياءً؛ للتَّخفيفِ(١).

﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: أي: وَلِيَكَ المكروهُ، وقارَبَك ما يُهلِكُك، وهو أفعَلُ، مِنَ الوَلْيِ: وهو القُربُ، ومَعناه التَّوعُّدُ والتَّهَدُّدُ. وقيل: وَعيدٌ بمعنى: وَيْلٌ لك، وأصلُ أَوْلى: أَوْيَلُ، أي: أشَدُّ وَيْلًا، فوقَعَ فيه قَلبٌ، ووَزْنُه أفلَعُ، مأخوذٌ مِنَ الوَيلِ(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: فيه عِدَّةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه مُبتدَأٌ مَرفوعٌ. و ﴿لَكَ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خبَرٌ، وهي كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ، أي: وَيلٌ لك، أو هَلاكٌ لك، وسَوَّغ الابتداءَ بالنَّكرةِ كَونُه دُعاءً.

الثَّاني: أنَّ ﴿أَوْلَىٰ﴾ خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فالعِقابُ أو الهلاكُ أَولى لك، أي: أقرَبُ وأَدنى.

الثَّالِثُ: أنَّ ﴿أَوْلَىٰ﴾: فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه مُضمَرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: قاربَك ووَلِيَك ما يُهلِكُك، واللَّامُ في ﴿لَكَ﴾ زائِدةٌ في المفعولِ.

الرَّابعُ: أنَّه فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه ضَميرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللَّامُ مَزيدةٌ في المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٢٦).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١٠/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٠) و(٢٢/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤١١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٩).

الأوَّلِ، والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، والتَّقديرُ: أَوْلاكَ اللهُ تعالى ما تَكرَهُه. أو اللَّامُ غيرُ مَزيدةٍ، والمفعولُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: أدنَى اللهُ عزَّ وجلَّ الهلاكَ لك.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالةَ الاحتضارِ، وما يَعتريها مِن الأهوالِ: كَلَّا إذا بلَغَت الرُّوحُ العِظامَ الموجودةَ عندَ ثُغْرةِ النَّحرِ في أعلى الصَّدرِ وبدايةِ الحُلْقومِ، وذلك عندَ مَوتِ الإنسانِ، وقيلَ: هل مِن راقٍ يَرْقيه، وطبيبٍ يُداويه؛ فيَشفى مِمَّا هو فيه؟ وظنَّ ذلك المُحتَضَرُ أنَّه مُفارِقٌ للدُّنيا وما فيها، وتتابَعَتْ عليه الشَّدائِدُ، إلى ربِّك المَساقُ والمرجِعُ.

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالى عن حالِ الكافرِ في الدُّنيا، فيقولُ: فلمْ يُصَدِّقْ بما وجَبَ عليه التَّصديقُ به، ولا صلَّى ما أُمِرَ بأدائه مِنَ الصَّلَواتِ، ولكِنْ كذَّبَ بالحَقِّ فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عنه فلم يَعمَلْ به، ثمَّ مَضَى إلى أهلِه مُتبَختِرًا مُختالًا في مِشْيَتِه.

ثمَّ يتوَعَّدُ اللهُ -تعالى- ويُهَدِّدُ هذا الكافرَ فيقولُ: وَلِيَك الهَلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ! ثمَّ وَلِيَكَ الهلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعظيمَ أحوالِ الآخِرةِ؛ بيَّن أنَّ الدُّنيا لا بدَّ فيها مِن الانتهاءِ والنَّفادِ،

(١) يُنظَر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٨) و(١٠/ ٥٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٤).

والوُصولِ إلى تجَرُّعِ مرارةِ الموتِ[١].

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾.

أي: كَلَّا[٢] إذا بلَغَت الرُّوحُ العِظامَ الموجودةَ عندَ ثُغْرةِ النَّحرِ في أعلى الصَّدرِ، وبدايةِ الحُلقومِ، وذلك عندَ مَوْتِ الإنسانِ[٣].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٤).

(٢) قيل: ﴿كَلَّآ﴾ هنا نافيةٌ لِما يظُنُّه المشركون مِن أنَّهم لا يُعاقَبونَ على شِرْكِهم ومَعصيتِهم ربَّهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٨).

وقيل: معناها: استبعادُ إيمانِ الكافرِ بيومِ القيامةِ، أي: بعيدٌ أن يؤمِنَ الكافرُ بيوم القيامةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ عادل، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٥٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزجرٌ وتنبيهٌ، ومعناه: ارتَدِعوا عمَّا يؤدِّي إلى العذابِ، وعن إيثارِ الدُّنيا على الآخرةِ، وتنبَّهوا على ما بيْن أيديكم مِن الموتِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦، ٣٥٧).

وقيل: المرادُ: نَفيُ استمرارِ محبَّةِ الدُّنيا، بل لا بُدَّ أن ينقَطِعَ ذلك انقطاعًا قَبيحًا جِدًّا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (جمعُ تَرْقُوَة: وهي ثُغْرةُ النَّحرِ، ولكُلِّ إنسانٍ تَرْقُوَتانِ عن يمينِه وعن شِمالِه. ومعنى: ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾: أنَّ الرُّوحَ بَلَغَت الحَنجَرةَ حيثُ تَخرجُ الأنفاسُ الأخيرةُ، فلا يُسمَعُ صَوتُها إلَّا في جهةِ التَّرْقُوةِ، وهي آخِرُ حالاتِ الاحتضارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وقيلَ: هل مِن راقٍ يَرْقِيه، وطبيبٍ يُداويه؛ فيَشفَى مِن مَرَضِه[1]؟

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وأيقَن المُحتَضَرُ أنَّه مُفارِقٌ الدُّنيا والأموالَ والأولادَ، والأهلَ والأحبابَ[2].

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

قال السعدي: (أي: مَن يَرْقِيه؟ مِنَ الرُّقْيةِ؛ لأنَّهم انقَطَعت آمالُهم مِن الأسبابِ العاديَّةِ، فلم يَبْقَ إلَّا الأسبابُ الإلهيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

وقال الشوكاني: (وقالَ أبو الجوزاءِ: هو مِن رَقَى يَرْقَى إذا صَعِد، والمعنَى: مَن يَرْقَى برُوحِه إلى السَّماءِ: أمَلائكةُ الرَّحمةِ أم ملائِكَةُ العذابِ؟ وقيلَ: إنَّه يقولُ ذلك مَلَكُ الموتِ؛ وذلك أنَّ نفْسَ الكافرِ تكرَهُ الملائِكَةُ قُرْبَها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

قال جمْعٌ مِن المفسِّرينَ: الظَّنُّ هنا بمعنى اليقينِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢).

قال ابن عطيَّة: (وهذا يقينٌ فيما لم يَقَعْ بَعْدُ؛ ولذلك استُعمِلَت فيه لفظةُ الظَّنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦).

وقال ابن عاشور: (الظَّنُّ: العِلمُ المقارِبُ لليَقينِ، وضميرُ ﴿أَنَّهُ﴾ ضميرُ شأنٍ، أي: وأيْقَنَ أنَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

أي: وتتابَعَتْ على المُحتَضَرِ الشَّدائِدُ(١)!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥، ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).
قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ:
أحدُها: اتِّصالُ الدُّنيا بالآخِرةِ. قاله ابنُ عبَّاس.
الثَّاني: الشِّدَّةُ بالشِّدَّةِ، والبلاءُ بالبلاءِ، وهو شِدَّةُ كُرَبِ الموتِ، بشِدَّةِ هَولِ المَطلَعِ. قاله عِكْرِمةُ، ومجاهِدٌ.
الثَّالثُ: التفَّت ساقاه عندَ الموتِ. وحكى ابنُ قُتَيْبةَ عن بعضِ المفسِّرينَ أنَّ التفافَ السَّاقِ بالسَّاقِ عندَ السِّياقِ. قال الحسَنُ: ماتت رِجْلاه فلم تَحمِلاه، وقد كان عليهما جَوَّالًا.
الرَّابعُ: أنَّه اجتمَع أمْرانِ شديدانِ عليه: النَّاسُ يُجَهِّزونَ جَسَده، والملائِكةُ يُجَهِّزونَ رُوحَه. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١).
وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: شِدَّةُ الدُّنيا بشِدَّةِ الآخرةِ: السمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٢٦).
قال الخازن: (﴿ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: الشِّدَّةُ بالشِّدَّةِ، يعني: شِدَّةَ مُفارَقةِ الدُّنيا، مع شدَّةِ الموتِ وكربِه). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤).
وقال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصِّحَّةِ عندي قولُ مَن قال: معنَى ذلك: والْتَفَّتْ ساقُ الدُّنيا بساقِ الآخرةِ، وذلك شِدَّةُ كربِ الموتِ بشِدَّةِ هولِ المَطْلَعِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢).
وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: التفَّ أمرُ الدُّنيا بالآخرةِ، فصار واحدًا كِلاهما). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١٣).
قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: تتابعَتْ عليه الشَّدائدُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٩٥). ونسَبَه الشَّوكانيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).
قال الواحديُّ أيضًا: (قال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ: يريدُ شدَّةَ الموتِ، بشِدَّةِ الآخرةِ. وهو قولُ الكلبيِّ، ومقاتلٍ، وقَتادةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والسُّدِّيِّ، قالوا: معناه: تتابعَتْ عليه الشَّدائدُ: شدَّةُ بُعْدِ مُفارَقةِ الوطنِ مِن الدُّنيا والأهلِ، وشدَّةُ القُدومِ على ربِّه، فالتقَتْ آخِرُ شِدَّةِ الدُّنيا، بأوَّلِ شدَّةِ الآخرةِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٥١٩، ٥٢٠). =

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَوَّر وَقتَ تأسُّفِه على الدُّنيا وإعراضِه عنها؛ ذكَرَ غايةَ ذلك[١]، فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ٣٠﴾.

أي: إلى رَبِّك يَومَئذٍ المرجعُ[٢].

= وممَّن ذهَب إلى المعنى الثَّالثِ: أي: التفَّت ساقاه عندَ الموتِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، والنسفي، وابن جُزَي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٩).

قال القاسمي: (أي: الْتَوَت ساقُه بساقِه، فلا يَقدِرُ على تحريكِها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٩).

وقال ابن جُزَي: (هذا عبارةٌ عن شدَّةِ كُرَبِ الموتِ وسَكَراتِه، أي: التفَّتْ ساقُه على الأخرى عندَ السِّياقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٥).

وقيل: المرادُ: لَفُّ ساقَيِ الميِّتِ في كَفَنِه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ إن حُمِلَ على ظاهِرِه، فالمعنى: التِفافُ ساقَيِ المحتَضَرِ بعدَ موتِه؛ إذ تُلَفُّ الأكفانُ على ساقَيه، ويُقرَنُ بيْنَهما في ثوبِ الكَفَنِ، فكُلُّ ساقٍ منهما مُلتفَّةٌ صُحبةَ السَّاقِ الأخرى، فالتَّعريفُ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، وهذا نهايةُ وصفِ الحالةِ الَّتي تهيَّأَ بها لمصيرِه إلى القَبرِ الَّذي هو أوَّلُ مَراحِلِ الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠، ١١١).

قال ابن كثير: (وذلك أنَّ الرُّوحَ تُرفَعُ إلى السَّمَواتِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: رُدُّوا عبدي إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بيضُ الوُجوهِ، كَأنَّ وُجوهَهُمُ الشَّمْسُ، معَهُم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنوطٌ[1] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغْفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسِيلُ كما تَسِيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها، فيَجعَلوها

= قيل: ضميرُ المخاطَبِ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠).

وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ التِفافِ السَّاقِ بالسَّاقِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢).

وقال البقاعي: (﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذ وقَع هذا الأمرُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٠).

وقال مكِّي: (أي: إلى ربِّك مَساقُه إذا اشتدَّ كربُه، وحَشرَجَتْ نفْسُه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٨٩٣).

وقيل: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامةِ. وممَّن اختاره: الرَّسْعَني، والقرطبيُّ، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

في ذلك الكَفَنِ، وفي ذلك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ منها كأَطْيَبِ نَفْحةِ(١) مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماءِ السَّابِعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ(٢)، وأَعِيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخْرِجُهم تارةً أُخرى...

وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعهمُ المُسُوحُ(٣)، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ(٤) مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفَةَ عَينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُجُ منها كأنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرَأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ

(١) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَته. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).
(٢) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).
(٣) المُسوحُ: جمعُ المِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).
(٤) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى بها اللَّحمُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٨٩).

السُّفْلى، فتُطْرَحُ رُوحُه طَرَحًا. ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]...))[(١)].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١﴾.

أي: فلم يُصَدِّقْ بما وجب عليه التَّصديقُ به، ولا صلَّى ما أُمِرَ بأدائِه مِنَ الصَّلَواتِ[(٢)].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عنه أفعالَ الخَيرِ؛ أثبَتَ له أفعالَ الشَّرِّ، فقال[(٣)]:

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطيالسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.
صحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مَشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجَماعةِ). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦١).
قال الزمخشري: (فلا صَدَّق بالرَّسولِ والقُرآنِ، ولا صَلَّى. ويجوزُ أن يرادَ: فلا صَدَّق مالَه، بمعنى: فلا زكَّاه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٤).
وقال البِقاعي: (﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي: هذا الإنسانُ الَّذي الكلامُ فيه: الرَّسولَ فيما أخبَرَه بما كان يعمَلُ مِن الأعمالِ الخبيثةِ، ولا إيمانَه بالإنفاقِ في وُجوهِ الخَيرِ الَّتي نُدِبَ إليها واجِبةً كانت أو مَسنونةً، وحُذِفَ المفعولُ؛ لأنَّه أبلَغُ في التَّعميمِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١١).
وقال الخطابي: (قد يُوضَعُ «لا» بمعنى «لم»، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، أي: لم يُصَدِّقْ ولم يُصَلِّ). ((معالم السنن)) (٢/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١١).

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ولكِنْ كذَّبَ بالحَقِّ فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عنه فلم يَعمَلْ به(١).

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ثمَّ مَضَى إلى أهلِه مُتبَختِرًا مُعْجَبًا بنَفْسِه، غيرَ مُبالٍ بكُفْرِه ومَعاصيه(٢).

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُتوَعِّدًا ومُهَدِّدًا هذا الكافِرَ: وَلِيَك الهَلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٢).

قال ابنُ عطية: (قال جمهورُ المتأوِّلينَ: هذه الآيةُ كُلُّها إنَّما نزلت في أبي جَهلِ بنِ هِشامٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦).

وقال ابن عاشور: (المرادُ: كُلُّ إنسانٍ كافرٍ، كما يَقتضيه أوَّلُ الكلامِ مِن قَولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ٣ - ١٤]، وما أبو جَهلٍ إلَّا مِن أوَّلِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المعنى: أَولى لك الازدِجارُ والانتهاءُ، وهو مأخوذٌ مِن «وَلِيَ»، والعرَبُ تَستَعمِلُ هذه الكَلِمةَ زَجرًا، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۞ طَاعَةٞ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٧).

وقال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ كَلِمةُ تهديدٍ وتخويفٍ يُخاطَبُ بها مَن أشرَفَ على هلاكٍ، فيُحَثُّ بها على التَّحَرُّزِ، أو يُخاطَبُ بها مَن نجا ذليلًا منه، فيُنهى عن مِثْلِه ثانيًا، وأكثَرُ ما يُستَعمَلُ مُكَرَّرًا، وكأنَّه حَثٌّ على تأمُّلِ ما يَؤُولُ إليه أمرُه؛ ليتنَبَّهَ للتَّحَرُّزِ منه). =

﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾.

أي: ثمَّ وَلِيَكَ الهلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ[(١)]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختَرُ، وفيه ذمُّ هذه المِشْيةِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ تضَمَّنَت هذه الآيةُ وَصْفَ الرُّوحِ بأنَّها جِسمٌ يَنتَقِلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ؛ فتُجْمَعُ مِن تَفاريقِ البَدَنِ حتَّى تَبلُغَ التَّراقيَ[(٣)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ لعَلَّه إنَّما سُمِّيَ اليقينُ هاهنا بالظَّنِّ؛ لأنَّ الإنسانَ ما دام يبقى رُوحُه مُتعَلِّقًا ببَدَنِه فإنَّه يَطمَعُ في الحياةِ؛ لشِدَّةِ حُبِّه لهذه الحياةِ العاجلةِ، على ما قال: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ولا ينقَطِعُ رَجاؤُه عنها، فلا يَحصُلُ له يقينُ الموتِ، بل الظَّنُّ الغالِبُ مع رجاءِ الحياةِ.

= ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ١٠٠).

وقال ابنُ كثير: (هذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ منه تعالى للكافِرِ به المتبخترِ في مِشْيَتِه، أي: يحِقُّ لك أن تَمشيَ هكذا وقد كفَرْتَ بخالِقك وبارِئك! كما يُقالُ في مِثْلِ هذا على سبيلِ التَّهكُّمِ والتَّهديدِ، كقَولِه: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

قال البقاعي: (﴿فَأَوۡلَىٰ﴾ أي: ابتلاكَ اللهُ بداهيةٍ عَقِبَ داهيةٍ، وأبلَغ ذلك التَّأكيدَ إشارةً إلى أنَّه يَستَحِقُّه على مَدى الأعصارِ، فقال مُشيرًا بأداةِ التَّراخي إلى عَظيمِ ما ارتكب وقُوَّةِ استِحقاقِه لهذا التأكيدِ: ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ أي: أيُّها الَّذي قد أحَلَّ نَفْسَه بالغَفلةِ دونَ مَحَلِّ البَهائِمِ ﴿فَأَوۡلَىٰ﴾ أي: وصَلْتَ إلى هذا الهلاكِ بداهيةٍ تَعقُبُها تارةً متواليًا، وتارةً مُتراخِيًا، وبَعضُها أعظَمُ مِن بعضٍ، لَحِقَكَ ذلك لا مَحالةَ؛ فإنَّ هذا دعاءٌ مِمَّن بيَدِه الأمرُ كُلُّه!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

وفيه وَجهٌ آخَرُ: لعَلَّه سَمَّاه بالظَّنِّ على سَبيلِ التَّهَكُّمِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ يدُلُّ على أنَّ الرُّوحَ قائِمةٌ بنَفْسِها باقيةٌ بعدَ موتِ البَدَنِ؛ لأنَّه تعالى سَمَّى الموتَ فِراقًا، والفِراقُ إنَّما يكونُ لو كانت الرُّوحُ باقيةً؛ فإنَّ الفِراقَ والوِصالَ صِفةٌ، والصِّفةُ تَستدعي وُجودَ الموصوفِ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ يَستَحِقُّ الذَّمَّ والعِقابَ بتَرْكِ الصَّلاةِ، كما يَستَحِقُّهما بتَرْكِ الإيمانِ(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ يُؤَيِّدُ أنَّ تَرْكَ الصَّلاةِ كُفْرٌ؛ إذْ قَرَنَه جلَّ جلالُه مع تكذيبِ الرُّسُلِ وتَرْكِ تصديقِهم(٤).

٦- استُدِلَّ بقولِه سبحانَه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ...﴾ إلخ على أنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بالفروعِ(٥).

٧- قال الله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، وكلُّ مَن لم يُصَدِّقْ لم يُصَلِّ؛ ففيه أنَّه قد يُنْفَى الشَّيءُ الَّذي نَفْيُه يَستَلزِمُ نفْيَ غيرِه، لكنْ تُذْكَرُ تلك اللَّوازِمُ على سبيلِ التَّصريحِ؛ للفَرقِ بيْن دَلالةِ اللَّوازِمِ ودَلالةِ المُطابَقةِ، كما في قَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٥).
مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تاركَ الصَّلاةِ بالكلِّيَّةِ يكفُرُ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ القيِّم، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٢٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٤)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٧).

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢]، وأنَّ كلَّ مَن لَبَّسَ بالباطلِ فلا بُدَّ أنْ يَكْتُمَ بعضَ الحقِّ، وهذا ليس مِن بابِ النَّهيِ عنِ المجموعِ المقتَضي لجوازِ أحَدِهما، ولا مِن بابِ النَّهيِ عن فِعلَينِ مُتباينَينِ حتَّى لا يُعادَ فيه حرفُ النَّفيِ، بل هو مِن بابِ النَّهيِ عنِ المُتلازِماتِ، كما يُقالُ: لا تَكفُرْ وتُكَذِّبْ بالرَّسولِ، ولا تُجادِلْ في اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنيرٍ(١)!

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ردْعٌ ثانٍ على قَولِ الإنسانِ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]، وهو مُؤكِّدٌ للرَّدعِ الَّذي قبْلَه في قولِه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ومعْناهُ زجْرٌ عن إحالةِ البَعثِ؛ فإنَّه واقعٌ غيرُ بَعيدٍ؛ فكلُّ أحَدٍ يُشاهِدُه حينَ الاحتِضارِ للموتِ، كما يُؤذِنُ به قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، وأُتبِعَ تَوصيفُ أشراطِ القِيامةِ المباشِرةِ لحُلولِه بتَوصيفِ أشْراطِ حُلولِ التَّهيُّؤِ الأوَّلِ لِلقائِه مِن مُفارَقةِ الحياةِ الأُولى(٢). أو هو ردْعٌ عن إيثارِ الدُّنيا على الآخِرةِ، كأنَّه قِيلَ: ارتَدِعوا وتَنبَّهوا على ما بيْنَ أيْديكم مِن الموتِ الَّذي عندَه تَنقطِعُ العاجِلةُ، وتَنتَقِلون إلى الآجِلةِ، فيكونُ ردْعًا على مَحبَّةِ العاجِلةِ، وترْكِ العِنايةِ بالآخِرةِ، فليس مُؤكِّدًا للرَّدعِ الَّذي في قولِه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، بل هو ردْعٌ على ما تَضمَّنَه ذلك الرَّدعُ مِن إيثارِ العاجلةِ على الآخِرةِ(٣).

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي =

- وجَوابُ (إذا) مَحذوفٌ، تَقديرُه: وجَدَ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ(١).

- وضَميرُ ﴿بَلَغَتِ﴾ راجعٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، ولكنَّه مَعلومٌ مِن فِعلِ (بَلَغت)، ومِن ذِكرِ التَّراقي؛ فإنَّ فِعلَ ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ يدُلُّ أنَّها رُوحُ الإنسانِ، والتَّقديرُ: إذا بَلَغَت الرُّوحُ أو النَّفْسُ(٢).

- والتَّراقي: جَمْعُ تَرْقُوةٍ، وهي ثُغرةُ النَّحرِ، ولكلِّ إنسانٍ تَرقوتانِ عن يَمينِه وعن شِمالِه؛ فالجمْعُ هنا مُستعمَلٌ في التَّثنيةِ لقَصْدِ تَخفيفِ اللَّفظِ، وقد أُمِنَ اللَّبْسُ؛ لأنَّ في تَثنيةِ «تَرْقوةٍ» شَيئًا مِن الثِّقَلِ لا يُناسِبُ أفصَحَ كَلامٍ(٣).

- قيل: اللَّامُ في ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ -مِثلُ اللَّامِ في ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾-: عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: بَلَغَت رُوحُه تَراقِيَه(٤).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ قيل: هو استِفهامُ إبعادٍ وإنكارٍ، أي: قد بَلَغَ مَبلَغًا لا أحدَ يَرْقيه، كما يقولُ القائلُ عندَ اليأسِ: مَن ذا الَّذي يَقدِرُ أنْ يَرقِيَ هذا المُشرِفَ على الموتِ(٥)؟!

- قولُه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ ذلك تَمثيلًا؛ فإنَّ العرَبَ يَستعمِلون السَّاقَ مثَلًا في الشِّدَّةِ وجِدِّ الأمرِ تَمْثيلًا بساقِ السَّاعي أو النَّاهضِ

= حيان)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥١).

لعمَلٍ عَظيمٍ، يَقولون: قامتِ الحربُ على ساقٍ[(١)].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ بَيانٌ للرَّدعِ، وتَقريبٌ لإبطالِ الاستبعادِ المحْكيِّ عن مُنكِري البَعثِ بقولِه: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[(٢)] [القيامة: ٦].

- وتَقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾- للاهتِمامِ به؛ لأنَّه مَناطُ الإنكارِ منهم[(٣)].

- والتَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن جُمَلٍ أربعٍ؛ هي: بلَغَت الرُّوحُ التَّراقيَ، وقيل مَن راقٍ، وظنَّ أنَّه الفِراقُ، والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ[(٤)].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الْتفاتٌ عن طَريقِ خِطابِ الجَماعةِ في قولِه: ﴿بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]؛ لأنَّه لَمَّا كان خِطابًا لغيرِ مُعيَّنٍ حَسُنَ التَّفنُّنُ فيه[(٥)].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ الَّذي يعُمُّ النَّاسَ كلَّهم، بما فيهم الإنسانُ الكافرُ المردودُ عليه. ويجوزُ التَّعبيرُ عن اللَّامِ بأنَّها عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: مَساقُ الإنسانِ الَّذي يَسأَلُ: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[(٦)] [القيامة: ٦].

- وسُلِكَ في الجُمَلِ الَّتي بعْدَ ﴿إِذَا﴾ مَسلَكُ الإطنابِ؛ لتَهويلِ حالةِ الاحتِضارِ على الكافِرِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الكافرَ يَتراءَى له مَصيرُه في حالةِ احتِضارِه[(٧)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣، ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ قيل: عُطِفَ على قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾، تَعجُّبًا مِن حالِ الإنسانِ، يعْني: سأَلَ أيَّانَ يومُ القِيامةِ، ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: يَسأَلُ وما استَعدَّ له إلَّا ما يُوجِبُ دَمارَه وهَلاكَه. وأمَّا قولُه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ فجوابٌ عن السُّؤالِ، وقولُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ يَخْلصُ إلى ما استُطْرِدَ مِن أحوالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أُقحِمَ الجوابُ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لشِدَّةِ الاهتمامِ[(١)].

وقيل: قولُه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦]، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، أي: لجَهْلِه البَعثَ لم يَستعِدَّ له. ويَجوزُ أنْ يكونَ الفاءُ تَفريعًا وعطْفًا على قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، أي: فقدْ فارَقَ الحياةَ وسِيقَ إلى لِقاءِ اللهِ خاليًا مِن العُدَّةِ لذلك اللِّقاءِ. وفي الكَلامِ على كِلا الوَجهينِ حَذْفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: فقدْ عَلِمَ أنَّه قد خسِرَ وتَندَّمَ على ما أضاعَهُ مِن الاستِعدادِ لذلك اليومِ[(٢)].

- وعُطِفَ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ على نفْسِ التَّصديقِ؛ تَشويهًا له بأنَّ حالَه مُباينٌ لأحوالِ أهْلِ الإسلامِ[(٣)].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿كَذَّبَ﴾ لِيَشملَ كلَّ ما كذَّبَ به المشرِكون، والتَّقديرُ: كذَّبَ الرَّسولَ والقرآنَ وبالبعثِ، وتولَّى عن الاستجابةِ لشَرائعِ الإسلامِ[(٤)].

- وأفادتْ جُملةُ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: تَوكيدُ قولِه: ﴿فَلَا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٠، ٣٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صَدَّقَ ﴾ بقولِه: ﴿ كَذَّبَ ﴾. وثانيهما: زِيادةُ بَيانِ معْنى ﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ بأنَّه تولَّى عمْدًا؛ لأنَّ عدَمَ التَّصديقِ له أحوالٌ[١].

- و(ثُمَّ) في قولِه: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ حرْفُ عطْفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي، والسِّرُّ الاستِبعادُ؛ لأنَّ مَن صدَرَ عنه مِثلُ ذلك يَنْبغي أنْ يَخافَ مِن حُلولِ غضَبِ اللهِ، ولكنَّ هذا يَمْشي مُتبختِرًا مُتعجْرِفًا، يُطاوِلُ أعنانَ السَّماءِ، وهو أهوَنُ قدْرًا، وأخسُّ مكانًا[٢]!

- قولُه: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ كَلمةُ توعُّدٍ تَجْري مَجرى المثَلِ في لُزومِ هذا اللَّفظِ[٣].

- والكافُ في قولِه: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ خِطابٌ للإنسانِ المصرَّحِ به غيرَ مرَّةٍ في الآياتِ السَّابقةِ بطَريقِ الغَيبةِ إظهارًا وإضمارًا، وعُدِلَ هنا عن الغَيبةِ إلى الخِطابِ على طَريقةِ الالْتفاتِ؛ لمُواجَهةِ الإنسانِ بالدُّعاءِ؛ لأنَّ المُواجَهةَ أوقَعُ في التَّوبيخِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: أَولى له[٤].

- وجِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿ فَأَوْلَىٰ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه يُدْعى عليه بأنْ يَعقُبَه المكروهُ، ويعقبَ بدُعاءٍ آخَرَ[٥].

- وكرَّرَ ﴿ أَوْلَىٰ ﴾ بقولِه: ﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ مُبالَغةً في التَّهديدِ والوعيدِ، فهو تَهديدٌ بعْدَ تَهديدٍ، ووَعيدٌ بعْدَ وَعيدٍ، أي: فهو وعيدُ أربعةٍ لأربعةٍ... فتَرْكُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التَّصديقِ: خَصْلةٌ، والتَّكذيبُ: خَصلةٌ، وتَرْكُ الصَّلاةِ: خَصْلةٌ، والتَّوَلِّي عن اللهِ تعالى: خَصلةٌ؛ فجاء الوعيدُ أربعةً مُقابَلةً لتَركِ الخِصالِ الأربَعةِ(١).

وأيضًا التَّكريرُ تَأكيدٌ للدُّعاءِ عليه ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾، ولتَأكيدِه السَّابقِ ﴿فَأَوْلَىٰ﴾(٢).

وقيل: بلْ كرَّرَها أربعَ مرَّاتٍ؛ فإنَّ قولَه ﴿أَوْلَىٰ﴾ تامٌّ في الذَّمِّ، وإنَّما كرَّرَها؛ لأنَّ المعْنى: أَولى لك الموتُ، فأَولى لك العذابُ في القبْرِ، ثمَّ أَولى لك أهوالُ القيامةِ، وأَولى لك عَذابُ النَّارِ(٣)، أو هو وعيدٌ ودُعاءٌ، يعني: قَرُبَ منك ما يُهْلِكُ قُرْبًا بعدَ قُرْبٍ، كما تقولُ: غَفَرَ اللهُ لك ثُمَّ غَفَرَ اللهُ لك، أي: غَفَرَ لك مَغفِرةً بعدَ مغفرةٍ، فليس هذا بتَكرارٍ مَحْضٍ، ولا مِن بابِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ، بل هو تَعَدُّدُ الطَّلَبِ لتعدُّدِ المطلوبِ، ونظيرُه: اضرِبْه ثُمَّ اضرِبْه(٤).

- وجِيءَ بحرْفِ (ثُمَّ) لعطْفِ الجُملةِ دَلالةً على أنَّ هذا التَّأكيدَ ارتقاءٌ في الوعيدِ، وتَهديدٌ بأشدَّ ممَّا أفادَه التَّهديدُ الأوَّلُ وتأكيدُه، والمرادُ: تَهديدُ كلِّ إنسانٍ كافرٍ، كما يَقتضيهِ أوَّلُ الكلامِ مِن قولِه ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] إلى قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾(٥) [القيامة: ١٤].



(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٣، ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

الآيات (٣٦-٤٠)

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُدًى﴾: أي: هَمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنْهَى، وأصلُ (سدو): يدُلُّ على إهمالٍ وذَهابٍ على وَجهٍ[١].

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٢].

﴿عَلَقَةً﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[٣].

﴿فَسَوَّىٰ﴾: عدَّل، وأتقَن، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصْلُ (سوي): يَدُلُّ على استقامةٍ واعْتِدالٍ بينَ شيئَيْنِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يُشيرُ الله تعالى إلى الحكمةِ مِن البَعثِ والجزاءِ، ويُبيِّنُ جانبًا مِن مَظاهِرِ قُدرتِه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

فيقولُ: أيَظُنُّ الإنسانُ أن يَترُكَه اللهُ في الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، ولا يُبعَثُ بعدَ موتِه للثَّوابِ أو العِقابِ؟! ألم يكُنْ هذا الإنسانُ في أوَّلِ أمْرِه ماءً قَليلًا مَهينًا مِن مَنيٍّ يُراقُ؟! ثمَّ صار قِطْعةَ دَمٍ جامِدةً، فخَلَقَه اللهُ وسَوَّاه، فجَعَل منه الصِّنفَينِ: الذُّكورَ والإناثَ، أليس الَّذي فَعَل ذلك كُلَّه بقادِرٍ على إحياءِ الموتى، وإعادتِهم كما كانوا؟! سُبحانَك اللَّهُمَّ فبَلَى!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ حالَ الإنسانِ في الموتِ وما كان مِن حالِه في الدُّنيا؛ قرَّرَ له أحوالَه في بِدايتِه ليَتأمَّلَها، فلا يُنكِرَ معها جَوازَ البَعثِ مِن القبورِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَر في أوَّلِ السُّورةِ قَولَه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣]، أعاد في آخِرِ السُّورةِ ذلك، وذكَرَ في صِحَّةِ البَعثِ والقيامةِ دَليلَينِ؛ الأوَّلُ[2]:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾.

أي: أيظُنُّ الإنسانُ أن يَترُكَه اللهُ في الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، ولا يُبعَثُ بعدَ موتِه للثَّوابِ أو العِقابِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها الدَّليلُ الثَّاني على صِحَّةِ القَولِ بالحَشْرِ: الاستِدلالُ بالخِلْقةِ الأُولى على الإعادةِ[(١)].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧)﴾.

أي: ألم يكُنْ في أوَّلِ أمْرِه ماءً قَليلًا مِن مَنيٍّ يُراقُ[(٢)]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

= قال الشَّافعيُّ: (لم يختَلِفْ أهلُ العِلمِ بالقُرآنِ -فيما عَلِمْتُ- أنَّ السُّدَى: الَّذي لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى). ((الأم)) (٧/ ٣١٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٧٤).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السُّدِّيُّ: يعني: لا يُبعَثُ. وقال مجاهدٌ، والشَّافعيُّ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ: يعني: لا يُؤْمَرُ ولا يُنهَى. والظَّاهرُ أنَّ الآيةَ تعُمُّ الحالَينِ، أي: ليس يُترَكُ في هذه الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهى، ولا يُترَكُ في قبرِه سُدًى لا يُبعَثُ، بل هو مأمورٌ مَنهيٌّ في الدُّنيا، مَحشورٌ إلى الله في الدَّارِ الآخرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

[المرسلات: ٢٠ - ٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾.

أي: ثمَّ صار الإنسانُ بعدَ النُّطفةِ قِطْعةَ دَمٍ جامِدةً، فخَلَقَه اللهُ وسَوَّاه، فأتقَنَه وأحكَمَه، فصار في غايةِ الاعتدالِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾.

أي: فجَعَل اللهُ منه الصِّنفَينِ: الذُّكورَ والإناثَ[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾.

أي: أليس الَّذي فَعَل ذلك كُلَّه بقادِرٍ على إحياءِ الموتى، وإعادتِهم كما كانوا؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٢).

قال البِقاعي: (﴿فَجَعَلَ﴾ أي: بسَبَبِ النُّطفة ﴿مِنْهُ﴾ أي: هذا الماءِ الدَّافِقِ، أو المخلوقِ المسَوَّى، وهما شيءٌ واحِدٌ ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ أي: القرينَينِ اللَّذَينِ لا يمكِنُ الانتفاعُ بأحَدِهما إلَّا بالآخَرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٧).

سُبحانَك اللَّهُمَّ فبَلَى[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

وعن بُسرِ بنِ جِحاشٍ القُرَشيِّ رَضِيَ الله عنه، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزَق يومًا في كَفِّه، فوضع عليها أُصبُعَه، ثمَّ قال: قال الله: ابنَ آدمَ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خلقتُك مِن مِثلِ هذه؟! حتى إذا سَوَّيتُك وعَدَّلتُك، مَشَيت بينَ بُردَين[(٢)] وللأرضِ مِنك وَئيدٌ[(٣)]، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلَغَتِ التَّراقيَ، قلتَ: أتصَدَّقُ! وأنَّى أوانُ الصَّدَقةِ؟!))[(٤)].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما: (أنَّه كان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] قال: سُبحانَك اللَّهُمَّ بلَى، وإذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٢) البُرْدُ: نوعٌ من الثيابِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١٦).

(٣) الوئيدُ: صوتُ شِدَّةِ الوطءِ على الأرضِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٤٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وأحمد (١٧٨٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٣٢) (١١٩٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥).

صحَّح إسنادَه الحاكم، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٣/ ١٤٣)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الجامع)) (٨١٤٤).

[الأعلى: ١] قال: سبحانَ ربِّيَ الأعلَى)[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وهذا كثيرٌ في القرآنِ؛ يدعو العبدَ إلى النَّظَرِ والفِكْرِ في مبدأِ خَلْقِه ووَسَطِه وآخِرِه، إذْ نَفْسُه وخَلْقُه مِن أعظمِ الدَّلائلِ على خالقِه وفاطرِه، وأقربُ شَيءٍ إلى الإنسانِ نفْسُه، وفيه مِن العجائبِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ ما تنقضي الأعمارُ في الوقوفِ على بَعضِه، وهو غافلٌ عنه، مُعْرِضٌ عن التَّفكُّرِ فيه! ولو فكَّرَ في نفْسِه لَزَجَرَه ما يَعْلَمُ مِن عجائبِ خَلْقِها عن كُفْرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]، فلَمْ يُكرِّرْ سُبحانَه على أسماعِنا وعقولِنا ذِكْرَ هذا لِنَسمَعَ لفظَ النُّطْفةِ والعَلَقةِ والمُضغةِ والتُّرابِ، ولا لِنتكلَّمَ بها فقط، ولا لمجرَّدِ تَعريفِنا بذلك، بل لأمرٍ وراءَ

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق (٤٠٥١) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢١٠٠).
صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٨)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: ١٠٥).

ذلك كلِّه هو المقصودُ بالخِطابِ، وإليه جرى ذلك الحديثُ[١].

٢- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فمَن لَم يَتْرُكِ الإنسانَ -وهو نُطفةٌ- سُدًى، بل قَلَّبَ النُّطفةَ وصَرَّفَها حتَّى صارتْ أكمَلَ ممَّا هي، وهي العَلَقةُ، ثُمَّ قَلَّبَ العَلَقةَ حتَّى صارتْ أكملَ ممَّا هي، حتَّى خَلَقَها فسَوَّى خَلْقَها، فدَبَّرَها بتصريفِه وحِكمتِه في أطوارِ كَمالاتِها، حتَّى انتهَى كَمالُها بَشَرًا سَوِيًّا! فكيف يَترُكُه سُدًى لا يَسُوقُه إلى غايةِ كمالِه الَّذي خُلِقَ له؟! فإذا تأمَّلَ العاقِلُ البصيرُ أحوالَ النُّطفةِ مِن مَبدَئِها إلى منتهاها دَلَّتْه على المَعادِ والنُّبُوَّاتِ، كما تدُلُّه على إثباتِ الصَّانعِ وتوحيدِه وصفاتِ كمالِه، فكما تدُلُّ أحوالُ النُّطفةِ مِن مَبدَئِها إلى غايتِها على كَمالِ قدرةِ فاطرِ الإنسانِ وبارئِه، فكذلك تدُلُّ على كمالِ حِكمتِه وعِلْمِه ومُلْكِه، وأنَّه المَلِكُ الحقُّ المتعالي عن أنْ يَخْلُقَها عَبَثًا، ويَترُكَها سُدًى بعدَ كَمالِ خَلْقِها[٢]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أنَّ هذا مُنافٍ لكَمالِ حكمةِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ ربوبيَّتَه وعِزَّتَه وحِكمتَه تأبى ذلك؛ ولهذا أخْرَجَ الكلامَ مُخرَجَ الإنكارِ على مَن زَعَمَ ذلك، وهو يدُلُّ على أنَّ قُبْحَ تَرْكِه سُدًى مُعَطَّلًا مُستقِرٌّ في الفِطَرِ، فكيف يُنْسَبُ الى الرَّبِّ ما قُبْحُه مُستقِرٌّ في فِطَرِكم وعُقولِكم[٣]؟!

فإنَّ الَّذي خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، وأبدَعَ تَركيبَه، ووَهَبَه القُوى العَقليَّةَ الَّتي لم يُعْطِها غيرَه مِن أنواعِ الحيوانِ؛ لِيَستعمِلَها في مَنافِعَ لا تَنحصِرُ، أو في

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧).

ضِدِّ ذلك مِن مَفاسِدَ جَسيمةٍ؛ لا يَليقُ بحِكمتِه أنْ يُهمِلَه مِثلَ الحيوانِ، فيَجعَلَ الصَّالحينَ كالمُفسِدين، والطَّائعينَ لربِّهم كالمُجْرِمين، وهو العليمُ القديرُ المتمكِّنُ بحِكمتِه وقُدرتِه أنْ يَجعَلَ إليه المصيرَ، فلو أهْمَلَه لَفاز أهلُ الفَسادِ في عالَمِ الكَسادِ، ولم يُلاقِ الصَّالِحونَ مِن صَلاحِهم إلَّا الأنكادَ، ولا يُناسِبُ حِكمةَ الحكيمِ إهمالُ النَّاسِ يَهيمون في كلِّ وادٍ[١]. فتَرْكُ الإنسانِ كالبهائمِ مُهمَلًا مُعَطَّلًا مُضادٌّ للحِكمةِ؛ فإنَّه خُلِق لغايةِ كمالِه، وكمالُه أن يكونَ عارفًا برَبِّه، محبًّا له، قائمًا بعُبوديَّتِه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ تضمَّن الدَّلالةَ على وُقوعِ الحشرِ؛ مِن حيث إنَّ الحِكمةَ تَقْتضي الأمرَ بالمحاسِنِ، والنَّهيَ عن القَبائحِ، والتَّكليفُ لا يَتحقَّقُ إلَّا بالمُجازاةِ، وهي قدْ لا تكونُ في الدُّنيا، فتَكونُ في الآخِرةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أنَّ الَّذي خَلَقَ الإنسانَ على هذه الصِّفةِ أَولى بأنْ يكونَ قادِرًا على إحيائِه، وذلك معلومٌ بالفِطرةِ الضَّروريَّةِ العَقْليَّةِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في ﴿يُمۡنَىٰ﴾؟

الجوابُ: فيه إشارةٌ إلى حَقارةِ حالِه، كأنَّه قيل: إنَّه مخلوقٌ مِن المنيِّ الَّذي جرى على مَخرَجِ النَّجاسةِ؛ فلا يليقُ بمِثلِ هذا الشَّيءِ أن يتمَرَّدَ عن طاعةِ اللهِ تعالى، إلَّا أنَّه عَبَّرَ عن هذا المعنى على سبيلِ الرَّمزِ، كما في قَولِه تعالى في عيسى ومَريمَ عليهما السَّلامُ: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٩).

والمرادُ منه قضاءُ الحاجةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الخُنْثى أحَدُهما، لا صِنفٌ ثالِثٌ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ الزَّوجَينِ مِن شَيءٍ واحدٍ، وهذا يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ إذْ إنَّه خَلَقَ صِنفَينِ مُختَلِفَينِ في كلِّ الأحوالِ: في القوَّةِ البدنيَّةِ، والعَقليَّةِ، والفِكريَّةِ، والتَّنظيميَّةِ، يختلِفُ الذَّكَرُ عن الأنثى، وبذلك نَعرِفُ ضلالَ أولئك القَومِ الَّذين يُريدون أنْ يُلْحِقوا المرأةَ بالرَّجُلِ في أعمالٍ تختصُّ بالرَّجُلِ؛ فإنَّهم سُفَهاءُ العُقولِ، ضُلَّالُ الأديانِ، فكيف يمكنُ أنْ نسَوِّيَ بيْن صِنفَينِ فَرَّقَ اللهُ بيْنَهما خِلْقةً وشَرعًا؟! فهناك أحكامٌ يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، ولا تُطالَبُ بها المرأةُ، وأحكامٌ تُطالَبُ بها المرأةُ، ولا يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، وأمَّا قَدَرًا وخِلْقةً فالأمرُ واضحٌ؛ لكنَّ هؤلاء الَّذين لم يُوَفَّقوا -وسَلَبَ اللهُ عقولَهم، وأَضْعَفَ أديانَهم- يُحاوِلونَ الآنَ أنْ يُلْحِقوا النِّساءَ بالرِّجالِ، وهذه لا شكَّ أنَّها فكرةٌ خاطئةٌ مُخالِفةٌ للفِطرةِ، ومخالِفةٌ للطَّبيعةِ، كما أنَّها مخالِفةٌ للشَّريعةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، عاد به الكلامُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

الاستدلالِ على إمكانِ البَعثِ، وهو ما ابتُدِئَ به، فارتبَطَ بقولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، فكأنَّه قِيل: أيحسَبُ أنْ لن نَجمَعَ عِظامَه؟! ويَحسَبُ أنْ نَترُكَه في حالةِ العدَمِ؟! وزِيدَ هنا أنَّ مُقْتضى الحكمةِ الإلهيَّةِ إيقاعُه بقولِه: ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾(١).

- والاستفهامُ إنكاريٌّ(٢).

- وعُدِلَ عن بِناءِ فِعلِ ﴿يُتۡرَكَ﴾ للفاعلِ، فبُنِيَ للنَّائبِ إيجازًا؛ مِن أجْلِ العِلمِ بالفاعلِ مِن قولِه السَّابقِ: ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، فكأنَّه قال: أيحسَبُ الإنسانُ أنْ نَترُكَه دونَ بَعثٍ، وأنْ نُهمِلَ أعْمالَه سُدًى؟! فجاء ذِكرُ ﴿سُدًى﴾ هنا على طَريقةِ الإدماجِ(٣) فيما سِيقَ له الكلامُ، إيماءً إلى أنَّ مُقْتضى حِكمةِ خلْقِ الإنسانِ ألَّا يَترُكَه خالقُه بعْدَ الموتِ، فلا يُحْييَه ليُجازِيَه على ما عَمِلَه في حَياتِه الأُولى(٤).

- وفي إعادةِ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ تَهيئةٌ لِما سيُعقَبُ مِن دَليلِ إمكانِ البعثِ مِن جانبِ المادَّةِ بقولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، فقولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ تَكريرٌ وتَعدادٌ للإنكارِ على الكافِرين تَكذيبَهُم بالبعثِ؛ ألَا تَرى أنَّه وقَعَ بعْدَ وصْفِ يومِ القيامةِ وما فيه مِن الحِسابِ على ما قدَّمَ الإنسانُ وأخَّرَ(٥)؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ كِنايةٌ عن الجزاءِ؛ لأنَّ التَّكليفَ في الحياةِ الدُّنيا مَقصودٌ منه الجَزاءُ في الآخرةِ(١).

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ استِئنافٌ وارِدٌ لإبطالِ الحِسبانِ المذكورِ؛ فإنَّ مَدارَه لَمَّا كان استِبعادَهم للإعادةِ استُدِلَّ على تَحقُّقِها ببَدْءِ الخلْقِ. واستئنافٌ هو عِلَّةٌ وبَيانٌ للإنكارِ المَسوقِ للاستدلالِ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ الَّذي جُعِلَ تَكريرًا وتَأييدًا لمَضمونِ قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣]، أي: أنَّ خلْقَ الإنسانِ مِن مادَّةٍ ضَعيفةٍ، وتَدرُّجَه في أطوارِ كِيانِه: دَليلٌ على إثباتِ القُدرةِ على إنشائِه إنشاءً ثانيًا بعْدَ تَفرُّقِ أجزائِه واضْمحلالِها، فيَتَّصِلُ معْنى الكلامِ هكذا: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ ويَعُدُّ ذلك مُتعذِّرًا؟! ألَمْ نَبدَأْ خَلْقَه؛ إذ كَوَّنَّاهُ نُطفةً، ثمَّ تَطوَّرَ خَلْقُه أطوارًا، فماذا يُعجِزُنا أنْ نُعيدَ خلْقَه ثانيًا كذلك(٢)؟!

- وهذه الجُمَلُ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾، وهذا البَيانُ خاصٌّ بأحَدِ مَعْنَيَيِ التَّركِ في الآيةِ، وهو تَرْكُه دونَ إحياءٍ، واكْتُفِيَ ببَيانِ هذا عن بَيانِ المعنى الآخَرِ الَّذي قيَّدَه قولُه: ﴿سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: تَرْكُه بدونِ جزاءٍ على أعمالِه؛ لأنَّ فائدةَ الإحياءِ أنْ يُجازى على عمَلِه، والمعنى: أيحسَبُ أنْ يُترَكَ فانيًا ولا تُجدَّدَ حَياتُه(٣)؟!

- ووقَعَ وصْفُ ﴿سُدًى﴾ في خِلالِ ذلك مَوقعَ الاستِدلالِ على لُزومِ بَعثِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٦، ٣٦٧).

النَّاسِ مِن جانبِ الحِكمةِ، وانتُقِلَ بعْدَه إلى بَيانِ إمكانِ البَعثِ مِن جانبِ المادَّةِ؛ فكان وُقوعُه إدماجًا[١].

- قولُه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ الإنكاريِّ[٢].

- وعُطِفَ فِعلُ ﴿كَانَ عَلَقَةٗ﴾ بحرْفِ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ كَوْنَه عَلَقةً أعجَبُ مِن كَونِه نُطفةً؛ لأنَّه صار عَلَقةً بعْدَ أنْ كان ماءً، فاختَلَطَ بما تُفرِزُه رَحِمُ الأُنثى مِن البُويضاتِ، فكان مِن مَجموعِهما عَلَقةً، ولَمَّا كان تَكوينُه عَلَقةً هو مَبدَأَ خلْقِ الجسْمِ، عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَخَلَقَ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ العلَقةَ يَعقُبُها أنْ تَصيرَ مُضغةً إلى أنْ يَتِمَّ خلْقُ الجسَدِ وتُنفَخَ فيه الرُّوحُ[٣].

- ومَفعولُ (خلَقَ) ومَفعولُ (سَوَّى) مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليهما، أي: فخلَقَه فسوَّاه[٤].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿يُمۡنَىٰ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ النُّطفةَ تَدفَعُها قوَّةٌ طَبيعيَّةٌ في الجِسمِ خَفيَّةٌ، فكان فاعلُ الإمناءِ مَجهولًا؛ لعدَمِ ظُهورِه[٥]. أو لأنَّه وقتَ صَبِّها في الرَّحمِ تَنصَبُّ منه بغيرِ اختيارِه، حتَّى كأنَّه لا فِعلَ له فيها أصلًا[٦].

- قولُه: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ توقيفٌ وتَوبيخٌ لمنكِرِ البَعثِ[٧].

- والاستِفهامُ إنكارٌ للمَنفيِّ إنكارَ تَقريرٍ بالإثباتِ. وهذا غالِبُ استِعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٦) و (٢٩/ ٣٦٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٤).

الاستفهامِ التَّقريريِّ؛ أنْ يقعَ على نفْيِ ما يُرادُ إثباتُه؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّوسعةِ على المقرَّرِ إنْ أراد إنكارًا؛ كِنايةً عن ثِقةِ المتكلِّمِ بأنَّ المخاطَبَ لا يَستطيعُ الإنكارَ(١).

- وهذه الجُملةُ ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ واقعةٌ مَوقعَ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ لأنَّ خلْقَ جِسمِ الإنسانِ مِن عدَمٍ -وهو أمرٌ ثابتٌ بضَرورةِ المُشاهَدةِ- أحقُّ بالاستبعادِ مِن إعادةِ الحَياةِ إلى الجِسمِ بعْدَ الموتِ، سواءٌ بقِيَ الجِسمُ غيرَ ناقصٍ، أو نقَصَ بَعضُه أو مُعظَمُه، فهو إلى بَثِّ الحياةِ فيه، وإعادةِ ما فَنِيَ مِن أجزائِه أقرَبُ مِن إيجادِ الجسمِ مِن عدَمٍ(٢).

- وتَعميمُ الموتى بعْدَ جَرَيانِ أُسلوبِ الكلامِ على خُصوصِ الإنسانِ الكافرِ أو خُصوصِ كافرٍ مُعيَّنٍ؛ يَجعَلُ جُملةَ ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ تَذييلًا(٣).

- وقدْ جاء في هذا الخِتامِ ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بمُحسِّنِ رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ(٤)؛ فإنَّ السُّورةَ افتُتِحت بإنكارِ أنْ يَحسَبَ المشركون استحالةَ البَعثِ، وتَسلسَلَ الكلامُ في ذلك بأفانينَ مِن الإثباتِ والتَّهديدِ والتَّشريطِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ -المتَّفِقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانِسَينِ المُتَّفِقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتِقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثمَّ إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقولِه تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٥٨).

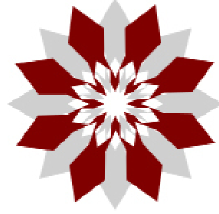
والاستدلالِ، إلى أنْ أفْضى إلى استِنتاجِ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُحيِيَ الموتى، وهو المطلوبُ الَّذي قُدِّمَ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[1] [القيامة: ٣، ٤].

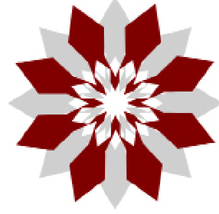


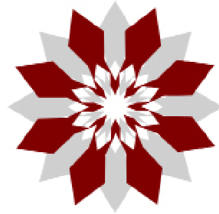
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الإِنسانِ







سورةُ الإنسانِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الإنسانِ)[١].

وسُمِّيَتْ أيضًا بسورةِ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[٢]؛ فعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ في الجُمُعةِ في صَلاةِ الفَجرِ: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ السَّجدةَ، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾))[٣].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّه يُستحَبُّ القِراءةُ بها في صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ[٤].

فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرأُ في الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ: بـ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ فِي الرَّكعةِ الأُولَى، وفي الثَّانيةِ ﴿هَلْ أَتَىٰ

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بذِكرِ الإنسانِ وخَلْقِه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٣).

(٢) قال ابنُ عاشور: (وسُمِّيَت في زَمَنِ أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٩).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ (الدَّهرِ) و(الأبرارِ) و(الأمْشاجِ). يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٨٠).

(٤) والحِكمةُ في استحبابِ قراءةِ سورةِ (الإنسانِ) في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ وقراءةِ سُورةِ (السَّجدةِ) في الرَّكعةِ الأُولى؛ لِما اشتملت عليه هاتان السُّورتانِ ممَّا كان ويكونُ مِن المبدأِ والمَعادِ، وحَشرِ الخلائقِ، وبَعْثِهم مِن القُبورِ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ؛ ففيهما بَدْءُ خَلقِ الإنسانِ، وآدمُ خُلِق يومَ الجُمُعةِ، وفيهما ذِكرُ القيامةِ، وفي يومِ الجُمُعةِ تقومُ السَّاعةُ؛ فاستُحِبَّ قراءةُ هاتَينِ السُّورتَينِ في هذا اليومِ؛ تذكيرًا للأُمَّةِ بما كان فيه ويكونُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠٨).

عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾))[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الإنسانِ مَكِّيَّةٌ[٢]. وقيل: مَدَنيَّةٌ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

ذِكْرُ خَلْقِ بني آدمَ، وانقِسامِهم، ومآلِهم يومَ القيامةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تذكيرُ الإنسانِ بنِعَمِ اللهِ تعالى عليه؛ حيث خلَقَه سُبحانه مِن نُطفةٍ أَمْشاجٍ، وجعَلَه سميعًا بصيرًا، وهداه السَّبيلَ.

٢- ذِكرُ ما أعَدَّ اللهُ تعالى مِن النَّعيمِ لِمَن أطاعه واتَّقاه.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلمٌ (٨٨٠) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٩)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩).

وحكى ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ النَّاسِ على كَونِها مَكِّيَّةً، نزلت قبْلَ الهِجرةِ. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥٥٣).

قال ابنُ عاشور: (الأصَحُّ أنَّها مَكِّيَّةٌ؛ فإنَّ أُسلوبَها ومعانيَها جاريةٌ على سَنَنِ السُّوَرِ المكِّيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٠).

(٣) وقيل: السُّورةُ مدنيةٌ إلَّا قولَه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤]؛ فمَكِّيٌّ. وقيل: مِن قَولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٣] إلى آخِرِها مَكِّيٌّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٤/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦٩).

٣- إنذارُ الكافِرينَ بسُوءِ العاقِبةِ.

٤- إثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى.

٥- ذِكرُ المِنَّةِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإنزالِ القُرآنِ عليه، وأمْرُه بالصَّبرِ وذِكرِ اللهِ تعالى، والسُّجودِ له وتسبيحِه.

٦- بيانُ أنَّ مَشيئةَ اللهِ تعالى فوقَ كُلِّ مَشيئةٍ.



الآيات (١-٣)

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الدَّهْرِ﴾: الدَّهْرُ اسمٌ للزَّمانِ الطَّويلِ ومُدَّةِ الحياةِ الدُّنيا، وهو في الأصلِ: اسمٌ لِمُدَّةِ العالَمِ مِن مَبدأِ وُجودِه إلى انقضائِه، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ مُدَّةٍ كثيرةٍ، بخِلافِ الزَّمانِ؛ فإنَّه يقَعُ على المدَّةِ القليلةِ والكثيرةِ، وأصلُ (دهر): هو الغلَبةُ والقَهرُ، وسُمِّيَ الدَّهْرُ دَهْرًا؛ لأنَّه يأتي على كلِّ شيءٍ ويَغْلِبُه[١].

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٢].

﴿أَمْشَاجٍ﴾: أي: أخلاطٍ؛ مِن مَشَجْتُ الشَّيءَ: إذا خلَطْتَه؛ لأنَّ النُّطْفةَ مِن مَنِيِّ الرَّجُلِ ومَنِيِّ المرأةِ، وأصلُ (مشج): يدُلُّ على خَلْطٍ[٣].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: أي: نَختَبِرُه ونَمتَحِنُه، والبلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (بلي) هنا: الاختِبارُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٩)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥). =

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه قد مَرَّ على الإنسانِ قبْلَ أن يُخلَقَ زَمَنٌ طَويلٌ لم يكُنْ فيه شَيئًا مَذكورًا.

ثمَّ ذكرَ اللهُ سُبحانَه أطوارَ خَلقِ الإنسانِ، فقال: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ إنسانٍ مِن ماءٍ قَليلٍ مكوَّنٍ مِن اختِلاطِ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المرأةِ؛ مِن أجْلِ أن نَختبِرَه في الدُّنيا، فجَعَلْناه سَميعًا بَصيرًا.

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه بيَّن للنَّاسِ طريقَ الحقِّ، وأنَّهم انقسَموا إلى قِسمَينِ، فقال: إنَّا هدَيْنا كُلَّ إنسانٍ، وبَيَّنَّا له طريقَ الحَقِّ الَّذي يُوصِلُه إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه؛ فإمَّا أن يَسلُكَه فيَكونَ شاكِرًا، وإمَّا أن يَترُكَه فيَكونَ كَفُورًا لنِعَمِ اللهِ عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾.

أي: قد مَرَّ على الإنسانِ قبْلَ أن يُخلَقَ زَمَنٌ طَويلٌ لم يكُنْ فيه شَيئًا يُذكَرُ[1]!

= وقال الرَّاغب: (يُقالُ: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلَاءً، أي: خَلَقَ، ومنه قيل لِمَن سافر: بِلْوُ سفَرٍ وبِلْيُ سفَرٍ، أي: أبلاه السَّفرُ، وبَلَوْتُه: اختبَرْتُه، كأنِّي أخلَقْتُه مِن كثرةِ اختباري له). ((المفردات)) (ص: ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٢).

حكى الرازي الاتِّفاقَ على أنَّ ﴿هَلۡ﴾ هاهنا بمعنى: قَدْ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٩).

ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨).

ونَسَبه ابنُ عَطيَّةَ إلى أكثَرِ المتأوِّلينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨).

قيل: المرادُ بالإنسانِ المذكورِ في هذه الآيةِ: آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والمهدوي، والواحدي، والسَّمْعاني، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ =

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مُطْلَقَ خَلْقِ الإنسانِ، وأنَّه قد كان لا شيءَ، ثمَّ أنعَم اللهُ عليه بنعمةِ الإيجادِ؛ شَرَع يَذكُرُ كيفيَّةَ خَلْقِه، فقال[1]:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ إنسانٍ مِن ماءٍ قَليلٍ مكوَّنٍ مِن اختِلاطِ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المرأةِ؛ مِن أجْلِ أن نختَبِرَه في الدُّنيا[2].

= ٥٢٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٣)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٣١).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٤).

وقيل: الإنسانُ هنا اسمُ جِنسٍ، يَعُمُّ كُلَّ إنسانٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٢).

قال أبو حيَّان: (الإنسانُ هنا جنسُ بني آدَمَ، والحِينُ الَّذي مَرَّ عليه إمَّا حِينُ عَدَمِه، وإمَّا حينُ كَونِه نُطفةً، وانتِقالِه مِن رُتبةٍ إلى رُتبةٍ حتَّى حينِ إمكانِ خِطابِه؛ فإنَّه في تلك المدَّةِ لا ذِكْرَ له، وسُمِّيَ إنسانًا باعتبارِ ما صار إليه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣١، ٥٣٥، ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

وقد حكى الماوَرْديُّ وابنُ عطيَّةَ اتِّفاقَ المفَسِّرينَ على أنَّ الإنسانَ في هذا الموضِعِ هو كُلُّ إنسانٍ مِن بني آدَمَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨).

قال ابن جزي: (قولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو هنا جنسٌ باتِّفاقٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦).

=

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: فجَعَلْنا للإنسانِ سَمْعًا يَسمَعُ به الأصواتَ، وجعَلْنا له بَصَرًا يُبصِرُ به المَرئيَّاتِ[١].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أخبَرَ تعالى أنَّه بعدَ أن ركَّبَ الإنسانَ، وأعطاه الحواسَّ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ؛ بيَّنَ له سَبيلَ الهُدى والضَّلالِ[٢].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

أي: إنَّا بَيَّنَّا للإنسانِ وعرَّفْناه طريقَ الحَقِّ الَّذي يُوصِلُه إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه؛ فإمَّا أن يَسلُكَه فيكونَ شاكِرًا لنِعَمِ اللهِ مُوَحِّدًا طائِعًا، وإمَّا أن يَترُكَه فيكونَ كَفُورًا

= وقال البِقاعي: (ولَمَّا كان خَلْقُه على طبائِعَ مختَلِفةٍ وأمزِجةٍ مُتفاوِتةٍ أعظَمَ لأجْرِه إنْ جاهد ما يَتنازَعُه مِن المختَلِفاتِ بأمرِ رَبِّه الَّذي لا يختَلِفُ، وكانت أفعالُه تابعةً لأخلاقِه، وأخلاقُه تابعةً لجِبِلَّتِه؛ قال: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاطٍ... مِن قولِك: مَشَجْتُ الشَّيءِ: إذا خلَطْتَه؛ لأنَّه من مَنِيِّ الرَّجُلِ ومَنِيِّ المرأةِ، وكُلٌّ منهما مختَلِفُ الأجزاءِ، مُتبايِنُ الأوصافِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦).

قال الرَّازي: (أعطاه ما يَصِحُّ معه الابتلاءُ، وهو السَّمعُ والبَصَرُ، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، والسَّمعُ والبَصَرُ كِنايَتانِ عن الفَهْمِ والتَّمييزِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١).

وقال البِقاعي: (ليتمَكَّنَ مِن مُشاهَدةِ الدَّلائِلِ ببَصَرِه، وسَماعِ الآياتِ بسَمْعِه، ومَعرِفةِ الحُجَجِ ببَصيرتِه؛ فيَصِحَّ تَكليفُه وابتلاؤُه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١).

لِنِعَمِ اللهِ مُشرِكًا عاصيًا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ تَعريفُ الإنسانِ بحالِه، وابتِداءِ أمْرِه؛ لِيَعلَمَ أنْ لا طريقَ له للكِبْرِ، واعتِقادِ السِّيادةِ لِنَفْسِه، وألَّا يُغْلِطَه ما اكتنَفَه مِنَ الألطافِ الرَّبانيَّةِ، والاعتناءِ الإلهيِّ، والتَّكْرِمةِ، فيَعتَقِدَ أنَّه يَستَوجِبُ ذلك ويَستَحِقُّه[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ في هذا نِداءٌ على أنَّ اللهَ تعالى أرشَدَ الإنسانَ إلى الحَقِّ، وأنَّ بعضَ النَّاسِ أدخَلوا على أنفُسِهم ضلالَ الاعتِقادِ، ومَفاسِدَ الأعمالِ، فمَن بَرَّأَ نَفْسَه مِن ذلك فهو الشَّاكِرُ، وغَيرُه الكَفورُ[٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سورةُ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ سورةٌ عجيبةُ الشَّأنِ مِن سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، على اختِصارِها؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه ابتدأَها بذِكْرِ كيفيَّةِ خَلْقِ الإنسانِ مِنَ النُّطْفةِ ذاتِ الأمشاجِ والأخلاطِ الَّتي لَمْ يَزَلْ بقُدرتِه ولُطْفِه وحِكمتِه يُصَرِّفُه عليها أطوارًا، ويَنْقُلُه مِن حالٍ إلى حالٍ إلى أنْ تَمَّتْ خِلْقَتُه، وكَمَلَتْ صورتُه؛ فأخرَجه إنسانًا سَوِيًّا سميعًا بصيرًا، ثُمَّ لَمَّا تكامَلَ تمييزُه وإدراكُه هَداه طريقَيِ الخَيرِ والشَّرِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

قال ابن كثير: (أي: بَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطريقَ الشَّرِّ. وهذا قولُ عِكْرِمةَ، وعطيَّةَ، وابنِ زَيدٍ، ومجاهِدٍ -في المشهورِ عنه- والجمهورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((البرهان في تناسب سور القرآن)) لأبي جعفر الغرناطي (ص: ٣٥٢، ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

والهُدى والضَّلالِ، وأنَّه بعدَ هذه الهدايةِ إمَّا أنْ يَشْكُرَ ربَّه وإمَّا أنْ يَكْفُرَه، ثُمَّ ذَكَرَ مآلَ أهلِ الشُّكرِ والكُفرِ وما أعَدَّ لهؤلاء وهؤلاء، وبَدَأ أوَّلًا بذِكْرِ عاقبةِ أهلِ الكفرِ ثُمَّ عاقبةِ أهلِ الشُّكرِ، وفي آخرِ السُّورةِ ذَكَر أوَّلًا أهلَ الرَّحمةِ ثُمَّ أهلَ العذابِ، فبَدَأَ السُّورةَ بأوَّلِ أحوالِ الإنسانِ -وهي النُّطْفةُ-، وخَتَمَها بآخِرِ أحوالِه -وهي كَونُه مِن أهلِ الرَّحمةِ أو العذابِ-، ووَسَّطَها بأعمالِ الفريقَين، فذَكَرَ أعمالَ أهلِ العذابِ مُجْمَلةً في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الإنسان: ٤]، وأعمالَ أهلِ الرَّحمةِ مُفَصَّلةً، وجزاءَهم مُفَصَّلًا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أنَّ رُوحَ الإنسانِ مخلوقةٌ، وليست قَديمةً، فلو كانت رُوحُه قديمةً لَكان الإنسانُ لَمْ يَزَلْ شيئًا مذكورًا؛ فإنَّه إنَّما هو إنسانٌ برُوحِه، لا ببَدَنِه فقط[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أنَّ الاشتراكَ في الأسماءِ والصِّفاتِ لا يَستَلزِمُ تَماثُلَ المُسَمَّياتِ والمَوصوفاتِ؛ فقد نفَى سُبحانَه أنْ يكونَ السَّميعُ كالسَّميعِ، والبصيرُ كالبَصيرِ، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][٣]، وفيه حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ شَديدةٌ خانِقةٌ، ألَا تَراه كيف وصَفَ الإنسانَ بما وَصَف به نَفْسَه مِن السَّمعِ والبَصَرِ؛ إذ يقولُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾، فسَوَّى بيْن الصِّفَتين، ولم يُخالِفْ بيْن اللَّفظَين، فأخبَر بذلك؛ لأنَّ اللهَ سميعٌ بسَمعٍ وبصيرٌ ببَصَرٍ غيرِ مخلوقَين، ومَن نفى عن اللهِ جَلَّ جلالُه حقائقَ وَصْفِه، أو حقائقَ فِعلِه فقد عطَّلَه، وإن لم يُثبِتْ وأخَذَ بالسَّميعِ والبَصيرِ إلى معنى الإدراكِ خَوفًا مِن التَّشبيهِ، لم يسلَمْ مِن التَّشبيهِ، وكيف يَسلَمُ مِن التَّشبيهِ؟! أليس للمخلوقِ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١١٧).

أيضًا إدراكٌ لأشياءَ، وإن لم يُدرِكْ جميعَها، كما يُدرِكُ اللهُ جميعَها؟! وأيضًا فالإنسانُ يُسمَّى عالِمًا وعليمًا، ويُسَمَّى اللهُ عالِمًا وعليمًا، فلا يكونُ تشبيهًا؛ لأنَّ عِلمَ المخلوقِ الَّذي سُمِّيَ به عالِمًا وعليمًا مُستفادٌ مُتعَلَّمٌ، وعِلمُه سُبحانَه أزَليٌّ صِفةٌ مِن صفاتِه، غيرُ مُتعَلَّمٍ ولا مُستفادٍ، كذلك سَمْعُ المخلوقِ مَصنوعٌ فانٍ، وبَصَرُه مِثلُه، يُفنيهما اللهُ إذا شاء، ثمَّ يُعيدُهما إذا أحياه كما ابتدأهما بقدرتِه، وكذلك بَصَرُه. وسَمْعُ اللهِ وبَصَرُه كائنان أزَليَّانِ فيه، بلا إحداثِ مُحدِثٍ، ولا صُنعِ صانعٍ، حقيقيَّانِ غيرُ مَجازيَّين، معروفٌ عندَنا حقيقتُهما، مَسكوتٌ عن كَيفيَّتِهما، كهيئةِ ما هما عندَه سُبحانَه[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أنَّ مِن أسماءِ اللهِ تعالى ما لا يَخْتَصُّ به، مِثلُ: السَّميعِ، البصيرِ، العليمِ، الرَّحيمِ، وقال تعالى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)] [التوبة: ١٢٨].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ تَوبيخيٌّ، وهو هنا مُوجَّهٌ إلى غيرِ مُعيَّنٍ، ومُستعمَلٌ في تَحقيقِ الأمْرِ المُقرَّرِ به على طَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّ الاستفهامَ طَلَبُ الفَهمِ، والتَّقريرُ يَقْتضي حُصولَ العِلمِ بما قُرِّرَ به، وذلك إيماءٌ إلى استِحقاقِ اللهِ أنْ يَعترِفَ الإنسانُ له بالواحدانيَّةِ في الرُّبوبيَّةِ، إبطالًا لإشراكِ المشْركين، والمعْنى: هلْ يُقِرُّ كلُّ إنسانٍ مَوجودٍ أنَّه كان مَعدومًا زَمانًا طَويلًا، فلمْ يكُنْ شَيئًا يُذكَرُ؟ أي: لم يكُنْ يُسمَّى ولا يُتحدَّثُ عنه بذاتِه، وهمْ لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ بذلك؛ فلذلك اكتُفِيَ بتَوجيهِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٦٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

هذا التَّقريرِ إلى كلِّ سامعٍ[(١)].

- وتَقديمُ هذا الاستفهامِ؛ لِما فيه مِن تَشويقٍ إلى مَعرفةِ ما يأْتي بعْدَه مِن الكلامِ؛ فجُملةُ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ ...﴾ تَمهيدٌ وتَوطئةٌ للجُملةِ الَّتي بعْدَه، وهي ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] إلخ[(٢)].

٢- قوله تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لقولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ لبَيانِ كَيفيَّةِ خلْقِ الإنسانِ؛ لِما فيه مِن التَّشويقِ، والتَّقريرُ يَقْتضي الإقرارَ بذلك لا مَحالةَ؛ لأنَّه مَعلومٌ بالضَّرورةِ، فالسَّامعُ يَتشوَّفُ لِما يَرِدُ بعْدَ هذا التَّقريرِ، فقِيل له: إنَّ اللهَ خَلَقَه بعْدَ أنْ كان مَعدومًا، فأوجَدَ نُطفةً كانت مَعدومةً، ثمَّ استَخرَجَ منها إنسانًا، فثَبَتَ تَعلُّقُ الخلْقِ بالإنسانِ بعْدَ عَدَمِه[(٣)].

- وتَأكيدُ الكلامِ بحرْفِ (إنَّ) لتَنزيلِ المشْرِكين مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ؛ لعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العِلمِ؛ حيث عَبَدوا أصنامًا لم يَخلُقوهم[(٤)].

- وإظهارُ لَفظِ ﴿الْإِنسَانِ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ[(٥)].

- وأُدمِجَ في ذلك كَيفيَّةُ خلْقِ الإنسانِ مِن نُطفةِ التَّناسُلِ؛ لِما في تلك الكيفيَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠).

مِن دَقائقِ العِلمِ الإلهيِّ والقُدرةِ والحِكمةِ[١].

- على القولِ بأنَّ ﴿أَمْشَاجٍ﴾ جمْعٌ، فيكونُ وَصفُ النُّطفةَ -مع أنَّها مُفرَدٌ- بلَفظِ ﴿أَمْشَاجٍ﴾، وهو جمْعٌ؛ لأنَّها أُريدَ بها الجِنسُ، كقولِه: ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]، أو لتنزيلِ كلِّ جُزءٍ مِن النُّطفةِ نُطفةً[٢]. أو وَصفَ النُّطفةَ بالجمْعِ باعتبارِ ما تَشتمِلُ عليه النُّطفةُ مِن أجزاءٍ مُختلِفةِ الخواصِّ؛ فلذلك يَصيرُ كلُّ جُزءٍ مِن النُّطفةِ عضْوًا، فوَصْفُ النُّطفةِ بجمْعِ الاسمِ للمُبالَغةِ، أي: شَديدةُ الاختلاطِ[٣]. أو وصَفَ النُّطفةَ بـ﴿أَمْشَاجٍ﴾ وهو جمْعٌ؛ لِما أنَّ المُرادَ بها مَجموعُ الماءَينِ مِن الرَّجُلِ والأُنثى، ولكلٍّ منهُما أوصافٌ مُختلِفةٌ مِن اللَّونِ والرِّقَّةِ والغِلَظِ، وخَواصُّ مُتبايِنةٌ[٤].

- وقد وقَعَت هذه الحالُ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿خَلَقْنَا﴾ وبيْن ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لأنَّ الابتلاءَ -أي: التَّكليفَ الَّذي يَظهَرُ به امتِثالُه أو عِصيانُه- إنَّما يكونُ بعْدَ هِدايتِه إلى سَبيلِ الخَيرِ، فكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يَقعَ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بعْدَ جُملةِ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ولكنَّه قُدِّمَ؛ للاهتِمامِ بهذا الابتلاءِ الَّذي هو سَببُ السَّعادةِ والشَّقاوةِ. وجِيءَ بجُملةِ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾؛ تَفنُّنًا في نظْمِ الكلامِ[٥].

- وقد نُزِّلَت الكَلِمتانِ ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ مَنزِلةَ الكَلِمةِ الواحدةِ؛ لأنَّهما كِنايةٌ عن التَّمييزِ والفَهمِ؛ إذْ آلَتُهما سَببٌ لذلك، وهما أشرَفُ الحواسِّ، تُدرَكُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٤، ٣٧٥).

بهما أعظَمُ المُدرَكاتِ، أي: جَعَلْناه بسَببِ الابتلاءِ حينَ تَأهُّلِه له سَميعًا بَصيرًا؛ ليَتمكَّنَ مِن مُشاهَدةِ الدَّلائلِ، واستِماعِ الآياتِ؛ فالعطفُ على إرادةِ الابتلاءِ لا الابتلاءِ فيه، فلا يَرِدُ السُّؤالُ الآتي: كيف عُطِفَ على ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ ما بعْدَه بالفاءِ مع أنَّ الابتلاءَ مُتأخِّرٌ عنه[(١)]؟

- وحَقيقةُ الابتلاءِ: الاختِبارُ لِتُعرَفَ حالُ الشَّيءِ، وهو هنا كِنايةٌ عن التَّكليفِ بأمْرٍ عَظيمٍ؛ لأنَّ الأمْرَ العظيمَ يُظهِرُ تَفاوُتَ المكلَّفينَ به في الوفاءِ بإقامتِه[(٢)].

- وفُرِّعَ على خلْقِه مِن نُطفةٍ أنَّه جَعَلَه سَميعًا بَصيرًا، وذلك إشارةٌ إلى ما خَلَقَه اللهُ له مِن الحواسِّ الَّتي كانت أصلَ تَفكيرِه وتَدبيرِه؛ ولذلك جاء وصْفُه بالسَّميعِ البصيرِ بِصيغةِ المُبالَغةِ، ولم يقلْ: فجَعَلْناه سامعًا مُبصِرًا؛ لأنَّ سمْعَ الإنسانِ وبصَرَه أكثَرُ تَحصيلًا وتَمييزًا في المسموعاتِ والمُبصَراتِ مِن سمْعِ وبصَرِ الحيوانِ؛ فبِالسَّمعِ يَتلقَّى الشَّرائعَ ودَعوةَ الرُّسلِ، وبالبصَرِ يَنظُرُ في أدِلَّةِ رُبوبيَّةِ الله تعالى ووحدانيَّتِه[(٣)].

- وهذا تَخلُّصٌ إلى ما ميَّزَ اللهُ به الإنسانَ مِن جَعْلِه تُجاهَ التَّكليفِ واتِّباعِ الشَّرائعِ، وتلك خَصِيصةُ الإنسانِ الَّتي بها ارتَكَزَت مَدنيَّتُه، وانتَظَمَت جامعاتُه؛ ولذلك أُعقِبَت هذه الجُملةُ بقولِه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ الآياتِ[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ لبَيانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما نشَأَ عن جُملةِ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، ولتَفصيلِ جُملةِ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وتَخلُّصٌ إلى الوعيدِ على الكفْرِ، والوعْدِ على الشُّكرِ[١].

فقولُه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ رُتِّب على قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ لأنَّه جملةٌ مُستأنَفةٌ تعليليَّةٌ في معنى: لأنَّا هدَيْناه، أي: دلَلْناه على ما يُوصِلُه مِن الدَّلائلِ السَّمعيَّةِ كالآياتِ التَّنزيليَّةِ، والعَقليَّةِ كالآياتِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ، وهو إنَّما يكونُ بعدَ التَّكليفِ والابتلاءِ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) في ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ...﴾ للرَّدِّ على المشرِكين الَّذين يَزعُمون أنَّ ما يَدْعوهم إليه القرآنُ باطلٌ[٣].

- ولَمَّا كان الشُّكرُ قَلَّ مَن يتَّصِفُ به، قال: ﴿شَاكِرًا﴾، فعبَّرَ عنه باسمِ الفاعلِ؛ للدَّلالةِ على قِلَّتِه، ولَمَّا كان الكفْرُ كثيرًا مَن يَتَّصِفُ به، ويَكثُرُ وُقوعُه مِن الإنسانِ، قال: ﴿كَفُورًا﴾؛ فعبَّرَ عنه بصِيغةِ المُبالَغةِ[٤].

أو: أنَّه عَبَّرَ باسمِ الفاعِلِ الخالي مِن المُبالَغةِ في ﴿شَاكِرًا﴾؛ لأنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يَشكُرَ جميعَ النِّعَمِ، فلا يُسَمَّى شَكورًا إلَّا بتفضُّلٍ مِن رَبِّه عليه، ولَمَّا كان الإنسانُ لِما له مِن النُّقْصانِ لا يَنفَكُّ غالِبًا عن كُفْرٍ ما، أتى بصِيغةِ المُبالَغةِ؛ تنبيهًا له على ذلك[٥]، وإشعارًا بأنَّ الإنسانَ لا يَخْلو عن كُفرانٍ غالبًا، وإنَّما المُؤاخَذُ به التَّوغُّلُ فيه، أو لم يقُلْ: (كافِرًا) ليُطابِقَ قَسيمَه؛ مُحافَظةً على الفواصلِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩).

الآيات (٤-١٢)

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾.

غَرِيبُ الكَلِمات:

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾: جَمعُ غُلٍّ، وهو طَوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُقِ، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على إحاطةٍ وثَباتٍ[1].

﴿وَسَعِيرًا﴾: أي: نارًا تُسَعَّرُ عليهم فتَتَوَقَّدُ، والسَّعيرُ اسْمٌ مِن أسماءِ جَهَنَّمَ، يُقال: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[2].

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: أي: المؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لربِّهم، جمعُ: بَرٍّ وبَارٍّ، وأصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، يُقالُ: يَبَرُّ رَبَّه، أي: يُطيعُه، وهو مِنَ الصِّدقِ. وقيل: لَمَّا كان البَرُّ خِلافَ البحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، اشتُقَّ منه البِرُّ، وهو التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ[3].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، =

﴿مِزَاجُهَا﴾: أي: ما يُمازِجُها، يُقالُ: مَزَجَ الشَّرابَ: خلَطَه، وأصلُ (مزج): يدُلُّ على خَلْطِ الشَّيءِ بغَيرِه[(١)].

﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾: أي: يُجْرُونها ويُصَرِّفونَها ويَقودُونَها إلى حيث شاؤوا، والتَّفجيرُ: الإسالةُ والإجراءُ، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ[(٢)].

﴿مُسْتَطِيرًا﴾: أي: فاشِيًا مُنتَشِرًا، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصْطِفافِ شَيءٍ[(٣)].

﴿عَبُوسًا﴾: أي: تَعبَسُ وتَنقَبِضُ فيه الوُجوهُ مِن هَولِه وشِدَّتِه، نُسِبَ العُبُوسُ إلى اليومِ، كما يُقالُ: يَومٌ صائِمٌ، ولَيلٌ قائِمٌ، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ على تَكَرُّهٍ[(٤)].

﴿قَمْطَرِيرًا﴾: أي: شَديدًا صَعْبًا، والقَمْطَريرُ: أشَدُّ ما يكونُ مِنَ الأيَّامِ وأطوَلُه في البلاءِ، يُقالُ: يومٌ قَمطَريرٌ وقُماطِرٌ: إذا كان شَديدًا كريهًا[(٥)].

= ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البغوي)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠، ٣٨٠)، =

﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾: أي: آتاهم، وأعْطاهم حينَ لَقُوه، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على تَوافي شَيئَيْنِ[(١)].

﴿نَضْرَةً﴾: أي: حُسْنًا وإشراقًا وبَهْجةً، يُقالُ: نَضَرَ وَجهُ فُلانٍ: إذا حَسُنَ مِن النِّعمةِ، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ منصوبةٌ مِن أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿كَافُورًا﴾؛ لأنَّ ماءَها في بياضِ الكافورِ، وفي رائحتِه وبَرْدِه. والثَّاني: أنَّها بَدَلٌ مِن محلِّ ﴿مِن كَأْسٍ﴾ على تقديرِ مُضافٍ، أي: يَشرَبونَ خمرًا خَمْرَ عَينٍ. الثَّالثُ: أنَّها مفعولٌ بـ ﴿يَشْرَبُونَ﴾، أي: يَشربونَ عَينًا مِن كأسٍ. الرَّابعُ: أن يَنتصِبَ على الاختِصاصِ بإضمارِ «أعني» أو «أَخُصُّ». الخامسُ: أنَّه مَفعولٌ به ثانٍ لِفِعلٍ محذوفٍ تقديرُه: «يُعْطَونَ». وقيلَ غيرُ ذلك.

قَولُه تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ في الباءِ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه على تَضمينِ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤).

«يَشْرَبُ» معنى: «يَلْتَذُّ» أو «يَرْوَى»، وهما يَتعَدَّيانِ بالباءِ. الثَّاني: أنَّها مَزيدةٌ، أي: يَشرَبُها. الثَّالثُ: أنَّها بمعنى «مِنْ». الرَّابعُ: أنَّ الباءَ للإلصاقِ مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ حال، أي: يَشرَبُ الخَمْرَ ممزوجةً بها، أي: بالعَينِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعَدَّه للكافِرين: إنَّا هَيَّأْنا للكافِرينَ سلاسِلَ يُقادُونَ بها، وقُيودًا في أعناقِهم، ونارًا حاميةً، ثم يبينُ ما أعدَّه للشَّاكرينَ، فيقولُ: إنَّ الطَّائِعينَ الأبرارَ يَشرَبونَ مِن كأسٍ مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافورِ، وهذا الكافُورُ هو عَينٌ جاريةٌ يَرتَوي بها عِبادُ اللهِ، يتصرَّفُون في تلك العَينِ بإنباعِها وإجرائِها حيث شاؤُوا!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى الأسبابَ الَّتي أوصلَتِ الشَّاكرينَ إلى هذا النَّعيمِ، ويذكُرُ جملةً مِن أعمالِهم، فيقولُ: أولئك الأبرارُ كانوا يُوفُونَ في الدُّنيا بنُذورِهم، ويَخافُونَ يومَ القيامةِ ذا الشَّرِّ المنتَشِرِ، ويُطْعِمونَ الطَّعامَ -مع محَبَّتِهم إيَّاه- المِسكينَ، واليتيمَ، والأسيرَ، قائلينَ: إنَّما نُطعِمُكم لوَجْهِ اللهِ تعالى، ورجاءَ رِضاه وثَوابِه، لا نَطلُبُ منكم مُكافأةً على ذلك، ولا شُكْرًا، إنَّا نَخافُ مِن رَبِّنا يومَ القيامةِ ذا الأهوالِ العظيمةِ، والضِّيقِ والشِّدَّةِ، فدَفَع اللهُ عنهم شرَّ ذلك اليَومِ، وأعطاهم حُسْنًا في وُجوهِهم، وفَرَحًا في قُلوبِهم، وجَزاهم اللهُ تعالى بسَبَبِ صَبْرِهم جَنَّةً وحريرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

(١) يُنظَر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَسَّمَهم اللهُ تعالى إلى القِسمَينِ؛ ذكَرَ جزاءَ كُلِّ قِسمٍ[١].

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

أي: إنَّا هَيَّأْنا للكافِرينَ سلاسِلَ يُقادُونَ أو يُوثَقونَ بها، وقُيودًا في أعناقِهم، ونارًا حاميةً تتوقَّدُ ويَشتَدُّ التِهابُها[٢].

قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هو شُروعٌ في بيانِ حُسنِ حالِ الشَّاكرينَ، إثرَ بَيانِ سُوءِ حالِ الكافرينَ[٣]، فلَمَّا أوجز اللهُ تعالى في جزاءِ الكافِرِ؛ أتْبَعَه جزاءَ الشَّاكِرِ وأطنَبَ فيه؛ تأكيدًا للتَّرغيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧).

قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: إنَّ الأغلالَ لم تُجعَلْ في أعناقِ أهلِ النَّارِ لأنَّهم أعجَزوا الرَّبَّ سُبحانَه، ولكِنْ إذلالًا). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٤).

قيل: الأغلالُ تكونُ بجَمْعِ الأيدي إلى الأعناقِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥﴾.

أي: إنَّ الطَّائِعينَ الصَّادِقينَ الَّذين يَسعَونَ في أعمالِ البِرِّ والخَيرِ يَشرَبونَ مِن كأسٍ[1] مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافورِ[2].

(١) قال الزَّجَّاجُ: (الكأسُ في اللُّغةِ: الإناءُ إذا كان فيه الشَّرابُ، فإذا لم يكُنْ فيه الشَّرابُ لم يُسَمَّ كأسًا). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٥٨).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿مِن كَأْسٍ﴾ أي: مِن إناءٍ فيه شرابٌ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن عادل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ١٦).

وقيل: المرادُ بالكأسِ هنا: الخَمرُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبي، والماوَرْدي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨١).

قال جلال الدين المحلي: (المرادُ: مِن خَمرٍ، تسميةً للحالِّ باسمِ المَحَلِّ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨١).

وقال الماوَرْدي: (قال الضَّحَّاكُ: كلُّ كأسٍ في القرآنِ فإنَّما عنى به الخمرَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١).

وقال أبو السعود: (﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ هي الزُّجاجةُ إذا كانت فيها خَمرٌ، وتُطلَقُ على نفْسِ الخَمرِ أيضًا؛ فـ «مِنْ» على الأوَّلِ ابتدائيَّةٌ، وعلى الثَّاني تبعيضيَّةٌ أو بيانيَّةٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال البغوي: (﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ يعني: المؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لربِّهم واحدُهم بارٌّ، مثل شاهدٍ وأشهادٍ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩). =

= وقال السعدي: (﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ وهم الَّذين بَرَّتْ قلوبُهم بما فيها مِن محبَّةِ الله ومعرفتِه، والأخلاقِ الجميلةِ، فبَرَّتْ جَوارِحُهم، واستعمَلوها بأعمالِ البِرِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن الجوزي: (﴿كَافُورًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه الكافورُ المعروفُ، قاله مجاهدٌ، ومقاتلٌ. فعلى هذا في المرادِ بالكافور ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: بَردُه، قاله الحسَنُ. والثَّاني: ريحُه، قاله قَتادةُ. والثَّالثُ: طَعمُه، قاله السُّدِّيُّ.

والثَّاني: أنَّه اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ، قاله عَطاءٌ، وابنُ السَّائب.

والثَّالثُ: أنَّ المعنى: مِزاجُها كالكافورِ؛ لِطيبِ ريحِه. وأجازه الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّه يُمزَجُ بالكافورِ لِبَردِه وعُذوبتِه وطِيبِ عَرْفِه: البيضاويُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال السعدي: (قد مُزِجَ بكافورٍ، أي: خُلِطَ به؛ لِيُبَرِّدَه ويَكسِرَ حِدَّتَه، وهذا الكافورُ في غايةِ اللَّذَّةِ والسَّلامةِ مِن كُلِّ مُكَدِّرٍ ومُنَغِّصٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

وقال ابن كثير: (وقد عُلِمَ ما في الكافورِ مِن التَّبريدِ والرَّائِحةِ الطَّيِّبةِ، معَ ما يُضافُ إلى ذلك مِن اللَّذاذةِ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ أنَّ مِزاجَ ما في الكأسِ مِن الشَّرابِ كالكافورِ في طِيبِ رائحتِه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٥).

وممَّن اختار أنَّ الكافورَ اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ: الزمخشريُّ، والنسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧، ٦٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

قال الزمخشري: (﴿مِزَاجُهَا﴾ ما تُمْزَجُ به ﴿كَافُورًا﴾ ماءَ كافُورٍ، وهو اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ ماؤُها في بَياضِ الكافُورِ ورائِحَتِه وبَرْدِه، و﴿عَيۡنًا﴾ بدَلٌ منه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧، ٦٦٨).

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾.

أي: هذا الكافورُ هو عَينٌ جاريةٌ يَرتَوي بها عِبادُ اللهِ[1].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

أي: يتصرَّفُ عِبادُ اللهِ في عَينِ الشَّرابِ بإنباعِها وإجرائِها حيث شاؤُوا[2]!

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جزاءَ الأبرارِ على بِرِّهم المُبَيِّنِ لِشُكرِهم؛ أتْبَعَه تَفصيلَه[3].

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

أي: أولئك الأبرارُ يُوفُونَ في الدُّنيا بنُذورِهم الَّتي نَذَروها طاعةً للهِ، فألزَموا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (و﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ هنا خصوصٌ في المؤمنينَ النَّاعمينَ؛ لأنَّ جميعَ الخَلقِ عِبادُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٩، ٤١٠).

وذهب ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كَثيرٍ إلى أنَّ ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ هنا عائدةٌ على المقرَّبينَ، والمعنى: أنَّ الأبرارَ يَشرَبونَ مِن كأسٍ مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافُور، وأمَّا المقرَّبونَ فإنَّهم يَشرَبونَ شَرابًا صافِيًا بلا مَزْجٍ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧٨)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٧).

بها أنفُسَهم[١].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

أي: ويَخافُونَ يومَ القيامةِ الَّذي شرُّه في غايةِ الانتِشارِ والامتِدادِ[٢].

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن خاف شيئًا سعَى في الأمنِ منه بكُلِّ ما عَساه ينفَعُ فيه، وكان قد ذكَرَ تذرُّعَهم بالواجِبِ؛ أتْبَعَه المندوبَ؛ دَلالةً على أنَّهم لا رُكونَ لهم إلى الدُّنيا، ولا وُثوقَ بها، فقد جمَعوا إلى كرَمِ الطَّبعِ بالوفاءِ، ورِقَّةِ القَلبِ: شَرَفَ النَّفْسِ، بالانسلاخِ مِن الفاني، فقال[٣]:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)﴾.

أي: ويُطْعِمونَ الطَّعامَ -مع محَبَّتِهم إيَّاه، واشتِهائِهم له- ويُؤْثِرونَ به المِسكينَ، والصَّغيرَ الَّذي فَقَدَ أباه، والأسيرَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال السعدي: (﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: بما ألزَموا به أنفُسَهم لله مِن النُّذورِ والمعاهَداتِ، وإذا كانوا يُوفُونَ بالنَّذْرِ وهو لم يجِبْ عليهم إلَّا بإيجابِهم على أنفُسِهم، كان فِعْلُهم وقيامُهم بالفُروضِ الأصلِيَّةِ مِن بابِ أَوْلى وأَحْرى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١). ويُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٣-٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٨، ١٢٩)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

قال الماوَرْدي: (في الأسيرِ ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّه المسجونُ المُسلِمُ. قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: أنَّه العَبدُ. قاله عِكْرِمةُ. الثَّالثُ: أسيرُ المُشرِكينَ. قاله الحَسَنُ، وسَعيدُ بنُ جُبَيرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأسيرُ الكافرُ بيْن المسلِمينَ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابن أبي زَمَنِين، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٣٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بأنَّ الأسيرَ هنا المرادُ به المشركُ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٧١).

وذهب ابنُ جَريرٍ والثعلبيُّ إلى القَولِ الأوَّلِ والثَّالثِ، وهو أنَّه الحربيُّ مِن أهلِ دارِ الحَربِ يُؤخَذُ قَهْرًا بالغَلَبةِ، أو مِن أهلِ القِبلةِ يُؤخَذُ فيُحبَسُ بحَقٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالأسيرِ هنا: العبدُ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أمَّا الأسيرُ فإذ قد كانت السُّورةُ كُلُّها مَكِّيَّةً قبلَ عِزَّةِ المُسلِمينَ، فالمرادُ بالأسيرِ: العَبدُ مِن المسلِمينَ؛ إذ كان المشركونَ قد أجاعوا عَبيدَهم الَّذين أسلَموا، مِثلَ بلالٍ، وعَمَّارٍ وأمِّه، ورُبَّما سَيَّبوا بَعْضَهم إذا أضجَرَهم تعذيبُهم، وترَكوهم بلا نَفَقةٍ، والعبوديَّةُ تَنشَأُ مِن الأَسْرِ، فالعَبدُ أسيرٌ؛ ولذلك يُقالُ له العاني أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

وقال القرطبي: (عن عَطاءٍ قال: الأسيرُ مِن أهلِ القِبلةِ وغيرِهم. قلتُ: وكأنَّ هذا القولَ عامٌّ يجمَعُ جميعَ الأقوالِ، ويكونُ إطعامُ الأسيرِ المشركِ قُرْبةً إلى اللهِ تعالى، غَيْرَ أنَّه مِن صَدَقةِ التَّطَوُّعِ، فأمَّا المفروضةُ فلا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٩).

ممَّن ذهب مِن السَّلفِ إلى أنَّ هذه الآيةَ تَشملُ أهلَ القِبلةِ وغيرَهم: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ =

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يَقولُ الأبرارُ: إنَّما نُطعِمُكم طلَبًا لرضا اللهِ تعالى ورجاءَ ثَوابِه[(١)].

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

أي: لا نَطلُبُ منكم مُكافأةً على ذلك، ولا نَطلُبُ منكم شُكْرًا ولا ثَناءً عليه[(٢)].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

= عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩).

قال ابنُ جُزَي: (﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ عبارةٌ عن الإخلاصِ لله؛ ولذلك فسَّروه وأكَّدوه بقَولِهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٨).

وقال الزمخشري: (يجوزُ أن يكونَ قَولًا باللِّسانِ؛ مَنْعًا لهم عن المُجازاةِ بمِثْله أو بالشُّكْرِ؛ لأنَّ إحسانَهم مفعولٌ لِوَجهِ الله، فلا معنَى لمكافأةِ الخَلْقِ، وأن يكونَ قَولُهم لهم لُطفًا وتفقيهًا وتنبيهًا على ما يَنبغي أن يكونَ عليه مَن أخلَصَ لله... ويجوزُ أن يكونَ ذلك بيانًا وكَشْفًا عن اعتِقادِهم وصِحَّةِ نيَّتِهم، وإن لم يَقولوا شيئًا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّهم يقولونَ ذلك لهم؛ تأنيسًا لهم، ودَفعًا لانكِسارِ النَّفْسِ الحاصِلِ عندَ الإطعام، أي: ما نُطعِمُكم إلَّا استجابةً لِما أمَرَ اللهُ، فالمُطعِمُ لهم هو اللهُ... وعن مُجاهدٍ أنَّه قال: ما تكَلَّموا به، ولكِنْ عَلِمَه اللهُ فأثْنى به عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أنَّ الأبرارَ يُحسِنونَ إلى هؤلاء المحتاجِينَ، بيَّن أنَّ لهم فيه غرَضَين؛ أحدُهما: تحصيلُ رِضا اللهِ، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، والثَّاني: الاحترازُ مِن خَوفِ يومِ القيامةِ، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

أي: إنَّا نخافُ مِن رَبِّنا يومَ القيامةِ ذا الأهوالِ العظيمةِ، وذا الضِّيقِ والشِّدَّةِ[2].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَتعَوَّذُ مِن ضِيقِ المقامِ يومَ القيامةِ))[3].

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكَى عن الأبرارِ أنَّهم أتَوا بالطَّاعاتِ لغَرَضينِ: طَلَبِ رِضا الله، والخَوفِ مِن القيامةِ؛ بيَّنَ أنَّه أعطاهم هذينِ الغَرَضينِ؛ أمَّا الحِفظُ مِن هولِ القيامةِ فهو المرادُ بقَولِه: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾، وأمَّا طَلَبُ رِضا اللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ مقولٌ لِقَولٍ يقولونَه في نُفوسِهم، أو يَنطِقُ به بعضُهم مع بعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٦).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٧٦٦)، والنَّسائيُّ (٥٥٣٥)، وابنُ ماجه (١٣٥٦).

قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٧٦٦): (حَسَنٌ صحيحٌ). وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٧٦٦).

فأعطاهم بسَبَبِه نَضرةً في الوَجهِ، وسُرورًا في القَلْبِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان فِعلُ الأبرارِ هذا خالصًا لله؛ سَبَّب عنه جزاءَهم(٢).

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾.

أي: فدَفَع اللهُ عن الأبرارِ شرَّ يومِ القيامةِ(٣).

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

أي: وأعطاهم اللهُ حُسْنًا في وُجوهِهم، وفَرَحًا في قُلوبِهم(٤).

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن كثير: (﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوهِهم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: في قلوبِهم. قاله الحسنُ البصريُّ، وقتادةُ، وأبو العاليةِ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. وهذه كقولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وذلك أنَّ القلبَ إذا سُرَّ استنار الوجهُ، قال كعبُ بنُ مالكٍ في حديثِه الطَّويلِ: «وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهُه حتَّى كأنَّه قطعةُ قمرٍ» [البخاري «٤٤١٨» ومسلم «٢٧٦٩»]، وقالت عائشةُ: «دخَل عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسرورًا تبرقُ أساريرُ وجهِه...» الحديث. [البخاري «٦٧٧٠» ومسلم «١٤٥٩»]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩).

وقال الشوكاني: (﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أيْ: أعْطاهم -بَدَلَ العُبوسِ في الكفَّارِ- نَضْرَةً في الوُجوهِ، وسُرورًا في القلوبِ. قال الضَّحَّاكُ: «والنَّضْرَةُ: البياضُ والنَّقاءُ في وُجوهِهم». وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: «الحُسنُ والبَهاءُ»، وقيل: النَّضْرَةُ: أثرُ النِّعمةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (جَعَلَهم يَلْقَونَ نَضْرةً وسُرورًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨).

وقال سُبحانَه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾.

أي: وجَزاهم اللهُ تعالى بسَبَبِ صَبْرِهم جَنَّةً يَدخُلونَها، وحريرًا يَلْبَسُونَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ...﴾ فذكَرَ سُبْحانَه مِن أعمالِ الأبرارِ ما يُنَبِّهُ سامِعَه على جَمْعِهم لأعمالِ البرِّ كلِّها؛ فذكَرَ سُبحانَه وفاءَهم بالنَّذرِ، وخَوْفَهم مِن ربِّهم، وإطعامَهم الطَّعامَ على محبَّتِهم له، وإخلاصَهم لربِّهم في طاعتِهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فيه الحَثُّ على الوَفاءِ بالنَّذرِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فيه أنَّ مجامِعَ الطَّاعاتِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ: التَّعظيمُ لأمرِ اللهِ تعالى، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، والشَّفَقةُ على خَلْقِ اللهِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ذَكَر سُبحانَه الوَفاءَ بالنَّذْرِ، وهو أضعَفُ الواجباتِ؛ فإنَّ العبدَ هو الَّذي أوجَبَه على نفْسِه بالْتِزامِه، فهو دونَ ما أوجَبَه اللهُ سُبحانَه عليه، فإذا وَفَّى للهِ بأضعَفِ الواجِبَينِ الَّذي التَزَمَه هو، فهو بأنْ يُوَفِّيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٦).

بالواجبِ الأعظَمِ الَّذي أَوجَبَه اللهُ عليه: أَوْلَى وأَحْرَى، ومِن هاهنا قال مَن قال مِن المفَسِّرينَ: المقَرَّبونَ يُوفُونَ بطاعةِ اللهِ، ويَقومُونَ بحقِّه عليهم؛ وذلك أَنَّ العبدَ إذا نَذَرَ للهِ طاعةً فوَفَّى بها، فإنَّما يَفعلُ ذلك لكَونِها صارتْ حقًّا للهِ يجبُ الوفاءُ بها، وهذا موجودٌ في حُقوقِه كلِّها، فهي في ذلك سَواءٌ(١).

٥- أنَّ مَن تَعَبَّدَ للهِ خَوفًا فهو محمودٌ، وقد أَثنى اللهُ على مَن تَعَبَّدَ خَوفًا منه مِن العذابِ؛ قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وأثنى اللهُ تعالى على مَن تعَبَّدَ طَلَبًا؛ قال تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ مِن الصُّوفيَّةِ أو غيرِهم إلى أنَّ الأفضَلَ في التَّعبُّدِ أَلَّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه، وإنَّما يَعْبُدُ اللهَ لِذَاتِه فقط، يعني أنَّك إذا عَبَدْتَ اللهَ فلا تَقصِدْ فضْلَ اللهِ أو تحذَرْ عِقابَه، يقولون: اُعْبُدِ اللهَ للهِ! فيُقالُ لهم: لَسْتُم أكملَ حالًا مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، وقد ذَكَرَ اللهُ عنهم أنَّهم كانوا: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ولستُم أكملَ حالًا ممَّن أَثنى اللهُ عليهم مِن الأبرارِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ إلى أنْ قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ الَّذي يَعبُدُ اللهَ سُبحانَه لِيَنالَ فضْلَه ويَنجوَ مِن عِقابِه: هو يريدُ الوُصولَ إلى رضوانِ اللهِ وإلى رُؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ مِن جملةِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ رؤيةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٦٨).

﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أنَّ حُبَّ المساكينِ مُستَلزِمٌ لإخلاصِ العَمَلِ للهِ تعالى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ، الَّذي لا تَثبُتُ الأعمالُ إلَّا عليه؛ فإنَّ حُبَّ المساكينِ يَقتضي إسداءَ النَّفعِ إليهم بما يُمكِنُ مِن مَنافِعِ الدِّينِ والدُّنيا، فإذا حَصَل إسداءُ النَّفْعِ إليهم حُبًّا لهم، والإحسانُ إليهم، كان هذا العَمَلُ خالِصًا(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إخبارٌ منه سُبحانَه عنهم بإطعامِ الطَّعامِ على محبَّتِهم له، وذلك يدُلُّ على نَفاسَتِه عِندَهم، وحاجتِهم إليه، وما كان كذلك فالنُّفوسُ به أَشَحُّ، والقُلوبُ به أَعْلَقُ، واليدُ له أَمْسَكُ، فإذا بَذَلُوه في هذه الحالِ فَهُم لِمَا سِواه مِن حُقوقِ العِبادِ أبْذَلُ؛ فذَكَر مِن حقوقِ العِبادِ بَذْلَ قُوتِ النَّفْسِ على نفاسَتِه وشِدَّةِ الحاجةِ، مُنَبِّهًا على الوَفاءِ بما دُونَه، كما ذَكَر مِن حُقوقِه الوَفاءَ بالنَّذْرِ مُنَبِّهًا على الوَفاءِ بما هو فوقَه وأَوْجَبُ منه، ونَبَّهَ بقَولِه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أنَّه لولا أنَّ اللهَ سُبحانَه أَحَبُّ إليهم منه لَمَا آثَرُوه على ما يُحِبُّونَه، فآثَرُوا المحبوبَ الأعلَى على الأدنَى(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فيه أنَّهم يتحَرَّونَ في إطعامِهم أَولى النَّاسِ وأحوجَهم(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أنَّ الإخلاصَ في الصَّدَقةِ ألَّا يَسْأَلَ عِوَضَها دُعاءً مِن المُعطَى، ولا يَرجوَ بَرَكتَه وخاطِرَه ولا غيرَ ذلك مِن الأقوالِ(٤)، ومَن طَلَبَ مِن الفقراءِ الدُّعاءَ أو الثَّناءَ خَرَجَ مِن هذه الآيةِ؛ فإنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن أتى إليكم مَعروفًا فكافِئُوه، فإنْ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٤) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٤/ ١٠٩).

لَمْ تَجِدُوا فادْعُوا له حتَّى تَعْلَموا أنَّكم قد كافَأْتُموه))[١]؛ ولهذا كانت عائشةُ إذا أَرسَلَتْ إلى قومٍ بهَدِيَّةٍ تقولُ للرَّسولِ: (اسمَعْ ما دَعَوا به لنا؛ حتَّى نَدْعُوَ لهم بمِثْلِ ما دَعَوْا، ويَبْقى أَجْرُنا على اللهِ)[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، أي: بسَبَبِ ما أوجَدوه مِنَ الصَّبرِ على العبادةِ؛ مِن لُزومِ الطَّاعةِ، واجتنابِ المعصيةِ، ومَنْعِ أنفُسِهم الطَّيِّباتِ، وبَذْلِ المحبوباتِ[٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ لَمْ يَذْكُرِ اللهُ عزَّ وجلَّ في الكافِرين وعذابِهم إلَّا قليلًا بالنِّسبةِ للأبرارِ، والسَّببُ أنَّه قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فقط، ولَمْ يَقُلْ شيئًا مِن أعمالِهم؛ فكان الجزاءُ مختصَرًا: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾، وذَكَرَ الأبرارَ، وأطالَ في ذِكْرِ ما لَهم مِن نعيمٍ؛ لأنَّه ذَكَرَ عِدَّةَ أعمالٍ مِن أعمالِهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ

(١) أخرجه أبو داودَ (٥١٠٩) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (٢٥٦٧)، وأحمدُ (٦١٠٦) من حديث ابنِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما.
صحَّحه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (١٧٢٣)، وابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٥٠)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٠٩).
وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٧٣) وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٢٣٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٢٦٧)، وقال الحاكمُ وشعيبٌ الأرناؤوط: (على شرط الشَّيخَين).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١١١).
ويُنظر في الأثرِ المذكورِ عن عائشةَ رضيَ الله عنها ما أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٦٢)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((الكلم الطيب)) (٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٢).

ﵟٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗاﵞ، فلَمَّا أطالَ في ذِكْرِ أعمالِهم وأوصافِهم أطالَ في ذِكْرِ جزائِهم -بخِلافِ الكافِرين-، وهذا بلا شكٍّ مِن بلاغةِ القرآنِ الكريمِ[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﵟإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًاﵞ احْتُجَّ به على أنَّ الجَحيمَ بسَلاسِلِها وأغلالِها مخلوقةٌ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﵟأَعۡتَدۡنَاﵞ إخبارٌ عن الماضي[2].

٣- قَولُه تعالى: ﵟإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًاﵞ استُدِلَّ به على أنَّ المؤمِنَ وإنْ دَخَل النَّارَ بعصيانِه وجُرْمِه، وأُحْرِقَ في النَّارِ بقَدْرِ جنايتِه؛ لَمْ يُغَلَّ، ولَمْ يُجْعَلْ في السَّلاسِلِ حتَّى يُعْتِقَه اللهُ برحمتِه، ويَذَرَ الكافِرَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ والسَّعيرِ الَّذي يَسْتَعِرُ عليه، كُلَّما نَضِجَ له جِلدٌ اسْتَعَرَ على الجِلْدِ الَّذي يُبَدَّلُ له، خالِدًا مُخَلَّدًا[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﵟإِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًاﵞ فيه سؤالٌ: أنَّ مَزجَ الكافورِ بالمشروبِ لا يكونُ لذيذًا، فما السَّبَبُ في ذِكْرِه هاهنا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ الكافورَ اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ، ماؤُها في بياضِ الكافورِ ورائحتِه وبَرْدِه، ولكِنْ لا يكونُ فيه طَعْمُه ولا مضَرَّتُه، فالمعنى أنَّ ذلك الشَّرابَ يكونُ ممزوجًا بماءِ هذه العَينِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ رائحةَ الكافورِ عَرَضٌ، فلا يكونُ إلا في جِسمٍ، فإذا خَلَق اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٩).

تلك الرَّائحةَ في جِرْمِ ذلك الشَّرابِ، سُمِّيَ ذلك الجِسمُ كافورًا، وإن كان طَعمُه طيِّبًا.

الوَجهُ الثَّالثُ: لا بأسَ في أن يَخلُقَ اللهُ تعالى الكافورَ في الجنَّةِ، لكِنْ مِن طَعمٍ طَيِّبٍ لذيذٍ، ويَسلُبَ عنه ما فيه مِن المضَرَّةِ، ثمَّ إنَّه تعالى يمزُجُه بذلك المشروبِ، كما أنَّه تعالى سلَبَ عن جميعِ المأكولاتِ والمشروباتِ ما معها في الدُّنيا مِن المَضارِّ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الوَفاءِ بالنَّذْرِ؛ لأنَّه تعالى عقَّبه بـ (يَخافُونَ يَوْمًا)، وهذا يَقْتَضي أنَّهم إنَّما وفَّوْا بالنَّذْرِ خوفًا مِن شَرِّ ذلك اليومِ، والخَوفُ مِن شَرِّ ذلك اليومِ لا يَتحَقَّقُ إلَّا إذا كان الوفاءُ به واجِبًا(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ فيه إشعارٌ بحُسنِ عَقيدتِهم، واجتنابِهم عن المَعاصي(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ فيه سؤالٌ: أحوالُ القيامةِ وأهوالُها كُلُّها فِعلُ اللهِ، وكُلُّ ما كان فِعلًا لله فهو يكونُ حِكمةً وصَوابًا، وما كان كذلك لا يكونُ شَرًّا، فكيف وصَفَها اللهُ تعالى بأنَّها شَرٌّ؟

الجوابُ: أنَّها إنَّما سُمِّيَت شَرًّا؛ لِكَونِها مضَرَّةً بمَن تَنزِلُ عليه، وصعبةً عليه، كما تُسمَّى الأمراضُ وسائرُ الأمورِ المكروهةِ شُرورًا(٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يُمكِنُ أن يُقالَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٥).

شَرُّ ذلك اليَوم مُستَطيرٌ مُنتَشِرٌ، مع أنَّه تعالى قال في صِفةِ أوليائِه: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؟

الجوابُ مِن وَجهَين:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ هَولَ القيامةِ شَديدٌ؛ فالسَّمَواتُ تَنشَقُّ وتَنفَطِرُ وتَصيرُ كالمُهْلِ، وتتناثَرُ الكواكِبُ، وتتكوَّرُ الشَّمسُ والقَمَرُ، وتَفزَعُ الملائكةُ، وتُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ، وتُنسَفُ الجِبالُ، وتُسْجَرُ البِحارُ، وهذا الهَولُ عامٌّ يَصِلُ إلى كُلِّ المكَلَّفِينَ، على ما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج: ٢]، وقال: ﴿يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، إلَّا أنَّه تعالى بفَضْلِه، يؤمِّنُ أولياءَه مِن ذلك الفَزَعِ.

الوَجهُ الثَّاني: أن يكونَ المرادُ أنَّ شَرَّ ذلك اليومِ يكونُ مُستطيرًا في العُصاةِ والفُجَّارِ، وأمَّا المؤمنونَ فهم آمِنونَ، كما قال: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، إلَّا أنَّ أهلَ العِقابِ في غايةِ الكَثْرةِ بالنِّسبةِ إلى أهلِ الثَّوابِ؛ فأُجرِيَ الغالبُ مجرى الكُلِّ[١].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ الأسارى من المشرِكين يجِبُ إطعامُهم إلى أن يَرى الإمامُ رأيَه فيهم؛ مِن قَتلٍ أو غيرِ ذلك فإن قيل: لَمَّا وَجَب قَتْلُه، فكيف يَجِبُ إطعامُه؟

الجوابُ: القَتلُ في حالٍ لا يَمنَعُ مِن الإطعامِ في حالٍ أُخرى، ولا يَجبُ إذا عوقِبَ بوَجهٍ أن يُعاقَبَ بوَجهٍ آخَرَ؛ ولذلك لا يَحسُنُ فيمَن يَلزَمُه القِصاصُ أن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٥، ٧٤٦).

يُفعَلَ به ما هو دونَ القَتْلِ[١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الأسيرِ.

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أنَّ إطعامَ الطَّعامِ هو مِن الأسبابِ المُوجبةِ للجَنَّةِ ونَعيمِها[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أنَّ مَن خافه في الدُّنيا، وأخَذ أُهْبَتَه مِن طاعةِ ربِّه؛ أمَّنَه من أهوالِه، ووقَاه أفزاعَه، وكذا قال في سُورةِ (النَّملِ): ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[٣] [النمل: ٨٩].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أنَّ الجَنَّاتِ فيها النَّعيمُ المطلَقُ الَّذي يَشملُ نَعيمَ البَدَنِ ونعيمَ الرُّوحِ؛ قال العلماءُ: («النَّضْرةُ» في الوَجهِ، و«السُّرورُ» في القَلْبِ)[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ جُمِعَ لهم بيْن النَّضْرةِ والسُّرورِ، وهذا جمالُ ظواهِرِهم، وهذا حالُ بواطِنِهم، كما جَمَّلُوا في الدُّنيا ظواهِرَهم بشَرائعِ الإسلامِ، وبواطِنَهم بحقائقِ الإيمانِ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أنَّ مَن ضَيَّقَ على نفْسِه في مُخالَفةِ الهوى، فإنَّه يُوَسَّعُ عليها في قَبْرِه ومَعادِه، فلمَّا كان في الصَّبرِ -الَّذي هو حَبْسُ النَّفْسِ عن الهوى- خشونةٌ وتضييقٌ، جازاهم على ذلك نُعومةَ الحريرِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٨٥).

وسَعَةَ الجَنَّة[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ لَمَّا ذُكِر الفريقانِ الشَّاكر والكَفور في قولِه تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] أُريدَ التَّخلُّصُ إلى جزائِهما، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] يُثيرُ تَطلُّعَ السَّامِعِ إلى مَعرفةِ آثارِ هذَينِ الحالَينِ المُتردِّدِ حالُه بيْنَهما[٢].

- وابتُدِئَ بجَزاءِ الكافرِ؛ لأنَّ ذِكرَه أقرَبُ[٣]. أو قُدِّمَ وَعيدُ الكافِرينَ وقد تَأخَّرَ ذِكرُهم؛ لأنَّ الإنذارَ أهَمُّ وأنفَعُ، وتَصديرُ الكلامِ وختْمُه بذِكرِ المؤمنينَ أحسَنُ، على أنَّ في وَصْفِهم تَفصيلًا رُبَّما يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[٤]. أو قُدِّم؛ لأنَّ طريقَ النَّشرِ المُشَوَّشِ[٥] أفصَحُ، ولِيُعادلَ البُداءةَ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحد، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّد- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. =

بالشَّاكرِ في أصلِ التَّقسيمِ، لِيَتعادلَ الخَوفُ والرَّجاءُ، وليكونَ الشاكرُ أوَّلًا وآخِرًا، ولأنَّ الانقيادَ بالوعيدِ أتمُّ؛ لأنَّه أدَلُّ على القدرةِ، لا سيَّما في حقِّ أهلِ الجاهليَّةِ الَّذين بعدَتْ عنهم معرفةُ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ[١].

- وأُكِّدَ الخبَرُ عن الوَعيدِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لإدخالِ الرَّوعِ عليهم؛ لأنَّ المُتوعِّدَ إذا أكَّدَ كَلامَه بمُؤكِّدٍ فقدْ آذَنَ بأنَّه لا هَوادةَ له في وَعيدِه[٢].

- وقدَّمَ الأسهَلَ في العذابِ فالأسهَلَ؛ تَرَقِّيًا[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾

- هو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الاستِئنافِ الَّذي قبْلَه مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا

= واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤]؛ فإنَّ مَن عرَفَ ما أُعِدَّ للكَفورِ مِن الجزاءِ، يَتطلَّعُ إلى مَعرفةِ ما أُعِدَّ للشَّاكرِ مِن الثَّوابِ، وأُخِّرَ تَفصيلُه عن تَفصيلِ جَزاءِ الكَفورِ، مع أنَّ ﴿شَاكِرٗا ﴾ [الإنسان: ٣] مَذكورٌ قبْلَ ﴿ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[١]؛ ليتَّسِعَ المجالُ لإطنابِ الكلامِ على صِفةِ جَزاءِ الشَّاكرينَ وما فيه مِن الخَيرِ والكرامةِ، تَقريبًا للمَوصوفِ مِن المُشاهَدةِ المحسوسةِ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ عن جَزاءِ الشاكرينَ بـ(إنَّ)؛ لدَفْعِ إنكارِ المشرِكين أنْ يكونَ المؤمنونَ خيرًا منهم في عالَمِ الخُلودِ، ولإفادةِ الاهتمامِ بهذه البِشارةِ بالنِّسبةِ إلى المؤمنينَ[٣].

- والأبرارُ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ ...﴾ همُ الشَّاكِرون، وإيرادُ الشَّاكرينَ بعُنوانِ البِرِّ؛ للإشعارِ بما استحَقُّوا به ما نالُوه مِن الكَرامةِ السَّنيَّةِ، وزِيادةً في الثَّناءِ عليهم[٤].

- ووَصْفُ (بَرٍّ) أقْوى مِن بارٍّ في الاتِّصافِ بالبِرِّ؛ ولذلك يُقال: اللهُ بَرٌّ، ولم يُقَلْ: اللهُ بارٌّ[٥].

- والكأسُ بالهَمزةِ: الإناءُ المَجعولُ للخمْرِ، فلا يُسمَّى كأسًا إلَّا إذا كان فيه خَمرٌ، فيَجوزُ أنْ يُرادَ هنا آنيةُ الخمْرِ؛ فتكونَ (مِن) للابتداءِ، وإفرادُ كأسٍ للنَّوعيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تُرادَ الخمرُ، فتكونَ (مِن) للتَّبعيضِ، وعلى التَّقديرينِ

(١) تقدَّم تعريفُه قريبًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٠).

فكأسٌ مُرادٌ به الجنسُ، وتَنوينُه لتَعظيمِه في نَوعِه[١].

- وابتُدِئَ في وَصْفِ نَعيمِهم بنَعيمِ لذَّةِ الشُّربِ مِن خَمْرِ الجنَّةِ؛ لِما لِلَذَّةِ الخَمْرِ مِن الاشتِهارِ بيْنَ الناسِ، وكانوا يَتنافَسون في تَحصيلِها[٢].

- والمِزاجُ قيل: إنَّه هنا مُرادٌ به الماءُ، والإخبارُ عنه بأنَّه كافورٌ مِن قَبيلِ التَّشبيهِ البَليغِ، أي: في اللَّونِ، أو ذَكاءِ الرَّائحةِ[٣].

- وإقحامُ فِعلِ (كان) في جُملةِ الصِّفةِ بقولِه: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾؛ لإفادةِ أنَّ ذلك مِزاجُها لا يُفارِقُها؛ إذ كان مُعتادُ النَّاسِ في الدُّنيا نُدرةَ ذلك المِزاجِ؛ لغَلاءِ ثَمَنِه، وقِلَّةِ وِجْدانِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

- قولُه: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وُصِلَ فِعلُ الشُّربِ بحرْفِ الابتداءِ (مِن) أوَّلًا، وبحرْفِ الإلصاقِ -الباء- آخِرًا؛ لأنَّ الكأسَ مَبدَأُ شُربِهم وأوَّلُ غايتِه، وأمَّا العينُ فبها يَمزُجونَ شَرابَهم، فكان المعْنى: يَشرَبُ عِبادُ اللهِ بها الخمْرَ، كما تقولُ: شَرِبْت الماءَ بالعسَلِ، أو ضُمِّن ﴿يَشْرَبُ﴾ معْنى (يَروى) فعُدِّيَ بالباءِ، وإذا قلتَ: «يَرْوى بها» فقد تَضَمَّنَ معنى «يَشْرَبُ» وزيادةً. وقيل: الباءُ زائدةٌ، والمعْنى يَشرَبُها. وقيل: الباءُ بمعْنى (مِن) التَّبعيضيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٨)، ((إعراب =

- و﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ مُرادٌ بهم: الأبرارُ، وهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّنويهِ بهم بإضافةِ عُبوديَّتِهم إلى اللهِ تعالَى إضافةَ تَشريفٍ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] إلخ، وبيْنَ جُملةِ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٥] إلخ، وهذا الاعتراضُ استئنافٌ بَيانيٌّ هو جَوابٌ عن سُؤالٍ مِن شأْنِ الكلامِ السَّابقِ أنْ يُثيرَه في نفْسِ السَّامعِ المُغتبِطِ بأنْ يَنالَ مِثلَ ما نالوا مِن النَّعيمِ والكَرامةِ في الآخرةِ، فيَهتَمَّ بأنْ يَفعَلَ مِثلَ ما فَعَلوا، فذُكِرَ بَعضُ أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي هي مِن آثارِ الإيمانِ، مع التَّعريضِ لهم بالاستزادةِ منها في الدُّنيا(٢).

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُوفُونَ﴾؛ للاستحضارِ، والدَّلالةِ على الاستمرارِ، وعلى تَجدُّدِ وَفائِهم بما عَقَدوا عليه ضَمائرَهم مِن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ(٣).

- والوفاءُ بالنَّذرِ مُبالَغةٌ في وَصْفِهم بالتَّوفُّرِ على أداءِ الواجِباتِ؛ لأنَّ مَن وفَّى بما أوجَبَه هو على نفْسِه لوجْهِ اللهِ، كان بما أوجَبَه اللهُ عليه أَوفَى(٤).

- والتَّعريفُ في (النَّذر) تَعريفُ الجِنسِ؛ فهو يَعُمُّ كلَّ نَذْرٍ(٥).

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٦).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِلِ الإعرابِ (ص: ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

- وعُطِفَ على ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ قولُه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾؛ لأنَّهم لَمَّا وُصِفوا بالعمَلِ بما يَنذِرونَه أُتبِعَ ذلك بذِكرِ حُسنِ نيَّتِهم، وتَحقُّقِ إخلاصِهم في أعمالِهم؛ لأنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ، فجَمَع لهم بهذا صِحَّةَ الاعتِقادِ، وحُسْنَ الأعمالِ(١).

- وصِيغةُ (يَخافون) دالَّةٌ على تَجدُّدِ خَوفِهم شرَّ ذلك اليومِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ وُصِفَ اليومُ بأنَّ له شرًّا مُستطيرًا وَصْفًا مُشعِرًا بعِلَّةِ خَوفِهم إيَّاهُ، فالمعْنى: أنَّهم يَخافون شرَّ ذلك اليومِ، فيَتجنَّبونَ ما يُفْضي بهم إلى شَرِّه مِن الأعمالِ المُتوعَّدِ عليها بالعِقابِ(٣).

- قولُه: ﴿مُسْتَطِيرًا﴾، أي: فاشيًا مُنتشِرًا بالغًا أقْصى المَبالغِ، والسِّينُ والتَّاءُ في (استطارَ) للمُبالَغةِ(٤).

- وذِكرُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الخبَرِ مِن المُخبَرِ عنه، وإلَّا فإنَّ شرَّ ذلك اليومِ ليس واقعًا في الماضي، وإنَّما يقَعُ بعْدَ مُستقبَلٍ بَعيدٍ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ ذلك مِن التَّعبيرِ عن المُستقبَلِ بلَفظِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِه(٥).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

- قولُه: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ خصَّصَ الإطعامَ بالذِّكرِ؛ لِما في إطعامِ المُحتاجِ مِن إيثارِه على النَّفْسِ، كما أفادَ قولُه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[١].

- والتَّصريحُ بلَفظِ الطَّعامِ معَ أنَّه مَعلومٌ مِن فِعلِ (يُطْعِمُونَ) توطئةٌ؛ ليُبْنى عليه الحالُ، وهو ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ فإنَّه لو قِيل: (ويُطعِمون مِسكينًا ويَتيمًا وأسيرًا) لَفات ما في قولِه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ مِن معْنى إيثارِ المَحاويجِ على النَّفْسِ، على أنَّ ذِكرَ الطَّعامِ بعْدَ (يُطْعِمُونَ) يُفيدُ تأكيدًا، مع استِحضارِ هَيئةِ الإطعامِ، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُشاهِدُ الهَيئةَ[٢].

- قولُه: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ خصَّ هؤلاء الثَّلاثة بالذِّكرِ؛ لأنَّ المِسكينَ عاجزٌ عن اكتِسابِ قُوتِه بنفْسِه، واليتيمَ مات أبوه، وبقِيَ عاجزًا عن الكسْبِ لصِغرِه، والأسيرَ لا يَملِكُ لنفْسِه ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا نَصرًا ولا حِيلةً[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: يَقولون لهم، أي: للَّذين يُطعِمونهم، فهو في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ (يُطْعِمُونَ)، وجُملةُ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ مُبيِّنةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾[٤]. أو جُملةُ ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ تَعليلٌ لبَيانِ سَببِ الإطعامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٣).

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ قلْبٍ[١] مَبنيٌّ على تَنزيلِ المُطعَمِينَ مَنزِلةَ مَن يظُنُّ أنَّ مَن أطعَمَهم يَمُنُّ عليهم، ويُريدُ منهم الجزاءَ والشُّكرَ، بِناءً على المُتعارَفِ عندَهم في الجاهليَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ تقريرٌ وتأكيدٌ لِما قبْلَه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ واقعٌ مَوقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٤] [الإنسان: ٩]. وهو حالٌ مِن ضَميرِ (يَخافُونَ) [الإنسان: ٧]، أي: يَخافون ذلك اليومَ في نُفوسِهم قائِلينَ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، فحُكِيَ قولُهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، وقولُهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ ...﴾ إلخ، على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[٥]، والدَّاعي إلى عكْسِ النَّشرِ مُراعاةُ حُسنِ تَنسيقِ النَّظمِ؛ ليكونَ الانتقالُ مِن ذِكرِ الإطعامِ إلى ما يَقولونَه للمُطعَمينَ، والانتقالُ مِن ذِكرِ خَوفِ يومِ الحِسابِ إلى بِشارتِهم بوِقايةِ اللهِ إيَّاهم مِن شَرِّ ذلك اليومِ وما يَلْقَونه فيه مِن النَّضرةِ والسُّرورِ والنَّعيمِ[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٤).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٦).

- قولُه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ إلى ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧- ١٠]، وفي هذا التَّفريعِ تَلوينٌ للحديثِ عن جَزاءِ الأبرارِ وأهلِ الشُّكورِ، وهذا بَرزخٌ للتَّخلُّصِ إلى عَودِ الكلامِ على حُسنِ جَزائِهم أنَّ اللهَ وَقاهُم شَرَّ ذلك اليوم، وهو الشَّرُّ المُستطيرُ المذكورُ آنِفًا؛ وَقاهَم إيَّاهُ جَزاءً على خَوفِهم إيَّاهُ، وأنَّه لَقَّاهم نَضرةً وسُرورًا جَزاءً على ما فَعَلوا مِن خَيرٍ. وأُدمِجَ في ذلك قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ الجامعُ لأحوالِ التَّقوى والعملِ الصَّالحِ كلِّه؛ لأنَّ جَميعَه لا يَخْلو عن تَحمُّلِ النَّفْسِ لتَرْكِ مَحبوبٍ، أو فِعلِ ما فيه كُلفةٌ، ومِن ذلك إطعامُ الطَّعامِ على حُبِّه(١).

- والفاءُ في ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ عاطفةٌ لبَيانِ السَّببِ، أي: فَبِسَبَبِ خَوفِهم وَقاهُم اللهُ، أي: دفَعَ عنهم شرَّ ذلك اليومِ ووَطْأتَه(٢).

- قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ لعَلَّ اللهَ إنَّما خَصَّ الحريرَ؛ لأنَّه لِباسُهم الظَّاهِرُ الدَّالُّ على حالِ صاحِبِه(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٧، ٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

الآيات (١٢-١٨)

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا
تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾.

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿ ٱلْأَرَآئِكِ ﴾: جمعُ أريكةٍ، وهي السَّريرُ في الحِجَالِ، وتسميتُها بذلك إمَّا لِكَونِها في الأرضِ مُتَّخَذةً مِن أراكٍ، وهو شجرةٌ، أو لِكَونِها مكانًا للإقامةِ، مِن قَولِهم: أَرَكَ بالمكان أُرُوكًا، وأصلُ الأُرُوكِ: الإقامةُ على رعْيِ الأَراكِ، ثمَّ تُجُوِّزَ به في غيرِه مِن الإقاماتِ، و(أرك) أصْلانِ: أحدُهما شَجَرٌ، والآخَرُ الإقامةُ[1].

﴿ زَمْهَرِيرًا ﴾: أي: بَردًا شديدًا[2].

﴿ وَدَانِيَةً ﴾: أي: قَريبةً، وأصل الدُّنُوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكْمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمَنزِلةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).
قال ابن عاشور: (الأريكةُ: سريرٌ عليه وِسادةٌ، معها سَتْرٌ وهو حَجَلَتُه، والحَجَلةُ: ظُلَّةٌ تُنصَبُ فوقَ السَّريرِ لِتَقيَ الحَرَّ والشَّمسَ، ولا يُسَمَّى السَّريرُ أريكةً إلَّا إذا كان معه حَجَلةٌ. وقيل: كُلُّ ما يُتوسَّدُ ويُفترَشُ مِمَّا له حَشوٌ: يُسَمَّى أريكةً، وإنْ لم تكُنْ له حَجَلةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

﴿قُطُوفُهَا﴾: أي: ثِمارُها، جمعُ قِطْفٍ، وهو ما قُطِف مِن ثِمارِها، وقيل: القِطفُ: هو العُنقودُ مِن النَّخلِ والعنبِ، وأصلُ (قطف): يدُلُّ على أخْذِ ثَمَرةٍ مِن شَجَرةٍ[(١)].

﴿قَوَارِيرَا﴾: جَمعُ قارورةٍ، وهي: ما قَرَّ فيه الشَّرابُ ونَحوُه مِن كُلِّ إناءٍ رقيقٍ صافٍ كالزُّجاجِ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تمكُّنٍ[(٢)].

﴿قَدَّرُوهَا﴾: أي: أتوا بها على قَدرِ رِيِّهم، بغيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه[(٣)].

﴿سَلْسَبِيلًا﴾: السَّلْسَبيلُ: الشَّرابُ السَّهلُ اللَّذيذُ، يقالُ: هذا شرابٌ سَلِسٌ وسَلْسَالٌ وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيلٌ بمعنًى، أي: طيِّبُ الطَّعمِ، لذيذُه، سهلُ المساغِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٧-٥٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٤٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦١-٥٦٤)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨، ٤١٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٢)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٧٠).

قال ابن عاشور: (قيل: مشتقٌّ مِن السَّلاسةِ، وهي السهولةُ واللينُ، فيُقالُ: ماءٌ سلسلٌ، أي: عذبٌ باردٌ، قيل: زِيدَتْ فيه الباءُ والياءُ، أي: زيدتا في أصلِ الوضعِ على غيرِ قياسٍ... ومعنى ﴿تُسَمَّىٰ﴾ على هذا الوجهِ، أنها تُوصَفُ بهذا الوصفِ حتَّى صار كالعَلَمِ لها... ومِن المفسِّرينَ مَن جعَل التَّسميةَ على ظاهرِها، وجعَل ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ علمًا على هذه العينِ، وهو أنسبُ بقولِه تعالى: ﴿تُسَمَّىٰ﴾). =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مفصِّلًا نعيمَ أهلِ الجنَّةِ: مُتَّكِئينَ في راحةٍ ورَفاهيَةٍ على السُّررِ المُغَطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ، لا يَرونَ في الجنَّةِ شَمْسًا ولا بَرْدًا شَديدًا، وقَريبةً منهم ظِلالُ أشجارِ الجَنَّةِ، وسُهِّلَ لهم قَطْفُ ثمارِها تذليلًا، ويُطافُ عليهم بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ، وأكوابٍ صافيةٍ شفَّافةٍ كالزُّجاجِ، وتلك الأكوابُ مِن فِضَّةٍ، وقد قَدَّروا الأكوابَ على قَدْرِ كِفايتِهم، فلا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ عن ذلك، ويُسقَون فيها خَمْرًا ممزوجةً بزَنجبيلٍ، الزَّنجَبيلُ مِن عَينٍ تُسمَّى سَلْسَبيلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى طعامَهم ولِباسَهم؛ وصَفَ مَساكِنَهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه كفاهم المَخُوفَ، وحَبَاهم الجنَّةَ؛ أتْبَعَه حالَهم فيها وحالَها، فقال دالًّا على راحتِهم الدَّائِمةِ[(٢)]:

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾.

=((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

وقال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ هذه العينَ ﴿ تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ بمعنى تُوصَفُ بأنَّها سلسلةٌ في الاتساعِ، سهلةٌ في المذاقِ، ولا يُحمَلُ سلسبيل على أنَّه اسمٌ حقيقةً؛ لأنَّه إذ ذاك كان ممنوعَ الصَّرفِ؛ للتأنيثِ والعلميَّةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٢).

أي: مُتَّكِئينَ في راحةٍ وطُمَأنينةٍ ورَفاهيَةٍ على السُّررِ الَّتي أُرخِيَ عليها ما يَستُرُها ويُزَيِّنُها، فتَكونُ مُغطَّاةً بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣].

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾.

أي: لا يَرى الأبرارُ في الجنَّةِ شَمْسًا فيُؤذيَهم حَرُّها، ولا بَرْدًا شَديدًا[2].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اشتَكَت النَّارُ إلى رَبِّها، فقالت: يا رَبِّ، أكَلَ بَعْضي بَعْضًا، فأَذِنَ لها بنَفَسَينِ؛ نَفَسٌ في الشِّتاءِ، ونَفَسٌ في الصَّيفِ، فهو أشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الحَرِّ، وأشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الزَّمْهَريرِ))[3].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾.

أي: وقَريبةً منهم ظِلالُ أشجارِ الجَنَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن عاشور: (الاتِّكاءُ: جِلسةٌ بيْن الجُلوسِ والاضطجاعِ، يَستَنِدُ فيها الجالِسُ على مَرفِقِه وجَنْبِه، ويَمُدُّ رِجْليه، وهي جِلسةُ ارتياحٍ، وكانت مِن شِعارِ الملوكِ وأهلِ البَذخِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٦٠)، ومسلمٌ (٦١٧) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

قال القرطبيُّ: (قولُه تعالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أيْ: ظِلُّ الأشْجارِ في الجنَّةِ قَريبةٌ مِن الأبرارِ، =

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

أي: وسُهِّلَ لهم قَطْفُ ثمارِها كيفَ شاؤُوا قُعودًا وقِيامًا ومُتَّكِئينَ[1].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف طعامَهم ولِباسَهم ومَسْكَنَهم، وصَفَ بعد ذلك شَرابَهم، وقدَّمَ عليه وَصْفَ تلك الأواني الَّتي فيها يَشرَبونَ[2].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥﴾.

أي: ويُطافُ على هؤلاءِ الأبرارِ بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ، ويُطافُ عليهم بأكوابٍ عَظيمةٍ

= فهي مُظِلَّةٌ عليهم؛ زيادةً في نَعيمِهم، وإنْ كان لا شمسَ ولا قمرَ ثَمَّ، كما أنَّ أَمْشاطَهم الذَّهَبُ والفِضَّةُ، وإنْ كان لا وَسَخَ ولا شَعَثَ ثَمَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٨).

وقال الواحديُّ: (﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ قال مقاتلٌ: يعني: شجَرها قَرُبَتْ منهم). ((الوسيط)) (٤/ ٤٠٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٧).

قال ابن كثير: (﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: قريبةً إليهم أغصانُها). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

ويُنظر ما سيأتي (ص: ٣٦١، و٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

قال ابنُ جرير: (عن مجاهد: قولُه: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قال: إذا قام ارتفعَت بقَدْرِه، وإن قعَد تدلَّت حتَّى ينالَها، وإن اضطَجع تدلَّت حتَّى ينالَها، فذلك تَذليلُها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤).

وقال السعدي: (أي: قُرِّبَت ثَمَراتُها مِن مُريدِها تقريبًا، ينالُها وهو قائمٌ أو قاعِدٌ أو مُضْطَجِعٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

لا آذانَ لها ولا خَراطيمَ، صافيةٍ شفَّافةٍ كالزُّجاجِ[١].

﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦﴾.

﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾.

أي: تلك الأكوابُ الَّتي في صَفاءِ الزُّجاجِ وشَفافيَتِه هي مِن فِضَّةٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤-٥٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٣).

قيل: الضَّميرُ في ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ﴾ يعودُ إلى الأواني والأكوابِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٢٦).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الأكوابِ فقط. وممَّن ذهب إليه: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٦).

قال ابنُ جرير: (قَولُه: ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ﴾ يقولُ: كانت هذه الأواني والأكوابُ قواريرَ، فحَوَّلها اللهُ فِضَّةً. وقيل: إنَّما قيل: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ﴾؛ لِيَدُلَّ بذلك على أنَّ أرضَ الجنَّة فِضَّةٌ؛ لأنَّ كُلَّ آنيةٍ تُتَّخَذُ فإنَّما تُتَّخَذُ مِن تُربةِ الأرضِ الَّتي فيها، فدَلَّ جَلَّ ثناؤه بوَصْفِه الآنيةَ الَّتي يُطافُ بها على أهلِ الجنَّةِ أنَّها مِن فِضَّةٍ؛ لِيُعلِمَ عِبادَه أنَّ تُربةَ أرضِ الجنَّةِ فِضَّةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦).

وقال البِقاعي: (لَمَّا جَمَع الآنيةَ خَصَّ فقال: ﴿وَأَكۡوَابٖ﴾ جمعُ كُوبٍ، وهو كُوزٌ لا عُروةَ له، فيَسهُلُ الشُّربُ منه مِن كُلِّ مَوضِعٍ، فلا يحتاجُ عندَ التَّناوُلِ إلى إدارةٍ. ﴿كَانَتۡ﴾ أي: تلك الأكوابُ كَونًا هو مِن جِبِلَّتِها ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ أي: كانت بصِفةِ القواريرِ مِنَ الصَّفاءِ والرِّقَّة والشُّفوفِ، والإشراقِ والزَّهارةِ، جمعُ قارورةٍ، وهي: ما قَرَّ فيه الشَّرابُ ونَحْوُه مِن كُلِّ إناءٍ رقيقٍ صافٍ. وقيل: هو خاصٌّ بالزُّجاجِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ القيِّم: (القواريرُ هي الزُّجاجُ، فأخبَرَ سُبحانَه وتعالى عن مادَّةِ تلك الآنيةِ أنَّها مِن الفِضَّةِ، =

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

أي: قَدَّروا[1] الأكوابَ على قَدْرِ كِفايتِهم، فلا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ عن ذلك[2]!

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَف أوانيَ مَشروبِهم؛ ذكَرَ بعدَ ذلك وَصْفَ مَشروبِهم[3]، فأتْبَعَ وَصْفَ الآنيةِ ومحاسِنِها، بوَصفِ الشَّرابِ الَّذي يحويه وطِيبِه[4].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧﴾.

= وأنَّها بصَفاءِ الزُّجاجِ وشَفافيتِه، وهذا من أحسَنِ الأشياءِ وأعجَبِها، وقَطَع سُبحانَه توَهُّمَ كَونِ تلك القواريرِ مِن زُجاجٍ، فقال: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾، قال مجاهِدٌ، وقَتادةُ، ومُقاتِلٌ، والكَلْبيُّ، والشَّعْبيُّ: قواريرُ الجنَّةِ مِن الفِضَّةِ، فاجتَمَع لها بياضُ الفِضَّةِ، وصَفاءُ القواريرِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٩٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣).

قال السعدي: (وهذا مِن أعجَبِ الأشياءِ؛ أن تكونَ الفِضَّةُ الكثيفةُ مِن صَفاءِ جَوهرِها وطِيبِ مَعدِنِها على صفاءِ القواريرِ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وهذا ممَّا لا نظيرَ له في الدُّنيا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(١) قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ للملائكةِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ للطَّائِفينَ، ويحتَمِلُ أن يكون للمُنعَّمينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٢). ويُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤، ١٩٥).

وقال السعدي: (ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ: قَدَّرَها أهلُ الجنَّةِ بنُفوسِهم بمقدارٍ يُوافِقُ لَذَّاتِهم، فأتَتْهم على ما قَدَّروا في خواطِرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٧، ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤).

أي: ويُسقَى الأبرارُ فيها[١] كأسَ خَمْرٍ ممزوجةٍ بزَنجبيلٍ[٢]!

﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨﴾.

أي: الزَّنجَبيلُ مِن عَينٍ تُسمَّى سَلْسَبيلًا[٣].

---

(١) قال البِقاعي: (﴿فِيهَا﴾ أي: الجنَّة، أو تلك الأكواب). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٤٦).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّةِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الأكوابِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن مِزاجِ شَرابِهم بشَيئَينِ: بالكافُورِ في أوَّلِ السُّورة، والزَّنجبيلِ في آخِرِها؛ فإنَّ في الكافورِ مِنَ البَرْدِ وطِيبِ الرَّائِحة، وفي الزَّنجبيلِ مِنَ الحَرارةِ وطِيبِ الرَّائِحةِ: ما يُحدِثُ لهم باجتماعِ الشَّرابَينِ حالةً أخرى أكمَلَ وأطيَبَ وألَذَّ مِن كُلٍّ منهما بانفرادِه... وما ألطَفَ مَوقِعَ ذِكرِ الكافورِ في أوَّلِ السُّورةِ، والزَّنجبيلِ في آخِرِها! فإنَّ شَرابَهم مُزِجَ أوَّلًا بالكافورِ، وفيه مِنَ البَردِ ما يجيءُ الزَّنجبيلُ بَعْدَه فيَعدِلُه، والظَّاهِرُ أنَّ الكأسَ الثَّانيةَ غيرُ الأُولى، وأنَّهما نَوعانِ لَذيذانِ مِنَ الشَّرابِ، أحَدُهما مُزِجَ بكافورٍ، والثَّاني مُزِجَ بزَنجبيلٍ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٨٥).

وقال ابنُ كثير: (فتارةً يُمزَجُ لهم الشَّرابُ بالكافُورِ، وهو بارِدٌ، وتارةً بالزَّنجبيلِ، وهو حارٌّ؛ ليَعتَدِلَ الأمرُ، وهؤلاء يُمزَجُ لهم مِن هذا تارةً، ومِن هذا تارةً، وأمَّا المقَرَّبون فإنَّهم يَشرَبونَ مِن كلٍّ منهما صِرْفًا، كما قاله قَتادةُ وغيرُ واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٥).

قال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: سُمِّيَت بذلك؛ لسَلاسةِ سَيْلِها، وحِدَّةِ جَريِها. وقال قَتادةُ: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾: عَينٌ سَلِسةٌ مُستَقيدٌ ماؤُها. وحكى ابنُ جريرٍ عن بعضِهم أنَّها سُمِّيَت بذلك لسَلاسَتِها في الحَلْقِ، واختار هو أنَّها تعُمُّ ذلك كُلَّه، وهو كما قال). ((تفسير ابن كثير)) =

عن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سأل حَبرٌ مِن أحبارِ اليَهودِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تُحفةِ[١] أهلِ الجنَّةِ حينَ يَدْخُلونَها؟ قال: زيادةُ كَبِدِ النُّونِ، قال: فما غِذاؤُهم على إثْرِها؟ قال: يُنحَرُ لهم ثَورُ الجنَّةِ الَّذي كان يأكُلُ مِن أطرافِها، قال: فما شَرابُهم عليه؟ قال: مِن عَينٍ فيها تُسَمَّى سَلْسَبيلًا. قال: صَدَقْتَ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ توجيهٌ إلى حُسْنِ الصُّنعِ في التَّسويةِ في التَّقديرِ والمقاساتِ[٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ في قَولِه: ﴿ظِلَالُهَا﴾ سؤالٌ: كيف قال سُبحانَه في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ ذلك، والظِّلُّ إنَّما يكونُ لِما يقَعُ عليه الشَّمسُ، ولا شَمسَ في الجنَّةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾؟!

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الظِّلالَ في الجنَّةِ عبارةٌ عن تكاثُفِ الأشجارِ وجَودةِ المباني، وإلَّا فلا شَمسَ تُؤذي هنالك حتَّى يكونَ ظِلٌّ يُجيرُ مِن حَرِّها[٤].

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالظِّلالِ نَعيمُها وراحتُها، ومنه قَولُهم: عَيشٌ ظَليلٌ[٥].

= (٨/ ٢٩٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧١).

(١) التُّحفةُ: ما يُتحَفُ به الإنسانُ مِن الفواكِهِ والطُّرَفِ؛ مُحاسَنةً ومُلاطَفةً. يُنظر: ((المفهم لما أشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (١/ ٥٧٤).

(٢) رواه مسلم (٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

الثَّالثُ: قيل: ظِلُّ أشجارِ الجنَّةِ مِن نُورِ قناديلِ العَرشِ -أو مِن نُورِ العَرشِ-؛ لِئلَّا تبهَرَ أبصارَهم؛ فإنَّه أعظَمُ مِن نورِ الشَّمسِ[(١)]، وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١] سؤالٌ: أنَّه لِمَ اقتصَرَ مِن آنيتِهم وحِلْيَتِهم على الفِضَّةِ دونَ الذَّهَبِ، ومعلومٌ أنَّ الجِنَانَ جَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيتُهما وحِلْيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وحِلْيَتُهما وما فيهما[(٣)]؟

الجوابُ: أنَّ سياقَ هذه الآياتِ إنَّما هو في وصفِ الأبرارِ ونعيمِهم مُفَصَّلًا، دونَ تفصيلِ جزاءِ المقرَّبينَ؛ فإنَّه سُبحانَه إنَّما أشار إليه إشارةً تُنَبِّهُ على ما سَكَتَ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

(٢) قال الرازي: (الظِّلُّ إنَّما يوجَدُ حيثُ توجَدُ الشَّمسُ، فإن كان لا شمسَ في الجنَّةِ فكيف يحصُلُ الظِّلُّ هناك؟

والجوابُ: أنَّ المرادَ أنَّ أشجارَ الجنَّةِ تكونُ بحيثُ لو كان هناك شمسٌ لَكانت تلك الأشجارُ مُظَلِّلةً منها). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

وقال ابن القيِّم: (وقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ في الجنَّةِ ظِلالًا، والظِّلالُ لا بُدَّ أن تَفيءَ ممَّا يُقابِلُها، فقال: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]). ثمَّ ذكَر ما خلاصتُه أنَّ هذه الظِّلالَ وغيرَها مما في الجنَّة -كالطَّعامِ والحلوَى- تَستدعي أسبابًا تتمُّ بها، واللهُ سُبحانَه خالقُ السَّببِ والمُسَبَّبِ، وهو رَبُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه، لا إلهَ إلَّا هو، وقد جعَل سُبحانَه لأهل الجنَّةِ أسبابًا، وهو الخالقُ بالأسباب والحِكَم ما يَخلُقُه في الدُّنيا والآخرة، والأسبابُ مظهرُ أفعالِه وحِكمتِه، ولكنَّها تختلِفُ، ولهذا يقعُ التَّعجُّبُ مِن العبدِ لورودِ أفعالِه سبحانَه على أسبابٍ غيرِ الأسبابِ المعهودةِ المألوفة، ولَيست قُدرتُه سُبحانَه وتعالى مُقصِّرةً عن أسبابٍ أُخَرَ ومُسَبَّباتٍ يُنشئُها منها، كما لا تَقصُرُ قُدرتُه في هذا العالَم المشهودِ عن أسبابِه ومُسَبَّباتِه، وليس هذا بأهْوَنَ عليه مِن ذلك. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

عنه، وهو أنَّ شَرابَ الأبرارِ يُمْزَجُ مِن شَرابِهم، فالسُّورةُ مَسُوقَةٌ بصفةِ الأبرارِ وجزائِهم على التَّفصيلِ؛ وذلك -واللهُ أعلَمُ- لأنَّهم أَعَمُّ مِن المقرَّبينَ وأكثرُ منهم؛ ولهذا يُخبِرُ سُبحانَه عنهم بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠]، وعنِ المقرَّبين السَّابقينَ بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[الواقعة: ١٣-١٤]، وأيضًا فإنَّ في ذِكْرِ جزاءِ الأبرارِ تنبيهًا على أنَّ جزاءَ المقرَّبينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ[1]!

وقيل: لا مُنافاةَ بيْنَ الأمْرَينِ؛ فتارةً يُسقَوْن بهذا، وتارةً بذاك[2]. فوُصِفَت الآنيةُ هنا بأنَّها مِن فِضَّةٍ، أي: تَأتِيهم آنيتُهم مِن فِضَّةٍ في بعضِ الأوقاتِ، ومِن ذَهَبٍ في أوقاتٍ أُخرى، كما دلَّ عليه قولُه في سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]؛ لأنَّ للذَّهبِ حُسْنًا، وللفِضَّةِ حُسْنًا، فجُعِلَت آنيتُهم مِن المَعدِنَينِ النَّفيسَينِ؛ لئلَّا يَفوتَهم ما في كلٍّ مِن الحُسنِ والجَمالِ، أو يُطافُ عليهم بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ وآنيةٍ مِن ذهَبٍ مُتنوِّعةٍ مُتزاوِجةٍ؛ لأنَّ ذلك أبهَجُ مَنظَرًا، مِثلَ ما قال مرَّةً: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، ومرَّةً ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]؛ وذلك لإدخالِ المَسَرَّةِ على أنفُسِهم بحُسنِ المَناظِرِ؛ فإنَّهم كانوا يَتمَنَّونَها في الدُّنيا لعِزَّةِ وُجودِها أو وُجودِ الكثيرِ منها[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف تكونُ هذه الأكوابُ مِن فِضَّةٍ، ومِن قواريرَ؟

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٢).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ أصلَ القواريرِ في الدُّنيا الرَّملُ، وأصلُ قواريرِ الجنَّةِ هو فِضَّةُ الجنَّةِ، فكما أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على أن يَقلِبَ الرَّملَ الكثيفَ زجاجةً صافيةً، فكذلك هو قادِرٌ على أن يَقلِبَ فِضَّةَ الجنَّةِ قارورةً لطيفةً، فالغَرَضُ مِن ذِكرِ هذه الآيةِ التَّنبيهُ على أنَّ نِسبةَ قارورةِ الجنَّةِ إلى قارورةِ الدُّنيا كنِسبةِ فِضَّةِ الجنَّةِ إلى رملِ الدُّنيا، فكما أنَّه لا نِسبةَ بيْن هذَينِ الأصلَينِ، فكذا بيْن القارورتَينِ في الصَّفاءِ واللَّطافةِ.

الوجهُ الثَّاني: قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: (ليس في الدُّنيا شيءٌ ممَّا في الجنَّةِ إلَّا الأسماءُ)[1]، وإذا كان كذلك فكمالُ الفِضَّةِ في بقائِها ونقائِها وشَرَفِها، إلَّا أنَّه كثيفُ الجوهَرِ، وكمالُ القارورةِ في شفافيتِها وصفائِها، إلَّا أنَّه سريعُ الانكسارِ؛ فآنيةُ الجنَّةِ آنيةٌ يَحصُلُ فيها مِن الفِضَّةِ بقاؤُها ونقاؤُها وشَرَفُ جوهرِها، ومِن القارورةِ صفاؤُها وشفافيتُها.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّها تكونُ فِضَّةً، ولكِنْ لها صفاءُ القارورةِ، ولا يُستبعَدُ مِن قدرةِ اللهِ تعالى الجَمعُ بيْن هذينِ الوصفَينِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ المرادَ بالقواريرِ في الآيةِ ليس هو الزُّجاجَ؛ فإنَّ العَرَبَ تسَمِّي ما استدار مِن الأواني الَّتي تُجعَلُ فيها الأشرِبةُ ورَقَّ وصَفَا: (قارورةً)، فمعنى الآيةِ: وأكوابٍ مِن فِضَّةٍ، مُستديرةٍ صافيةٍ رقيقةٍ[2].

---

(١) أخرجه هناد في ((الزهد)) (٨) وابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٢٦٠) وأبو نعيم في ((صفة الجنة)) (١٢٤) والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٣٣٢).
قال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١١٥): (ثابت)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٧٦٩)، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٤٠٨): (إسناده جيد).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥١).

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أَخْبَرَ سُبحانَه عن العَينِ الَّتي يَشْرَبُ بها المقرَّبون صِرْفًا أنَّ شَرابَ الأبرارِ يُمْزَجُ منها؛ لأنَّ أولئك أَخْلَصوا الأعمالَ كلَّها لله، فأُخْلِصَ شَرابُهم، وهؤلاء مَزَجُوا، فمُزِجَ شَرابُهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ المرادُ بالشَّمسِ حَرُّ أشعَّتِها؛ فنَفْيُ رُؤيةِ الشَّمسِ في قولِه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ كِنايةٌ عن نفْيِ وُجودِ الشَّمسِ الَّذي يَلزَمُه انتفاءُ حَرِّ شُعاعِها، فهو مِن الكِنايةِ التَّلويحيَّةِ[٢]. أو المرادُ بالشَّمسِ حَقيقتُها، وبالزَّمهريرِ البَرْدُ؛ ففي الآيةِ احتباكٌ[٣]، والتَّقديرُ: لا يَرَون فيها شَمسًا ولا قمَرًا، ولا حَرًّا ولا زَمهريرًا، والمعْنى أنَّ نُورَها مُعتدِلٌ،

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٨٤).

(٢) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَل الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(٣) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

وهواءَها مُعتدِلٌ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَدَانِيَةً﴾ عطْفٌ على ما قبْلَها، حالٌ مِثلُها، ودَخَلَت الواوُ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَينِ مُجتمِعانِ لهم، كأنَّه قِيل: وجَزاهم جَنَّةً جامِعينَ فيها بيْنَ البُعدِ عن الحرِّ والقَرِّ ودُنوِّ الظِّلالِ عليهم. أو صِفةٌ لمَحذوفٍ مَعطوفٍ على ﴿جَنَّةً﴾، أي: وجَنَّةً أُخرى دانيةً عليهم ظِلالُها، على أنَّهم وُعِدوا جَنَّتينِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٢] [الرحمن: ٤٦].

- وإنَّما قِيل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يُقَلْ: منْهم؛ لأنَّ الظِّلالَ عاليةٌ عليهم[٣].

- ودُنوُّ الظِّلالِ قُرْبُها مِن أهْلِ الجنَّةِ، وإذْ لم يُعهَدْ وَصْفُ الظِّلِّ بالقُربِ فقد قيل: يَظهَرُ أنَّ دُنوَّ الظِّلالِ كِنايةٌ عن تَدلِّي الأدواحِ[٤] الَّتي مِن شَأنِها أنَّ تُظلِّلَ الجَنَّاتِ في مُعتادِ الدُّنيا، ولكنَّ الجنَّةَ لا شَمسَ فيها فيُستظَلَّ مِن حَرِّها؛ فتَعيَّنَ أنَّ تَركيبَ (دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) مَثَلٌ يُطلَقُ على تَدلِّي أفنانِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الظِّلَّ المُظلِّلَ للشَّخصِ لا يَتفاوَتُ بدُنوٍّ ولا بُعدٍ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ أي: سُخِّرَت لهم قُطوفُ تلك الأدْواحِ وسُهِّلَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٩٦).

(٤) الدَّوْحَة: الشَّجرةُ العظيمةُ ذاتُ الفُروعِ المُمتدَّةِ مِن أيِّ الشَّجرِ كانت، جمعُها دَوْحٌ، وأدْواحٌ جمْعُ الجمعِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧، و٣٦٦).

لهم بحيثُ لا الْتواءَ فيها ولا صَلابةَ تُتعِبُ قاطِفَها، ولا يَتمطَّونَ إليها، بلْ يَجْتنُونَها بأسهلِ تَناوُلٍ، فعُبِّرَ عن التَّيسيرِ بالتَّذليلِ. و﴿تَذۡلِيلٗا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لذلك، أي: تَذليلًا شَديدًا مُنتهيًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ ...﴾ [الإنسان: ٥] إلخ، كما اقتضاهُ التَّناسُبُ بيْن جُملةِ ﴿يَشۡرَبُونَ﴾، وجُملةِ (يُطَافُ عَلَيْهِمْ) في الفِعليَّةِ والمُضارعيَّةِ، وذلك مِن أحسَنِ أحوالِ الوصْلِ، عاد الكلامُ إلى صِفةِ مَجالسِ شَرابِهم. وهذه الجُملةُ بَيانٌ لِما أُجمِلَ في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ [الإنسان: ٥]، وإنَّما عُطِفَت عليها؛ لِما فيها مِن مُغايَرةٍ مع الجُملةِ المَعطوفِ عليها مِن صِفةِ آنيةِ الشَّرابِ، فلهذه المُناسَبةِ أُعقِبَ ذِكرُ مَجالسِ أهْلِ الجنَّةِ ومُتَّكآتِهم، بذِكرِ ما يَستتبِعُه ممَّا تَعارَفَه أهلُ الدُّنيا مِن أحوالِ أهلِ البَذخِ والتَّرَفِ واللَّذَّاتِ بشُرْبِ الخمْرِ؛ إذ يُديرُ عليهم آنيةَ الخمْرِ سُقاةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَيُطَافُ﴾ لَمَّا كان الدَّورانُ بالآنيةِ متجدِّدًا، عُبِّرَ فيه بالمضارعِ[٣]. ﴿وَيُطَافُ﴾ أي: يَطوفُ سُقاةٌ، ذَكَرَه بالبِناءِ للمَفعولِ؛ لأنَّه لَمَّا كان الفاعلُ مَعروفًا لم تكُنْ حاجةٌ إلى ذِكرِ فاعلِ الطَّوافِ[٤]. أو قالَه بالبِناءِ للمفعولِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩١).

وبعْدُ قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] بالبناءِ للفاعِلِ؛ لأنَّ المقصودَ في الأوَّلِ ما يُطافُ به لا الطَّائفونَ، بقَرينةِ قولِه: ﴿بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ﴾، والمقصودَ في الثَّاني الطَّائفونَ، فذُكِرَ في كلٍّ منْهما ما يُناسِبُه[١].

- وعطْفُ (أكوابٍ) على (آنيةٍ) مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ[٢].

- قيل: أُوثِرَ ذِكرُ آنيةِ الفِضَّةِ هنا؛ لمُناسَبةِ تَشبيهِها بالقَواريرِ في البَياضِ[٣].

- قولُه: ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ﴾ أي: شَبيهةٌ بالقَواريرِ في صَفاءِ اللَّونِ والرِّقَّةِ، حتَّى كأنَّها تَشِفُّ عمَّا فيها. وفِعلُ ﴿كَانَتۡ﴾ هنا تَشبيهٌ بَليغٌ، والمعْنى: أنَّها مِثْلُ القواريرِ في شَفيفِها، وقَرينةُ ذلك قولُه: ﴿مِن فِضَّةٖ﴾، أي: هي مِن جِنسِ الفِضَّةِ في لَونِ القَواريرِ[٤].

- ووَصْفُ الأكْوابِ بفِعلِ ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾ هو مِن قَبيلِ الفِعلِ «يكونُ» في قولِه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي: تَكوَّنَت قَواريرَ بتَكوينِ اللهِ؛ تَفخيمًا لتلك الخِلقةِ العَجيبةِ الشَّأنِ، الجامعةِ بيْن صِفتَيِ الجَوهرينِ المُتبايِنَينِ[٥].

- ولَفظُ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثَّاني يَجوزُ أنْ يكونَ تأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرِه؛ لزِيادةِ تَحقيقِ أنَّ لها رِقَّةَ الزُّجاجِ، فيَكونَ الوقفُ على ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأوَّلِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٥-١٣١٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤).

تَكريرًا؛ لإفادةِ التَّصنيفِ؛ فإنَّ حُسنَ التَّنسيقِ في آنيةِ الشَّرابِ مِن مُكمِّلاتِ رَونقِ مَجلسِه، فيكونَ التَّكريرُ مِثلَ ما في قولِه تعالَى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقولِ النَّاسِ: قَرأْتُ الكتابَ بابًا بابًا، فيَكونَ الوقفُ على ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثَّاني[1].

- قُرِئَ ﴿قَوَارِيرًا﴾ الأوَّلُ والثَّاني مُنوَّنَينِ، وتَنوينُ الأوَّلِ لمُراعاةِ الكلماتِ الواقعةِ في الفواصلِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ مِن قولِه: ﴿كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] إلى قولِه: ﴿تَقْدِيرًا﴾، وتَنوينُ الثَّاني للمُزاوَجةِ مع نَظيرِه، وقُرِئَ ﴿قَوَارِيرًا﴾ الأوَّلُ بالتَّنوينِ، ووُقِفَ عليه بالألِفِ، وهو جارٍ على التَّوجيهِ الأوَّلِ. وقُرِئَ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثَّاني بغَيرِ تَنوينٍ على الأصلِ، ولم تُراعَ المُزاوَجةُ، ووُقِفَ عليه بالسُّكونِ، وقُرِئَ بتَرْكِ التَّنوينِ فيهما؛ لمَنْعِ الصَّرفِ وعدَمِ مُراعاةِ الفواصلِ ولا المُزاوَجةِ[2].

- كَلمةُ ﴿تَقْدِيرًا﴾ في قولِه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ مُؤكِّدٌ لعامِلِه؛ للدَّلالةِ على وَفاءِ التَّقديرِ، وعدَمِ تَجاوُزِه المطلوبَ، ولا تَقصيرِه عنه[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أُتبِعَ وَصْفُ الآنيةِ ومَحاسنِها بوَصْفِ الشَّرابِ الَّذي يَحْويه وطِيبِه؛ فالكأسُ كأسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قرأ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الأوَّلَ: نافعٌ وأبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ والكِسائيُّ وخلَفٌ وأبو بكرٍ بالتَّنوينِ بالألِفِ، وقرأها الباقونَ بدونِ تنوينٍ.

وقرأ الثَّانيةَ: نافعٌ وأبو جعفرٍ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ بالتَّنوينِ بالألِفِ، وقرأها الباقونَ بدونِ تنوينٍ.

يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤).

الخمْرِ، وهي مِن جُملةِ عُمومِ الآنيةِ المذكورةِ فيما تَقدَّمَ، ولا تُسمَّى آنيةُ الخمرِ كأْسًا إلَّا إذا كان فيها خمْرٌ، فكَونُ الخمْرِ فيها هو مُصحِّحُ تَسميتَها كأْسًا؛ ولذلك حَسُنَ تَعديةُ فِعلِ السَّقيِ إلى الكأْسِ؛ لأنَّ مَفهومَ الكأسِ يَتقوَّمُ بما في الإناءِ مِن الخمْرِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤، ٣٩٥).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: لا يَموتونَ، مِن الخُلْدِ وهو البقاءُ، أو: يَبقونَ على حالِهم لا يَتغيَّرونَ، ولا يَكبَرونَ، ولا يَهرَمونَ، والعربُ تقولُ للَّذي لا يَشيبُ: مخلَّدٌ، وقيل: مُحَلَّوْنَ، والتَّخْليدُ التَّحْلِيَةُ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والملازَمةِ[١].

﴿عَالِيَهُمْ﴾: أي: يَعْلوهم، وأصلُ (علو): يدُلُّ على السُّمُوِّ والارتفاعِ[٢].

﴿سُندُسٍ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[٣].

﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: أي: غليظُ الحَريرِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٤) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

١- قَولُه تعالى: ﴿ثَمَّ﴾ اسمُ إشارةٍ للمَكانِ البَعيدِ بمعنى (هُناك) مَبنيٌّ على الفَتحِ في محَلِّ نَصبٍ؛ ظرفُ مكانٍ مُتعَلِّقٌ بـ﴿رَأَيْتَ﴾، ومفعولُ الرُّؤيةِ غيرُ مذكورٍ؛ لأنَّ القَصدَ: وإذا صَدَرَتْ منك رؤيةٌ إلى ذلك المكانِ رَأَيْتَ كَيْتَ وكَيْتَ، فهو مُنَزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازِمِ. وقيل: التَّقديرُ: رأيتَ ما ثَمَّ، فـ«ما» مفعولٌ به، وهو اسمٌ مَوصولٌ حُذِفَ، وقامت صِلَتُه «ثَمَّ» مَقامَه، وهو قَولُ الكوفيِّينَ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾: في نَصبِ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿ثِيَابُ﴾ مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، كأنَّه قيل: فوقَهم ثيابُ... الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩]، وهو اسمُ فاعلٍ، و﴿ثِيَابُ﴾ مرفوعٌ على الفاعليَّةِ به، أي: يَطوفُ عليهم وِلْدانٌ عاليًا للمَطُوفِ عليهم ثِيابٌ، ولم يؤنِّثْ «عالِيًا»؛ لأنَّ «الثِّيابَ» غيرُ حقيقيِّ التَّأنيثِ. وقيل غَيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ويَطوفُ على الأبرارِ في الجنَّةِ بالشَّرابِ أو غَيرِه أولادٌ صِغارٌ، إذا رأيتَهم ظَنَنْتَهم -لحُسْنِهم وانتِشارِهم لخِدمةِ الأبرارِ- لُؤلؤًا مُفرَّقًا، وإذا نَظَرْتَ هناك في تِلكَ الجنَّةِ أبصَرْتَ نَعيمًا ومُلْكًا عَظيمًا، عليهم ثيابٌ مِن حريرٍ رقيقٍ أخضَرِ اللَّونِ، ومِن فَوقِها ثيابٌ مِن حريرٍ غَليظٍ له بَريقٌ ولَمَعانٌ، وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضَّةٍ، وسقاهم اللهُ شَرابًا طاهِرًا مُطَهِّرًا لهم مِن كُلِّ أذًى.

يُقالُ للأبرارِ: إنَّ هذا النَّعيمَ ثوابٌ لكم على ما عَمِلْتُموه في الدُّنيا، وكان سَعْيُكم بالأعمالِ الصَّالحةِ مَشكورًا مُتقَبَّلًا.

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦١٤، ٦١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ مَن يكونُ خادِمًا في تلك المجالِسِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المَطوفَ به؛ لأنَّه الغايةُ المقصودةُ- وصَفَ الطَّائِفَ؛ لِما في طَوافِهِ مِن العَظَمةِ المشهودةِ؛ تصويرًا لِما هم فيه مِن المُلْكِ، بعدَما نَجَوا منه من الهُلْكِ[٢].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾.

أي: ويَدورُ على الأبرارِ في الجنَّةِ بالشَّرابِ أو غَيرِه أولادٌ صِغارٌ على سنٍّ واحِدةٍ، فلا يَهرَمونَ ولا يموتونَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي: مُبْقَوْنَ أبدًا على شكلِ الوِلْدانِ، لا يَكبَرونَ، ولا يَنقُصونَ، ولا يَتغيَّرونَ، ولا يَموتونَ. هذا قولُ جمهورِ العُلماءِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩٤) و (٨/ ٤١٩).

وقال الفرَّاء: (ويُقالُ: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ مُقرَّطونَ. ويُقالُ: مُسَوَّرونَ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٢٣).

ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦).

قال ابن كثير: (﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالةٍ واحدةٍ مُخَلَّدونَ عليها، لا يَتغيَّرون عنها، لا تَزيدُ أعمارُهم عن تلك السِّنِّ. ومَن فسَّرهم بأنَّهم مُخرَّصونَ في آذانِهم الأَقْرِطةُ، فإنَّما عبَّر عن المعنى بذلك؛ لأنَّ الصَّغيرَ هو الَّذي يَليقُ له ذلك دونَ الكبيرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).

وقال ابنُ القيِّم: (الأشبَهُ أنَّ هؤلاء الولدانَ مَخلوقونَ مِنَ الجنَّةِ كالحُورِ العِينِ خَدَمًا لهم وغِلْمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وهؤلاء غيرُ =

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

أي: إذا رأيتَ أولئك الوِلدانَ ظَنَنْتَهم -لحُسْنِهم وبَياضِهم وصَفاءِ لَونِهم، وكَثرتِهم وانتِشارِهم لخِدمةِ الأبرارِ- لُؤلؤًا مُفرَّقًا[1].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر تَفصيلَ أحوالِ أهلِ الجنَّةِ؛ أتْبَعَه بما يدُلُّ على أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظَمَ مِن هذا القَدْرِ المذكورِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر المخدومَ والخَدَمَ؛ شَرَع في ذِكْرِ المكانِ[3].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾.

أي: وإذا نَظَرْتَ هناك في تِلك الجنَّةِ أبصَرْتَ نَعيمًا ومُلْكًا عَظيمًا وسُلطانًا باهِرًا أعَدَّه اللهُ تعالى للأبرارِ[4].

= أولادِهم؛ فإنَّ مِن تمامِ كرامةِ الله تعالى لهم أن يجعَلَ أولادَهم مخدومينَ معهم، ولا يَجعَلَهم غِلمانًا لهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قيل: الخِطابُ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٣١).

وقيل: الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: إذا رأيتَ أيُّها الرَّائي. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٦-٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا مِنَ النَّارِ: رَجُلٌ يَخرُجُ حَبْوًا[١]، فيقولُ له رَبُّه: ادخُلِ الجنَّةَ. فيقولُ: رَبِّ، الجنَّةُ مَلأى. فيقولُ له ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، فكُلُّ ذلك يُعيدُ عليه: الجنَّةُ مَلْأى. فيقولُ: إنَّ لك مِثلَ الدُّنيا عَشْرَ مِرارٍ!))[٢].

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الدَّارَ وساكِنيها مِن مخدومٍ وخَدَمٍ؛ ذَكَر لِباسَهم[٣].

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

أي: على أولئك الأبرارِ ثيابٌ مِن حريرٍ رقيقٍ أخضَرِ اللَّونِ، ومِن فَوقِها ثيابٌ مِن حريرٍ غَليظٍ له بَريقٌ ولَمَعانٌ[٤].

= قيل الخِطابُ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).
وقيل: الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).
قال الزمخشري: (ومعناه: أنَّ بصَرَ الرَّائي أيْنَما وقَع لم يَتعلَّقْ إدراكُه إلَّا بنَعيمٍ كثيرٍ، ومُلكٍ كبيرٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣).

(١) حَبْوًا: أي: زَحْفًا. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) للقاضي عياض (١/ ١٧٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٥١١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٦)، ((حادي =

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾.

أي: وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضَّةٍ يَلبَسونَها في أيديهم زِينةً لهم[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تَبلُغُ الحِلْيةُ مِن المؤمِنِ حيثُ يَبلُغُ الوَضوءُ[٢]))[٣].

﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾.

أي: وسقَى اللهُ الأبرارَ شَرابًا بالِغَ الطَّهارةِ في نَفْسِه، لا كدَرَ فيه بوَجهٍ مِن الوُجوه، مُطَهِّرًا لهم مِن كُلِّ أذًى أو سُوءٍ[٤]!

= الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

قال أبو عليٍّ الفارسيُّ في قولِه: ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾: (قد أُجيزَ أن يكونَ ظَرفًا، كأنَّه لَمَّا كان «عالٍ» بمعنَى «فوقَ»؛ أُجريَ مُجراهُ في هذا). ((الحجة للقراء السبعة)) (٦/ ٣٥٥).

قال الفرَّاء: (﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾... جعَلوها كالصِّفةِ «فوقَهم». والعربُ تقولُ: قَومُك داخلَ الدَّارِ، فيَنصبون داخلَ الدَّارِ؛ لأنَّه محَلٌّ، فـ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ مِن ذلك). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢١٨).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٢).

وقيل: المعنى: يَطوفُ على الأبرارِ وِلْدانٌ، عاليًا الأبرارَ ثيابُ سُنْدُسٍ. وذلك على أنَّ ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ حالٌ مِن الهاءِ والميمِ في «يَطوفُ عليهم».

وقيل: المعنى: حَسِبْتَهم لُؤلؤًا في حالِ عُلوِّ الثِّيابِ إيَّاهم. وذلك على أنَّ ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ حالٌ مِن الهاءِ والميمِ في ﴿حَسِبۡتَهُمۡ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٠). ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِلِ الإعرابِ (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) الحِليةُ: البياضُ الحاصِلُ للمؤمِنِ يومَ القيامةِ في أعضاءِ الوُضوءِ، أي: يَبلُغُ النُّورُ. وقيل: المرادُ بـ (الحلية): الزِّينةُ في الجنَّةِ مِن السِّوارِ والخَلْخَالِ. و«الوَضوءُ» بالفتحِ، أي: ماءُ وُضوئِه مِن الأعضاءِ. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (١/ ٢٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٣٥)، =

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

الطهور فيه قولان:

القولُ الأوَّلُ: أنَّه مبالغةٌ في كونِه طاهرًا.

قال الرازي: (فيه على هذا التفسيرِ احتمالاتٌ: أحدُها: أنَّه لا يكونُ نجسًا كخمرِ الدُّنيا. وثانيها: المبالغةُ في البعدِ عن الأمورِ المستقذرةِ، يعني ما مسَّتْه الأيدي الوَضِرةُ، وما داسَتْه الأقدامُ الدَّنسةُ. وثالثُها: أنَّها لا تَؤولُ إلى النجاسةِ؛ لأنَّها ترشحُ عرقًا مِن أبدانِهم، له ريحٌ كريحِ المسكِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

ممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أنَّه طاهرٌ مُنَزَّهٌ عمَّا في أمثالِه مِن شَرابِ الدُّنيا مِنَ الخبائِثِ والفَسادِ والأقذارِ: الثعلبيُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

قال البقاعي: (﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: ليس هو كشَرابِ الدُّنيا؛ سواءٌ كان مِن الخَمرِ أو مِن الماءِ أو مِن غيرِهما). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٥٠).

وقال العُلَيمي: (﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ طاهرًا مِن الأقذارِ، لم تَدُسْه الأقدامُ، ولم تَمَسَّه الأيدي الوَسِخةُ، كخَمرِ الدُّنيا، ولا يصيرُ بَولًا؛ وذلك أنَّهم إذا طَعِموا وشَرِبوا، فيصيرُ ما أكلوا طِيبًا يخرجُ مِن أبدانِهم كأطيَبَ مِن رِيحِ المِسكِ، وتَضمُرُ بُطونُهم، وتعودُ شَهوتُهم). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٠).

والقولُ الثاني في الطَّهورِ: أنَّه المطهِّرُ؛ لأنَّه يُطهِّرُ باطنَهم عن الأخلاقِ الذَّميمةِ، والأشياءِ المؤذيةِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

وممن اختار في الجملةِ أن المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: أي أنه مُطَهِّرٌ لبواطِنِ شاربيه مِن كُلِّ أذًى ونَقْصٍ: ابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٢٣٥)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

قال ابنُ كثير: (أي: طهَّرَ بواطِنَهم مِنَ الحَسَدِ والحِقْدِ والغِلِّ والأذَى، وسائِرِ الأخلاقِ الرَّدِيَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾.

أي: يُقالُ للأبرارِ: إنَّ هذا النَّعيمَ الَّذي أُوتيتُموه في الجنَّةِ هو ثوابٌ لكم على ما عَمِلْتُموه في الدُّنيا مِن خَيرٍ(١).

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

أي: وما عَمِلْتُم مِن خَيرٍ فإنَّ اللهَ يَشكُرُه لكم، فيَتقَبَّلُه منكم ولو كان قليلًا، ويُثيبُكم عليه ثَوابًا عَظيمًا(٢).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أحسَنُ مَن يُتَّخَذُ للخِدْمةِ الوِلْدانُ؛ لأنَّهم أخَفُّ حَرَكةً، وأسرَعُ مَشْيًا، ولأنَّ المخدومَ لا يتحَرَّجُ إذا أمَرَهم أو نهاهم(٣).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ هذا مِن تمامِ لَذَّةِ أهلِ الجنَّةِ؛ أن يكونَ خُدَّامَهم الوِلْدانُ المخَلَّدونَ، الَّذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويَدخُلونَ على مَساكِنِهم آمِنينَ مِن تَبِعَتِهم، ويأتونَهم بما يَدْعُونَ وتَطلُبُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ عاشور: (مِن تمامِ الإكرامِ عندَ الكرامِ أن يُتْبِعوا كرامتَهم بقَولٍ يَنشَطُ له المُكرَمُ، ويُزيلُ عنه ما يَعرِضُ مِن خَجَلٍ ونَحْوِه، أي: هو جزاءٌ حَقًّا لا مُبالَغةَ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

نُفوسُهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتَهم في انتِشارِهم في قَضاءِ حَوائِجِ السَّادةِ، وكَثْرتِهم، وصَباحةِ وُجوهِهم، وحُسْنِ ألوانِهم وثيابِهم وحُلِيِّهم؛ حَسِبْتَهم لؤلؤًا مَنثورًا، ولا يكونُ في التَّشبيهِ أحسَنُ مِن هذا، ولا في المنظَرِ أحسَنُ مِن اللُّؤلُؤِ المنثورِ على المكانِ الحَسَنِ[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ كلَّهم ملوكٌ فيها[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ دَلَّتْ لفظةُ: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ على كَونِ ذلك اللِّباسِ ظاهِرًا بارِزًا يُجَمِّلُ ظواهِرَهم، ليس بمَنزِلةِ الشِّعارِ الباطِنِ، بل الَّذي يُلبَسُ فوقَ الثِّيابِ للزِّينةِ والجَمالِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ تأمَّلْ كيف جمَعَ سُبحانَه لهم بيْنَ نَوعَيِ الزِّينةِ الظَّاهِرةِ مِن اللِّباسِ والحُلِيِّ، كما جمَعَ لهم بيْن الظَّاهرةِ والباطنةِ؛ فجَمَّلَ سُبحانَه البواطِنَ بالشَّرابِ الطَّهُورِ، والسَّواعِدَ بالأساوِرِ، والأبدانَ بثيابِ الحَريرِ[٥].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فيه سؤالٌ: قال تعالى في سورةِ (الكَهفِ): ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، فكيف جعَل تلك الأساوِرَ هاهنا مِن فِضَّةٍ؟

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).
(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّهما جنَّتانِ أوانيهما وجميعُ ما فيهما مِن فِضَّةٍ، وأُخْرَيانِ أوانيهما وجميعُ ما فيهما مِن ذَهَبٍ(١).

الثَّاني: أنَّ قولَه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ هذا في صِفةِ الأبرارِ، وأمَّا المقرَّبونَ فكما قال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾(٢) [الحج: ٢٣].

الثَّالثُ: أنَّه لا مُنافاةَ بيْن الأمْرَينِ؛ فلَعلَّهم يُسَوَّرونَ بالجِنسَينِ؛ إمَّا على المُعاقَبةِ، أو على الجَمعِ، كما تفعَلُ النِّساءُ في الدُّنيا.

الرَّابعُ: أنَّ الطِّباعَ مُختَلِفةٌ، فرُبَّ إنسانٍ يكونُ استِحسانُه لبياضِ الفِضَّةِ فوقَ استِحسانِه لصُفرةِ الذَّهَبِ؛ فاللهُ تعالى يُعطي كُلَّ أحدٍ ما تكونُ رَغبتُه فيه أتَمَّ، ومَيْلُه إليه أشَدَّ. وقيل غَيرُ ذلك(٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ استدَلَّ بعضُ العلماءِ بمفهومِ المُخالَفةِ في هذه الآيةِ على أنَّ الخمرَ نجِسةُ العَينِ؛ لأنَّ وصْفَه لشَرابِ أهلِ الجنَّةِ بأنَّه طَهورٌ يُفهَمُ منه أنَّ خمرَ الدُّنيا ليست كذلك، وممَّا يؤيِّدُ هذا أنَّ كلَّ الأوصافِ الَّتي مدَحَ بها تعالى خمرَ الآخرةِ مَنفيَّةٌ عن خمرِ الدُّنيا(٤). وذلك على

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

ويُنظر ما تقدَّم: (ص: ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦).

والخَمرُ نَجِسةٌ نجاسةً عينيَّةً باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة. يُنظر: ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (١٠/ ٩٩)، ((حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٩، ٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٥٦٣)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٣١٩).

قولٍ في التَّفسيرِ.

٩- الفَرْقُ بيْنَ «سقى» و«أسقى»: أنَّ «سَقَى» لِمَا لا كُلْفَةَ معَه في السُّقْيا؛ ولهذا أوْرَدَه تعالى في شَرابِ الجَنَّةِ، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. و«أَسْقَى» لِمَا فيه كُلْفةٌ؛ ولهذا أوْرَدَه في شَرابِ الدُّنْيا، فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]؛ لأنَّ السُّقْيا في الدُّنيا لا تَخْلُو مِن الكُلْفةِ أبَدًا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾

- وُصِفَ الوِلدانُ بأنَّهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾؛ للاحتِراسِ ممَّا قد يُوهِمُه اشتِقاقُ ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ مِن أنَّهم يَشِبُّون ويَكتهِلون، أي: لا تَتغيَّرُ صِفاتُهم، فهُمْ وِلدانٌ دَومًا، وإلَّا فإنَّ خُلودَ الذَّواتِ في الجنَّةِ مَعلومٌ، فما كان ذِكرُه إلَّا لأنَّه تَخليدٌ خاصٌّ[٢].

- والحِكمةُ في تَشبيهِ الوِلدانِ باللُّؤلؤِ المَنثورِ دونَ المَنظومِ: أنَّه تعالَى أراد تَشبيهَهُم -لحُسنِهم وانتشارِهم في الخِدمةِ- باللُّؤلؤِ الَّذي لم يُثقَبْ، وهو أشدُّ صَفاءً، وأحسَنُ مَنظرًا ممَّا ثُقِبَ؛ لأنَّه إذا ثُقِب نَقَص صَفاؤه ومائيَّتُه، وما لم يُثقَبْ لا يكونُ إلَّا مَنثورًا[٣]. وقيل: شُبِّهوا باللُّؤلؤِ الرَّطبِ إذا نُثِرَ مِن صَدَفِه؛ لأنَّه أحسَنُ وأكثَرُ ماءً[٤].

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣٨٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٢، ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٢، ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥).

وقيل: في كَونِه منثورًا فائدتان؛ إحداهُما: الدَّلالةُ على أنَّهم غيرُ معطَّلين، بل مَبثوثونَ في خِدمتِهم وحوائجِهم. والثَّانيةُ: أنَّ اللُّؤلؤَ إذا كان منثورًا -ولا سيَّما على بِساطٍ مِن ذهبٍ أو حريرٍ- كان أحسَنَ لِمَنظرِه، وأبهى مِن كَونِه مجموعًا في مكانٍ واحدٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: مِثلَ أحوالِ المُلكِ الكبيرِ المُتنعِّمِ ربُّه، وفائدةُ هذا التَّشبيهِ تَقريبُ المُشبَّهِ لِمَدارِكِ العُقولِ[٢].

- وفِعلُ (رَأيتَ) الأوَّلُ مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ، يدُلُّ على حُصولِ الرُّؤيةِ فقطْ، لا تَعلُّقِها بمَرئيٍّ، أي: إذا وجَّهْتَ نَظَرَك، و(رَأيتَ) الثَّاني جَوابُ (إذا)، أي: إذا فَتحْتَ عَينَك تَرى نَعيمًا، والتَّقييدُ بـ (إذا) أفاد معْنى الشَّرطيَّةِ؛ فدَلَّ على أنَّ رُؤيةَ النَّعيمِ لا تَتخلَّفُ عن بصَرِ المُبصِرِ هنالك، فأفادَ معْنى: لا تَرى إلَّا نَعيمًا، أي: بخِلافِ ما يرى في جِهاتِ الدُّنيا[٣].

وقيل: مَفعولُ فِعلِ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ حُذِفَ اقتِصارًا، والمعْنى: وإذا رمَيتَ ببَصرِك هناك. وقيل: التَّقديرُ: وإذا رَأيتَ ما ثَمَّ، فحُذِفَ (ما)[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾

- قولُه: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ هذه الأشياءُ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥).

مِن شِعارِ الملوكِ في عُرفِ الناسِ زَمانَئذٍ، فهذا مُرتبِطٌ بقولِه: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[1] [الإنسان: ٢٠].

- قولُه: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ عُطِفَ على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، وساغ عطْفُ الماضي على المُضارِعِ؛ لأنَّه مُستقبَلُ المَعنى، وللإيذانِ بتَحقيقِه[2].

- قولُه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ احتِراسٌ ممَّا يُوهِمُه شُرْبُهم مِن الكأْسِ المَمزوجةِ بالكافورِ والزَّنجبيلِ مِن أنْ يكونَ فيها ما في أمْثالِها المعروفةِ في الدُّنيا، ومِن الغَولِ، وسُوءِ القولِ والهَذيانِ، فعُبِّرَ عن ذلك بكَونِ شَرابِهم طَهورًا بصِيغةِ المُبالَغةِ في الطَّهارةِ، وهي النَّزاهةُ مِن الخَبائثِ، أي: مُنزَّهًا عمَّا في غيرِه مِن الخَباثةِ والفَسادِ[3].

- وأُسنِدَ سَقْيُ الشَّرابِ إلى ربِّهم؛ إظهارًا لكَرامتِهم، أي: أمَر هو بسَقْيِهم، كما يُقالُ: أطْعَمَهم رَبُّ الدَّارِ وسَقاهم[4]. أو أُسنِدَ سَقْيُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه أُرِيدَ به نوعٌ آخَرُ يَفوقُ على النَّوعينِ المُتقدِّمَينِ[5].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ هذا الكلامُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والقولُ المحذوفُ يُقدَّرُ فِعلًا في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغائبِ في (سَقَاهُمْ)، نحْو: يُقالُ لهم، أو يقولُ لهم ربُّهم، أو يُقدَّرُ اسمًا هو حالٌ مِن ذلك الضَّميرِ، نحْو: مَقولًا لهم هذا اللَّفظُ، أو قائلًا لهم هذا اللَّفظَ. والإشارةُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥).

ما يكونُ حاضِرًا لَدَيهم مِن ألوانِ النَّعيمِ المَوصوفِ فيما مَضى مِن الآياتِ، والمقصودُ مِن ذلك الثَّناءُ على الأبرارِ بما أسْلَفوا مِن تَقْوى اللهِ، وتَكرِمتُهم بذلك، وتَنشيطُ أنفُسِهم بأنَّ ما أنْعَمَ به عليهِمْ هو حَقٌّ لهم جَزاءً على عَمَلِهم(١).

- وإقحامُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾ للدَّلالةِ على تَحقيقِ كَونِه جَزاءً، لا مَنًّا عليهم بما لم يَستحقُّوا(٢).

- والإتيانُ بفِعلِ ﴿كَانَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ كَونِه سَعْيًا مَشكورًا(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٣-٢٦)

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾.

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿بُكۡرَةٗ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[١].

﴿وَأَصِيلٗا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وما بيْنَ العَصرِ إلى اللَّيلِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مثبِّتًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّا نحن نَزَّلْنا عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ تَنزيلًا مُفرَّقًا، فاصبرْ لحُكمِ اللهِ على تبليغِ رِسالتِه، وما تَلْقاه مِن أذًى في سَبيلِ ذلك، وعلى تأخيرِ نَصرِك، ولا تُطِعْ فاجِرًا يَدعوك إلى مَعصيةِ اللهِ، أو كافِرًا باللهِ يدعوك لعبادةِ غَيْرِه.

ثمَّ يرشدُ الله سُبحانَه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما يُعينُه على الصَّبرِ والثَّباتِ، فيقولُ: واذكُرِ اسمَ رَبِّك -يا محمَّدُ- في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه، واسجُدْ للهِ تعالى في صَلاتِك في اللَّيلِ، وسَبِّحْه وَقتًا طَويلًا مِنَ اللَّيلِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أوَّلًا حالَ الإنسانِ وقسَّمَه إلى العاصي والطَّائعِ؛ ذكَرَ ما شرَّفَ به نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر أصنافَ الوعدِ والوَعيدِ؛ بيَّنَ أنَّ هذا الكتابَ يتضَمَّنُ ما بالنَّاسِ حاجةٌ إليه، فليس بسِحرٍ ولا كِهانةٍ ولا شِعرٍ، وأنَّه حَقٌّ(٢).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إنَّا نحن نَزَّلْنا عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ تنزيلًا مُفرَّقًا بحَسَبِ الحِكْمةِ(٣).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

أي: فاصبِرْ لحكَمِ ربِّك القَدَريِّ -ومنه تأخيرُ نَصرِك، وما يَنالُك مِن أذًى- فلا تَسخَطْه، ولِحُكمِه الدِّينيِّ مِن القيامِ بما ألْزَمَك القيامَ به في كِتابِه، وتبليغِ رِسالتِه، وتحمُّلِ ما تَلْقاه مِن أذى المُشرِكين في سَبيلِ ذلك(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: قضائِه: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: =

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن ضُروبِ إعراضِهم عن قَبولِ دَعوتِه، ضَرْبٌ فيه رَغباتٌ منهم، مِثلُ أنْ يَترُكَ قَرْعَهم بقَوارِعِ التَّنزيلِ مِن تَأفينِ رأْيِهم، وتَحقيرِ دِينِهم وأصْنامِهم، ورُبَّما عَرَضوا عليه الصِّهرَ معهم، أو بَذْلَ المالِ منهم؛ أُعقِبَ أمْرُه بالصَّبرِ على ما هو مِن ضُروبِ الإعراضِ في صَلابةٍ وشِدَّةٍ؛ بأنْ نَهاهُ عن أنْ يُطِيعَهم في الضَّربِ الآخَرِ مِن ضُروبِ الإعراضِ الواقِعِ في قالَبِ اللِّينِ والرَّغبةِ[1].

= ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

قال الشوكاني: (ومِن حُكْمِه وقَضائِه تأخيرُ نَصرِك إلى أجَلٍ اقْتَضَتْه حِكْمَتُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

وقال ابن جرير: (اصْبِرْ لِمَا امْتَحَنَك به رَبُّكَ مِن فَرائِضِه، وتبليغِ رِسالاتِه، والقيامِ بما ألْزَمَك القيامَ به في تَنزيلِه الَّذي أوحاه إليك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (وحُكْمُ رَبِّه: هو أن يُبَلِّغَ ويُكافِحَ، ويَتحَمَّلَ المشَقَّةَ، ويَصبِرَ على الأذى؛ لِيُعذِرَ اللهُ إليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، والسعديُّ:

قال البقاعي: (﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: المحسِنِ إليك بتَخصيصِه لك بهذه النِّعمةِ، على ضلالِ مَن حَكَم بضَلالِه، وعلى كلِّ ما يَنوبُك، وأَطِعْه في التَّعبُّدِ له بجميعِ ما أمَرَك به مِن الرِّفقِ، إلى أن يأمُرَك بالسَّيفِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٥٤).

وقال السعدي: (اصبِرْ لِحُكمِه القَدَريِّ، فلا تَسخَطْه، ولِحُكْمِه الدِّينيِّ، فامْضِ عليه، ولا يُعَوِّقْك عنه عائقٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٣).

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

أي: ولا تُطِعْ فاجِرًا يَدْعوك إلى مَعصيةِ اللهِ، أو كافِرًا باللهِ جَحُودًا لنِعَمِه يدعوك لعبادةِ غَيرِه[١].

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى عن طاعَةِ الآثمِ والكفورِ القاطِعةِ عن اللهِ؛ أمَرَ بمُلازَمةِ الموصِلِ إلى اللهِ، وهو الذِّكرُ[٢].

وأيضًا لَمَّا نَهى اللهُ سُبحانَه وتعالَى حَبيبَه صَلواتُ اللهِ عليه، عن طاعةِ الآثِمِ والكَفورِ، وحثَّه على الصَّبرِ على أذاهم، وإفراطِهم في العَداوةِ، وأراد أنْ يُرشِدَه إلى مُتاركتِهم- عقَّبَ ذلك بالأمرِ باستغراقِ أوقاتِه بالاشتِغالِ بالعِبادةِ لَيلًا ونَهارًا[٣].

وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال الرازي: (كُلُّ مَن عَبَد غيرَ اللهِ فقد اجتَمَع في حَقِّه هذان الوَصفانِ؛ لأنَّه لَمَّا عَبَد غَيْرَه، فقد عصاه وجَحَد إنعامَه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ... «الكَفُور» هو الآثِمُ أيضًا، لكِنَّه عَطفُ خاصٍّ على عامٍّ. وقد قيل: هما وصفانِ لموصوفٍ واحدٍ، وهو أبلَغُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢١/ ٣٨٨). ويُنظر ما سيأتي في البلاغة (ص: ٣٩٨).

وقال ابن عاشور: (كان المُشركونَ يَعمِدونَ إلى الطَّلَبِ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَفعَلَ ما يرغَبونَ، مِثلُ: طَرْدِ ضُعَفاءِ المؤمِنينَ مِنَ المجلِسِ، والإتيانِ بقُرآنٍ غيرِ هذا أو تبديلِه بما يُشايِعُ أحوالَهم، وأنْ يَكُفَّ عمَّا لا يُريدونَ وُقوعَه مِن تحقيرِ آلهتِهم، والجَهْرِ بصَلاتِه؛ فحَذَّرَه اللهُ مِنَ الاستماعِ لِقَولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢١٢، ٢١٣).

وأيضًا لَمَّا كان الصَّبرُ يُساعِدُه القيامُ بعبادةِ اللهِ، والإكثارُ من ذِكْرِه؛ أمَرَه اللهُ بذلك، فقال[١]:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: واذكُرِ اسمَ رَبِّك -يا محمَّدُ- في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه[٢].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾.

أي: واسجُدْ للهِ تعالى في صَلاتِك في اللَّيلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤).

قيل: المرادُ: صَلِّ لرَبِّك أوَّلَ النَّهارِ صَلاةَ الصُّبحِ، وصَلِّ في آخِرِه صَلاةَ الظُّهرِ والعَصْرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، ومكِّيٌّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ: الذِّكْرُ باللِّسانِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والبِقاعي، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

وقيل بالعُمومِ، فيَدخُلُ في ذلك: الصَّلَواتُ المكتوباتُ وما يَتْبَعُها مِن النَّوافِلِ، والذِّكرُ، والتَّسبيحُ، والتَّهليلُ، والتَّكبيرُ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

قيل: المرادُ: صلاةُ المغرِبِ والعِشاءِ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) =

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

أي: وسَبِّحِ اللهَ تعالى وَقتًا طَويلًا مِنَ اللَّيلِ[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

= (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

وقيل: المرادُ: صلاةُ العِشاءِ، والوترُ، وقيامُ اللَّيلِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٧).

وقيل: المراد: قيامُ اللَّيلِ. وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (هذا خاصٌّ بصلاةِ اللَّيلِ فَرضًا ونَفلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: قيامُ اللَّيلِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

وقيل: المرادُ: تنزيهُ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

وقال ابن عاشور: (التَّسبيحُ: التَّنزيهُ بالقَولِ وبالاعتقادِ، ويَشملُ الصَّلَواتِ والأقوالَ الطَّيِّبةَ، والتَّدَبُّرَ في دَلائلِ صِفاتِ اللهِ وكَمالاتِه، وغَلَب إطلاقُ مادَّةِ التَّسبيحِ على الصَّلاةِ النَّافِلةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ أنَّه كان مِن المنتَظَرِ أنْ يُقالَ: «فاشكُرْ نِعمةَ رَبِّك»، ولكِنَّه عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مَن قام بهذا القرآنِ فلا بُدَّ أنْ ينالَه ما يَنالُه ممَّا يحتاجُ إلى صبرٍ، وانظرْ إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ ضَرَبه قَومُه فأَدْمَوه، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِه الشَّريفِ، ويقولُ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لِقَومي؛ فإنَّهم لا يَعلَمونَ!))[١]؛ فعلى الدَّاعيةِ أنْ يكونَ صابِرًا مُحتَسِبًا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أنَّه لَمَّا كان لا سَبيلَ إلى الصَّبرِ إلَّا بتعويضِ القَلْبِ بشَيءٍ هو أحَبُّ إليه مِن فَواتِ ما يَصبِرُ على فَوْتِه، أمَرَه بأنْ يَذْكُرَ ربَّه سُبحانَه بُكْرةً وأَصيلًا؛ فإنَّ ذِكْرَه أعظَمُ العَونِ على تَحَمُّلِ مَشاقِّ الصَّبرِ، وأنْ يَصْبِرَ لرَبِّه باللَّيلِ فيَكونَ قيامُه باللَّيلِ عَونًا على ما هو بصَدَدِه بالنَّهارِ، ومادَّةً لِقُوَّتِه ظاهِرًا وباطِنًا، ولنَعيمِه عاجِلًا وآجِلًا[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما كان يُطِيعُ أحَدًا منهم، لكِنَّ المقصودَ بَيانُ أنَّ النَّاسَ مُحتاجونَ إلى مُواصَلةِ التَّنبيهِ والإرشادِ؛ مِن أجْلِ ما تركَّبَ فيهم مِن الشَّهَواتِ الدَّاعيةِ إلى الفَسادِ، وأنَّ أحدًا لو استَغنَى عن توفيقِ اللهِ وإمدادِه وإرشادِه، لَكان أحَقُّ النَّاسِ به هو الرَّسولَ المعصومَ، ومتى ظَهَر ذلك عَرَف كُلُّ مُسلِمٍ أنَّه لا بُدَّ له مِن الرَّغبةِ إلى اللهِ، والتَّضرُّعِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٥).

إليه أن يَصونَه عن الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ فَضْلُ العبادةِ باللَّيلِ[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا * فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، و(على) تُفيدُ الاستِعلاءَ، أي: أنَّه نَزَل إلى الرَّسولِ مِن فَوق، وتُفيدُ أيضًا التَّحَمُّلَ؛ لأنَّه نَزَل عليه كأنَّه فوقَه، والشَّيءُ الَّذي فوقَك لا بدَّ أن تتحمَّلَه؛ ممَّا يدُلُّ على ثِقَلِ القُرآنِ. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٣] [المزمل: ٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، دَخَل فيه أنْ لا تُطِعْ منهم آثمًا أو كَفُورًا، فكان ذِكْرُه بَعْدَ هذا تكريرًا؟

الجوابُ: الأوَّلُ أمرٌ بالمأموراتِ، والثَّاني نهيٌ عن المنهيَّاتِ، ودَلالةُ أحَدِهما على الآخَرِ بالالتزامِ لا بالتَّصريحِ، فيكونُ التَّصريحُ به مُفيدًا[٤].

٣- قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ فمَن سَبَّحَ اللهَ لَيلًا طويلًا لَمْ يكُنْ ذلك اليومُ ثَقيلًا عليه، بل كان أخَفَّ شَيءٍ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((الكلم الطيب)) لابن تيمية (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٨).

(٥) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٥).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ يقتَضي نَهْيَ الإمامِ عن طاعةِ آثمٍ مِن العُصاةِ، أو كَفورٍ مِن المُشرِكين[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فيه سُؤالٌ: كَلِمةُ (أو) تَقتضي النَّهيَ عن طاعةِ أحَدِهما، فلِمَ لَمْ يَذكُرِ (الواو)؛ حتَّى يكونَ نَهيًا عن طاعتِهما جميعًا؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لو قِيلَ: (ولا تُطِعْهما) لَجاز أن يُطيعَ أحَدَهما؛ لأنَّ النَّهيَ عن طاعةِ مَجموعِ شَخصَينِ لا يَقتَضي النَّهيَ عن طاعةِ كُلِّ واحِدٍ منهما وَحْدَه، أمَّا النَّهيُ عن طاعةِ أحَدِهما، فيكونُ نَهْيًا عن طاعةِ مَجموعِهما؛ لأنَّ الواحِدَ داخِلٌ في المجموعِ.

الوَجهُ الثَّاني: تقديرُ الآيةِ: لا تُطِعْ منهم أحَدًا؛ سواءٌ كان آثِمًا أو كَفُورًا، كقَولِ الرَّجُلِ لِمَن يَسألُه شيئًا: (لا أُعطيك؛ سواءٌ سألْتَ أو سَكَتَّ)[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى الصَّلَواتِ الخَمْسِ، فالبُكرةُ صلاةُ الصُّبحِ، والأصيلُ: الظُّهرُ والعصرُ، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: المغربُ والعِشاءُ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٩).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٠٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٩).

- هو استِئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن الاستِدلالِ على ثُبوتِ البَعثِ بالحُجَّةِ والتَّرهيبِ والوَعيدِ للكافِرينَ به، والتَّرغيبِ والوعْدِ للمؤمنينَ به بمُرهِّباتٍ ومُرغِّباتٍ هي مِن الأحوالِ الَّتي تكونُ بعْدَ البَعثِ؛ فلمَّا استُوفِيَ ذلك ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى تَثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والرَّبطِ على قلْبِه؛ لدِفاعِ أنْ تَلحَقَه آثارُ الغَمِّ على تَصلُّبِ قَومِه في كُفْرِهم وتَكذيبِهم بما أُنزِلَ عليه، ممَّا شَأْنُه أنْ يُوهِنَ العَزيمةَ البشَريَّةَ، فذكَّرَه اللهُ بأنَّه نزَّلَ عليه الكتابَ؛ لئلَّا يَعبأَ بتَكذيبِهم[1].

- وفي إيرادِ هذا بعْدَ طُولِ الكلامِ في أحوالِ الآخِرةِ: قَضاءٌ لحقِّ الاعتناءِ بأحوالِ النَّاسِ في الدُّنيا؛ فابتُدِئَ بحالِ أشرَفِ النَّاسِ، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ بحالِ الَّذين دَعاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ مَن ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: ٢٧]، ومَن ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] فأدْخَلَهم في رَحمتِه[2].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) للاهتِمامِ به، وتَأكيدُ الضَّميرِ المتَّصلِ بضَميرٍ مُنفصِلٍ في قولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾؛ لتَقريرِ مَدلولِ الضَّميرِ تأكيدًا لَفظيًّا؛ للتَّنبيهِ على عَظَمةِ ذلك الضَّميرِ؛ ليُفضِيَ به إلى زِيادةِ الاهتمامِ بالخبَرِ؛ إذ يَتقرَّرُ أنَّه فِعلُ مَن هذانِ الضَّميرانِ له؛ لأنَّه لا يَفعَلُ إلَّا فِعلًا مَنوطًا بحِكمةٍ وأقْصى الصَّوابِ. وهذا مِن الكِنايةِ الرَّمزيةِ[3]، وبعْدُ فالخبَرُ بمَجموعِه مُستعمَلٌ في لازمِ معْناهُ، وهو التَّثبيتُ والتَّأييدُ، فمَجموعُه كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[4]. فتَكريرُ الضَّميرِ بعْدَ إيقاعِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اسمًا لـ (إنَّ) تَأكيدٌ على تَأكيدٍ لمعْنى اختصاصِ اللهِ بالتَّنزيلِ؛ لِيَتقرَّرَ في نفْسِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا كان هو المُنزِّلَ لم يكُنْ تَنزيلُه على أيِّ وجْهٍ نزَلَ إلَّا حِكمةً وصَوابًا، كأنَّه قِيل: ما نزَّلَ عليك القرآنَ تَنزيلًا مُفرَّقًا مُنجَّمًا إلَّا أنا، لا غَيري، وقد عرَفْتَني حَكيمًا فاعلًا لكلِّ ما أفْعَلُه بدَواعي الحِكمةِ. فاجتماعُ التَّأكيدِ على التَّأكيدِ يُفيدُ مُفادَ القصْرِ[١]؛ إذ ليس الحصرُ والتَّخصيصُ إلَّا تَأكيدًا على تَأكيدٍ[٢].

- وجاء التَّوكيدُ بـ (إنَّ) لمَضمونِ الخبَرِ ومَدلولِ المُخبَرِ عنه، وأُكِّدَ الفِعلُ بالمَصدرِ[٣].

- وإيثارُ فِعلِ ﴿نَزَّلْنَا﴾ الدَّالِّ على تَنزيلِه مُنجَّمًا آياتٍ وسُورًا تَنزيلًا مُفرَّقًا: إدماجٌ[٤]؛ للإيماءِ إلى أنَّ ذلك كان مِن حِكمةِ اللهِ تعالَى الَّتي أومأَ إليها تَأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)، وتَأكيدُ الضَّميرِ المتَّصلِ بالضَّميرِ المُنفصِلِ[٥].

- وفيه تَعريضٌ بالمشركينَ الَّذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فجَعَلوا تَنزيلَه مُفرَّقًا شُبهةً في أنَّه ليس مِن عندِ اللهِ، والمعْنى: ما أنْزَلَه مُنجَّمًا إلَّا أنا، واقتَضَت حِكْمتي أنْ أُنزِلَه عليك مُنجَّمًا[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٣).

- قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ الفاءُ هي الفصيحةُ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ عرَفْتَ هذا فاصبِرْ[١]. وهو أمْرٌ للرَّسولِ بالصَّبرِ على أعباءِ الرِّسالةِ وما يَلْقاه فيها مِن أذَى المشركين، وشدٌّ لعَزيمته ألَّا تَخورَ، وسَمَّى ذلك حُكمًا؛ لأنَّ الرِّسالةَ عن اللهِ لا خِيَرةَ للمُرسَلِ في قَبولِها، والاضْطِلاعِ بأُمورِها[٢].

- وعُدِّيَ فِعلُ (اصبِرْ) باللَّامِ؛ لتَضمُّنِ الصَّبرِ معْنى الخُضوعِ والطَّاعةِ للأمْرِ الشَّاقِّ[٣].

- وفي هذا النَّهيِ ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ تَأكيدٌ للأمرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ النَّهيَ عنه يَشملُ كلَّ ما يَرفَعُ مُوجباتِ الصَّبرِ المرادِ هنا، والمقصودُ مِن هذا النَّهيِ تَأييسُهم مِن استجابتِه لهم حِينَ يَقرَأُ عليهم هذه الآيةَ؛ لأنَّهم يَحسَبونَ أنَّ ما عَرَضوه عليه سيَكونُ صارِفًا له عمَّا هو قائمٌ به مِن الدَّعوةِ؛ إذ همْ بُعَداءُ عن إدراكِ ماهيَّةِ الرِّسالةِ ونَزاهةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- ومُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (ولا تُطِعْهم)، أو (ولا تُطِعْ منهم أحدًا)، فعُدِلَ عنه إلى ﴿ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾؛ للإشارةِ بالوصفَينِ إلى أنَّ طاعَتَهم تُفْضي إلى ارتكابِ إثمٍ أو كُفْرٍ؛ لأنَّهم في ذلك يَأمُرونَه ويَنهَونَه غالبًا، فهمْ لا يَأمُرون إلَّا بما يُلائِمُ صِفاتِهم[٥].

- والتَّقسيمُ بـ (أو) في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ باعتبارِ ما يَدْعونَه إليه؛ فالمعْنى: ولا تُطِعْ منهم راكبًا لِما هو إثمٌ داعيًا لك إليه، أو فاعلًا لِما

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٤).

هو كُفْرٌ داعيًا لك إليه؛ لأنَّهم إمَّا أنْ يَدْعوه إلى مُساعَدتِهم على فِعلٍ هو إثمٌ أو كفْرٌ، أو غيرُ إثْمٍ ولا كفْرٍ؛ فنَهى أنْ يُساعِدَهم على الاثنينِ دونَ الثَّالثِ[1].

وقيل: (أو) إذا وقَعت في سياقِ النَّفيِ تُفيدُ مُفادَ واوِ العَطْفِ، فتدُلُّ على انتفاءِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه معًا، ولا تفيدُ المفادَ الَّذي تُفيدُه في الإثباتِ، وهو كونُ الحُكمِ لأحدِ المتعاطِفَينِ[2].

ومعْنى الآيةِ نهْيٌ عن طاعةِ أحَدِ هذينِ الموصوفينِ، ويُعلَمُ أنَّ طاعةَ كِلَيهما مَنهيٌّ عنها بدَلالةِ الفَحوى؛ لأنَّه إذا أطاعَهُما معًا فقدْ تَحقَّقَ منه طاعةُ أحَدِهما وزِيادةٌ[3].

- والنَّهيُ عن طاعةِ كلِّ واحدٍ منْهما أبلَغُ مِن النَّهيِ عن طاعتِهما؛ لأنَّه يَستلزِمُ النَّهيَ عن أحدِهما؛ لأنَّ في طاعَتِهما طاعةَ أحَدِهما. ولو قال: لا تَضرِبْ زَيدًا وعَمْرًا، لَجاز أنْ يكونَ نَهيًا عن ضَرْبِهما جَميعًا، لا عن ضَرْبِ أحَدِهما[4].

- و(مِن) للتَّبعيضِ، والضَّميرُ المجرورُ بها عائدٌ للمشرِكين، ولم يَتقدَّمْ لهم ذِكرٌ؛ لأنَّهم مَعلومونَ مِن سِياقِ الدَّعوةِ، أو لأنَّهم المفهومُ مِن قولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾، أي: لا كما يَزعُمُ المشرِكون أنَّك جِئتَ به مِن تِلْقاءِ نفْسِك، ومِن قولِه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: على أذَى المشرِكين. ويَؤولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

المعْنى: ولا تُطِعْ أحدًا مِن المشركين[١].

- والآثِمُ والكَفورُ مُتلازِمانِ، فكان ذِكرُ أحَدِ الوصفينِ مُغْنِيًا عن الآخَرِ، ولكنْ جُمِعَ بيْنَهما لتَشويهِ حالِ المُتَّصِفِ بهما[٢].

- والكَفورُ وإنْ كان آثمًا، فإنَّ فيه مُبالَغةً في الكُفْرِ. ولَمَّا كان وَصْفُ الكُفورِ مُبايِنًا للمَوصوفِ بمجرَّدِ الإثْمِ، صَلَحَ التَّغايُرُ؛ فحَسُنَ العطْفُ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ في ذِكرِ الوَقتَينِ إشارةٌ إلى دَوامِ الذِّكرِ، وذِكرُ اسمِه لازِمٌ لذِكرِه[٤].

- وعلى القولِ بأنَّ قولَه: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ يعني: فصَلِّ له صَلاتَيِ المَغرِبِ والعِشاءِ فقد ذَكَرَهما بالسُّجودِ تَنبيهًا على أنَّه أفضَلُ الصَّلاةِ، فهو إشارةٌ إلى أنَّ اللَّيلَ مَوضعُ الخُضوعِ[٥].

- وتَقديمُ الظَّرفِ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ لِمَا في صَلاةِ اللَّيلِ مِن مَزيدِ الكُلفةِ والخُلوصِ، ومَزيدِ الفَضيلةِ؛ لأنَّ الالْتفاتَ فيه إلى جانِبِ الحقِّ أتمُّ؛ لزَوالِ الشَّاغِلِ للحواسِّ مِن حَركاتِ النَّاسِ وأصواتِهم، وسائرِ الأحوالِ الدُّنيويَّةِ؛ فكان أبْعَدَ عن الرِّياءِ، فكان الخُشوعُ فيه واللَّذَّةُ التَّامَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

بحلاوةِ العِبادةِ أوْفَى[(١)].

- والمقصودُ بقولِه: ﴿وَسَبِّحۡهُ﴾ صَلاةُ التَّطوُّعِ في اللَّيلِ، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ، وقولُه: ﴿طَوِيلًا﴾ صِفةُ ﴿لَيۡلًا﴾، وحيث وُصِفَ اللَّيلُ بالطُّولِ بعْدَ الأمْرِ بالتَّسبيحِ فيه، عُلِمَ أنَّ ﴿لَيۡلًا﴾ أُرِيدَ به أزمانُ اللَّيلِ؛ لأنَّه مَجموعُ الوقتِ المُقابِلِ للنَّهارِ؛ لأنَّه لو أُرِيدَ ذلك المِقدارُ كلُّه لم يكُنْ في وَصْفِه بالطُّولِ جَدْوى، فتعيَّنَ أنَّ وصْفَ الطُّولِ تَقييدٌ للأمرِ بالتَّسبيحِ، أي: سبِّحْه أكثَرَ اللَّيلِ، فهو في معْنى قولِه تعالَى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إلى ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [الإنسان: ٢، ٤]، أو يَتنازَعُه كلٌّ مِن (اسْجُدْ) و(سَبِّحْه)[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

الآيات (٢٧-٣١)

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾.

غَرِيبُ الكَلِمات:

﴿أَسْرَهُمْ﴾: أي: خَلْقَهم، والأَسْرُ في كلامِ العَرَبِ: شِدَّةُ الخَلْقِ، يُقالُ: فُلانٌ شَديدُ أَسْرِ الخَلْقِ: إذا كان مَعصوبَ الخَلْقِ غيرَ مُسترخٍ، و: شَدَّ اللهُ أَسْرَه، أي: قَوَّى إحكامَ خَلْقِه. وأصلُ (أسر): يدُلُّ على الرَّبطِ والتَّوثيقِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّ المصدَرَ المؤوَّلَ في محلِّ نَصبٍ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّة بتَقديرِ المُضافِ السَّادِّ هو مَسَدَّه، أي: إلَّا وَقْتَ مشيئةِ اللهِ تعالى. الثَّاني: أنَّ المصدَرَ المؤوَّلَ في محلِّ نَصبٍ على نَزعِ الخافِضِ، والاستثناءُ مِن أعَمِّ الأسبابِ، أي: وَما تَشاؤُونَ بسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ إلَّا بأنْ يَشاءَ اللهُ تعالى. الثَّالثُ: أنَّه في محلِّ نَصبٍ مُستثنًى مِن أعمِّ الأحوالِ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، أي: وما تَشاؤُونَ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ مَشيئةِ اللهِ تعالى.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٠/ ٤٨).

وقَولُه تعالى: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾: «الظَّالِمينَ»: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ بفِعلٍ محذوفٍ يُفَسِّرُه ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ مِن حيثُ المعنى، لا مِن حيثُ اللَّفظُ؛ لأنَّ (أَعَدَّ) يتعدَّى باللَّامِ، تقديرُه: وعَذَّبَ الظَّالِمينَ، أو: أَوْعَدَ، ونحوُ ذلك. وجملةُ ﴿أَعَدَّ﴾ مُفَسِّرةٌ للفِعلِ المقَدَّرِ؛ فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موبِّخًا المشرِكين ومنكِرًا عليهم: إنَّ مُشْرِكي قُرَيشٍ يُحِبُّونَ الحَياةَ الدُّنيا العاجِلةَ، ويَترُكونَ خَلْفَ ظُهورِهم يومَ القيامةِ الثَّقيلَ بأهوالِه وشَدائِدِه، نحنُ خَلَقْناهم وأحْكَمْنا خِلْقَتَهم، وإذا شِئْنا بَعَثْناهم يومَ القيامةِ، وأعَدْنا أجسامَهم مِن جَديدٍ مِثْلَما كانوا في الدُّنيا.

ثمَّ يحُضُّ اللهُ سُبحانَه على طاعتِه، ويحذِّرُ مِن مَعصيتِه، فيقولُ: إنَّ آياتِ هذه السُّورةِ تَذكيرٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَعْتَبِروا، فمَن شاء سَلَك طَريقًا يُوصِلُه إلى اللهِ تعالى، بالإيمانِ به، والتَّوبةِ إليه، وطاعتِه.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه نُفوذَ مَشيئتِه، وأنَّها فوقَ كلِّ مَشيئةٍ، فيقولُ: وما تَشاؤُونَ -أيُّها النَّاسُ- اتِّباعَ طَريقِ الحَقِّ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لكم ذلك، إنَّ اللهَ تعالى كان عَليمًا فلا يَخْفَى عليه شَيءٌ، حكيمًا فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، يُدخِلُ اللهُ تعالى مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه، وأعَدَّ للظَّالِمينَ عَذابًا مُؤلِمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٦، ٦٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٤، ١٨٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ١٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خاطَبَ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّعظيمِ والنَّهيِ والأمرِ؛ عَدَلَ إلى شَرْحِ أحوالِ الكُفَّارِ والمتمَرِّدينَ(١).

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾.

أي: إنَّ مُشْركي قُرَيشٍ يُحِبُّونَ الحَياةَ الدُّنيا، فهم حَريصونَ على البَقاءِ فيها، والتَّمَتُّعِ بمَلَذَّاتِها(٢).

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾.

أي: ويَترُكونَ خَلْفَ ظُهورِهم يومَ القيامةِ الثَّقيلَ بأهوالِه وشَدائِدِه؛ فلا يَعمَلونَ له، ولا يَسْتَعِدُّونَ له، ولا يَعْبَؤونَ به(٣).

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٧).

قال السمعاني: (يجوزُ أن يكونَ سَمَّاه ثقيلًا؛ لشِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ فيه، ويجوزُ أن يكونَ سَمَّاه ثقيلًا؛ لفَصلِ القضاءِ فيه بيْنَ العِبادِ وعَدْلِه معهم، وهو في غايةِ الثِّقَلِ عليهم إلَّا مَن تَدارَكَه اللهُ بفَضْلِه). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنه لَمَّا كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم (يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) يَتضمَّنُ أنَّهم يُنكِرونَ وُقوعَ ذلك اليَومِ، وكان الباعثُ لهم على إنكارِه شُبهةَ استِحالةِ إعادةِ الأجسادِ بعْدَ بِلاها وفَنائِها، وكان الكلامُ السَّابقُ مَسوقًا مَساقَ الذَّمِّ لهم، والإنكارِ عليهم؛ جِيءَ هنا بما هو دَليلٌ للإنكارِ عليهم، وإبطالٌ لِشُبهتِهم، ببَيانِ إمكانِ إعادةِ خَلْقِهم، فالَّذي خَلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ يُعيدُهم[١]. فلَمَّا كان تَركُهم لليَومِ الثَّقيلِ على وَجهِ التَّكذيبِ الَّذي هو أقبَحُ التَّركِ، وكان تكذيبُهم لاعتقادِهم عدَمَ القدرةِ عليه؛ قال دالًّا على الإعادةِ بالابتداءِ مِن بابِ الأَولى[٢]:

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾.

أي: نحنُ خَلَقْنا أولئك المُشرِكينَ وأحْكَمْنا خِلْقتَهم، فرَبَطْنا أجزاءَ أجسادِهم بالعِظامِ والأوتارِ والأعصابِ والعُروقِ وغَيرِها؛ فصارت أجزاءُ أبدانِهم مُحكَمةً مَشدودًا بَعضُها إلى بَعضٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٥، ٥٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩، ٤١٠).

قال القرطبي: (الكَلامُ خَرَجَ مَخرَجَ الامتنانِ عليهم بالنِّعَمِ حينَ قابَلوها بالمعصيةِ، أي: سَوَّيتُ خَلْقَك، وأحكَمْتُه بالقُوى، ثمَّ أنت تَكفُرُ بي!). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢).

وقال السعدي: (﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكَمْنا خِلقتَهم بالأعصابِ، والعروقِ، والأوتارِ، والقُوى الظَّاهرةِ والباطنةِ، حتَّى تمَّ الجسمُ واستكمل، وتمكَّن مِن كلِّ ما يُريدُه، فالَّذي أوجَدَهم على هذه الحالةِ قادرٌ على أن يُعيدَهم بعدَ مَوتِهم لجزائِهم، والَّذي نقلَهم في هذه الدَّارِ إلى =

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

أي: وإذا شِئْنا بَعَثْناهم يومَ القيامةِ، وأعَدْنا أجسامَهم مِن جَديدٍ مِثْلَما كانوا في الدُّنيا(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ - ٦٢].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شَرَح أحوالَ السُّعَداءِ وأحوالَ الأشقياءِ، قال بَعْدَه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، والمعنى: إنَّ هذه السُّورةَ بما فيها مِنَ التَّرتيبِ العَجيبِ، والنَّسَقِ البَعيدِ، والوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ: تَذكِرةٌ

= هذه الأطوارِ، لا يَليقُ به أن يَترُكَهم سُدًى، لا يُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْن، ولا يُثابونَ ولا يُعاقَبون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ المذكورِ: الزمخشريُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وإذا شِئْنا أهلَكْنا المُشرِكين، وجِئْنا بآخَرينَ خَيرٍ منهم، فيَكونونَ أطْوَعَ وأتْقَى لله منهم في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٧). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٦).

للمُتأمِّلينَ، وتَبصِرةٌ للمُستَبصِرينَ؛ فمَن شاء الخِيَرةَ لِنَفْسِه في الدُّنيا والآخِرةِ اتَّخَذ إلى رَبِّه سَبيلًا[1].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾.

أي: إنَّ آياتِ هذه السُّورةِ تَذكيرٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَعْتَبِروا[2].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾.

أي: فمَن شاء سَلَك طَريقًا يُوصِلُه إلى اللهِ تعالى، وإلى جَنَّتِه ورِضوانِه، بالإيمانِ به، والتَّوبةِ إليه، وطاعتِه[3].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ناطَ اختيارَهم سَبيلَ مَرضاةِ اللهِ بمَشيئتِهم، أعقَبَه بالتَّنبيهِ إلى الإقبالِ على طَلَبِ مَرضاةِ اللهِ؛ للتَّوسُّلِ برِضاه إلى تيسيرِ سُلوكِ سُبُلِ الخَيرِ لهم؛ لأنَّهم إذا كانوا منه بمَحَلِّ الرِّضا والعِنايةِ، لَطَف بهم، ويَسَّرَ لهم ما يَعسُرُ على النُّفوسِ، مِن المُصابَرةِ على تَرْكِ الشَّهَواتِ المُهلِكةِ[4].

وأيضًا لَمَّا أثبَتَ لهم المشيئةَ الَّتي هي مَناطُ التَّكليفِ، وكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١، ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢).

ادَّعى مُدَّعٍ في خَلْقِ الأفعالِ، كما قال أهلُ الاعتزالِ؛ قال نافيًا عنهم الاستِقلالَ[١]:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وما تَشاؤُونَ -أيُّها النَّاسُ- اتِّباعَ طَريقِ الحَقِّ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لكم ذلك؛ فلا أحَدَ يَقدِرُ على هِدايةِ نَفْسِه[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلْمِ التَّامِّ، فلا يَخْفى عليه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلْمُه بمَن يَستَحِقُّ الهِدايةَ فيُيَسِّرُها له، ومَن يَستَحِقُّ الغَوايةَ فيَصرِفُه عن الهُدى، وهو متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالحِكْمةِ البالِغةِ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، ومِن ذلك الهِدايةُ والإضلالُ[٣].

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ٣١﴾.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: يُدخِلُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه بتَوفيقِه لسُلوكِ طَريقِه المُستَقيمِ الموصِلِ إلى جَنَّتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾.

أي: وأعدَّ اللهُ تعالى للظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّركِ وتَرْكِ التَّوبةِ: عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ إخبارٌ منه سُبحانَه عمَّا يَمنعُ العبدَ من إيثارِ ما فيه سَعادتُه في الدُّنيا والآخِرةِ، وهو حُبُّ العاجِلةِ، وإيثارُها على الآخِرةِ؛ تَقديمًا لداعي الحِسِّ على داعي العَقلِ[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ صَحَّ به ما قاله أهلُ السُّنَّةِ مِن أنَّ للعَبدِ مَشيئةً لا تُؤَثِّرُ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى وتحريكِها لقُدرةِ العَبدِ، وانتفى مَذهَبُ القَدَريَّةِ الَّذين يَقولونَ: إنَّا نحن نَخلُقُ أفعالَنا! ومَذهَبُ الجَبْريَّةِ القائلينَ: لا فِعْلَ لنا أصلًا[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إثباتُ المشيئَتَينِ: مَشيئةِ الرَّبِّ، ومَشيئةِ العَبدِ، وفيها بيانُ أنَّ مَشيئةَ العَبدِ تابعةٌ لمشيئةِ الرَّبِّ[٤].

٣- يجبُ أنْ نَقرِنَ كلَّ آيةٍ جاءتْ بلَفظِ المَشيئةِ أو جاءتْ مُعلَّقةً؛ أنْ نَقرِنَها بالحِكْمةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨١).

فالقاعدةُ: أنَّ كلَّ فِعلِ لله تعالى مُعلَّقٌ بالمشيئةِ؛ فإنَّه مَقرونٌ بالحِكمةِ، وليس شيءٌ مِن فِعلِه سُبحانَه مُعلَّقًا بالمشيئةِ المجرَّدةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يشرعُ ولا يفعلُ إلَّا لحِكمةٍ[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ يدُلُّ على أنَّه جَفَّ القَلَمُ بما هو كائِنٌ؛ لأنَّ معنى ﴿أَعَدَّ﴾: أنَّه عَلِمَ ذلك وقضى به، وأخبَرَ عنه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ، ومَعلومٌ أنَّ التَّغييرَ على هذه الأشياءِ مُحالٌ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن إطاعةِ الكافِرينَ في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أي: لأنَّ خُلُقَهم الانصبابُ على الدُّنيا مع الإعراضِ عن الآخرةِ؛ إذْ هم لا يُؤمِنون بالبَعثِ، فلو أطاعَهم لَتخلَّقَ بخُلقِهم؛ قال تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآيةَ [النساء: ٨٩]؛ فمَوقعُ (إنَّ) موقعُ التَّعليلِ، وهي بمَنزلةِ فاءِ السَّببيَّةِ[٣].

- و(هؤلاء) إشارةٌ إلى حاضِرينَ في ذِهنِ المُخاطَبِ؛ لكَثرةِ الحديثِ عنهم، وقدْ عُلِمَ بالاستِقراءِ مِن القُرآنِ أنَّه إذا أُطلِقَ (هؤلاء) دونَ سَبْقِ ما يكونُ مُشارًا إليه، فالمَقصودُ به المشرِكون[٤].

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٧١).
ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُحِبُّونَ﴾ تدُلُّ على تكرُّرِ ذلك، أي: أنَّ ذلك دَأبُهم ودَيْدَنُهم، لا يُشارِكون مع حُبِّ العاجِلةِ حُبَّ الآخرةِ[(١)].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُحِبُّونَ﴾ مُضافٌ مَحذوفٌ، تَقديرُه: نَعيمَ أو مَنافعَ؛ لأنَّ الحُبَّ لا يَتعلَّقُ بذاتِ الدُّنيا[(٢)].

- والعاجِلةُ: صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ مَعلومٍ مِن المقامِ، تَقديرُه: الحياةَ العاجِلةَ، أو الدَّارَ العاجلةَ[(٣)].

- وفي إيثارِ ذِكرِ الدُّنيا بوَصْفِ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ تَوطئةٌ للمَقصودِ مِن الذَّمِّ؛ لأنَّ وَصْفَ العاجِلةِ يُؤذِنُ بأنَّهم آثَرُوها لأنَّها عاجلةٌ، وفي ذلك تَعريضٌ بتَحميقِهم؛ إذْ رَضُوا بالدُّونِ؛ لأنَّه عاجلٌ، وليس ذلك مِن شِيَمِ أهلِ التَّبصُّرِ، فقَولُه: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ واقعٌ مَوقعَ التَّكميلِ لمَناطِ ذَمِّهم وتَحميقِهم؛ لأنَّهم لو أحَبُّوا الدُّنيا مع الاستعدادِ للآخرةِ لَمَا كانوا مَذمومينَ[(٤)].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿وَيَذَرُونَ﴾ تَقْتضي أنَّهم مُستمِرُّون على ذلك، وأنَّ ذلك مُتجدِّدٌ فيهم ومُتكرِّرٌ لا يَتخلَّفون عن ذلك التَّركِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بحُلولِ ذلك اليَومِ[(٥)].

- واليَومُ الثَّقيلُ: هو يومُ القيامةِ، وُصِفَ بالثَّقيلِ؛ لشِدَّةِ ما يَحصُلُ فيه مِن المَتاعبِ والكُروبِ، فهو كالشَّيءِ الثَّقيلِ الَّذي لا يُستطاعُ حمْلُه[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي =

- والآيةُ مِن الاحتباكِ[١]: ذَكَر الحُبَّ والعاجِلةَ أوَّلًا؛ دَلالةً على ضِدِّهما ثانيًا، والتَّرْكَ والثِّقَلَ ثانيًا؛ دَلالةً على ضِدِّهما أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَره أدَلُّ على سَخافةِ العَقلِ بعَدَمِ التَّأمُّلِ للعواقِبِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾

- قولُه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ فيه افتتاحُ الجُملةِ بالمُبتدأِ المُخبَرِ عنه بالخبَرِ الفِعليِّ دونَ أنْ تُفتتَحَ بـ (خَلَقْناهم) أو (نحن خالِقون)؛ لإفادةِ تَقَوِّي الخبَرِ وتَحقيقِه بالنَّظَرِ إلى المَعنيِّينَ بهذا الكلامِ، وإنْ لم يكُنْ خِطابًا لهم، ولكنَّهم هم المَقصودُ منه. وتَقويةُ الحُكمِ بِناءٌ على تَنزيلِ أولئك المَخلوقينَ مَنزِلةَ مَن يشُكُّ في أنَّ اللهَ خَلَقَهم؛ حيثُ لم يَجْرُوا على مُوجبِ العِلمِ، فأنْكَروا أنَّ اللهَ يُعيدُ الخلْقَ بعْدَ البلى، فكأنَّهم يُسنِدون الخلْقَ الأوَّلَ لغيرِه. وتَقوِّي الحُكمِ يَترتَّبُ عليه أنَّه إذا شاء بدَّلَ أمثالَهم بإعادةِ أجسادِهم؛ فلذلك لم يُحتَجْ إلى تأكيدِ جُملةِ ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾؛ استِغناءً بتَولُّدِ مَعناها عن معْنى الَّتي قبْلَها، وإنْ كان هو أَولى بالتَّقويةِ على مُقتضى الظَّاهِرِ. وهذا التَّقَوِّي هنا مُشعِرٌ بأنَّ كَلامًا يَعقُبُه هو مَصبُّ التَّقَوِّي[٣].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إخبارٌ بأنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُبدِلَهم بناسٍ آخَرينَ، فحُذِفَ مَفعولُ ﴿شِئْنَا﴾ لدَلالةِ جَوابِ (إذا) عليه، كما هو الشَّأنُ في فِعلِ المَشيئةِ غالبًا، واجتِلابُ (إذا) في هذا التَّعليقِ للدَّلالةِ على

= حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٩).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩).

تَحقُّقِ القُدرةِ وقُوَّةِ الدَّاعيةِ؛ لأنَّ شأنَ (إذا) أنْ تُفيدَ اليَقينَ بوُقوعِ ما قُيِّدَ بها، بخِلافِ حرْفِ (إنْ)؛ فهو إيماءٌ إلى أنَّ حُصولَ هذه المَشيئةِ مُستقرَبُ الوُقوعِ[١].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا بمَنزلةِ النَّتيجةِ لقولِه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ إلخ، ويُحمَلُ الشَّرطُ على التَّحقُّقِ؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ تَهديدًا لهم على إعراضِهم وجُحودِهم للبَعثِ، أي: لو شِئْنا لَأهلَكْناهم وخَلَقْنا خَلْقًا آخَرَ مِثلَهم، ويكون (إذا) مُرادًا به تَحقُّقُ التَّلازُمِ بيْنَ شَرطِ (إذا) وجَوابِها، أي: الجُملةِ المضافِ إليها، والجُملةِ المُتعلِّقِ بها[٢].

- وفِعلُ التَّبديلِ يَقتضي مُبدَّلًا ومُبدَّلًا به، وأيُّهما اعتَبَرْتَه في مَوضعِ الآخَرِ صَحَّ؛ لأنَّ كلَّ مُبدَّلٍ بشَيءٍ هو أيضًا مُبدَّلٌ به ذلك الشَّيءُ، ولا سيَّما إذا لم يكُنْ في المَقامِ غرَضٌ ببَيانِ المَرغوبِ في اقتنائِه، والمَسموحِ ببَذْلِه مِن الشَّيئينِ المُستبدَلينِ، فحُذِفَ مِن الكلامِ هنا مُتعلَّقُ ﴿بَدَّلْنَا﴾ -وهو المَجرورُ بالباءِ-؛ لأنَّه أَولَى بالحذْفِ، وأُبقِيَ المفعولُ[٣].

- وانتصَبَ ﴿تَبْدِيلًا﴾ على المفعولِ المطلَقِ المؤكِّدِ لعامِلِه؛ للدَّلالةِ على أنَّه تَبديلٌ حَقيقيٌّ، وللتَّوصُّلِ بالتَّنوينِ إلى تَعظيمِه وأُعْجوبتِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١١).

للانتِقالِ مِن بَسْطِ التَّذكيرِ والاستِدلالِ إلى فَذْلكةِ[١] الغرَضِ وحَوصلتِه؛ إشعارًا بانتهاءِ المَقصودِ، وتَنبيهًا إلى فائدتِه، ووَجْهِ الانتفاعِ به، والحثِّ على التَّدبُّرِ فيه، واستثمارِ ثَمرتِه، وباعتبارِ ما تَفرَّعَ عن هذه الجُملةِ مِن قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ...﴾ [الإنسان: ٢٩] إلخ، يُقوِّي مَوقعَ الفَذلكةِ للجُملةِ[٢].

- وتَأكيدُ الكلامِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّ حالَ المُخاطَبينَ عدَمُ اهتمامِهم بها، فهم يُنكِرون أنَّها تَذكرةٌ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ليس على جِهةِ التَّخييرِ، بلْ على جِهةِ التَّحذيرِ مِن اتِّخاذِ غيرِ سَبيلِ اللهِ تعالَى[٤].

- وأُطلِقَت التَّذكرةُ هنا على الموعظةِ بالإقلاعِ عن عمَلٍ سيِّئٍ والإقبالِ على عمَلٍ صالحٍ، وعلى وُضوحِ الخَيرِ والشَّرِّ لِمَن تَذكَّرَ -أي: تَبصَّرَ- بتَشبيهِ حالةِ المُعرِضِ عن الخيرِ المشغولِ عنه بحالةِ النَّاسي له؛ لأنَّ شَأنَه ألَّا يُفرِّطَ فيه إلَّا مَن كان ناسيًا؛ لِما فيه مِن نفْعٍ له[٥].

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيله، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

- وفُرِّعَ على قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ الحثُّ على سُلوكِ سَبيلِ مَرضاةِ اللهِ بقولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أي: ليس بعْدَ هذه التَّذكرةِ إلَّا العملُ بها إذا شاء المُتذكِّرُ أنْ يَعمَلَ بها، ففي قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ حثٌّ على المُبادَرةِ بذلك؛ لأنَّ مَشيئةَ المَرءِ في مُكْنَتِه، فلا يَمنَعُه منها إلَّا سُوءُ تَدبيرِه، وهذا حثٌّ وتَحريضٌ فيه تَعريضٌ بالمشركين بأنَّهم أبَوْا أنْ يَتذكَّروا عِنادًا وحسَدًا[(١)].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ، أي: الخيرَ لنفْسِه، وحُسنَ العاقبةِ[(٢)].

- لا يَختلِفُ العُقلاءُ في شَرَفِ ما يُوصِلُ إلى الرَّبِّ سُبحانَه، أي: إلى إكرامِه؛ لأنَّ ذلك قَرارةُ الخَيراتِ، ولذلك عُبِّرَ برَبٍّ مُضافًا إلى ضَميرِ ﴿فَمَن شَآءَ﴾؛ إذ سَعادةُ العبْدِ في الحُظْوةِ عندَ ربِّه[(٣)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ جُملةُ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تَتميمٌ واحتراسٌ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. =

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿تَشَآءُونَ﴾ لإفادةِ العُمومِ، والتَّقديرُ: وما تَشاؤونَ شَيئًا أو مَشيئًا، أو الطَّاعةَ، وعُمومُ الأشخاصِ يَستلزِمُ عُمومَ الأحوالِ والأزمنةِ، أي: ما تَشاؤونَ شَيئًا في وَقتٍ مِن الأوقاتِ، أو في حالٍ مِن الأحوالِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عُلِّلَ ارتباطُ حُصولِ مَشيئتِهم بمَشيئةِ اللهِ بأنَّ اللهَ عَليمٌ حَكيمٌ، أي: عَليمٌ بوَسائلِ إيجادِ مَشيئتِهم الخيرَ، حَكيمٌ بدَقائقِ ذلك ممَّا لا تَبلُغُ إلى مَعرفةِ دَقائقِه بالكُنْهِ عُقولُ النَّاسِ؛ لأنَّ هنالك تَصرُّفاتٍ عُلويَّةً لا يَبلُغُ النَّاسُ مَبلَغَ الاطِّلاعِ على تَفصيلِها، ولكنْ حَسْبُهم الاهتداءُ بآثارِها، وتَزكيةُ أنفُسِهم للصَّدِّ عن الإعراضِ عن التَّدبُّرِ فيها[٢].

- و(ما) نافيةٌ، والاستِثناءُ مِن عُمومِ الأشياءِ المَشيئةِ وأحوالِها وأزْمانِها. ولَمَّا كان ما بعْدَ أداةِ الاستِثناءِ حرْفَ مَصدرٍ، تَعيَّنَ أنَّ المُستثنى يُقدَّرُ مَصدرًا، أي: إلَّا شَيْءَ اللهِ (بمعْنى مَشيئتِه)، وهو صالحٌ لاعتبارِ المعْنى المَصدريِّ، ولاعتبارِ الحالةِ، ولاعتبارِ الزَّمانِ؛ لأنَّ المَصدرَ صالحٌ لإرادةِ الثَّلاثةِ باختلافِ التَّأويلِ؛ فإنْ قُدِّرَ مُضافٌ كان المعْنى: إلَّا حالَ مَشيئةِ اللهِ، أو إلَّا

= والاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نَوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.

والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠ - ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢، ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١٣).

زمَنَ مَشيئتِه، وإنْ لم يُقدَّرْ مُضافٌ كان المعْنى: لا مَشيئةَ لكمْ في الحقيقةِ إلَّا تَبعًا لمَشيئةِ اللهِ، وإيثارُ اجتلابِ (أنِ) المَصدريَّةِ من إعجازِ القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلَا ﴿تَشَآءُونَ﴾ و﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُنزَّلين مَنزلةَ اللَّازمِ، فلا يُقدَّرُ لهما مَفعولانِ، ويكونَ الاستِثناءُ مِن أحوالٍ، أي: وما تَحصُلُ مَشيئتُكم في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ حُصولِ مَشيئةِ اللهِ، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى دِقَّةِ كُنْهِ مَشيئةِ العبْدِ تُجاهَ مَشيئةِ اللهِ؛ ففي الآيةِ تَنبيهُ النَّاسِ إلى هذا المعْنى الخَفيِّ؛ ليَرقُبُوه في أنفُسِهم فيَجدوا آثارَه الدَّالَّةَ عليه قائمةً مُتوافِرةً؛ ولهذا أُطنِبَ وَصْفُ هذه المشيئةِ بالتَّذييلِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فهو تَذييلٌ أو تَعليلٌ لجُملةِ ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣١]، أي: لأنَّه واجبٌ له العِلمُ والحكمةُ، فهو أعلَمُ، فمَن شاء أنْ يُدخِلَه في رَحمتِه، ومَن شاء أبْعَدَه عنها. وهذا إطنابٌ لم يَقَعْ مِثلُه في قولِه تعالَى في سُورةِ (عَبَسَ) [١١، ١٢]: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنَّ حُصولَ التَّذكُّرِ مِن التَّذكرةِ أقرَبُ وأمكَنُ مِن العملِ بها، المُعبَّرِ عنه بالسَّبيلِ المُوصلةِ إلى اللهِ تعالَى؛ فلذلك صُرِفَت العِنايةُ والاهتمامُ إلى ما يَلوحُ بوَسيلةِ اتِّخاذِ تلك السَّبيلِ[1].

- قولُه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ بتاءِ الخِطابِ على الالتفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٣، ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١٥).

والالتفات: هو نقْلُ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخَرَ؛ تجديدًا لنشاطِ السَّامعِ، وصيانةً لخاطرِه مِن الملالِ والضَّجرِ بدوامِ الأسلوبِ الواحدِ على سمعِه، كالانتقالِ مِن الخِطابِ إلى الغيبةِ، أو تغييرِ ضميرِ المتكلِّمِ نفسِه تارةً يجعلُه تاءً على جهةِ الإخبارِ عن نفسِه، وتارةً يجعلُه كافًا، فيجعلُ نفسَه مخاطبًا، وتارةً يجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفسَه مقامَ الغائبِ. وشرطُه أنْ يكونَ الضَّميرُ في المتنقلِ إليه عائدًا في نفسِ الأمرِ إلى الملتفَّتِ عنه، وللمتكلِّمِ والخطابِ والغيبةِ مقامات، والمشهورُ =

٥- قولُه تعالَى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ بيانٌ لأحكامِ مَشيئتِه تعالى المُترتِّبةِ على عِلمِه وحِكمتِه[1]. فالجملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن جُملةِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ إذ يَتساءلُ السَّامعُ عن أثَرِ مَشيئةِ اللهِ في حالِ مَن اتَّخَذَ إلى ربِّه سَبيلًا، ومَن لم يتَّخِذْ إليه سَبيلًا، فيُجابُ بأنَّه يُدخِلُ في رَحمتِه مَن شاء أنْ يَتَّخِذَ إليه سَبيلًا، وأنَّه أعدَّ لِمَن لم يَتَّخِذْ إليه سَبيلًا عَذابًا أليمًا، وأولئك هم الظَّالِمونَ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ خبَرَ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وتكونَ جُملةُ ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] مُعترِضةً بيْن اسمِ (إنَّ) وخبَرِها، أو حالًا، وهي على التَّقديرينِ مُنبِئةٌ بأنَّ إجراءَ وَصفَيِ العليمِ الحكيمِ على اسمِ الجَلالةِ مُرادٌ به التَّنبيهُ على أنَّ فِعلَه كلَّه -مِن جَزاءٍ برَحمةٍ أو بعَذابٍ- جارٍ على حسَبِ عِلمِه وحِكمتِه[2].

- وانتَصَبَ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنَّه مَفعولٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه المذكورُ على طَريقةِ الاشتغالِ، والتَّقديرُ: أوعَدَ الظَّالِمين، أو كافَأَ، أو نحْوُ ذلك ممَّا يُقَدِّرُه السَّامعُ مُناسِبًا للفِعلِ المذكورِ بعْدَه[3].

- الآيةُ مِن الاحتباكِ[4]: ذَكَر الإدخالَ والرَّحمةَ أوَّلًا؛ دَلالةً على الضِّدِّ ثانيًا،

= أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحدِها إلى الآخرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠ - ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٦).

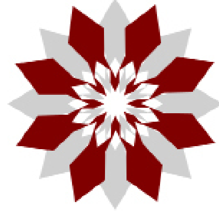
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٨).
ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِل الإعراب (ص: ٤٠١).

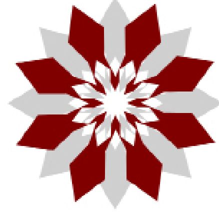
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦٥).

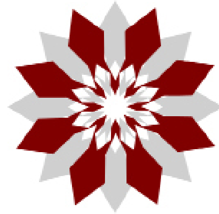
والعذابَ ثانيًا؛ دَلالةً على الثَّوابِ أوَّلًا، وسرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَرَه أَولى بترغيبِ أهلِ العَدلِ فيه، وإن ساءت حالُهم في الدُّنيا، وبترهيبِ أهلِ الظُّلمِ منه، وإن حَسُنَت حالُهم في الدُّنيا[1].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٣).

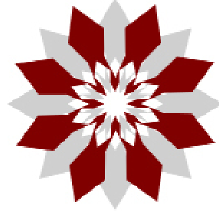


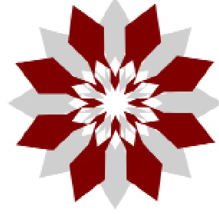


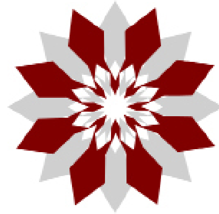


تَفْسِيرُ

سُورَةِ المُرسَلاتِ







سورةُ المُرسَلاتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المرسَلاتِ)[١]. وسمِّيت بـ(الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا)[٢].

وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: ((بَيْنَما نحنُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غارٍ بمِنًى إذ نزلَت عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، وإنَّه لَيَتْلوها، وإنِّي لَأتَلَقَّاها مِن فيه، وإنَّ فاهُ لَرَطْبٌ بها[٣] ...)) الحديثَ[٤].

٢- عن أُمِّ الفَضلِ بنتِ الحارثِ رضيَ الله عنها، قالَتْ: ((سمِعْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في المغربِ بـ«الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا»، ثُمَّ ما صلَّى لنا بعدَها حتَّى قَبَضه اللهُ))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

١- أنَّها نزَلَتْ جملةً واحدةً[٦].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٥).

(٢) قال ابن عاشور: (وسُمِّيَتْ في عهدِ الصَّحابةِ سورَةَ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٧).

(٣) أي: لم يجِفَّ ريقُه بها، والمعنى: أنَّه لم يُمسِكْ عن التِّلاوةِ لها بعدُ، ورطوبةُ الفَمِ بها حرَكتُه للتِّلاوةِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرة (٢/ ١٩)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٣/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٢٩).

(٦) ذكرها السيوطيُّ فيما نزَل جمعًا لا مفرَّقًا. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ١٣٦).

عن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كنَّا معَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في غارٍ، فنزَلتْ عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾[1]، فأخَذْتُها من فيهِ، وإنَّ فاه لَرَطْبٌ بها، فلا أدْري بأيِّها ختَم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أو ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾))[2].

٢- صلَّى بها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في آخِرِ صَلاةٍ صلَّاها بالنَّاسِ إمامًا:

وقد تقدَّم حديثُ أُمِّ الفضلِ بنتِ الحارثِ وسماعِها للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ بسورةِ (المرسَلاتِ) في صلاةِ المغربِ، وفيه: قالت: ((ثُمَّ ما صلَّى لنا بعدَها حتَّى قَبَضه اللهُ)). والمرادُ -واللهُ أعلَمُ-: ما صلَّى بعدَها إمامًا بالنَّاسِ[3].

وفي روايةٍ قالت: ((إنَّها [أي: سورةَ المرسَلاتِ] لَآخِرُ ما سمِعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بها في المغربِ))[4].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المرسَلاتِ مَكِّيَّةٌ[5].

(١) قال ابن العربي: (وهي مِن غرائبِ القرآنِ...؛ فإنَّها نزلت على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم تحتَ الأرضِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه أحمدُ (٣٥٧٤)، وابنُ حبَّانَ (٧٠٧)، والحاكمُ (٢٩٩٤).

صحَّحه ابنُ حبَّانَ، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٤٦)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ. والحديثُ في الصَّحيحَينِ دونَ آخِرِه: (فلا أدري ...).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢١).

(٤) أخرجه البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٥) وقيل: إلَّا آيةً منها، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]؛ فهي =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

تخويفُ الكفَّارِ وتحذيرُهم عن الكُفرِ[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على وُقوعِ القيامةِ، وأنَّه آتٍ لا شَكَّ فيه، وذِكرُ بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- الاستِدلالُ على وُقوعِ البَعثِ، وذِكرُ بعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى: من خَلْقِ الإنسانِ والأرضِ والجبالِ.

٣- وعيدُ المكذِّبين، ووصْفُ عذابِهم في الآخِرةِ.

٤- وصْفُ نعيمِ المتَّقينَ، وحُسنِ عاقبتِهم، وأنواعِ كرامتِهم.

٥- التَّعجيبُ مِن أحوالِ الكافِرين، وشِدَّةِ عِنادِهم وتعنُّتِهم.



= مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٠). وقد ذكر عشَرةَ أنواعٍ مِن التَّخويفاتِ اشتملت عليها السُّورةُ الكريمةُ (٣٠/ ٧٧٠ - ٧٨١).

الآيات (١-٧)

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ٧﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: المرادُ بالمُرْسَلاتِ: الرِّياحُ، وقيل: الملائكةُ، وقيل: الأنبياءُ، والعُرْفُ: التَّتابُعُ؛ مِن قَولِ العَرَبِ: تركْتُ النَّاسَ إلى فُلانٍ عُرْفًا واحِدًا: إذا توَجَّهوا إليه فأكثَروا، والعُرْفُ على هذا: اسمٌ أُقيمَ مُقامَ الحالِ؛ لأنَّ المعنى: والرِّياحِ الَّتي أُرسِلَت مُتتابِعةً. وقيل: العُرْفُ: المعروفُ والإحسانُ. وأصلُ (عرف): يدُلُّ على تتابُعِ الشَّيءِ مُتَّصِلًا بَعْضُه بَبعضٍ، ويدُلُّ كذلك على السُّكونِ والطُّمأنينةِ؛ لأنَّ النُّفوسَ تَسكُنُ إلى المعروفِ والإحسانِ[١].

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: أي: الرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[٢].

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾: هم الملائِكةُ الَّتي تَنشُرُ أجنحَتها في الجوِّ، وتنشُرُ الشَّرائعَ في الأرضِ وقيل غير ذلك، وقيل: هي الرِّياحِ الَّتي تَنشُرُ السَّحابَ، وتأتي بالمطَرِ. وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠١).

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾: أي: الملائكةِ تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والحَلالِ والحَرامِ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (فرق): يدُلُّ على تمييزٍ بيْن شَيئَينِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾

قَولُه تعالى: ﴿عُرْفًا﴾: فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه مَفعولٌ مِنْ أجْلِه، أي: والمُرْسَلاتِ للإحسانِ والمَعروفِ، والعُرْفُ: ضِدُّ النُّكْرِ. الثَّاني: أنْ يَنتصِبَ على الحالِ، بمعنى: مُتتابعةً؛ مِنْ قولِهم: جاؤُوا عُرْفًا واحِدًا: إذا جاؤوا يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضًا. الثَّالثُ: أنْ يَنتصِبَ على إسقاطِ الخافضِ، أي: والمُرسَلاتِ بالعُرْفِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾

قولُه تعالى: ﴿ذِكْرًا﴾: مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ «المُلْقِيات».

قَولُه: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾: ﴿عُذْرًا﴾: فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه بَدَلٌ مِنْ «ذِكْرًا». الثَّاني: أنَّه مَفعولٌ به منصوبٌ بالمصدرِ ﴿ذِكْرًا﴾. الثَّالثُ: أنَّه مفعولٌ مِنْ أجْلِه، والعامِلُ فيه: إمَّا «المُلْقِيات»، وإمَّا «ذِكْرًا»، أي: فالْمُلْقِياتِ ذِكْرًا للإعذارِ والإنذارِ. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن «المُلْقِيات»، أو مِن الضَّميرِ فيها، أي: فالمُلْقِياتِ ذِكْرًا مُعْذِرينَ أو مُنْذِرينَ. ﴿نُذْرًا﴾: مَعطوفٌ على «عُذْرًا» منصوبٌ مِثلُه، وله حُكْمُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((الدر المصون)) =

المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأنْ أقسَمَ بالرِّياحِ الَّتي تُرسَلُ مُتتابِعةً، وتَهُبُّ شَيئًا فشَيئًا، وبالرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ، وبالملائكةِ الَّتي تَنشُرُ ما دُبِّرتْ على نشرِه، وبالملائِكةِ الَّتي تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وبالملائِكةِ الَّتي تُبَلِّغُ رُسُلَ اللهِ وَحْيَه؛ إقامةً للحُجَّةِ مِنَ اللهِ على خَلْقِه، وتحذيرًا لهم مِن عَذابِه؛ أقسَمَ سُبحانه بما تقَدَّمَ على أنَّ الَّذي يوعَدُ به النَّاسُ به مِنَ البَعثِ يومَ القيامةِ والحِسابِ والجَزاءِ: واقِعٌ لا شَكَّ فيه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالرِّياحِ الَّتي تُرسَلُ مُتتابِعةً، فيَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا، وتَهُبُّ شَيئًا فشَيئًا(١).

= للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٠، ٦٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المُرسَلاتِ هي الرِّياحُ المُرسَلةُ: الواحديُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، ورجَّحه الشوكانيُّ، وابنُ عاشور، واختاره الشنقيطيُّ كما نقله عنه صاحبُ التَّتِمَّة. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ، والقُرطبيُّ، وابنُ القيِّمِ هذا القولَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٠).

قال ابن كثير: (والأظهرُ أنَّ «المُرْسَلاتِ» هي الرِّياحُ، كما قال تعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ =

= [الحجر: ٢٢]، وقال تعالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧]. ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقال ابن القيِّم: (ويؤيِّدُ كَوْنَها الرِّياحَ عَطْفُ العاصِفاتِ عليها بفاءِ التَّعقيبِ والتَّسَبُّبِ، فكأنَّها أُرسِلَت فعصَفَت). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٣).

وقيل: هي الملائِكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزمخشريُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٣)، ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ مسعودٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، ومَسروقٌ، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وأبو الضُّحى، والسُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨١، ٥٨٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٦).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٢-١٤٤).

وقيل: المرادُ: الأنبياءُ المُرسَلونَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

قال ابن عطيَّة: (قال كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ: المُرسَلاتُ: الرُّسُلُ إلى النَّاسِ مِنَ الأنبياءِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦).

وضعَّف ابنُ القَيِّم هذا القَولَ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٣).

وقد اختار ابنُ جريرٍ العُمومَ، فقال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندَنا أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بالمُرسَلاتِ عُرْفًا، وقد تُرسَلُ عُرْفًا الملائكةُ، وتُرسَلُ كذلك الرِّياحُ، ولا دَلالةَ تدُلُّ على أنَّ المَعْنيَّ بذلك أحدُ الجِنسَينِ دونَ الآخَرِ، وقد عَمَّ جَلَّ ثناؤُه بإقسامِه بكُلِّ ما كانت صِفتُه ما وَصَف، فكُلُّ مَن كانت صِفتُه كذلك فداخِلٌ في قَسَمِه ذلك؛ مَلَكًا أو رِيحًا أو رَسولًا مِن بني آدَمَ مُرسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣).

قال القرطبيُّ: (وقيل: يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالمُرسَلاتِ السَّحابَ؛ لِما فيها مِن نِعمةٍ ونِقمةٍ، عارفةً بما أُرسِلَت فيه، ومَن أُرسِلَت إليه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٤).

كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان العُصوفُ للعَواصِفِ يَتعَقَّبُ الهُبوبَ، عطَفَ بالفاءِ؛ تَعقيبًا وتَسبيبًا[1]:

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾.

أي: فالرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ تفريعٌ على المُرسَلاتِ، أي: تُرسَلُ فتَعْصِفُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالعاصِفاتِ الرِّياحُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليٌّ، وابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وأبو صالحٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨١).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ أنَّه أقسَم أوَّلًا بالرِّياحِ، فهي مُرسَلاتُه تعالى، ويدُلُّ عليه عَطفُ الصِّفةِ بالفاءِ،... وأنَّ العَصفَ مِن صفاتِ الرِّيحِ في عدَّةِ مَواضِعَ مِن القرآنِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤).

وقيل: هي الملائِكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير =

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائكةِ الَّتي تَنشُرُ ما دُبِّرتْ على نشرِه[1].

= الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، ومسروقٌ، ومسلمُ بنُ صُبَيحٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨٢).
وممَّن جمَع بيْن القولَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الملائكةُ: الزمخشريُّ، والقرطبي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّم، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: أبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨٢).
قال أبو حيَّان: (والَّذي أراه أنَّ المُقسَمَ به شيئان؛ ولذلك جاء العطفُ بالواوِ في ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، والعطفُ بالواوِ يُشعِرُ بالتَّغايُرِ، بل هو مَوضوعُه في لسانِ العرَبِ... فالظَّاهِرُ أنَّه أقسَمَ أوَّلًا بالرِّياحِ، فهي مُرسَلاتُه تعالى، ويدُلُّ عليه عطفُ الصِّفةِ بالفاءِ، ... وأنَّ العصفَ مِن صفاتِ الرِّيحِ في عِدَّةِ مواضِعَ من القرآن. والقَسَمُ الثَّاني فيه تَرَقٍّ إلى أشرَفَ مِن المقسَمِ به الأوَّلِ، وهم الملائكةُ، ويكون ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ... فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ﴾ مِن صِفاتِهم، كما قُلْنا في عَطفِ الصِّفاتِ. وإلقاؤُهم الذِّكْرَ -وهو ما أنزَلَ اللهُ- يصِحُّ إسنادُه إليهم). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤).
وقال ابن عاشور: (... الصِّفات الَّتي عُطِفَت بالفاءِ تابعةٌ لِجنسِ ما عُطِفَت هي عليه، والَّتي عُطِفَت بالواوِ يَترجَّحُ أنَّها صِفاتُ جِنسٍ آخَرَ.
فالأرجَحُ أنَّ المُرسَلاتِ والعاصِفاتِ صِفتانِ للرِّياحِ، وأنَّ ما بَعْدَها صِفاتٌ للملائكةِ، والواوُ الثَّانيةُ للعطْفِ وليستْ حرْفَ قسَمٍ. ومُناسَبةُ الجمْعِ بيْن هذَينِ الجنسينِ في القسَمِ أنَّ كِلَيْهما مِن الموجوداتِ العُلويَّةِ؛ لأنَّ الأصلَ في العطْفِ بالواوِ أنْ يكونَ المعطوفُ بها ذاتًا غيرَ المعطوفِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).
وقال ابنُ القيِّم: (لكِنَّ هنا أمرًا يَنبغي التَّفطُّنُ له، وهو أنَّه سُبحانَه جعَلَ الأقسامَ في هذه السُّورةِ =

= نوعَين، وفَصَل أحدَهما مِن الآخَرِ، وجعَل «العاصِفاتِ» معطوفًا على «المرسَلاتِ» بفاء التَّعقيبِ؛ فصارَا كأنَّهما نوعٌ واحدٌ، ثمَّ جعَل «النَّاشِراتِ» كأنَّه قسَمٌ مُبتدَأٌ، فأتى فيه بالواوِ، ثمَّ عطَف عليه «الفارِقاتِ» و«المُلْقياتِ» بالفاءِ، فأوهَمَ هذا أنَّ «الفارِقاتِ» و«المُلْقياتِ» مُرتبطٌ بـ«النَّاشراتِ»، وأنَّ «العاصِفاتِ» مرتبطٌ بـ «المرسَلاتِ»... ويَظهَرُ -واللهُ أعلَمُ بما أراد مِن كلامِه- أنَّ القسَمَ في هذه الآيَةِ وقَع على النَّوعَينِ: الرِّياحِ والملائكةِ، ووجْهُ المُناسَبةِ أنَّ حياةَ الأرضِ والنَّباتِ وأبدانِ الحيَوانِ: بالرِّياحِ؛ فإنَّها مِن رَوْحِ الله، وقد جعَلها اللهُ تعالى نُشورًا؛ وحياةَ القُلوبِ والأرواحِ بالملائكةِ، فبِهَذَينِ النَّوعَينِ يحصُلُ نَوْعَا الحياةِ، ولهذا -واللهُ أعلَمُ- فصَل أحدَ النَّوعَينِ مِن الآخَرِ بالواوِ، وجعل ما هو تابعٌ لكلِّ نَوعٍ بعدَه بالفاءِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٥، ١٤٦).

قال الزمخشري: (نَشَرْنَ أجنِحَتَهنَّ في الجَوِّ عندَ انحطاطِهنَّ بالوَحْيِ، أو نَشَرْنَ الشَّرائِعَ في الأرضِ، أو نشَرْنَ النُّفوسَ الموتى بالكُفرِ والجَهلِ، بما أَوْحَينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧).

وقال القرطبي: (﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ الملائِكةُ الموكَّلونَ بالسُّحُبِ يَنشُرونَها). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥).

وقيل: المرادُ بالنَّاشِراتِ: الرِّياحُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطيُّ كما نقله عنه صاحبُ التَّتِمَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

ونسَبَ الرَّسْعَنيُّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩).

قال ابن كثير: (النَّاشِراتُ هي: الرِّياحُ الَّتي تَنْشُرُ السَّحابَ في آفاقِ السَّماءِ، كما يَشاءُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ: الملائكةِ والرِّياحِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ، فقال: (إنَّ اللهَ -تعالى ذِكْرُه- أقسَمَ بالنَّاشِراتِ نَشْرًا، ولم يَخصُصْ شَيئًا مِن ذلك دونَ شَيءٍ، فالرِّيحُ تَنشُرُ السَّحابَ، والمطَرُ يَنشُرُ الأرضَ، والملائِكةُ تَنشُرُ الكُتُبَ، ولا دَلالةَ مِن وَجهٍ يَجِبُ التَّسليمُ له على أنَّ المرادَ مِن ذلك بَعضٌ دونَ بَعضٍ، فذلك على كُلِّ ما =

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ[1].

= كان ناشِرًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أنَّها الملائِكةُ تَنشُرُ ما دُبِّرت على نَشْرِه، أو أنَّها السَّحابُ الَّتي يَنشُرُ بها اللهُ الأرضَ، فيُحييها بعدَ مَوتِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالفارقاتِ: الملائكةُ: الزَّجَّاجُ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، ونسبه ابنُ القيِّم إلى الجمهورِ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ يعني: الملائكةَ. قاله ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومَسروقٌ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، والسُّدِّيُّ، والثَّوْريُّ. ولا خِلافَ هاهنا؛ فإنَّها تنزِلُ بأمرِ الله على الرُّسُلِ، تُفَرِّقُ بيْن الحقِّ والباطِلِ، والهُدى والغَيِّ، والحلالِ والحرامِ، وتُلْقي إلى الرُّسُلِ وحيًا فيه إعذارٌ إلى الخَلقِ، وإنذارٌ لهم عِقابَ الله إن خالَفوا أمْرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقيل: المرادُ: القُرآنُ، فهو يَفْرُقُ بيْن الحَقِّ والباطِلِ. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، والحَسَنُ، وابنُ كَيْسانَ. ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧).

وقيل: المرادُ: الرِّياحُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦).

قال الرَّسْعَني: (﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ قال مجاهدٌ: هي الرِّياحُ تُفَرِّقُ بيْن السَّحابِ فتُبَدِّدُه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٨).

وقيل: المرادُ: السَّحابُ. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٦٦).

قيل: السُّحبُ فرَّقْنَ بيْن مَن يَشكُرُ اللهَ تعالى وبيْن مَن يَكفُرُ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٨٢).

وقيلَ: شُبِّهَت السَّحاباتُ الماطِرةُ بالنَّاقةِ الفارِقِ -وهي الحامِلُ- الَّتي تَخرُجُ وتَنِدُّ في الأرضِ =

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾.

أي: فالملائكةِ الَّتي تُبَلِّغُ رُسُلَ اللهِ وَحْيَه المُذَكِّرَ بالحَقِّ لعِبادِه(١).

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾.

أي: وذلك الوَحيُ إقامةٌ للحُجَّةِ مِنَ اللهِ على خَلْقِه، وتحذيرٌ لهم مِن عَذابِه(٢).

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾.

أي: إنَّ الَّذي تُوعَدونَ به مِنَ البَعثِ يومَ القيامةِ والحِسابِ والجَزاءِ: لَكائِنٌ لا شَكَّ في ذلك(٣).

= حينَ تضَعُ، شَبَّهوا السَّحابةَ الَّتي تَنْفَرِدُ مِن السَّحابِ بهذه النَّاقةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى عَدَمِ التَّخصيصِ بشَيءٍ مُعَيَّنٍ، فقال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أنْ يقالَ: أَقسَمَ رَبُّنا -جَلَّ ثناؤه- بالفارِقاتِ، وهي الفاصِلاتُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ولم يَخصُصْ بذلك منهنَّ بَعضًا دونَ بَعضٍ، فذلك قَسَمٌ بكُلِّ فارِقةٍ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ؛ مَلَكًا كان أو قُرآنًا أو غيرَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

حكى غيرُ واحدٍ الاتِّفاقَ وعدمَ الخلافِ في أنَّ المرادَ: الملائكةُ؛ منهم: المهدويُّ، والقرطبيُّ، وابنُ القيم، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٩).

ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤). =

كما قال تعالى حِكايةً عن الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ [فاطر: ٥].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ الإرسالُ نَوعانِ: إرسالُ دينٍ يُحِبُّه ويَرضاه، كإرسالِ رُسُلِه وأنبيائِه، وإرسالُ كَونٍ، وهو نَوعانِ: نوعٌ يُحِبُّه ويَرضاه، كإرسالِ ملائكتِه في تدبيرِ أمرِ خَلْقِه -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، ونوعٌ لا يحِبُّه، بل يَسخَطُه ويُبغِضُه، كإرسالِ الشَّيطانِ على الكُفَّارِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا * عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ أنَّه مِن تمامِ عَدْلِه وإحسانِه سُبحانَه أنْ أعْذَرَ إلى عبادِه، وألَّا يُؤاخِذَ ظالِمَهم إلَّا بعدَ كَمالِ الإعذارِ، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا * فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا * فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا * فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا * عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا * فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا * فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا * فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ

= قال الماوَرْدي: (﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا جوابُ ما تقدَّمَ مِنَ القَسَمِ؛ لأنَّ في أوَّلِ السُّورةِ قَسَمًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٧).

قيل: الخِطابُ للنَّاسِ. وممَّن قال به: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠).

وقيل: الخِطابُ للمُشركين. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١).

ذِكۡرًا﴾ صِفاتٌ لمَوصوفاتٍ قد حُذِفَت، وأُقِيمَت صِفاتُها مُقامَها[1].

- وهذا قَسَمٌ بمَخلوقاتٍ عَظيمةٍ دالَّةٍ على عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالَى وقُدرتِه، والمَقصودُ مِن هذا القَسَمِ تأْكيدُ الخبَرِ، وفي تَطويلِ القسَمِ تَشويقُ السَّامعِ لتَلقِّي المُقسَمِ عليه[2].

- قولُه: ﴿عُرۡفٗا﴾ حالٌ مُفيدةٌ معْنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: مِثلَ عُرْفِ الفرَسِ في تَتابُعِ الشَّعرِ بَعضِه ببَعضٍ، يُقالُ: هم كعُرْفِ الضَّبعِ، إذا تَألَّبوا، ويُقالُ: جاؤوا عُرْفًا واحدًا. وهو صالِحٌ لوَصْفِ الملائكةِ ولوَصْفِ الرِّيحِ. وقيل غيرُ ذلك[3].

- قولُه: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾ تَفريعٌ على ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾، إنْ أُريدَ بالمُرسَلاتِ وصْفُ الملائكةِ، فالعصْفُ تَشبيهٌ لنُزولِهم في السُّرعةِ بشِدَّةِ الرِّيحِ؛ وذلك في المُبادَرةِ في سُرعةِ الوُصولِ بتَنفيذِ ما أُمِروا به، و﴿عَصۡفٗا﴾ مُؤكِّدٌ للوصْفِ تَأكيدًا لتَحقيقِ الوصْفِ[4].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ النَّشرُ: ضِدُّ الطَّيِّ، ويَكثُرُ استِعمالُه في الإظهارِ والإيضاحِ وفي الإخراجِ، فالنَّاشِراتُ إذا جُعِلَ وصْفًا للملائكةِ جاز أنْ يكونَ نَشْرَهم للوحيِ، أي: تكرير نزولِهم لذلك -على قولٍ-، وأنْ يكونَ النَّشرُ كِنايةً

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

عن الوُضوحِ، أي: بالشَّرائعِ البيِّنةِ[١].

وإذا كان قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ وَصْفًا للرِّياحِ فهو نشْرُ السَّحابِ في الأجواءِ، فيكونُ عطْفُه بالواوِ دونَ الفاءِ للتَّنبيهِ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ لا على ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾؛ لأنَّ العصْفَ حالةُ مَضَرَّةٍ، والنَّشرَ حالةُ نفْعٍ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ قيل: لتَفرُّعِ الفرْقِ عن النَّشرِ عُطِفَ ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾ على (النَّاشِرَاتِ) بالفاءِ، وأُكِّدَ بالمَفعولِ المُطلَقِ تأكيدًا لتَحقيقِ الوصْفِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ الإلقاءُ مُعبَّرٌ به عن تَبليغِ الذِّكرِ مِن العالَمِ العُلويِّ إلى أهلِ الأرضِ، بتَشبيهِه بإلقاءِ شَيءٍ مِن اليَدِ إلى الأرضِ، وإلقاءُ الذِّكرِ تَبليغُ المواعظِ إلى الرُّسلِ ليُبلِّغوها إلى النَّاسِ، وهذا الإلقاءُ مُتفرِّعٌ على الفرْقِ؛ لأنَّهم يَخُصُّون كلَّ ذِكْرٍ بمَن هو مُحتاجٌ إليه، فذِكرُ الكُفَّارِ بالتَّهديدِ والوعيدِ بالعَذابِ، وذِكرُ المؤمنين بالثَّناءِ والوعْدِ بالنَّعيمِ[٤].

- على القولِ بأنَّ الآياتِ إقسامٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بطَوائفَ مِن الملائكةِ أرسَلَهنَّ بأوامِرِه فلَعلَّ تَقديمَ النَّشْرِ -نشْرِ الشَّرائعِ ونشْرِ النُّفوسِ- والفَرْقِ على الإلقاءِ؛ للإيذانِ بكَونِها غايةً للإلقاءِ، حَقيقةً بالاعتناءِ بها، أو للإشعارِ بأنَّ كُلًّا مِن الأوصافِ المَذكورةِ مُستقِلٌّ بالدَّلالةِ على استحقاقِ الطَّوائفِ الموصوفةِ بها التَّفخيمَ والإجلالَ بالإقسامِ بهنَّ، ولو جيءَ بها على تَرتيبِ الوُقوعِ لَرُبَّما فُهِمَ أنَّ مَجموعَ الإلقاءِ والنَّشْرِ والفرْقِ هو المُوجِبُ لِما ذُكِرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الاستِحقاقِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ جَوابُ القسَمِ، وزِيدَت تَأْكيدًا بـ (إنَّ)؛ لتَقويةِ تَحقيقِ وُقوعِ الجَوابِ[(٢)].

- و(إنَّما) في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ كَلِمتانِ هما (إنَّ) الَّتي هي حرْفُ تَأكيدٍ، و(ما) الموصولةُ، وليست هي (إنَّما) الَّتي هي أداةُ حصْرٍ، وما يُوعَدون هو البعثُ للجَزاءِ، وهم يَعلَمون الصِّلةَ؛ فلذلك جِيءَ في التَّعبيرِ عنه بالمَوصوليَّةِ، والخِطابُ للمشرِكين -على قولٍ-، أي: ما تَوَعَّدكم اللهُ به مِن العِقابِ بعْدَ البعثِ واقعٌ لا مَحالةَ وإنْ شكَكْتُم فيه أو نَفَيْتُموه[(٣)].

- والواقعُ: الثَّابتُ، وأصلُ الواقعِ السَّاقطُ على الأرضِ، فعُبِّرَ به عن الشَّيءِ المُحقَّقِ؛ تَشبيهًا بالمُستقِرِّ[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨-١٥)

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾
لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طُمِسَتۡ﴾: أي: مُحِيَ نُورُها، والطَّمْسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمَحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[1].

﴿نُسِفَتۡ﴾: أي: قُلِعَتْ وأُزِيلَتْ، وأصلُ (نسف): يدُلُّ على كَشْفِ شَيءٍ[2].

﴿أُقِّتَتۡ﴾: أي: جُمِعَتْ لِميقاتِ يومٍ مَعلومٍ. أو: جُعِلَ لها وَقتٌ مُنتَظَرٌ فجاء وحانَ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ وغَيرِه[3].

﴿وَيۡلٞ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جهنَّمَ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).
قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤).
وقال ابنُ عطيَّة: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ مِن هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١). =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ القيامةِ: فإذا ذَهَب ضَوءُ النُّجومِ، وإذا فُتِحَت السَّماءُ، وإذا قُلِعَت الجِبالُ وتفَتَّتَت فصارتْ هَباءً، وإذا جُمِعَ رُسُلُ اللهِ في الوَقتِ المحَدَّدِ؛ وَقَعَ ما تُوْعَدون.

لأيِّ يَومٍ أُجِّلَ اجتِماعُ الرُّسُلِ؟ لِيَومِ الفَصلِ، الَّذي يَفصِلُ فيه اللهُ تعالى بيْنَ عِبادِه. وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- ما يومُ الفَصْلِ؟

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨﴾.

أي: فإذا ذَهَب ضَوءُ النُّجومِ[1].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾.

أي: وإذا فُتِحَت السَّماءُ وانشَقَّت[2].

قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩].

= وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيۡلٞ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾.

أي: وإذا قُلِعَت الجِبالُ، وتفَتَّتَتْ فصارَتْ هَباءً[١].

قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا * فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى تغييرَ السَّماءِ والأرضِ؛ ذكَرَ ما فُعِلَ ذلك مِن أجْلِه، فقال[٢]:

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾.

أي: وإذا جُمِعَ رُسُلُ اللهِ في الوَقتِ الَّذي حُدِّدَ لذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).
ويُنظر ما تقدَّم في ذكرِ الأحوالِ الَّتي تصيرُ إليها الجبالُ يومَ القيامةِ (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال ابن عاشور: (لا خِلافَ في أنَّ ﴿أُقِّتَتۡ﴾ مُشتَقٌّ مِنَ الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٥).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩].

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ١٢﴾.

أي: لأيِّ يومٍ أُخِّرت الرُّسلُ، وضُرِب لهم الأجلُ لجمعِهم[١]؟

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ١٣﴾.

أي: ليَوم يَفصِلُ فيه اللهُ تعالى بيْنَ عِبادِه، فيَحكُمُ بيْنَهم، ويُحاسِبُهم، ويُجازِي كُلًّا بما يَستَحِقُّ[٢].

قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

ثمَّ قال تعالى مُعظِّمًا شأنَ ذلك اليومِ، ومُهوِّلًا أمْرَه:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ١٤﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ أعلَمَك -يا محمَّدُ- ما يومُ الفَصْلِ[٣]؟

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفَصلُ: تمييزُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ بالقَضاءِ والجَزاءِ؛ إذ بذلك يَزولُ الالتِباسُ والاشتِباهُ والتَّمويهُ الَّذي كان لأهلِ الضَّلالِ في الدُّنيا، فتتَّضِحُ الحقائِقُ على ما هي عليه في الواقِعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧).

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّلَ أمْرَ يومِ القيامةِ؛ ذَكَر ما يَقَعُ فيه مِنَ الشِّدَّةِ على وَجهِ الإجمالِ، فقال[1]:

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[2].

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠].

الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أنَّه في مَقامِ التَّرغيبِ أوِ التَّرهيبِ فإنَّه يَنبغي التَّكرارُ، حيثُ كُرِّرَتْ الآيةُ عِدَّةَ مرَّاتٍ؛ تحذيرًا وإنذارًا، ولكلِّ مقامٍ مَقالٌ، والتَّكرارُ قد يكونُ مِن الرَّكاكةِ ومِن البُعْدِ عن البَلاغةِ، لكِنْ إذا كان في مَوضِعٍ يَحسُنُ فيه كان ذلك مِن البَلاغةِ[3].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ * لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ انتزَعَ النَّاسُ مِن هذه الآيةِ تأجيلَ القُضاةِ للخُصومِ في الحُكوماتِ؛ لِيَقَعَ فَصْلُ القَضاءِ عندَ تمامِ التَّأجيلِ[4].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ جاء في هذه السُّورةِ بَعْدَ كُلِّ جُملةٍ؛ لأنَّ كُلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخِرةِ، وتقريراتٍ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦١٠).

مِن أحوالِ الدُّنيا؛ فناسَبَ أن يَذكُرَ الوَعيدَ عَقِيبَ كُلِّ جملةٍ منها للمُكَذِّبِ، بالوَيلِ في يومِ الآخِرةِ(١).

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه قد كُرِّرَت هذه الجُملةُ بعَدَدِ أجزاءِ طرَفِ القَسَمِ أو أجزاءِ الجوابِ؛ لِتَكونَ كُلُّ جملةٍ منها وعيدًا على التَّكذيبِ بواحدٍ مِن تلك الأجزاءِ(٢).

وقيل: هو معَ كُلِّ آيةٍ كأنَّه مع سورةٍ مُفرَدةٍ، فلا تَكرارَ(٣). فكلُّ آيةٍ مِن هذا الوعيدِ تَعودُ الى ما ذُكِرَ قبْلَها.

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ * وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧]؛ لأنَّه لَمَّا أفاد وُقوعَ البَعثِ، وكان المُخاطَبونَ يُنكِرونه ويَتعلَّلون بعدَمِ التَّعجيلِ بوُقوعِه؛ بيَّن لهم ما يَحصُلُ قبْلَه زيادةً في تَهويلِه عليهم، والإنذارِ بأنَّه مُؤخَّرٌ إلى أنْ تَحصُلَ تلك الأحداثُ العظيمةُ، وذلك على أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وفيه كِنايةٌ رَمزيَّةٌ على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ الإخبارَ عن أَماراتِ حُلولِ ما يُوعَدون يَستلزِمُ التَّحذيرَ مِن التَّهاوُنِ به؛ ولذلك خُتِمَت هذه الأخبارُ بقولِه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾(٤) [المرسلات: ١٩].

- وفي جوابِ (إذا) في جُملةِ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه مَحذوفٌ، تَقديرُه: فإذا طُمِسَت النُّجومُ وَقَعَ ما تُوعَدون؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧]. والثَّاني: أنَّه ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾، على إضمارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣، ٤٢٤).

القولِ، أي: يُقالُ: لأيِّ يومٍ أُجِّلتْ، فالفعلُ في الحقيقةِ هو الجوابُ، وقيل: جَوابُ (إذَا) هذه الجملةُ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[1].

- وكُرِّرت كَلمةُ (إذا) في أوائلِ الجُمَلِ المَعطوفةِ على هذه الجُملةِ بعْدَ حُروفِ العطْفِ، مع إغناءِ حرْفِ العطفِ عن إعادةِ (إذا) كما في قولِه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ * يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الآيةَ [القيامة: ٧ - ١٠]؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بمَضمونِ كلِّ جُملةٍ مِن هذه الجُمَلِ؛ ليَكونَ مَضمونُها مُستقِلًّا في جَعْلِه عَلامةً على وُقوعِ ما يُوعَدون[2].

- وبناءُ الأفعالِ في قولِه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ * وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ بصِيغةِ المَبنيِّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه؛ لأنَّ المَقصودَ الاعتِبارُ بحُصولِ الفِعلِ، لا بتَعْيينِ فاعِلِه، على أنَّه مِن المَعلومِ أنَّ فاعِلَها هو اللهُ تعالَى؛ إذ لا يَقدِرُ عليه غيرُه[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ * لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ * لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ عطْفٌ على الجُملَ الثَّلاثِ المُتقدِّمةِ، فهي تَقييدٌ لوقتٍ حادثٍ يَحصُلُ، وهي ممَّا جُعِلَ مَضمونُها علامةً على وُقوعِ ما يُوعَدون به، فيَلزَمُ أنْ يكونَ مَضمونُها مُستقبَلَ الحُصولِ[4].

- قولُه: ﴿أُقِّتَتۡ﴾ قدْ يكون بمعْنى: وُقِّت لها وقتٌ، على طَريقةِ الحذْفِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والإيصالِ[١].

- وليس في اللَّفظِ بَيانُ أنَّه تحصيلٌ لوَقتِ أيِّ شيءٍ، وإنَّما لم يُبيِّنْ ذلك، ولم يُعَيِّنْ؛ مِن أجْلِ أن يَذهَبَ الوَهمُ إلى كُلِّ جانبٍ، فيَكونَ التَّهويلُ فيه أشَدَّ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ * لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ لَفظُ (أيّ) يَجوزُ أنْ تكونَ اسمَ استفهامٍ مُستعمَلٍ للتَّهويلِ، ويجوزُ أنْ تكونَ (أيّ) مَوصولةً دالَّةً على التَّعظيمِ والتَّهويلِ، وهو ما يُعبَّرُ عنه بالدَّالِّ على معْنى الكَمالِ، وتكونَ صِفةً لمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما أُضِيفَت إليه (أيّ)، وتَقديرُه: ليَومٍ أيِّ يومٍ! أي: ليَومٍ عَظيمٍ، ويكونَ معْنى ﴿أُقِّتَتۡ﴾: حضَرَ مِيقاتُها الَّذي وُقِّت لها، ويكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ لامَ التَّعليلِ، أي: جُمِعَت لأجْلِ اليومِ الَّذي أُجِّلَت إليه[٣].

- وقد بُولِغ في تَهويلِه بإبهامِه أوَّلًا، ثمَّ ببيانِه بأنَّه يومُ الحُكمِ والقضاءِ، ثمَّ هوَّلَ شأنَه بأنَّك لم تُحِطْ عِلمًا بكُنْهِ ذلك[٤].

- وجُملةُ ﴿أُجِّلَتۡ﴾ صِفةٌ لـ﴿يَوۡمٍ﴾، وحُذِفَ العائدُ؛ لظُهورِه، أي: أُجِّلَت إليه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٥).
وتقدَّم تعريفُ الحذف والإيصال (ص: ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

- قولُه: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بيانٌ ليومِ التَّأجيلِ، وهو الَّذي يُفصَلُ فيه بيْنَ الخلائقِ[1].

وهو بدَلٌ من ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ بإعادةِ الحرْفِ الَّذي جُرَّ به المُبدَلُ منه، أي: أُحضِرَت الرُّسلُ ليومٍ عَظيمٍ هو يومُ الفصْلِ. والمُبدَلُ منه والبدَلُ دَليلانِ على جَوابِ (إذا) مِن قولِه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ [المرسلات: ٨] إلخ؛ إذ يُعلَمُ أنَّ المعْنى: إذا حصَلَ جَميعُ ما ذُكِرَ، فذلك وُقوعُ ما تُوعَدون[2]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أصلُ التَّركيبِ: وما أدْراكَ ما هو، وإنَّما أُظهِرَ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لتَقويةِ استِحضارِ يومِ الفَصْلِ؛ قصْدًا لتَهويلِه، والاستِفهامانِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مُستعمَلانِ في معْنى التَّهويلِ والتَّعجيبِ[3].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أيْ: أيُّ شَيءٍ جعَلَك داريًا ما هُو؟! على أنَّ (مَا) الأُولى مُبتَدأٌ، و(أدراكَ) خبرُه، و(مَا) الثَّانيةَ خبَرٌ مقدَّمٌ، و﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، لا بالعكسِ؛ لأنَّ مَحطَّ الفائدةِ بيانُ كَونِ يوم الفصلِ أمْرًا بَديعًا هائلًا، لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُكتَنُه كُنْهُه، كَما يُفيدُه خَبريَّةُ (ما)، لا بَيانُ كَونِ أمرٍ بَديعٍ مِن الأُمورِ يومَ الفصلِ كما يُفيدُه عكْسُه[4].

٤- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ استِئنافٌ لقصْدِ تَهديدِ المشركين الَّذين يَسمَعون القرآنَ، وتَهويلِ يومِ الفصْلِ في نُفوسِهم ليَحذَروه، وهو متَّصِلٌ في المعْنى بجُملةِ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧] اتِّصالَ أجزاءِ النَّظمِ، فمَوقعُ جُملةِ ﴿وَيۡلٞ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٢).

يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ ابتداءُ الكلامِ، وموقعُ جُملةِ ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾ [المرسلات: ٨] التَّأخُّرُ، وإنَّما قُدِّمَت لتُؤذِنَ بمعْنى الشَّرطِ. وقدْ حصَلَ مِن تَغييرِ النَّظمِ -على هذا الوجْهِ- أنْ صارتْ جُملةُ ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ بمَنزلةِ التَّذييلِ، فحصَلَ في هذا النَّظمِ أُسلوبٌ رائعٌ، ومَعانٍ بدائعُ. وقيل: هذه الجُملةُ جوابُ (إذا)، أي: يَتعلَّقُ (إذا) بالاستقرارِ الَّذي في الخبَرِ، وهو ﴿ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾، والتَّقديرُ: إذا حصَلَ كذا وكذا حلَّ الويلُ للمُكذِّبينَ، وهو كالبَيانِ لقولِه: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴾، فيَحصُلُ تأكيدُ الوعيدِ، وعلى الوجْهِ الأوَّلِ يكونُ المرادُ بالمكذِّبينَ الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وعلى الوجْهِ الثَّاني في معْنى الجُملةِ: جَميعَ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ وما جاؤوهم به، وبذلك العُمومِ أفادَتِ الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ، ويَشملُ ذلك المشرِكين الَّذين كذَّبوا بالقرآنِ والبعثِ؛ إذْ هم المَقصودُ مِن هذه المواعظِ، وهم الموَجَّهُ إليهم هذا الكلامُ، فخُوطِبوا بقولِه: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴾[١].

- قولُه: ﴿ وَيۡلٞ ﴾ في الأصلِ مَصدرٌ مَنصوبٌ سادٌّ مَسدَّ فِعلِه، لكنْ عُدلَ به إلى الرَّفعِ للدَّلالةِ على ثَباتِ الهَلاكِ ودَوامِه للمَدْعوِّ عليهِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩).

الآيات (١٦-٢٤)

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهِينٍ﴾: أي: ضَعيفٍ، مُمتَهَنٍ، لا خَطَرَ له عندَ النَّاسِ، ولا يُعبأُ به، وأصلُ (مهن): يدُلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿قَرَارٍ مَكِينٍ﴾: أي: الرَّحِم، اسْتَقرَّ المنيُّ فيه فتَمَكَّنَ، والقرارُ هنا: مكانُ الاستِقرارِ، والمَكينُ: المتمكِّنُ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تَمكُّنٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ الأدِلَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه: ألَمْ نُهلِكِ المُكَذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم؟ ثمَّ نحن نُلحِقُ بهم في العَذابِ والهَلاكِ كُفَّارَ قُرَيشٍ وغَيرَهم مِنَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بالحَقِّ، وكذلك نُهلِكُ كُلَّ كافِرٍ مُكَذِّبٍ مُجْرِمٍ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

ثمَّ يقولُ تعالى ممتنًّا على عبادِه، ومحتجًّا على الإعادةِ بالبُداءةِ: ألَمْ نَخْلُقْكم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١) و(٢٣/ ٥٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٤).

-أيُّها النَّاسُ- مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ، فجَعَلْناه في رَحِمِ المرأةِ مُستَقِرًّا ومحفوظًا فيه إلى وَقتِ الوِلادةِ، فقَدَرْنا على خَلْقِ النُّطفةِ إنسانًا وتصويرِه، فنِعْمَ القادِرون نحنُ!

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ حذَّر اللهُ عزَّ وجلَّ الكافِرين وخَوَّفَهم بأنَّ يومَ الفَصلِ كائنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ فيه مِن الأهوالِ ما لا يُدرِكُ كُنْهَهُ إلَّا علَّامُ الغُيوبِ- أردَفَ ذلك بتَخويفِهم بأنَّه أهلَك الكفَّارَ قَبْلَهم بكُفرِهم[(١)].

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦)﴾.

أي: ألَمْ نُهْلِكِ المُكَذِّبينَ بآياتي ورُسُلي مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم[(٢)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقال ابن عاشور: (الإهلاكُ: الإعدامُ والإماتةُ. وإهلاكُ الأوَّلِينَ له حالَتان: حالةٌ غيرُ اعتياديَّةٍ تنشَأُ عن غَضَبِ اللهِ تعالى، وهو إهلاكُ الاستئصالِ، مِثلُ إهلاكِ عادٍ وثمودَ؛ وحالةٌ اعتياديَّةٌ، وهي ما سَنَّ اللهُ عليه نظامَ هذا العالَمِ مِن حياةٍ ومَوتٍ. وكِلْتا الحالتَينِ يَصِحُّ أن تكونَ مُرادًا هنا؛ فأمَّا الحالةُ غيرُ الاعتياديَّةِ فهي تذكيرٌ بالنَّظَرِ الدَّالِّ على أنَّ اللهَ لا يَرضى عن الَّذين كذَّبوا بالبَعْثِ، وأمَّا الحالةُ الاعتياديَّةُ فدليلٌ على أنَّ الَّذي أحيا النَّاسَ يُميتُهم؛ فلا يتعَذَّرُ أن يُعيدَ إحياءَهم). =

﴿ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ ﴾.

أي: ثمَّ نُلحِقُ بهم في العَذابِ والهَلاكِ كُفَّارَ قُرَيشٍ وغَيرَهم مِنَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بالحَقِّ، فنُهلِكُهم جميعًا كما أهلَكْنا مَن قَبْلَهم(١).

﴿ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه يفعلُ بهؤلاء المتأخِّرينَ مِثلَ ما يفعَلُ بأولئك المتقدِّمينَ؛ بيَّن أنَّ هذا الإهلاكَ إنَّما يَفعَلُه بهم لِكَونِهم مُجرِمينَ، فلا جَرَمَ في جميعِ المجرِمينَ؛

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

وذكَر الرازي أنَّه إنْ كان المرادُ مِن الإهلاكِ هو مطلقَ الإماتةِ لم يكُنْ تخويفًا للكفَّارِ؛ لأنَّ ذلك أمرٌ حاصلٌ للمؤمنِ والكافرِ، فلا يصلُحُ تحذيرًا للكافرِ، ثمَّ قال: (لِمَ لا يَجوزُ أن يكونَ المرادُ منه الإماتةَ بالتَّعذيبِ، وقد وقع ذلك في حقِّ قُرَيشٍ وهو يوم بدرٍ؟ ولِمَ لا يجوزُ أن يكونَ المرادُ من الإهلاكِ معنًى ثالثًا مغايرًا للأمْرَينِ المذكورينِ، وهو الإماتةُ المُستعقبةُ للذَّمِّ واللَّعنِ؟ فكأنَّه قيل: إنَّ أولئك المتقدِّمين لحرصِهم على الدُّنيا، عانَدوا الأنبياءَ وخاصَموهم، ثمَّ ماتوا، فقد فاتَتْهم الدُّنيا، وبقيَ اللَّعنُ عليهم في الدُّنيا، والعقوبةُ الأخرويَّةُ دائمًا سَرْمدًا، فهكذا يكونُ حالُ هؤلاء الكُفَّارِ الموجودِينَ، ومعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا الكلامِ مِن أعظَمِ وُجوهِ الزَّجرِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان الفِعلُ ﴿نُتۡبِعُهُمُ﴾ مرفوعًا، عَلِمْنا أنَّه ليس معطوفًا على ﴿نُهۡلِكِ﴾ لِيكونَ تقديرًا، بل هو إخبارٌ للتَّهديدِ، تقديرُه: نحنُ إنْ شِئْنا ﴿نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: الَّذين في زمانِك مِن كُفَّارِ العَرَبِ وغَيرِهم؛ لتكذيبِهم لك، أو الَّذين قَرُبوا من ذلك الزَّمانِ، كأصحابِ الرَّسِّ وأصحابِ الفيلِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٢).

وقال السعدي: (هذه سُنَّتُه السَّابقةُ واللَّاحِقةُ في كُلِّ مُجرمٍ؛ لا بُدَّ مِن عذابِه، فلِمَ لا تَعتَبِرونَ بما تَرَونَ وتَسْمَعونَ؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

لأنَّ عُمومَ العِلَّةِ يَقتضي عُمومَ الحُكمِ(١).

وأيضًا لَمَّا هدَّد مَن واجَهَ الرُّسُلَ بالتَّكذيبِ؛ تسليةً لهم، سَلَّى مَن قَطَعوه مِن أتْباعِهم ممَّا يجبُ وَصْلُه بهم مِن المعروفِ، فقال مُستأنِفًا مُنَبِّهًا على الوَصفِ الموجِبِ لذلك الإهلاكِ(٢):

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾.

أي: كما أهلَكْنا المُكَذِّبينَ بي وبرُسُلي مِن الأُمَمِ الكافِرةِ، نُهلِكُ أيضًا كُلَّ كافِرٍ مُكَذِّبٍ(٣).

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(٤).

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الإهلاكَ على ذلك الوَجهِ الدَّالِّ على القُدرةِ التَّامَّةِ على البَعثِ، وعلى ما يُوعَدُ به بعدَ البَعثِ؛ أتْبَعَه الدَّلالةَ بابتداءِ الخَلْقِ، وهو أدَلُّ، فقال مُقَرِّرًا ومُنكِرًا على مَن يُخالِفُ عِلْمَه بذلك عَمَلُه(٥):

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال الشوكاني: (أي: مِثلَ ذلك الإهلاكِ نَفعلُ بكُلِّ مُشرِكٍ؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦).

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ألَمْ نُوجِدْكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مَنيٍّ ضَعيفٍ[1].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فجَعَلْنا مَنِيَّ الرَّجُلِ في رَحِمِ المرأةِ مُستَقِرًّا ومحفوظًا فيه[2].

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إلى وَقتِ الوِلادةِ[3].

قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بتَشديدِ الدَّالِ، مِنَ التَّقديرِ، أي: خلَقْنا كُلَّ شَيءٍ مِن الإنسانِ بقَدْرٍ. وقيل: أي: قدَّرْنا خَلْقَ الإنسانِ على تاراتٍ مُختَلِفةٍ؛ مِن نُطْفةٍ وعَلَقةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال الواحديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ في قولِه: ﴿مَّكِينٍ﴾: يريدُ الرَّحِمَ، مُكِّن فيه بأنْ هُيِّئَ لاستِقرارِه فيه إلى بُلوغِ أمَدِه الَّذي جُعِل له). ((البسيط)) (١٥/ ٥٣٨) و(٢٣/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال البِقاعي: (﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: مِقدارٍ مِنَ الزَّمانِ قَدَّره اللهُ تعالى للوِلادةِ ﴿مَّعْلُومٍ﴾ أي: عِندَنا، مِن تِسعةِ أشهُرٍ للوِلادةِ إلى ما فَوْقَها أو دُونَها، لا يَعلَمُه غَيْرُه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٣).

ومُضْغةٍ، وما بعدَ ذلك إلى أنْ جعَلْناه إنسانًا سَوِيًّا. وقيل: قدَّرْناه شَقِيًّا وسعيدًا، وصغيرًا وكبيرًا، وأَسْوَدَ وأبيَضَ، وغيرَ ذلك[١].

٢- قِراءةُ: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتَخفيفِ الدَّالِ، مِنَ القُدرةِ. وقيل: القِراءتانِ لُغَتانِ بمَعنى التَّقديرِ لا القُدْرةِ[٢].

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فقَدَرْنا على خَلْقِ النُّطفةِ إنسانًا وتصويرِه، فنِعْمَ القادِرونَ نحنُ حيثُ خلَقْناه في أحسَنِ صورةٍ وهَيئةٍ[٣].

---

(١) قرأ بها نافِعٌ، والكِسائيُّ، وأبو جَعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٧٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣).
ممن اختار أنَّ قولَه: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مِن القُدرةِ: الثعلبي، والبغوي، والخازن، والسمين الحلبي، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٩).
قال القرطبي: (رُوِي عن عِكْرِمةَ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مُخَفَّفَةً مِن القُدرةِ، وهو اختيارُ أبي عُبَيدٍ وأبي حاتِمٍ والكِسائيِّ لقولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠).
قال الخازن: (قُرِئ بالتخفيفِ مِن القُدرةِ، أي: قَدَرْنا على خلقِه، وتصويرِه كيفَ شِئْنا ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ حيثُ خَلَقْناه في أحسنِ صورةٍ وهيئةٍ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[1].

= وقال البقاعي: (﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي بعظمتِنا على ذلك، أو فجَعَلْناه على مقدارٍ معلومٍ مِن الأرزاقِ والآجالِ والأحوالِ والأعمالِ ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ نحنُ مطلقًا على ذلك وغيرِه، أو المقدِّرونَ في تلك المقاديرِ لما لنا مِن كمالِ العظمةِ بحيثُ نجعلُ ذلك بمباشرةِ مَن أردناه منه بطوعِه واختيارِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٣).

وممن اختار أنَّ قولَه: ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ بمعنى قدَّرْنا بالتَّشديدِ: ابنُ قتيبةَ، والزمخشري، والنسفي، والألوسي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣١).

قال ابن قتيبة: (﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ بمعنى «قدَّرْنا» مشدَّدةً. يقال: قدَرْتُ كذا وقدَّرْتُه). ((غريب القرآن)) (ص: ٥٠٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٣).

وذكر الزمخشري أنَّ هذا القولَ أولى: (لقراءةِ مَن قرَأ: ﴿ فَقَدَّرْنَا ﴾ بالتَّشديدِ، ولقولِه: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٩]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩).

وقال السعدي: (﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي: قَدَّرْنا ودبَّرْنا ذلك الجنينَ في تلك الظُّلماتِ، ونَقَلْناه مِن النُّطفةِ إلى العَلَقةِ، إلى المضغةِ، إلى أنْ جعَلَه الله جسدًا، ثمَّ نفخَ فيه الرُّوحَ، ومِنهم مَن يموتُ قبلَ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، أي: أَمَا أهلَكْنا المكَذِّبينَ السَّابِقينَ، ثمَّ نُتبِعُهم بإهلاكِ مَن كَذَّبَ مِن الآخِرينَ؟ وهذه سُنَّتُه تعالى السَّابِقةُ واللَّاحِقةُ في كُلِّ مُجرمٍ؛ لا بدَّ مِن عَذابِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمْ يَظْلِمْ بهذا العذابِ؛ فهم لم يُعَذَّبوا إلَّا لِجُرْمِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ النَّاسَ عندَ اللهِ سَواءٌ، فكُلُّ مَنِ استَحَقَّ عِقابًا أو ثَوابًا فهو له، يعني: لَمْ نَفعلْ بهؤلاء وحْدَهم، بل حُكْمُنا هذا شامِلٌ لكلِّ مُجرمٍ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ إثباتُ الفعلِ للهِ عزَّ وجلَّ، واللهُ سُبحانَه وتعالى فَعَّالٌ لِمَا يُريدُ، والفعلُ يَقتضي التَّجَدُّدَ بحسَبِ المفعولِ، فخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ لَمْ يكُنْ أزَلِيًّا، وإنَّما كان حينَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وخَلْقُ اللهِ للجَنينِ في بَطنِ أُمِّهِ لَمْ يكُنْ أزَلِيًّا، بل هو حادثٌ حينَ حُدوثِ هذا الجَنينِ، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدة فائدةٌ أخرى، وهي إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، خِلافًا لِمَن أَنْكَرَ ذلك، وقال: إنَّ اللهَ لا يَقومُ به فِعلٌ اختياريٌّ[٤]!

٥- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ على أنَّه لا يجوزُ إلقاءُ النُّطفةِ الَّتي في الرَّحِمِ في مُدَّةِ الأربعينَ الأُولى، لأنَّه لا يجوزُ أنْ نَتَجاسَرَ على هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القرارِ المَكينِ، ونُخرِجَ الجَنينَ منه، لكِنَّ تحريمَه ليس كتحريمِ ما بَعْدَه مِن بُلوغِه أربعةَ أشهُرٍ[1].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ قدْ جاء هنا التَّقريرُ على ثُبوتِ الإيجادِ بعْدَ العدَمِ إيجادًا مُتقَنًا دالًّا على كَمالِ الحِكمةِ والقُدرةِ؛ ليُفضَى بذلك التَّقريرِ إلى التَّوبيخِ على إنكارِ البعثِ والإعادةِ، وإلى إثباتِ البَعثِ بإمكانِه بإعادةِ الخلْقِ كما بُدِئَ أوَّلَ مرَّةٍ، وكَفى بذلك مُرجِّحًا لوُقوعِ هذا المُمكنِ؛ لأنَّ القُدرةَ تَجْري على وَفْقِ الإرادةِ بتَرجيحِ جانبِ إيجادِ المُمكِنِ على عدَمِه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استئنافٌ بخِطابٍ مُوجَّهٍ إلى المشركين الموجودينَ الَّذين أنْكَروا البعثَ، مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ الكلامِ المُخاطَبِ به أهلُ الشِّركِ في

---

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٨٩).

وهذا مذهبُ المالكيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ ولو قبْلَ الأرْبَعينَ يومًا. يُنظر: ((الشرح الكبير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢٦٦).

وذهَب الجُمهورُ من الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ إلى أنَّه يجوزُ إسقاطُ الجَنينِ قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيه. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ١٧٦)، ((الغرر البهية)) لزكريا الأنصاري (٥/ ٣٣١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١٢١).

قال ابنُ باز: (إسقاطُ الجنينِ فيه تفصيلٌ؛ فإذا كان في الأربعينَ الأُولى فالأمرُ فيه أوسَعُ، ولا يَنبغي إسقاطُه، لكنْ إذا اقتضَت المصلحةُ الشَّرعيَّةُ إسقاطَه لِمَضَرَّةٍ على الأمِّ، أو لهذا السَّبَبِ الَّذي قرَّره الأطبَّاءُ أنَّه قد يَتشوَّهُ بأسبابٍ فعَلَتْها الأمُّ: فلا حرَجَ في ذلك). ((فتاوى نور على الدرب)) (٢١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

المَحشرِ، ويَتضمَّنُ استِدلالًا على المشركين الَّذين في الدُّنيا؛ بأنَّ اللهَ انتقَم مِن الَّذين كَفَروا بيَومِ البَعثِ؛ مِن الأُمَمِ سابِقِهم ولاحِقِهم؛ ليَحذَروا أنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك الأوَّلينَ والآخِرينَ[١].

- والاستِفهامُ للتَّقريرِ؛ استِدلالًا على إمكانِ البَعثِ بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيلِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ استِئنافٌ، وهو وَعيدٌ لأهلِ مكَّةَ، يُريدُ: ثمَّ نَفعَلُ بأمثالِهم مِن الآخِرينَ مِثلَ ما فعَلْنا بالأوَّلِينَ، ونَسلُكُ بهم سَبيلَهم؛ لأنَّهم كذَّبوا مِثلَ تَكذيبِهم[٣].

- وحرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ التَّهديدَ أهمُّ مِن الإخبارِ عن أهلِ المَحشرِ؛ لأنَّه الغرَضُ مِن سَوقِ هذا كلِّه، ولأنَّ إهلاكَ الآخِرينَ أشدُّ مِن إهلاكِ الأوَّلِينَ؛ لأنَّه مَسبوقٌ بإهلاكٍ آخَرَ[٤].

- ووقَعَت جُملةُ ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ مَوقِعَ البيانِ لجُملةِ ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾، وهو كالتَّذييلِ يُبيِّنُ سَببَ وُقوعِ إهلاكِ الأوَّلِينَ، وأنَّه سَببٌ لإيقاعِ الإهلاكِ بكلِّ مُجرمٍ، أي: تلك سُنَّةُ اللهِ في مُعامَلةِ المُجرمين،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٤).
وقياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

فلا مَحيصَ لكم عنها[١].

- وذِكرُ وَصْفِ المُجرِمين إيماءٌ إلى أنَّ سَببَ عِقابِهم بالإهلاكِ هو إجْرامُهم، وإنذارٌ وتَحذيرٌ مِن عاقبةِ الجُرمِ وسُوءِ أثَرِه[٢].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: بآياتِ اللهِ وأنبيائِه، فليس تكريرًا، وكذا إنْ أُطلِق التَّكذيبُ أو عُلِّقَ في الموضِعَينِ بواحدٍ؛ لأنَّ الوَيْلَ الأوَّلَ لعذابِ الآخرةِ، وهذا للإهلاكِ في الدُّنيا، مع أنَّ التَّكريرَ للتَّوكيدِ حسَنٌ شائعٌ في كَلامِ العرَبِ[٣].

وقيل: هو تَقريرٌ لنَظيرِه المُتقدِّمِ؛ تَأكيدًا للتَّهديدِ، وإعادةً لمعْناه، فعلى أنَّ جُملةَ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ استئنافيَّةٌ- يُقدَّرُ الكلامُ المُعوَّضُ عنه تَنوينُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ يُقال لهم: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾، والمرادُ بالمكذِّبينَ: المُخاطَبونَ، فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَسجيلِ أنَّهم مُكذِّبونَ، والمعنى: وَيلٌ يومَئذٍ لكم.

وعلى أن جُمْلةَ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ جوابُ (إذَا) أي: يَتعلَّقُ (إذا) بالاسْتِقْرارِ الَّذي في الخبَرِ، وهو ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. والتَّقديرُ: إذا حَصَل كَذا وكَذا حَلَّ الوَيْلُ للمُكَذِّبينَ -يُقدَّرُ المحذوفُ المُعوَّضُ عنه التَّنوينُ: يومَ إذِ النُّجومُ طُمِسَت... إلخ، فتكونُ الجُملةُ تَأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرتِها الَّتي تَقدَّمَت، والمرادُ بالمكذِّبينَ جميعُ المُكذِّبينَ، الشَّاملُ للسَّامِعينَ، وعلى الاعتبارَينِ فتَقريرُ معْنى الجُملتَينِ حاصلٌ؛ لأنَّ اليَومَ يومٌ واحدٌ، ولأنَّ المُكذِّبينَ يَصدُقُ بالأحياءِ وبأهلِ المحشَرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩، ٤٣٠). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- الاستِفهامُ تَقريريٌّ استِدلالًا على إمكانِ البَعثِ بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيلِ[١]، وجِيءَ به هنا على طَريقةِ تَعدادِ الخِطابِ في مَقامِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، وكلٌّ مِن التَّقريرِ والتَّقريعِ مِن مُقتضَياتِ تَرْكِ العطْفِ؛ لشَبَهِه بالتَّكريرِ في أنَّه تَكريرُ معْنًى وإنْ لم يكُنْ تَكريرَ لَفظٍ، والتَّكريرُ شَبيهٌ بالأعدادِ المَسرودةِ، فكان حقُّه تَرْكَ العطْفِ فيه[٢].

- قولُه: ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الماءُ: هو ماءُ الرَّجُلِ. والمَهينُ: الضَّعيفُ، فَعيلٌ مِن مَهُنَ، إذا ضعُفَ، وهذا الوصْفُ كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[٣] عن عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى؛ إذْ خَلَقَ مِن هذا الماءِ الضَّعيفِ إنسانًا شَديدَ القُوَّةِ عقْلًا وجِسمًا[٤].

- وحرْفُ (مِنْ) للابتداءِ؛ لأنَّ تَكوينَ الإنسانِ نشَأَ مِن ذلك الماءِ[٥].

- وقولُه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ تَفصيلٌ لكَيفيَّةِ الخلْقِ على سَبيلِ الإدماجِ[٦] مع مُناسَبتِه؛ لأنَّ له دَخْلًا في تَبْيينِ إمكانِ الإعادةِ؛ إذ شَديدُ القُدرةِ لا يُعجِزُه شَيءٌ؛ ولذلك ذيَّلَه بقولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[٧].

- قولُه: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ للتَّفريعِ على قولِه:

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).
(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠، ٤٣١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣١).
(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣١).

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: جعَلْناه في الرَّحِمِ إلى انتِهاءِ أمَدِ الحمْلِ، فقَدَرْنا أطوارَ خلْقِكم حتَّى أخرَجْناكم أطْفالًا، والفاءُ في ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ للتَّفريعِ على (قدَرْنا)، أي: تَفريعِ إنشاءِ ثَناءٍ ومَدْحٍ، أي: فدلَّ تقديرُنا على أنَّنا نِعمَ القادِرون، أي: كان تَقديرُنا تَقديرَ أفضلِ قادرٍ، وهذا تَنويهٌ بذلك الخلْقِ العَجيبِ بالقُدرةِ[١]. وذلك على أنَّ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التَّقديرِ.

- والقادِرونَ: اسمُ فاعلٍ مِن (قدَرَ) اللَّازمِ؛ إذا كان ذا قُدرةٍ، وبذلك يكونُ الكلامُ تَأسيسًا لا تأكيدًا -وذلك على أنَّ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التَّقديرِ-، أي: فنِعمَ القادِرون على الأشياءِ. وعَلامةُ الجمْعِ للتَّعظيمِ، مِثلُ نُونِ (قدَرْنا)؛ فإنَّ القُدرةَ لَمَّا أتَتْ بما هو مُقْتضى الحِكمةِ كانت قُدرةً جَديرةً بالمدْحِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كِفَاتًا﴾: الكِفَاتُ: السِّتْرُ، والوِعاءُ الجامِعُ للشَّيءِ، يُقالُ: كَفَتَ الشَّيءَ: إذا ضَمَّه وجَمَعَه، والكَفْتُ: الضَّمُّ والجَمْعُ، فالأرضُ تَكفِتُ -تَحفَظُ وتَستُرُ وتَضُمُّ- الأحياءَ على ظَهْرِها، وتَكفِتُ الأمواتَ في بَطْنِها، وأصلُ (كفت): يدُلُّ على جَمعٍ وضَمٍّ[1].

﴿رَوَاسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثَوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[2].

﴿شَامِخَاتٍ﴾: أي: عالياتٍ مُرتَفِعاتٍ، وكُلُّ عالٍ فهو شامِخٌ، وأصلُ (شمخ): يدُلُّ على تعَظُّمٍ وارتِفاعٍ[3].

﴿فُرَاتًا﴾: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ[4].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨).

قَولُه تعالى: ﴿كِفَاتًا﴾: هو مَصدَرُ كَفَت يَكْفِتُ: أي: ضَمَّ وجَمَع.

و﴿أَحْيَآءً﴾: مفعولٌ به للمصدَرِ ﴿كِفَاتًا﴾، أي: تَكْفِتُ الأرضُ الأحياءَ والأمواتَ، أي: تَضُمُّهم أحياءً على ظَهْرِها، وأمواتًا في بَطْنِها. ويجوزُ نصبُ ﴿أَحْيَآءً﴾ على الحاليَّةِ مِن مفعولِ ﴿كِفَاتًا﴾ المحذوفِ؛ للعِلْمِ به، والتَّقديرُ: كِفَاتًا الإِنْسَ أحياءً وأمواتًا. وقيل غيرُ ذلك[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاءً يَضُمُّ ويَجمَعُ جَميعَ الخَلْقِ؛ الأحياءَ على ظَهْرِها، والأمواتَ في بَطْنِها؟ وجَعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثوابِتَ عَظيمةَ الارتِفاعِ، وأسْقَيْناكم ماءً عَذْبًا سائِغًا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَلَّ تعالى بابتِداءِ الخَلْقِ على تمامِ قُدرتِه؛ أَتْبَعَه الدَّلالةَ بانتِهاءِ أمرِه وأثنائِه، وما دَبَّر فيهما مِن المَصالحِ، فقال[٢]:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤).

أي: ألَمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاءً يَضُمُّ ويَجمَعُ جَميعَ الخَلْقِ(١)؟

﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ٢٦﴾.

أي: تَجمَعُ وتَضُمُّ الأحياءَ على ظَهْرِها، والأمواتَ في بَطْنِها(٢).

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ٢٧﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾.

أي: وجَعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثَوابِتَ عَظيمةَ الارتِفاعِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال ابن عطيَّة: (الكِفَاتُ: السِّترُ، والوِعاءُ الجامعُ للشَّيءِ بإجماعٍ، تقولُ: كَفَتَ الرَّجُلُ شَعرَه: إذا جمَعَه بخِرقةٍ، فالأرضُ تَكفِتُ الأحياءَ على ظَهرِها، وتَكفِتُ الأمواتَ في بَطنِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال السعدي: (﴿أَحْيَآءً﴾ في الدُّورِ، ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ في القُبورِ، فكما أنَّ الدُّورَ والقُصورَ مِن نِعَمِ اللهِ على عِبادِه ومِنَّتِه، فكذلك القُبورُ رَحمةٌ في حَقِّهم، وسَترٌ لهم عن كَونِ أجسادِهم باديةً للسِّباعِ وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٥).
ممَّن اختار أنَّ الرَّواسيَ: الجبالُ الثَّوابتُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٤).
وقال ابن كثير: (﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ يعني: الجبالَ، أرسَى بها الأرضَ؛ لئلَّا تَميدَ =

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٢، ٣٣].

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

أي: وأسْقَيْناكم ماءً عَذْبًا سائِغًا(١).

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(٢).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ

= وتَضْطَرِبَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

وقال البِقاعي: (﴿رَوَٰسِيَ﴾ لولاها لَمادَتْ بأهلِها، ومِن العجائِبِ أنَّ مَراسيَها مِن فَوقِها؛ خِلافًا لِمَراسي السُّفُنِ. ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي: هي معَ كَونِها ثَوابتَ في أنفُسِها مُثَبِّتةً لغيرِها- طِوالٌ جِدًّا، عظيمةُ الارتفاعِ، كأنَّها قد تكبَّرَتْ على بقيَّةِ الأرضِ، وعلى مَن يُريدُ صُعودَها). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

النَّبَّاشَ يُقْطَعُ؛ لأنَّ بَطْنَ الأرضِ حِرْزٌ للكَفَنِ، فإذا نَبَش وأخَذَ منه فهو سارِقٌ(١)، فقد جُعِل القَبْرُ للمَيِّتِ كالبَيتِ للحَيِّ، فيكونُ حِرْزًا(٢)، والسَّارِقُ مِن الحِرزِ يجبُ عليه القطعُ(٣).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ مُواراةِ الميِّتِ ودَفْنِه(٤)، وأنَّ دَفْنَ الميِّتِ فَرْضُ كفايةٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى امْتَنَّ على العِبادِ(٥) بجَعْلِ الأرضِ صالِحةً لدَفنِ الأمواتِ، فيُؤخَذُ مِنَ الآيةِ وُجوبُ الدَّفنِ في الأرضِ إلَّا إذا تعَذَّر ذلك؛ كالَّذي يموتُ في سفينةٍ بَعيدةٍ عن مراسي الأرضِ، أو لا تستطيعُ الإرساءَ، أو كان الإرساءُ يَضُرُّ بالرَّاكِبينَ، أو يُخافُ تَعَفُّنُ الجُثَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٣/ ٨٤)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٣).

اختلَف الفقهاءُ في حُكمِ النَّبَّاشِ (الَّذي يَسرِقُ أكفانَ الموتى بعدَ دَفنِهم في قُبورِهم)؛ فيُقطَعُ عندَ الجمهورِ: المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ وأبي يوسفَ مِن الحنفيَّةِ؛ وذلك على اعتبارِه سارقًا، ولا يُقطَعُ عندَ أبي حنيفةَ ومحمَّدِ بن الحسَنِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٣/ ٢٤٧) و(١٩/ ٢٠٩) و(٢٤/ ٢٩٤) و(٤٠/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٨).

قال ابنُ العربي: (قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ يَقْتَضي أَنْ يُدْفَنَ فيها الميتُ بجَميعِ أجْزائِه كُلِّها مِن شَعرٍ، وظُفُرٍ، وثِيابٍ، وما يُواريه على التَّمامِ، وما اتَّصَل به وما بانَ عنه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٥٧).

وقال الإمام أحمدُ بنُ حنبل: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾: (تكفتونَ فيها الأحياءَ: الشعرَ والدمَ، وتدفنونَ فيها موتاكم). وقال أيضًا في هذه الآيةِ: (يُدْفَنُ ثَلاثَةُ أَشياءَ: الأظافرُ، والشَّعرُ، والدَّمُ. ثُمَّ قال: ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ : يُدْفَنُ فيها الأمواتُ). ((الوقوف والترجل من مسائل الإمام أحمد)) للخلال بتصرفٍ يسيرٍ (ص: ١٤١).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٥/ ٢٦٤).

فإنَّها يُرمَى بها في البَحرِ وتُثَقَّلُ بشَيءٍ؛ لِتَرسُبَ إلى غريقِ الماءِ، وعليه فلا يجوزُ إحراقُ الميِّتِ كما يفعَلُ مجوسُ الهِندِ، وكان يَفعَلُه بعضُ الرُّومانِ، ولا وَضْعُه لكواسِرِ الطَّيرِ كما كان يَفعَلُ مجوسُ الفُرْسِ[1]!

٣- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ قد تَصدَّى الكلامُ لإثباتِ البَعثِ بشَواهدَ ثلاثةٍ؛ أحدُها: بحالِ الأُمَمِ البائدةِ في انْقِراضِها، والثَّاني: بحالِ تَكوينِ الإنسانِ، والثَّالثُ: مَصيرُ الكلِّ إلى الأرضِ، وفي كلِّ ذلك إبطالٌ لإحالَتِهم وُقوعَ البعثِ؛ لأنَّهم زَعَموا استحالتَه، فأُبطِلَت دَعْواهم بإثباتِ إمكانِ البعثِ؛ فإنَّه إذ ثَبَتَ الإمكانُ بَطَلَت الاستِحالةُ، فلمْ يَبْقَ إلَّا النَّظرُ في أدِلَّةِ تَرجيحِ وُقوعِ ذلك المُمكنِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

- الهمزةُ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[3].

- وقَدَّمَ الأرضَ؛ لأنَّ أقرَبَ الأشياءِ إلينا مِن الأُمورِ الخارجيَّةِ: هو الأرضُ[4].

- وقدْ جاء هذا التَّقريرُ على سَنَنِ سابقَيْه في عدَمِ العطفِ؛ لأنَّه على طَريقةِ التَّكريرِ للتَّوبيخِ، وهو تَقريرٌ لهم بما أنْعَمَ اللهُ به عليهم مِن خلْقِ الأرضِ لهم بما فيها ممَّا فيه مَنافِعُهم، ومَحلُّ الامتِنانِ هو قولُه: ﴿أَحْيَاءً﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ فتتميمٌ[5] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤١٣).

وإدماجٌ[١]؛ لأنَّ فيه مُشاهَدةَ المُلازَمةِ بيْنَ الأحياءِ والأمواتِ تدُلُّ على أنَّ الحياةَ هي المقصودُ مِن الخِلقةِ، وهذا تَقريرٌ لهم بالاعتِرافِ بالأحوالِ المُشاهَدةِ في الأرضِ، الدَّالَّةِ على تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ للتَّفخيمِ -مع أنَّها تَكفِتُ الأحياءَ والأمواتَ جميعًا-، كأنَّه قيل: تَكفِتُ أحياءً لا يُعَدُّون، وأمواتًا لا يُحصَرون، على أنَّ أحياءَ الإنسِ وأمواتَهم لَيسوا بجَميعِ الأحياءِ والأمواتِ. فالتنكير للتَّعظيمِ مُرادًا به التَّكثيرُ؛ ولذلك لم يُؤتَ بهما مُعرَّفَينِ باللَّامِ. وجُوِّز أنْ يكونَ للتبعيضِ بإرادةِ أحياءِ الإنسِ وأمواتِهم، وهم ليسوا بجميعِ الأحياءِ والأمواتِ، ولا ينافي ذلك التَّفخيمَ؛ نظرًا إلى أنَّه بعضٌ غيرُ محصورٍ، كثيرٌ في نفسِه. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: تَكفِتُكم أحياءً وأمواتًا، فيَنتصِبا على الحالِ مِن الضَّميرِ؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّها كِفاتُ الإنسِ. وقيلَ: هُو مصدرٌ نُعِتَ به للمُبالغةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ جُمِعَ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ على فَواعِلَ؛ لوُقوعِه صِفةً لِمُذكَّرٍ غيرِ عاقلٍ[٤].

- ونُكِّرَ ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ و﴿مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ لإفادةِ التَّبعيضِ؛ لأنَّ في السَّماءِ جِبالًا؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ [النور: ٤٣]، وفيها ماءٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٢، ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩، ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

فُراتٌ كثيرٌ، بلْ هي مَنبَعُه ومَصبُّه. أو تَنوينُ ﴿شَـٰمِخَـٰتٍ﴾ و﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ؛ لدَلالةِ ذلك على عَظيمِ القُدرةِ[1].

- وعُطِفَ ﴿وَأَسۡقَيۡنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ لِمُناسَبةِ ذِكرِ الجِبالِ؛ لأنَّها تَنحدِرُ منها المياهُ تَجْري في أسافِلِها، وهي الأوديةُ، وتَقِرُّ في قَراراتٍ وحِياضٍ وبُحَيراتٍ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

الآيات (٢٩-٣٤)

﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾: يعني: دُخانَ جَهنَّمَ إذا ارتَفَع انشَعَب وافتَرَق ثلاثَ فِرَقٍ، والتَّشَعُّبُ: تفَرُّقُ الجِسْمِ الواحِدِ فِرَقًا، وأصلُ (شعب): يدُلُّ على الافتِراقِ[1].

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾: أي: لا يُظِلُّ مِن الحرِّ، ولا يُفيدُ فائدةَ الظِّلِّ، وأصلُ (ظلل): يَدُلُّ عَلَى سَتْرِ شيءٍ لشَيءٍ، وهو الَّذي يُسَمَّى الظِّلَّ[2].

﴿اللَّهَبِ﴾: أي: لَهبِ النَّارِ، واللَّهَبُ ما يَعلو على النَّارِ إذا اضْطَرَمَتْ مِن أحْمَرَ وأصْفَرَ وأخْضَرَ، واللَّهَبُ: اضْطِرامُ النَّارِ، ويُقالُ للدُّخَانِ وللغُبارِ، وأصلُ (لهب): ارْتِفاعُ لِسانِ النَّارِ، ثُمَّ يُقاسُ عليه ما يُقارِبُه. تقولُ: الْتَهَبَتِ النَّارُ الْتِهابًا. وكلُّ شَيءٍ ارتَفَع ضَوْؤُه، ولَمَع لَمَعانًا شَديدًا فإنَّه يُقالُ فيه ذلك[3].

﴿كَالْقَصْرِ﴾: أي: كالدُّورِ الكِبارِ المُشَيَّدةِ، والحُصونِ والمدائِنِ في العِظَمِ، وهو واحِدُ القُصورِ. وقيل: القَصْرُ: أُصُولُ النَّخْلِ والشَّجَرِ العِظَامِ، جَمعُ قَصْرةٍ، مِثلُ جَمْرةٍ وجَمْرٍ، وتَمْرةٍ وتَمْرٍ. والقَصْرةُ: الواحِدةُ مِن الحَطَبِ الغَليظِ[4].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير =

﴿جِمَٰلَتٌ﴾: الجِمالةُ: جَمْعُ الجَمَلِ المعروفِ، مِثلُ: حَجَرٍ وحِجارةٍ. وقيل: هي حِبالُ السُّفُنِ يُجمَعُ بَعضُها إلى بَعضٍ، حتَّى تكونَ كأوساطِ الرِّجالِ، وأصلُ (جمل): يدُلُّ على تجَمُّعٍ وعِظَمِ الخَلْقِ[1].

﴿صُفْرٌ﴾: أي: سُودٌ، جمعُ أصفَرَ، يُقالُ: جمَلٌ أصفَرُ، أي: أسْوَدُ، والصُّفْرةُ: لَونٌ مِن الألوانِ الَّتي بيْن السَّوادِ والبَياضِ، وهي إلى السَّوادِ أقرَبُ، وقد سُمِّيَتْ صُفْرًا؛ لأنَّ سَوادَها يَضرِبُ إلى الصُّفرةِ، وأصل (صفر) هنا: لَوْنٌ مِن الألوانِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما يَنتظِرُ هؤلاءِ المكذِّبينَ مِن العذابِ والنَّكالِ: يُقالُ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ: سِيروا إلى النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا، سِيروا إلى ظِلٍّ مِن دُخَانٍ ذي ثلاثِ شُعَبٍ، لا يُظِلُّ الكافِرينَ، ولا يَقِيهم مِن لَهَبِ النَّارِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى عِظَمَ شَرَرِ النَّارِ، فيقولُ: إنَّ النَّارَ مِن شِدَّةِ استِعارِها وتَلَهُّبِها تَرْمي بشَرَرٍ عَظيمٍ يَتطايَرُ منها، كالقُصورِ العاليةِ، كأنَّه جِمالٌ سُودٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوَعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾.

= ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٨٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ للمُكَذِّبينَ باللهِ وأنبيائِه واليَومِ الآخِرِ العذابَ في يومِ الفَصلِ والجزاءِ؛ بيَّن هنا نوعَ ذلك العذابِ بما يَحارُ فيه أولو الألبابِ، ويَخِرُّ مِن هَولِه كُلُّ مُخْبِتٍ أوَّابٍ[١].

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾.

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ: سِيروا إلى النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا[٢].

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠﴾.

أي: سِيروا إلى ظِلٍّ مِن دُخانٍ يَرتَفِعُ مِنَ النَّارِ ويَتصاعَدُ حتَّى يتشَعَّبَ إلى ثلاثِ شُعَبٍ عَظيمةٍ[٣].

﴿لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤، ٤٣٥).
قال الشوكاني: (تَقولُ لهم ذلك خَزَنةُ جهنَّمَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥، ٤٣٦).
قال ابنُ قُتَيْبةَ: (شَأنُ الدُّخانِ العَظيمِ إذا ارتَفَع أن يتشَعَّبَ، فيَكونون فيه إلى أن يُفرَغَ مِن الحِساب، كما يكونُ أولياءُ اللهِ في ظِلِّ عَرْشِه أو حيثُ شاء مِنَ الظِّلِّ إلى أن يُفرَغَ مِن الحِسابِ، ثمَّ يُؤمَرُ بكُلِّ فَريقٍ إلى مُستَقَرِّه مِن الجنَّةِ أو النَّارِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٣، ١٩٤).
وقال ابنُ عاشور: (فإنَّ النَّارَ إذا عَظُمَ اشتِعالُها تصاعَدَ دُخانُها مِن طَرَفَيْها ووسَطِها؛ لشِدَّةِ انضِغاطِه في خُروجِه منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥).

أي: لا يُظِلُّ المُكَذِّبينَ مِن حَرِّها، ولا يَقيهم مِن لَهَبِها(١).

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ٣٢﴾.

أي: إنَّ النَّارَ مِن شِدَّةِ استِعارِها وتَلَهُّبِها تَرْمي بشَرَرٍ عَظيمٍ يَتطايَرُ منها، كأنَّه قُصورٌ عاليةٌ(٢)!

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾.

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال القرطبي: (واللَّهَبُ: ما يَعلو على النَّارِ إذ اضطرَمَت؛ مِن أحمَرَ، وأصفَرَ، وأخضَرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١، ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

قال ابنُ جُزَي: (والقَصرُ واحِدُ القُصورِ، وهي الدِّيارُ العِظامُ، شَبَّه الشَّرَرَ به في عَظَمَتِه وارتفاعِه في الهواءِ. وقيل: هو الغليظُ مِن الشَّجَرِ، واحِدُه قَصْرةٌ، كجَمْرةٍ وجَمْرٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٣).

وقال ابن الجوزي: (﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ قرأ الجُمهورُ بإسكانِ الصَّادِ، على أنَّه واحِدُ القُصورِ المَبنيَّةِ. وهذا المعنى في روايةِ ابنِ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قولُ الجُمهورِ. وقرأ ابنُ عبَّاسٍ، وأبو رَزينٍ، ومجاهِدٌ، وأبو الجَوْزاءِ: «كَالْقَصَرِ» بفتحِ الصَّادِ. وفي أفرادِ البُخاريِّ [٤٩٣٢] من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: كُنَّا نَرفَعُ الخَشَبَ بِقَصَرٍ [أي: قَدْر] ثلاثةَ أذرُعٍ أو أقَلَّ، فنَرفَعُه للشِّتاءِ، فنُسمِّيهِ: القَصَرَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٥).

وقال ابنُ حجر: («فنُسَمِّيه القَصرَ» بسُكونِ الصَّادِ وبفَتحِها، وهو على الثَّاني جمعُ قَصرةٍ، أي: كأعناقِ الإبِلِ، ويؤيِّدُه قراءةُ ابنِ عبَّاسٍ: «كالقَصَرِ» بفتحتَينِ. وقيل: هو أصولُ الشَّجَرِ. وقيل: أعناقُ النَّخلِ. وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: القَصْرُ: البيتُ، ومَن فَتَح أراد أصولَ النَّخلِ المقطوعةِ، شبَّهها بقَصَرِ النَّاسِ، أي: أعناقِهم، فكأنَّ ابنَ عبَّاسٍ فَسَّر قراءتَه بالفتحِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٨٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جمعُ جَمَلٍ، يعني: أنَّ الشَّرَرَ كالجِمالِ الصُّفْرِ(١).

٢- قِراءةُ: ﴿جُمَالَاتٌ﴾ قيل: جَمعُ جُمالةٍ، مِنَ الشَّيءِ المُجمَلِ، وقيل: هو الحَبلُ الغَليظُ كحِبالِ السُّفُنِ والجُسورِ. وقيل: هذه القراءةُ والَّتي تليها بمعنًى واحدٍ، وهي الجِمالُ(٢).

٣- قِراءة: ﴿جِمَالَاتٌ﴾ جمعُ جِمالةٍ، أو جِمالٍ، فيَكونُ جَمْعَ الجَمعِ، وهو بمعنَى القِراءةِ الأُولى، أي: أنَّ الشَّرَرَ كالجِمالِ الصُّفْرِ(٣).

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾.

أي: كأنَّ الشَّرَرَ الَّذي يَتطايَرُ مِن جَهَنَّمَ جِمالٌ سُودٌ(٤).

---

(١) قَرَأَ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٠).

(٢) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ٧٥)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٣٤٧).

(٣) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٥ - ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).
وممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ: جِمالٌ سُودٌ-: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥)، ((مجاز =

= القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال الواحدي: (الصُّفْرُ: معناها: السُّودُ، في قَولِ المفَسِّرينَ. قال الفَرَّاء: الصُّفرُ: سُودُ الإبِلِ، لا تَرى أسْوَدَ مِنَ الإبِلِ إلَّا وهو مُشرَبٌ صُفرةً؛ لذلك سَمَّتِ العَرَبُ سُودَ الإبِلِ صُفْرًا). ((الوسيط)) (٤/ ٤٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥).

وقال الشوكاني: (إذا كانت العَرَبُ تُسَمِّي الأسْوَدَ أصفَرَ لم يَبْقَ إشكالٌ؛ لأنَّ القُرآنَ نَزَل بلُغَتِهم، وقد نَقَل الثِّقاتُ عنهم ذلك، فكان ما في القُرآنِ هنا وارِدًا على هذا الاستِعمالِ العَربيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٤).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا قولُ الحسَنِ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٣٩).

وقال الرازي: (الأكثَرونَ على أنَّ المرادَ منه: سُودٌ تَضرِبُ إلى الصُّفرةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٥).

وقال الشنقيطي: (العربُ لا تُطلِقُ الصُّفرةَ وتُريدُ السَّوادَ إلَّا في الإبِلِ خاصَّةً دونَ غيرِها... والمرادُ بـ «الصُّفْرِ»... «السُّودِ»؛ لأنَّ شرَرَ نارِ الآخرةِ أَسْوَدُ، والعربُ إنَّما تُطلِقُ الصُّفرةَ على السَّوادِ في الإبِلِ خاصَّةً دونَ غيرِها مِن سائرِ الحيواناتِ). ((العذب النمير)) (١/ ١٢٩).

وممَّن اختار أنَّ الصُّفرةَ على ظاهِرِها: الثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والبِقاعي، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

قال البِقاعي: (﴿صُفْرٌ﴾ جَمعُ أصفَرَ، لِلَّوْنِ المعروفِ. وقيل: المرادُ به سَوادٌ يَضرِبُ إلى صُفرةٍ كما هي ألوانُ الجِمالِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٩).

وقال ابن عاشور: (والصُّفْرةُ: لَونُ الشَّرَرِ إذا ابْتَعَد عن لَهيبِ نارِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

وقال ابن جُزَي: (و﴿صُفْرٌ﴾ على ظاهِرِه؛ لأنَّ لَونَ النَّارِ يَضرِبُ إلى الصُّفرةِ. وقيل: صُفْرٌ هنا بمعنى سُودٍ، يُقالُ: جمَلٌ أصفَرُ، أي: أسْوَدُ. وهذا ألْيَقُ بوَصفِ جهنَّمَ). ((تفسير ابن جزي)) =

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٤﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[(١)].

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ * لَّا ظَلِيلٖ﴾ فيه أصلٌ مِن قواعِدِ الهَندسةِ، وهو أنَّ الشَّكلَ المثَلَّثَ لا ظِلَّ له[(٢)]، فهو شَكلٌ إذا نُصِبَ في الشَّمسِ كَيْفَما نُصِبَ على أيِّ ضِلعٍ كان مِن أضلاعِه لا يكونُ له ظِلٌّ؛ لتَحديدِ رُؤوسِ زَواياهُ[(٣)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾، وهي السُّودُ الَّتي تَضربُ إلى لَونٍ فيه صُفرةٌ، وهذا يدُلُّ على أنَّ النَّارَ مُظلِمةٌ؛ لَهَبُها وجَمْرُها وشَرَرُها، وأنَّها سَوْداءُ، كَريهةُ المَرْأى، شديدةُ الحرارةِ[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه الله تبارك وتعالَى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ * لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ هذا خِطابٌ للمُكذِّبينَ في يومِ الحَشرِ، فهو

= (٢/ ٤٤٣).

وقال ابن كثير: (﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ أي: كالإبِلِ السُّودِ. قاله مجاهِدٌ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. واختاره ابنُ جرير.

وعن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ: ﴿جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ يعني: حِبالَ السُّفنِ. وعنه -أعني: ابنَ عبَّاسٍ-: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ قِطَعُ نُحاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه صِيغةُ الخِطابِ بالانطلاقِ دونَ وُجودِ مُخاطَبٍ يُؤمَرُ به الآنَ، والضَّميرُ المُقدَّرُ مع القَولِ المحذوفِ عائدٌ إلى المُكذِّبينَ، أي: يُقالُ للمكذِّبين[1].

- والأمْرُ بانطلاقِهم في قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّسخيرِ؛ لأنَّهم تَنطلِقُ بهم مَلائكةُ العذابِ قَسْرًا[2].

- وما كانوا به يُكذِّبونَ هو جَهنَّمُ، وعُبِّرَ عنه بالمَوصولِ وصِلَتِه ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لِما تَتضمَّنُه الصِّلةُ مِن النِّداءِ على خَطَئِهم وضَلالِهم[3].

- قولُه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ أُعِيدَ فِعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ على طَريقةِ التَّكريرِ؛ لقَصْدِ التَّوبيخِ أو الإهانةِ والدَّفعِ، ومِن أجْلِه أُعِيدَ فِعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ وحرْفُ (إلى)، ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (انطَلِقوا إلى ما كُنتُم به تُكذِّبون؛ ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ)؛ فإعادةُ العامِلِ في البدَلِ للتَّأكيدِ في مَقامِ التَّقريعِ[4].

- وأُرِيدَ بالظِّلِّ دُخانُ جَهنَّمَ لكَثافتِه، فعُبِّرَ عنه بالظِّلِّ تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم يَتشَوَّقون ظِلًّا يَأْوون إلى بَرْدِه، وأُفرِدَ ﴿ظِلّٖ﴾ هنا؛ لأنَّه جُعِلَ لهم ذلك الدُّخانُ في مَكانٍ واحدٍ لِيَكونوا مُتراصِّينَ تحتَه؛ لأنَّ ذلك التَّراصَّ يَزيدُهم ألَمًا[5].

- قولُه: ﴿لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ الظَّليلُ: القَويُّ في ظِلالِه، اشتُقَّ للظِّلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وصْفٌ مِن اسمِه لإفادةِ كَمالِه فيما يُرادُ منه، أي: ليس هو مِثلَ ظِلِّ المُؤمنينَ؛ قال تعالَى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. وفي هذا تَحسيرٌ لهم(١).

- والإغناءُ: جَعْلُ الغَيرِ غَنيًّا، أي: غيرَ مُحتاجٍ في ذلك الغرَضِ، وتَعديتُه بـ(مِن) على معْنى البدَليَّةِ، أو لتَضمينه معْنى: يُبعِدُ، وبذلك سُلِبَ عن هذا الظِّلِّ خَصائصُ الظِّلالِ؛ لأنَّ شأنَ الظِّلِّ أنْ يُنفِّسَ عن الَّذي يَأوي إليه ألَمَ الحَرِّ(٢).

- وفي قولِه: ﴿ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ تَهكُّمٌ بهم، وتَعريضٌ بأنَّ ظِلَّهم غيرُ ظِلِّ المؤمنينَ؛ فقدْ أدمَجَ في معْنى ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾ معْنيَينِ؛ أحدُهما: التَّهكُّمُ بهم؛ لأنَّ مَفهومَ الظِّلِّ للاستِرواحِ، وهاهنا عكْسُه، كما في قولِه: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]، وثانيهما: تَعريضٌ بأنَّ للمؤمنينَ ظِلًّا على خِلافِه؛ ليَزيدَ في تَحسُّرِهم وتنديمِهم(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ * وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ كالتَّعليلِ لعدَمِ غَناءِ الظِّلِّ غيرِ الظَّليلِ(٤). ويجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن تَمامِ ما يُقالُ للمُكذِّبينَ الَّذين قِيل لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]؛ فإنَّهم بعْدَ أنْ حَصَلَ لهم اليَّأسُ ممَّا يُنفِّسُ عنهم ما يَلقَونَ مِن العذابِ، وقيل لهم: انْطَلِقوا إلى دُخَانِ جهنَّمَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠، ٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

رُبَّما شاهَدوا ساعَتَئذٍ جهنَّمَ تَقذِفُ بشَرَرِها، فيُروِّعُهم المَنظَرُ، أو يُشاهِدونها عن بُعدٍ لا تتَّضِحُ منه الأشياءُ، وتَظهَرُ عليهم مَخايلُ تَوقُّعِهم أنَّهم بالِغون إليه، فيَزدادون رَوعًا وتَهويلًا؛ فيُقالُ لهم: إنَّ جَهنَّمَ تَرْمي بشَررٍ كالقصْرِ كأنَّه جِمالتٌ صُفرٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا في أثناءِ حِكايةِ حالِهم، أو في خِتامِ حِكايةِ حالِهم؛ فضَميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى جَهنَّمَ الَّتي دلَّ عليها قولُه: ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، كما يُقال لِلَّذي يُساقُ إلى القتْلِ وقدْ رأى رجُلًا بيَدِه سَيفٌ، فاضطَرَبَ لرُؤيتِه؛ فيُقالُ له: إنَّه الجلَّادُ[(١)].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) للاهتمامِ به؛ لأنَّهم حينَئذٍ لا يَشُكُّون في ذلك، سَواءٌ رَأَوْه أو أُخبِروا به[(٢)].

- والقصْرُ: البِناءُ العالي، والتَّعريفُ فيه للجنسِ، أي: كالقُصورِ؛ لأنَّه شُبِّهَ به جمْعٌ[(٣)].

- وفي الآيةِ تَشبيهانِ؛ فقدْ شَبَّهَ سُبحانه الشَّرَرَ بالقَصْرِ مِن جِهةِ العِظَمِ ومِن جِهةِ الطُّولِ في الهواءِ، وشبَّهَه ثانيًا لبَيانِ التَّشبيهِ بالجِمالةِ الصُّفرِ -والجِمالاتُ: جمْعُ جِمالةٍ، وهي اسمُ جمْعِ طائفةٍ مِن الجِمالِ، أي: تُشبَّهُ طَوائفُ مِن الجِمالِ مُتوزِّعةً فِرَقًا- في اللَّونِ والكَثرةِ والتَّتابُعِ والاختلاطِ وسُرعةِ الحرَكةِ. وهذا تَشبيهٌ مُركَّبٌ؛ لأنَّه تَشبيهٌ في هَيئةِ الحجْمِ معَ لَونِه مع حَرَكتِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٦، ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠، ٦٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٠).

- ومِن الممكنِ أنْ يُقالَ: إنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ عائدٌ إلى (القَصر)؛ فيذهبُ به إلى تَصويرٍ عَجيبٍ وتخييلٍ غريبٍ؛ شُبِّهتِ الشَّرارةُ حِينَ تنقَضُّ مِن النَّارِ في عِظَمِها بالقَصرِ، ثُم شُبِّهَ القصرُ المُشبَّهُ به حِينَ يأخُذُ في الارتفاعِ والانبساطِ؛ فإنَّه حينَئذٍ يَنشَقُّ عن أعدادٍ لا نِهايةَ لها، بالجِمالاتِ المتكاثرةِ، فيتصوَّرُ منها حينَئذٍ العِظَمُ أوَّلًا، والاتِّساقُ مع الكثرةِ والصُّفرةِ والحركةِ المخصوصةِ ثانيًا، فيبلغُ التَّشبيهُ إلى الذِّروةِ العُليا[١].

- وإجراءُ تِلك الأوصافِ في الإخبارِ عن النَّارِ؛ لزِيادةِ التَّرويعِ والتَّهويلِ، فإنْ كانوا يَرَون ذلك الشَّررَ -لقُرْبِهم منه- فوَصْفُه لهم لتَأكيدِ التَّرويع والتَّهويلِ بتَظاهُرِ السَّمعِ مع الرُّؤيةِ، وإنْ كانوا على بُعدٍ منه فالوصْفُ للكشْفِ عن حالِه الفَظيعةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ لقصْدِ تَهديدِ المشرِكينَ الأحياءِ[٣].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣٩). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

الآيات (٣٥-٤٠)

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ المكذِّبينَ يومَ القيامةِ: هذا اليَومُ يومُ القيامةِ لا يتكلَّمُ فيه المكَذِّبونَ، ولا يُؤذَنُ لهم فيَعتَذِرونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

هذا هو اليَومُ الَّذي يَحكُمُ اللهُ تعالى فيه بيْنَ عِبادِه، جمَعْناكم -أيُّها المكَذِّبونَ- مع كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ مِنْ قَبْلِكم، فإنْ كان لكم حِيلةٌ تتخَلَّصونَ بها مِن عَذابِ النَّارِ، فافعَلوا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: في ذلك الوَقتِ والموقِفِ مِن يومِ القيامةِ لا يَتكَلَّمُ المكَذِّبونَ[١].

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ولا يُؤذَنُ لهم؛ لِيَعتَذِروا مِن ذُنوبِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠). =

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[1].

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: هذا اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَحكُمُ اللهُ تعالى فيه بالعَدْلِ بيْنَ عِبادِه، جمَعْناكم فيه -أيُّها المكَذِّبونَ- مع كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ مِنْ قَبْلِكم[2].

= قال السمعاني: (قولُه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ لأنَّه لا عُذْرَ لهم فيَعتَذِرونَ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢).

وقال الخازن: (ليس لهم عُذرٌ في الحقيقةِ؛ لأنَّه قد تقَدَّم الإعذارُ والإنذارُ في الدُّنيا، فلمْ يَبْقَ لهم عُذرٌ في الآخرةِ، ولكِن رُبَّما تخَيَّلوا خيالًا فاسِدًا أنَّ لهم عُذرًا، فلم يُؤذَنْ لهم في ذلك العُذْرِ الفاسِدِ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١).

قيل: إنَّ الخِطابَ في قولِه: ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ للكفَّارِ المكذِّبينَ مِن هذه الأمَّةِ. وهو ظاهرُ اختيارِ ابن جرير، ومكِّيٍّ، واختاره الواحدي، والبغوي، والخازن، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١).

وقيل: إنَّه خِطابٌ للكفَّارِ يَومَئذٍ؛ في زمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابنُ عطيَّةَ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾.

أي: فإنْ كان لكم حِيلةٌ تتخَلَّصونَ بها مِن عَذابِ النَّارِ، فافعَلوا؛ فلا مَفَرَّ لكم مِن عَذابي[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣ - ٣٥].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[2].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُمكِنُ الجَمعُ بيْنَ هذا، وبيْن قولِه تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

= وقال مقاتل: (﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ يا مَعْشَرَ أهلِ مكَّةَ، وسائرَ النَّاسِ ممَّن بَعْدَكم، ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ الَّذين كذَّبوا بالبَعثِ مِن قَبْلِكم مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦).

وقال ابنُ كثير: (هذه مُخاطَبةٌ مِنَ الخالِقِ لِعبادِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١، ١٨٢).

[الزمر: ٣١]، وقوله تعالى حكايةً عن المشركينَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ فيه إضمارًا، والتَّقديرُ: هذا يومُ لا يَنطِقونَ فيه بحُجَّةٍ، ولا يُؤْذَنُ لهم فيَعتَذِرونَ؛ لأنَّه ليس لهم فيما عَمِلوه عُذرٌ صحيحٌ، وجوابٌ مستقيمٌ، فإذا لم يَنطِقوا بحُجَّةٍ سليمةٍ، وكلامٍ مُستقيمٍ، فكأنَّهم لم يَنطِقوا؛ لأنَّ مَن نطَق بما لا يُفيدُ فكأنَّه لم يَنطِقْ، ونظيرُه ما يُقالُ لِمَن ذكر كلامًا غيرَ مُفيدٍ: (ما قُلْتَ شَيئًا!).

الوجهُ الثَّاني: أراد بقولِه: ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ تلك السَّاعةَ، وذلك القَدْرَ مِن الوقتِ الَّذي لا يَنطِقون فيه، كما تقولُ: (آتِيك يومَ يَقدَمُ فُلانٌ)، والمعنى: ساعةَ يَقدَمُ، وليس المرادُ باليَومِ كُلِّه؛ لأنَّ القُدومَ إنَّما يكونُ في ساعةٍ يَسيرةٍ، ولا يَمتَدُّ في كلِّ اليومِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ في يومِ القيامةِ مَواقِفَ[1]؛ فإنَّه يومٌ طويلٌ، فتأتي عليهم ساعةٌ لا يَنطِقونَ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لهم فيَختَصِمونَ، ثُمَّ يكونُ ما شاء اللهُ يَحْلِفُون ويَجْحَدُون، فإذا فَعَلوا ذلك خَتَمَ اللهُ على أفواهِهم، وتُؤْمَرُ جوارِحُهم فتَشْهَدُ على أعمالِهم بما صَنعوا، ثُمَّ تَنْطِقُ أَلْسِنَتُهم فيَشْهَدونَ على أنْفُسِهم بما صَنعوا؛ وذلك قولُه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[2] [النساء: ٤٢]. وأيضًا فهذه الآيةُ ورَدَتْ عَقِيبَ قولِ خَزَنةِ جَهنَّمَ لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]، فيَنقادونَ

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٨٦).

ويَذهَبونَ، فقولُه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ مُتقيِّدٌ بهذا الوقتِ في هذا العَمَلِ، وتقييدُ المطلَقِ بسَبَبِ مقدِّمةِ الكلامِ مشهورٌ في العُرفِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (ولا يُؤذَنُ لهم فيَعتَذِروا) كما قال: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر: ٣٦]؟

الجواب: أنَّ قولَه: ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿يُؤۡذَنُ﴾ مُنتَظِمٌ معه في سِلْكِ النَّفيِ، والفاءُ للتَّعقيبِ بيْنَ النَّفْيَينِ في الإخبارِ، أو لترَتُّبِ النَّفيِ الثَّاني على الأوَّلِ، ولم يَقُلْ: (فَيَعْتَذِرُوا) بالنَّصبِ في جَوابِ النَّفيِ؛ ليفيدَ الكلامُ نَفْيَ الاعتذارِ مُطلَقًا؛ إذ لا عُذْرَ لهم ولا يَعتَذِرونَ، بخِلافِ ما لو نُصِبَ وجُعِلَ جوابًا؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّ عَدَمَ اعتِذارِهم لعَدَمِ الإذنِ، فيُوهِمُ ذلك أنَّ لهم عُذرًا لكِنْ لم يؤذَنْ لهم فيه. وقيل: إنَّما لم يُنصَبْ في جوابِ النَّفيِ للمُحافَظةِ على رُؤوسِ الآيِ؛ لأنَّ الآياتِ بالواوِ والنُّونِ، ولو قِيلَ: (فيَعتَذِروا) لَمْ تتوافَقِ الآياتُ(٢).

٣- إنْ قيل: نفْيُ النُّطقِ عنهم يدُلُّ على انتفاءِ الاعتذارِ منهم؛ إذِ الاعتذارُ لا يكونُ إلَّا بالنُّطقِ؛ فما فائدةُ قولِه عَقِبَه: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ معناهُ: لا يَنطِقون ابتِداءً بعُذرٍ مَقبولٍ، ولا بَعْدَ أن يُؤذَنَ لهم في الاعتِذارِ -لو أُذِنَ لهم فيه-؛ إذِ الخائفُ عادةً قد لا يَنطِقُ لِسانُه بعُذرٍ وحُجَّةٍ لخَوفِه، لكنْ إذا أُذِنَ له فيه نَطَقَ، ففائدةُ ذلك نفْيُ هذا المعْنى، أي: لا يَنطِقون ابتِداءً بعُذرٍ، ولا بعْدَ الإذنِ(٣). ويمكنُ أن يكونَ ذلك لقطعِ الرَّجاءِ، بحيث لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٧، ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٨، ٧٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي =

يُتوَهَّمُ أنَّه رُبَّما يُستثنى مِن نفيِ النُّطقِ ما كان مِن قَبيلِ الاعتِذارِ.

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ هذا مِن العَذابِ الَّذي يُعَذَّبونَه؛ إذ هو مِن نوعِ العَذابِ النَّفْسانيِّ، وقد يكونُ أوْقَعَ على العاقِلِ مِن العذابِ الجُسمانيِّ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ الحالةِ في ذلك اليومِ(٢).

- والإشارةُ في قولِه: ﴿هَذَا يَوْمُ﴾ إنْ كانتْ على ظاهِرِها كان المشارُ إليه هو اليومَ الحاضرَ، وهو يومُ الفصلِ، فتَكونُ الجُملةُ مِن تَمامِ ما يُقالُ لهم في ذلك اليومِ بعْدَ قولِه: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، فيكونُ في الانتقالِ مِن خِطابِهم بقولِه: ﴿انطَلِقُوا﴾ إلى إجْراءِ ضَمائرِ الغَيبةِ عليهم الْتِفاتٌ، يَزيدُه حُسنًا أنَّهم قدِ استَحَقُّوا الإعراضَ عنهم بعْدَ إهانتِهم بخِطابِ ﴿انطَلِقُوا﴾، وهذا الوجْهُ أنسَبُ بقولِه تعالَى بعْدَه: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، ومَوقِعُ الجُملةِ -على هذا التَّأويلِ- مَوقعُ تَكريرِ التَّوبيخِ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، وهو مِن جُملةِ ما يُقالُ لهم في ذلك اليومِ.

وإنْ كانت الإشارةُ إلى المذكورِ في اللَّفظِ، وهو يومُ الفصْلِ المُتحدَّثُ عنه بأنَّ

= السعود)) (٨/ ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٣).

فيه الوَيْلَ للمُكذِّبينَ، كان هذا الكلامُ مُوَجَّهًا إلى الَّذين خُوطِبوا بالقرآنِ كلِّهم؛ إنذارًا للمُشرِكينَ منهم، وإنعامًا على المؤمنينَ؛ فكانتْ ضَمائرُ الغَيبةِ جاريةً على أصْلِها، وكانتْ عائدةً على المُكذِّبينَ مِن قولِه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٤]، وتكونُ الجُملةُ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وجُملةِ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، واسمُ الإشارةِ الَّذي هو إشارةٌ إلى القريبِ مُستعمَلٌ في مُشارٍ إليه بَعيدٍ باعتبارِ قُرْبِ الحديثِ عنه(١).

- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ لتَهديدِ المشركينَ، مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] الآيةَ -على أوَّلِ الوجهَينِ في مَوقعِ ذلك-، أو هو واردٌ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ -على ثاني الوجهَينِ المَذكورينِ فيه- فيكونُ تَكريرًا لنَظيرِه الواقعِ بعْدَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩] إلى قولِه: ﴿صُفۡرٞ﴾ [المرسلات: ٣٣]، اقْتَضى تَكريرَه عَقِبَه أنَّ جُملةَ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ إلخ، تَتضَمَّنُ حالةً مِن أحوالِهم يومَ الحشْرِ لم يَسبِقْ ذِكرُها، فكان تَكريرُ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بعْدَها لوُجودِ مُقتضى تَكريرِ الوَعيدِ للسَّامِعينَ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ۝ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: ويُقالُ لهم: هذا...(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٤).

- وهو تَكريرٌ لتَوبيخِهم بعدَ جُملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، شُيِّعَ به القولُ الصَّادرُ بطَرْدِهم وتَحقيرِهم؛ فإنَّ المَطرودَ يُشيَّعُ بالتَّوبيخِ، فهو ممَّا يُقالُ لهم يَومَئذٍ، ولم تُعطَفْ بالواوِ؛ لأنَّها وقَعَتْ مَوقعَ التَّذييلِ للطَّردِ، وذلك مِن مُقتَضَياتِ الفصْلِ، سواءٌ أكان التَّكريرُ بإعادةِ اللَّفظِ والمعْنى، أمْ كان بإعادةِ المعْنى والغرَضِ[1].

- وجُملةُ ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ تَقريرٌ وبَيانٌ للفَصلِ بأنَّه الفصلُ في النَّاسِ كلِّهم، لجَزاءِ المُحسنينَ والمُسيئينَ كلِّهم؛ لأنَّه إذا كان يومُ الفصلِ بيْنَ السُّعداءِ والأشقياءِ وبيْنَ الأنبياءِ وأُمَمِهم، فلا بُدَّ مِن جمْعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ؛ حتَّى يقَعَ ذلك الفصْلُ بيْنَهم، والمُخاطَبونَ بضَميرِ ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ المُشرِكونَ الَّذين سِيقَ الكلامُ لتَهديدِهم، وهم المُكذِّبون بالقُرآنِ، وقد أُنذِروا بما حلَّ بالأوَّلين أمْثالِهم مِن عَذابِ الدُّنيا، فأُريدَ تَوقيفُهم يَومَئذٍ على صِدقِ ما كانوا يُنذَرون به في الحياةِ الدُّنيا مِن مَصيرِهم إلى ما صار إليه أمْثالُهم؛ فلذلك لم يَتعلَّقِ الغرَضُ يومَئذٍ بذِكرِ الأُمَمِ الَّتي جاءت مِن بَعْدِهم، وباعتِبارِ هذا الضَّميرِ فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾، فكان تخلُّصًا إلى تَوبيخِ الحاضِرينَ على ما يَكيدونَ به للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُسلِمينَ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا * وَأَكِيدُ كَيۡدٗا * فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق: ١٥-١٧]، وأنَّ كَيدَهم زائلٌ، وأنَّ سُوءَ العُقبى عليهم. وفُرِّعَ على ذلك ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾، أي: فإنْ كان لكمْ كَيدٌ اليومَ كما كان لكمْ في الدُّنيا فافْعَلوه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

- والشَّرطُ في قولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ للتَّوبيخِ والتَّذكيرِ بسُوءِ صَنيعِهم في الدُّنيا، والتَّسجيلِ عليهم بالعجْزِ عن الكَيدِ يومَئذٍ؛ حيث مُكِّنوا مِن البحثِ عمَّا عَسى أنْ يكونَ لهم مِن الكَيدِ، فإذا لم يَسْتطيعوه بعْدَ ذلك فقدْ سُجِّلَ عليهم العجْزُ(١).

- والأمْرُ ﴿فَكِيدُونِ﴾ للتَّعجيزِ، والتَّقريعِ لهم على كَيدِهم لدِينِ اللهِ وذَويه(٢).

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ للوعيدِ والتَّهديدِ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

الآيات (٤١-٤٥)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقِبةِ المتَّقينَ يومَ القيامةِ: إنَّ المتَّقينَ يتنَعَّمونَ في ظِلالِ الجنَّةِ، وعُيونِها الجاريةِ، وفَواكِهِها الكثيرةِ مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم، ويُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا بلا أذًى ولا تنغيصٍ؛ بسَبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، وذلك جَزاؤُنا لكُلِّ مَن أحسَنَ العمَلَ في الدُّنيا.

ثُمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّن سُبحانَه ما يحلُّ بالكُفَّارِ مِن الخِزيِ والنَّكالِ يومَ القيامةِ؛ أعْقَبَه بذِكرِ ما يكونُ للمُؤمنينَ مِن السَّعادةِ والكرامةِ حينَئذٍ[(١)].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه: يتنَعَّمونَ في ظِلالِ الجنَّةِ، فلا حَرَّ ولا بَرْدَ فيها يُؤذِيهم، ولهم فيها عُيونٌ جاريةٌ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر العُيونَ؛ أتْبَعَها ما يَنشَأُ عنها[1].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢﴾.

أي: ولهم في الجَنَّةِ فَواكِهُ مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم[2].

= ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

قال الألوسي: (﴿ظِلَٰلٖ﴾ جمعُ ظِلٍّ، ضِدُّ الضِّحِّ، وهو أعَمُّ مِن الفَيْءِ، فإنَّه يُقالُ: ظِلُّ اللَّيلِ، وظِلُّ الجنَّةِ، ويُقالُ لِكُلِّ مَوضِعٍ لم تَصِلْ إليه الشَّمسُ: ظِلٌّ، ولا يُقالُ الفَيْءُ إلَّا لِما زال عنه الشَّمسُ، ويُعبَّرُ به أيضًا عن الرَّفاهةِ، وعن العِزَّةِ والمَناعةِ، وعن هذا المعنى حمَلَ الرَّاغبُ ما في الآيةِ، والمُتبادرُ منه ما هو المعروفُ، ويؤيِّدُه ما تقدَّم في المُقابِلِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ [المرسلات: ٣٠] إلخ ... وأيًّا ما كان فالمرادُ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أنَّهم مُستقِرُّونَ في فُنونِ التَّرفُّه، وأنواعِ التَّنعُّم). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧).

ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٣٥).

وقال الشوكاني: (والمُرادُ بالعُيونِ: الأنهارُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥). =

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ الجنَّةِ إكرامًا لهم: كُلُوا مِن فَواكِهِ الجنَّةِ واشرَبوا مِن عُيُونِها بلا أذًى ولا تَنغيصٍ فيما تأكُلونَ وتَشرَبونَ، وذلك جزاءٌ لكم بسَبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ(١).

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وذلك جَزاؤُنا لِكُلِّ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(٣).

= قال ابن جرير: (﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يأْكُلونَ مِنها كُلَّما اشْتَهَوْا لا يَخافونَ ضُرَّها، ولا عاقِبَةَ مَكْروهِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١).

وقال الشوكاني: (والمرادُ... بالفَواكِهِ: ما يُتَفَكَّهُ به مِمَّا تَطْلُبُه أنفُسُهم، وتَسْتَدْعِيه شَهَواتُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١، ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣، ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٤).

الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه النَّصُّ على أنَّ عَمَلَهم في الدُّنيا سبَبٌ في تمتُّعِهم بنعيمِ الجَنَّةِ في الآخِرةِ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [الأعراف: ٤٣].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّه تعالى لَمَّا بَعَث الكُفَّارَ إلى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ أعَدَّ في مقابَلتِه للمُؤمِنينَ ثلاثةَ أنواعٍ مِنَ النِّعمةِ؛ أوَّلُها: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، كأنَّه قيل: ظِلالُهم ما كانت ظليلةً، وما كانت مُغْنِيةً عن اللَّهَبِ والعَطَشِ، أمَّا المتَّقونَ فظِلالُهم ظليلةٌ، وفيها عُيونٌ عَذْبةٌ مُغْنِيةٌ لهم عن العَطَشِ، وحاجِزةٌ بيْنَهم وبيْنَ اللَّهَبِ، ومعَهم الفواكِهُ الَّتي يَشتَهونَها ويتَمَنَّونَها، ولَمَّا قال للكُفَّارِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾، قال للمُتَّقينَ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل ذلك بسَبَبِ العَمَلِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعَمَلِه))[3]؟

الجوابُ: أنْ يُقالَ: «الباءُ» تأتي للسَّبَبيَّةِ، وتأتي للبَدَليَّةِ، فإذا قيل: دَخَلَ الرَّجُلُ الجنَّةَ بعمَلِه؛ فالمعنى: السَّببيَّةُ، وإذا قال: لن يَدخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه؛ فالمعنى:

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٣) واللَّفظُ له من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.

البَدَلِيَّةُ، وهذا مَثَلٌ يُبيِّنُ هذا: بِعْتُك الثَّوبَ بدِرْهَمٍ؛ فالباءُ للبدَلِيَّةِ، لأنَّ الدِّرهمَ صار عِوضًا عن الثَّوبِ، وإذا قلتُ: أَدَّبْتُ الولدَ بعَبَثِه؛ هذه للسَّببيَّةِ، إذن: كُلُّنا لن يَدخُلَ الجنَّةَ بعمَلِه؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لو حاسَبَنا على عمَلِنا ما قابَلَ عمَلُنا نِعمةً واحدةً مِن نِعَمِ اللهِ تعالى! فالنَّفَسُ الآنَ، الَّذي هو مِن ضرورةِ الحياةِ؛ يَخرُجُ منك ويَدخُلُ بدون تَعَبٍ، وبدونِ مشَقَّةٍ، وكم يَتَنَفَّسُ الإنسانُ في الدَّقيقةِ؟! فلو أنَّنا حُوسِبْنا على أعمالِنا بالمُعاوَضةِ والمُبادَلةِ لَكانت نعمةٌ واحدةٌ تَستَوعِبُ جميعَ العملِ! لذلك نقولُ: إنَّ الباءَ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، وليست للبدليَّةِ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، وذلك مِن إكرامِهم؛ بأنْ جعَل ذلك الإنعامَ حَقًّا لهم(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إثباتُ القياسِ، يعني: مِثلَ هذا الجزاءِ نَجْزي كُلَّ مُحْسِنٍ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الجزاءَ والعقوبةَ والثَّناءَ والقَدْحَ على الأوصافِ، لا على الأشخاصِ؛ لأنَّه هنا عَلَّقَ الجزاءَ على الإحسانِ؛ ولهذا لَمْ يأتِ شيءٌ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى مُقَيَّدًا بشَخصٍ لشَخصِه أبدًا، حتَّى خصائصُ الرُّسُلِ ليست مِن بابِ خصائصِ الأشخاصِ، لكنْ مِن بابِ خصائصِ الأوصافِ؛ لأنَّ فيهم وصفًا زائدًا على غيرِهم، وهو وَصفُ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ؛ فخُصُّوا ببعضِ الأحكامِ المُناسِبةِ لِمَقامِهم، أمَّا أنْ يُخَصَّ شخصٌ بعَيْنِه؛ لأنَّه فُلانُ بنُ فُلانٍ مَثلًا، فهذا لا يوجَدُ في الشَّريعةِ؛ لأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٩).

سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الأحكامَ ويُعَلِّقُها على الأوصافِ، لا على الأشخاصِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ؛ فكما أحْسَنَ في عبادةِ اللهِ أحْسَنَ اللهُ إليه، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ (الرَّحمنِ): ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: ما جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ، وبهذا يَتَبيَّنُ لك كمالُ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أَحْسَنَ إليك أوَّلًا بتوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثُمَّ أَحْسَنَ إليك ثانيًا بالجزاءِ عليه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ أحوالِ المؤمنينَ على سَبيلِ الإيجازِ، بعْدَ أنْ ذَكَر أحوالَ الكُفَّارِ على سَبيلِ الإطنابِ، فانتُقِلَ إلى ذِكرِ نَعيمِ المؤمنينَ المُتَّقينَ؛ تَنْويهًا بشَأنِهم، وتَعريضًا بتَرغيبِ المُشرِكينَ المَوجودينَ في الإقلاعِ عنه؛ ليَنالوا كَرامةَ المُتَّقينَ(٣).

ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا خِتامَ الكَلامِ الَّذي هو تَقريعٌ للمُشرِكين، حُكِيَ لهم فيه نَعيمُ المُؤمنينَ الَّذي لا يُشاهِدُه المشرِكون؛ لبُعدِهم عن مَكانِه، فيُحكَى لهم يَومَئذٍ فيما يُقالُ لهم؛ ليَكونَ ذلك أشدَّ حَسرةً عليهم، وتَنْديمًا لهم على ما فرَّطوا فيه ممَّا بادَرَ إليه المُتَّقونَ المؤمِنونَ فَفازوا، فيَكونَ هذا مِن جُملةِ القولِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٤).

حُذِفَ فِعلُه عندَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ [المرسلات: ٢٩] إلخ[١].

- وظِلالٌ: جمْعُ ظِلٍّ، وجُمِعَت الظِّلالُ هنا؛ لأنَّها ظِلالٌ كَثيرةٌ؛ لكَثرةِ شَجَرِ الجنَّة، وكَثرةِ المُستَظِلِّينَ بِظِلِّها، ولأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم ظِلًّا يَتمتَّعُ فيه هو ومَن إليه، وذلك أوقَعُ في النَّعيمِ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للاستِغراقِ؛ فلِكُلِّ واحدٍ مِن المُتَّقينَ كَونٌ في ظِلالٍ[٣].

- قولُه: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ صِفةُ (فَوَاكِهَ)، قيل: جمَعَ قولُه: (فَوَاكِهَ) الفواكِهَ وغيرَها؛ فالتَّبعيضُ الَّذي دلَّ عليه حرْفُ (مِن) تَبعيضٌ مِن أصنافِ الشَّهواتِ، لا مِن أصنافِ الفَواكِه، فأفاد أنَّ تلك الفَواكِهَ مَضمومةٌ إلى مَلاذَّ أُخرى ممَّا اشتَهَوهُ[٤].

- وجُملةُ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، وذلك المَحذوفُ في مَوقعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، والتَّقديرُ: مَقولًا لهم: كُلوا واشْرَبوا[٥].

- والمَقصودُ مِن ذلك القولِ كَرامتُهم بعرْضِ تَناوُلِ النَّعيمِ عليهم، كما يَفعَلُه المُضِيفُ لضُيوفِه، فالأمْرُ في ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مُستعمَلٌ في العرْضِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧، ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

- وقولُه: ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ وصْفٌ لمَوصوفٍ غيرِ مَذكورٍ دلَّ عليه فِعلُ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، وذلك المَوصوفُ مَفعولٌ مُطلَقٌ مِن ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، مُبيِّنٌ للنَّوعِ لقصْدِ الدُّعاءِ، مِثلُ: «سَقْيًا» و«رَعْيًا» في الدُّعاءِ بالخيرِ، و«تَبًّا» و«سُحْقًا» في ضِدِّه[١].

- والباءُ في ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: لإفادةِ تَسبُّبِ ما بعْدَها في وُقوعِ مُتعلَّقِه، أي: كُلوا واشْرَبوا بسَببِ ما كُنتم تَعمَلون في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ بعْدَ أنْ قِيلَ لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ...﴾ إلخ، مَسوقةً إليهم مَساقَ زِيادةِ الكرامةِ بالثَّناءِ عليهم، أي: هذا النَّعيمُ الَّذي أنْعَمْتُ به عليكم هو سُنَّتُنا في جَزاءِ المُحسنينَ، فإذْ قدْ كُنتُم مِن المُحسِنينَ فذلك جَزاءٌ لكم نِلْتُموه بأنَّكم مِن أصحابِ الحقِّ في مِثلِه، ففي هذا هَزٌّ مِن أعطافِ المُنعَمِ عليهم، والمعْنى عليه: أنَّ هذه الجُملةَ تُقالُ لكلِّ مُتَّقٍ منهم، أو لكلِّ جَماعةٍ منهم مُجتَمِعةٍ على نَعيمِ الجنَّةِ، ولِيَعلَموا أيضًا أنَّ أمْثالَهم في الجنَّاتِ الأُخرى لهم مِن الجَزاءِ مِثلُ ما هم يُنعَّمونَ به. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُوَجَّهةً إلى المُكذِّبينَ الموجودينَ بعْدَ أنْ وُصِفَ لهم ما يُنعَّمُ به المُتَّقونَ إثْرَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ إلخ، قُصِدَ منها التَّعريضُ بأنَّ حِرمانَهم مِن مِثلِ ذلك النَّعيمِ همُ الَّذين قَضَوا به على أنفُسِهم؛ إذْ أبَوْا أنْ يَكونوا مِن المُحسِنينَ، تَكمِلةً لتَنديمِهم وتَحسيرِهم الَّذي بُودِئوا به مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ إلى آخِرِه، أي: إنَّا كذلك نَجْزي المُحسنينَ، دونَ أمْثالِكم المُسيئينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ موقعُ التَّعليلِ لِما قبْلَها، ومِن أجْلِ الإشعارِ بهذا التَّعليلِ افتُتِحَت بحَرْفِ (إنَّ)، مع خُلوِّ المَقامِ عن التَّردُّدِ في الخبَرِ؛ إذ المَوقفُ يومَئذٍ مَوقِفُ الصِّدقِ والحقيقةِ؛ فلذلك كانت (إنَّ) مُتمَحِّضةً لإفادةِ الاهتِمامِ بالخبَرِ، وحِينَئذٍ تَصيرُ مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّسبُّبِ، وتُفيدُ مُفادَ التَّعليلِ والرَّبْطِ. وأيضًا الجُملةُ تُفيدُ معْنى التَّذييلِ بما اشتَمَلَت عليه مِن شِبهِ عُمومِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ومِن عُمومِ المُحسِنينَ؛ فاجتَمَعَ فيها التَّعليلُ والتَّذييلُ(١).

- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ هي على الوجْهِ الأوَّلِ في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ [المرسلات: ٤١] -وهو كَونُها ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ بعْدَ أنْ قِيل لهم: كُلوا واشْرَبوا... إلخ، مَسوقةً إليهم مَساقَ زِيادةِ الكرامةِ بالثَّناءِ عليهم- تَكريرٌ لنَظائرِها، واليومُ المضافُ إلى (إذ) ذاتِ تَنوينِ العِوَضِ هو يومُ صُدورِ تلك المَقالةِ، وأمَّا على الوجْهِ الثَّاني في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ...﴾ [المرسلات: ٤١] إلخ -وهو كَونُها مُوَجَّهةً إلى المُكذِّبينَ الموجودينَ بعْدَ أنْ وُصِفَ لهم ما يُنعَّمُ به المُتَّقونَ- فهي مُتَّصِلةٌ بتلك الجُملةِ؛ لِمُقابَلةِ ذِكرِ نَعيمِ المؤمنينَ المُطنَبِ في وَصْفِه، بذِكرِ ضِدِّه للمُشركينَ بإيجازٍ حاصلٍ مِن كَلمةِ (وَيْل)؛ لتَحصُلَ مُقابَلةُ الشَّيءِ بضِدِّه، ولِتَكونَ هذه الجُملةُ تَأكيدًا لنَظائرِها، واليومُ المضافُ إلى (إذ) يومٌ غيرُ مَذكورٍ، ولكنَّه ممَّا يَقْتَضيهِ كَونُ المُتَّقينَ في ظِلالٍ وعُيونٍ وفَواكِهَ؛ لِيُعلَمَ بأنَّ ذلك يكونُ لهم في يومِ القيامةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٤٥). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

الآيات (٤٦-٥٠)

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ المكذِّبينَ يومَ القيامةِ: يُقالُ للمُكَذِّبينَ بالبَعْثِ: كُلُوا وتمَتَّعوا في الدُّنيا قليلًا إلى آخِرِ أعمارِكم؛ إنَّكم مُجرِمونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

وإذا قِيلَ في الدُّنيا لأولئكَ المجرِمينَ: صَلُّوا للهِ تعالى، لا يَفعَلونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

ثمَّ يختِمُ اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ بالتَّعجيبِ مِن أحوالِهم، فيقولُ: فبأيِّ حَديثٍ بَعْدَ هذا القُرآنِ يُؤمِنونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦﴾.

أي: يُقالُ للمُكَذِّبينَ بالبَعْثِ: كُلُوا وتمَتَّعوا في الدُّنيا قليلًا إلى آخِرِ أعمارِكم؛ إنَّكم مُجرِمونَ بكُفْرِكم باللهِ، وتَكذيبِكم رُسُلَه، فمَصيرُ تلك اللَّذَّاتِ الانقِطاعُ، ومَصيرُكم إلى عذابِ اللهِ(١).

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٥، ٤٤٦).

وقال الله سُبحانَه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾.

أي: وإذا قِيلَ في الدُّنيا لأولئك المجرِمينَ: صَلُّوا للهِ تعالى، لا يَفعَلونَ[٢].

قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩)﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[٣].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بالَغَ في زَجْرِ الكُفَّارِ مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى آخِرِها، وحَثَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢-٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال السعدي: (مِن إجرامِهم أنَّهم إذا أُمِروا بالصَّلاةِ الَّتي هي أشرَفُ العباداتِ، وقيل لهم: ﴿ارْكَعُوا﴾، امتَنَعوا مِن ذلك، فأيُّ إجرامٍ فوقَ هذا؟! وأيُّ تكذيبٍ يَزيدُ على هذا؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٦، ١٨٧).

على التَّمَسُّكِ بالنَّظَرِ والاستِدلالِ والانقيادِ للدِّينِ الحَقِّ؛ خَتَم السُّورةَ بالتَّعَجُّبِ مِن الكُفَّارِ، وبَيَّن أنَّهم إذا لم يُؤمِنوا بهذه الدَّلائِلِ اللَّطيفةِ مع تجَلِّيها ووُضوحِها، فبأيِّ حديثٍ بَعْدَه يُؤمِنونَ[1]؟!

وأيضًا لَمَّا أعْلَمَ أنَّ لهم الوَيْلَ دائِمًا؛ ذَكَر أنَّ سَبَبَه عَدَمُ الإيمانِ بالقُرآنِ، وأنَّ مَن لم يؤمِنْ بالقُرآنِ لم يُؤمِنْ بشَيءٍ أبدًا، فقال مُسَبِّبًا عن معنى الكلامِ[2]:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

أي: فبأيِّ كلامٍ بعْدَ هذا القُرآنِ يُؤمِنونَ إنْ لم يُؤمِنوا به، معَ كَمالِ صِدْقِه، ووُضوحِ حُجَجِه[3]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ هذا تهديدٌ ووَعيدٌ للمُكَذِّبينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١، ٧٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

أنَّهم وإنْ أكَلوا في الدُّنيا وشَربوا وتمتَّعوا باللَّذَّاتِ، وغفَلوا عن القُربات؛ فإنَّهم مُجرِمونَ يَستَحِقُّونَ ما يَستَحِقُّه المجرِمونَ، فستَنقَطِعُ عنهم اللَّذَّاتُ، وتبقَى عليهم التَّبِعاتُ[1].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي: وإذا قيل لهم: صَلُّوا، لا يُصَلُّونَ، فعُبِّر عن الصَّلاةِ بلفظِ الرُّكوعِ؛ لأنَّه ركنٌ مِن أركانِها[2]. والآيةُ أصلٌ في وُجوبِ الرُّكوعِ[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ، وأنَّهم حالَ كُفرِهم كما يَستَحِقُّونَ الذَّمَّ والعِقابَ بتركِ الإيمانِ، فكذلك يَستَحِقُّونَ الذَّمَّ والعِقابَ بتركِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَمَّهم حالَ كُفْرِهم على تَركِ الصَّلاةِ[4]. فهذه الآيةُ الكريمةُ مِن آياتِ الاستِدلالِ على أنَّ الكُفَّارَ مُؤاخَذونَ بتَرْكِ الفُروعِ، وأكثَرُ ما يأتي ذِكْرُه مِن الفُروعِ هي الصَّلاةُ؛ مِمَّا يؤكِّدُ أنَّها هي بحَقٍّ عِمادُ الدِّينِ[5].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ القائِلونَ بأنَّ الأمرَ للوُجوبِ استَدَلُّوا بهذه الآيةِ؛ لأنَّه تعالى ذمَّهم بمُجَرَّدِ تَرْكِ المأمورِ به، وهذا يدُلُّ على أنَّ مُجَرَّدَ الأمرِ للوُجوبِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تاركِ الصَّلاةِ؛ فإنَّه ذَكَرَ سُبحانَه هذا بعْدَ قولِه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾، ثُمَّ تَوَعَّدَهم على تَرْكِ الرُّكوعِ -وهو الصَّلاةُ إذا دُعُوا إليها-، ولا يُقالُ: إنَّما تَوَعَّدَهم على التَّكذيبِ؛ فإنَّه سُبحانَه وتعالى إنَّما أَخْبَرَ عن تَرْكِهم لها، وعليه وَقَعَ الوَعيدُ[1].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مِنَ الوَيلِ عليهم أنَّهم تَنْسَدُّ عليهم أبوابُ التَّوفيقِ، ويُحرَمونَ كُلَّ خَيرٍ؛ فإنَّهم إذا كَذَّبوا هذا القُرآنَ الكَريمَ الَّذي هو أعلى مراتِبِ الصِّدقِ واليَقينِ على الإطلاقِ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[2]؟!

٦- تأمَّلْ كيفَ وقَع القَسَمُ في أوَّلِ هذه السُّورةِ على المَعادِ والحياةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ، وحالِ السُّعداءِ والأشقياءِ فيها، وقَرَّرَها بالحياةِ الأُولى في قَولِه ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، فذكَر فيها المَبدأَ والمَعادَ، وأخلَصَ السُّورةَ لذلك؛ فحَسُنَ الإقسامُ بما يَحصُلُ به نَوْعَا الحياةِ المُشاهَدةِ، وهو الرِّياحُ والملائكةُ، فكان في القَسَمِ بذلك أبْيَنُ دليلٍ وأظهرُ آيةٍ على صِحَّةِ ما أقسَمَ عليه وتضَمَّنَتْه السُّورةُ؛ ولهذا كان المكَذِّبُ بعدَ ذلك في غايةِ الجُحودِ والعنادِ والكُفرِ؛ فاستحقَّ الوَيْلَ بعدَ الوَيلِ، فتَضاعَفَ عليه الويلُ كما تَضاعَفَ منه الكُفرُ والتَّكذيبُ، فلا أحسَنَ مِن هذا التَّكرارِ في هذا الموضِعِ، ولا أعظَمَ منه مَوقِعًا؛ فإنَّه تكرَّر عَشْرَ مرَّاتٍ، ولم يُذكَرْ إلَّا في أثَرِ دليلٍ أو مَدلولٍ عليه، عَقِيبَ

---

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٩).
مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تاركَ الصَّلاةِ بالكُلِّيَّةِ تهاوُنًا أو كسلًا، كافرٌ كُفرًا مُخرِجًا مِن المِلَّةِ، واختاره ابنُ تَيميَّةَ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٦)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٢٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

ما يوجِبُ التَّصديقَ، وما يَجِبُ التَّصديقُ به؛ فتأمَّلْه(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مَن لَمْ يَهْتَدِ بما جاءتْ به الأنبياءُ فهو أبْعَدُ النَّاسِ عن الهُدى(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مِن أحسَنِ اللَّازِمِ وأبْيَنِه أنْ تُبَيِّنَ للسَّامعِ الحقَّ، ثُمَّ تقولَ له: ماذا تقولُ خِلافَ هذا؟! وأين تَذهَبُ خِلافَ هذا؟! قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، فالأمرُ مُنْحَصِرٌ في الحقِّ والباطلِ، والهدى والضَّلالِ، فإذا عَدَلْتُم عنِ الهُدى والحَقِّ، فأين العُدولُ؟ وأين المَذهَبُ(٣)؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ الجُملةُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهذا المَحذوفُ في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ مِن المُكذِّبينَ، أي: الويلُ ثابتٌ لهم في حالِ ما يُقالُ لهم: كُلوا وتَمتَّعوا، يُقالُ لهم ذلك في الآخِرةِ؛ إيذانًا بأنَّهم كانوا في الدُّنيا أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم، وكانوا مِن أهْلِه؛ تَذكيرًا بحالِهم السَّمِجةِ، وبما جَنَوا على أنفُسِهم مِن إيثارِ المتاعِ القليلِ على النَّعيمِ والمُلكِ الخالدِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٦).
ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٤٢).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ مُستأنَفًا خِطابًا للمُكذِّبينَ في الدُّنيا الَّذين خُوطِبوا بقولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧]، وهو استئنافٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٤]؛ إذ يُثيرُ في نُفوسِ المُكذِّبينَ المُخاطَبينَ بهذه القَوارِعِ ما يَكثُرُ خُطورُه في نُفوسِهم مِن أنَّهم في هذه الدُّنيا في نِعمةٍ مُحقَّقةٍ، وأنَّ ما يُوعَدونَ به غيرُ واقِعٍ؛ فقِيل لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾، فالأمْرُ في قولِه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الإمهالِ والإنذارِ، أي: ليس أكْلُكم وتَمتُّعُكم بِلَذَّاتِ الدُّنيا بشَيءٍ؛ لأنَّه تَمتُّعٌ قليلٌ، ثمَّ مَأْواكم العذابُ الأبَدِيُّ؛ قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[1] [آل عمران: ١٩٥- ١٩٧].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والوَعيدِ بالسُّوءِ، أي: إنَّ إجرامَكم مُهْوٍ بكم إلى العَذابِ، وذلك مُستفادٌ مِن مُقابَلةِ وصْفِهم بالإجرامِ بوَصْفِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المرسلات: ٤١] بالإحسانِ؛ إذِ الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ، فالجُملةُ واقِعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للتَّهديدِ[2].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ لرَدِّ إنكارِهم كَوْنَهم مُجرِمينَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٥، ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

- وقولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ له ارتباطٌ خاصٌّ بجُملةِ ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ لِما في (تَمَتَّعُوا قَليلًا) مِن الكِنايةِ عن تَرَقُّبِ سُوءِ عاقِبةٍ لهم، فيَقَعُ قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مَوقعَ البَيانِ لتلك الكِنايةِ، أي: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ الآنَ، ووَيْلٌ لكم يومَ القيامةِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ * وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على قولِه: ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٧]، والتَّقديرُ: والَّذين إذا قِيل لهم: ارْكَعوا، لا يَركَعونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦]، والانتِقالُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ الْتِفاتٌ، وعلى كِلا الوَجْهينِ فهو مِن الإدماجِ[2]؛ لِيَنعَى عليهم مُخالفتَهم المُسلِمينَ في الأعمالِ الدَّالَّةِ على الإيمانِ الباطِنِ، فهو كِنايةٌ عن عدَمِ إيمانِهم؛ لأنَّ الصَّلاةَ عِمادُ الدِّينِ، والمعْنى: إذا قِيل لهم آمِنوا وارْكَعوا، لا يُؤمِنون ولا يَركَعون. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على قولِه: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]. وعلى الوُجوهِ كلِّها يُفيدُ تَهديدَهم؛ لأنَّه مَعطوفٌ على التَّكذيبِ أو على الإجرامِ، وكِلاهما سَببٌ للتَّهديدِ بجَزاءِ السُّوءِ في يَومِ الفصْلِ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ سمَّى الصَّلاةَ باسمِ جُزءٍ مِن أجْزائِها، وهو الرُّكوعُ، وإنَّما خَصَّ الرُّكوعَ بالذِّكرِ معَ أنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على أفعالٍ كَثيرةٍ؛ لأنَّ العرَبَ كانوا يَأنَفون مِن الرُّكوعِ والسُّجودِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((إعراب =

وقيل: خَصَّ هذا الجُزءَ؛ لأنَّه يُقالُ على الخُضوعِ والطَّاعةِ، ولأنَّه خاصٌّ بصَلاةِ المُسلِمينَ(١).

- وجُملةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، ويكونَ التَّعبيرُ بالمُكذِّبينَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصْدِ وَصْفِهم بالتَّكذيبِ، والتَّقديرُ: وَيلٌ يومَئذٍ لهم أو لكم، فهي تَهديدٌ ناشئٌ عن جُملةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، ويكونَ اليومُ المُشارُ إليه بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الزَّمانَ الَّذي يُفيدُه (إذا) مِن قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ الَّذي يُجازى فيه بالوَيلِ للمُجرِمينَ الَّذين إذا قِيل لهم: ارْكَعوا، لا يَركَعونَ، أي: لا يُؤمِنونَ، وتُفيدُ مع ذلك تَقريرًا وتَأْكيدًا لنَظيرِها المذكورِ ثانيًا في هذه السُّورةِ(٢).

- وجاء في هذه السُّورةِ بعْدَ كلِّ جُملةٍ قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأنَّ كلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالَى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخرةِ، وتَقريراتٍ مِن أحوالِ الدُّنيا، فناسَبَ أنْ يُذكَرَ الوعيدُ عَقيبَ كلِّ جُملةٍ منها للمُكذِّبِ بالوَيلِ في يومِ الآخرةِ(٣).

- وأيضًا قدْ تَكرَّرت آيةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السُّورةِ عشْرَ مرَّاتٍ، والسِّرُّ فيها زِيادةُ التَّرهيبِ، والتَّكرارُ في مَقامِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ مُسْتَساغٌ

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩).

حسَنٌ، لا سيَّما إذا تَغايَرَتِ الآياتُ السَّابقاتُ على المرَّاتِ المُكرَّرة، كما هنا[١].

وقيل: كرَّرَه في هذه السُّورةِ عندَ كلِّ آيةٍ لِمَن كذَّب؛ لأنَّه قسَمَه بيْنَهم على قَدرِ تكذيبِهم؛ فإنَّ لكلِّ مكَذِّبٍ بشَيءٍ عذابًا سِوى تكذيبه بشَيءٍ آخَرَ، ورُبَّ شَيءٍ كذَّب به هو أعظَمُ جُرمًا مِن تكذيبِه بغيرِه؛ لأنَّه أقبَحُ في تكذيبِه، وأعظَمُ في الرَّدِّ على الله، فإنَّما يُقسَمُ له مِنَ الوَيلِ على قَدْرِ ذلك، وعلى قدرِ وِفاقِه[٢].

وقيل: ليس بتَكرارٍ؛ لأنَّه أراد بكُلِّ قولٍ منه غيرَ الَّذي أراد بالآخَرِ، كأنَّه ذكَرَ شيئًا، فقال: وَيلٌ لِمَن يُكَذِّبُ بهذا، ثمَّ ذكَرَ شيئًا آخَرَ، فقال: وَيلٌ لِمَن يُكَذِّبُ بهذا، ثمَّ ذكر شيئًا آخَرَ فقال: ويلٌ لِمَن يكَذِّبُ بهذا، ثمَّ كذلك إلى آخِرِها[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَبِأَيِّ﴾ فَصيحةٌ تُنبِئُ عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ، تَقديرُه: إنْ لم يُؤمِنوا بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بعْدَه يُؤمِنونَ؟! وقد دلَّ على تَعيينِ هذا المُقدَّرِ ما تَكرَّرِ في آياتِ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٩]؛ فإنَّ تَكذيبَهم بالقُرآنِ وما جاء فيه مِن وُقوعِ البعثِ[٤].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ التَّعجيبيِّ مِن حالِ الكافِرينَ المُكذِّبينَ، أي: إذا لم يُصدِّقوا بالقُرآنِ مع وُضوحِ حُجَّتِه، فلا يُؤمِنون بحَديثٍ غيرِه،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٩-١٣٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

والمقصودُ أنَّ القُرآنَ بالِغٌ الغايةَ في وُضوحِ الدَّلالةِ، ونُهوضِ الحُجَّةِ، فالَّذين لا يُؤمِنونَ به لا يُؤمِنونَ بكَلامٍ يَسمَعونه عَقِبَ ذلك[1].

- وقولُه: ﴿بَعْدَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ يُجعَلَ صِفةَ ﴿حَدِيثٍ﴾ فهو ظَرْفٌ مُستقَرٌّ[2]، والمرادُ بالبَعديَّةِ: تَأخُّرُ الزَّمانِ، ويُقدَّرُ معْنى بالغٍ أو مَسموعٍ بعْدَ بُلوغِ القُرآنِ أو سَماعِه، سواءٌ كان حَديثًا مَوجودًا قبْلَ نُزولِ القُرآنِ، أو حَديثًا يُوجَدُ بعدَ القُرآنِ، فليس المعْنى أنَّهم يُؤمِنونَ بحديثٍ جاء قبْلَ القرآنِ مِثلِ التَّوراةِ والإنجيلِ وغَيرِهما مِن المواعظِ والأخبارِ، بل المرادُ أنَّهم لا يُؤمنون بحَديثٍ غَيرِه بعدَ أنْ لم يُؤمِنوا بالقُرآنِ؛ لأنَّه لا يقَعُ إليهم كَلامٌ أوضَحُ دَلالةً وحُجَّةً مِن القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَعْدَهُۥ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، فهو ظَرْفٌ لَغْوٌ، ويَبْقى لَفظُ ﴿حَدِيثٍ﴾ مَنفيًّا بلا قَيدِ وَصْفِ أنَّه بعْدَ القرآنِ، والمعْنى: لا يُؤمِنون بعْدَ القرآنِ بكلِّ حَديثٍ[3].

- وضَميرُ ﴿بَعْدَهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ، ولم يَتقدَّمْ ما يدُلُّ عليه في هذه السُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ من عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسَببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عامِلُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتَمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٨).

ليكونَ معادًا للضَّميرِ، ولكنَّه اعتُبِر كالمذكورِ؛ لأنَّه مَلحوظٌ لأذْهانِهم كلَّ يومٍ مِن أيَّامِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاهم به. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ عائدًا إلى القولِ المأخوذِ مِن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]؛ فإنَّ أمْرَهم بالرُّكوعِ -الَّذي هو كِنايةٌ عن الإيمانِ- كان بأقوالِ القُرآنِ[١].



تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الحادي والأربعونَ

ويليه المجلدُ الثَّاني والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ النَّبَإِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٨).



الفهرس







الفهرس

سورةُ المُزَّمِّلِ

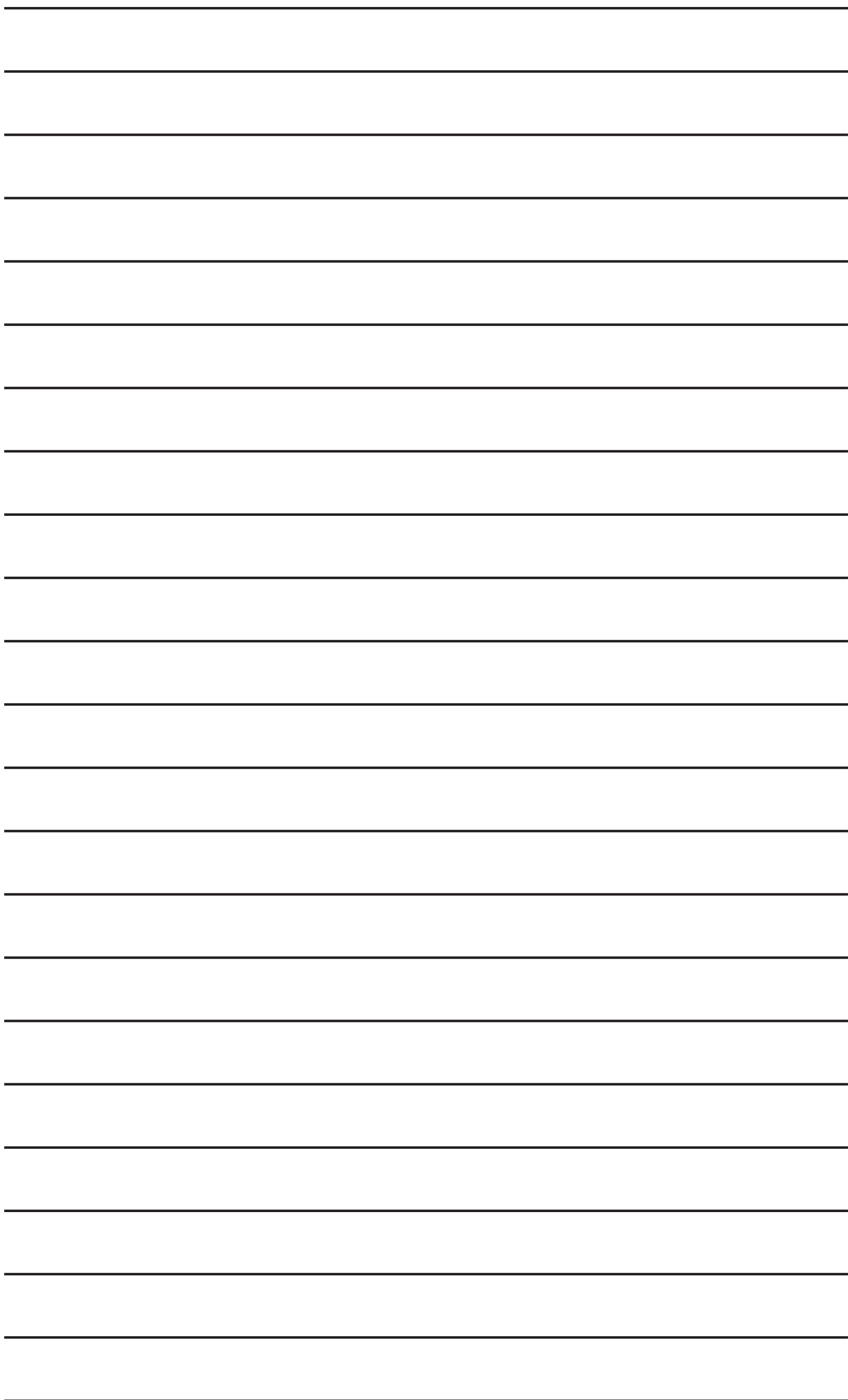
سورةُ المُدَّثِّرِ

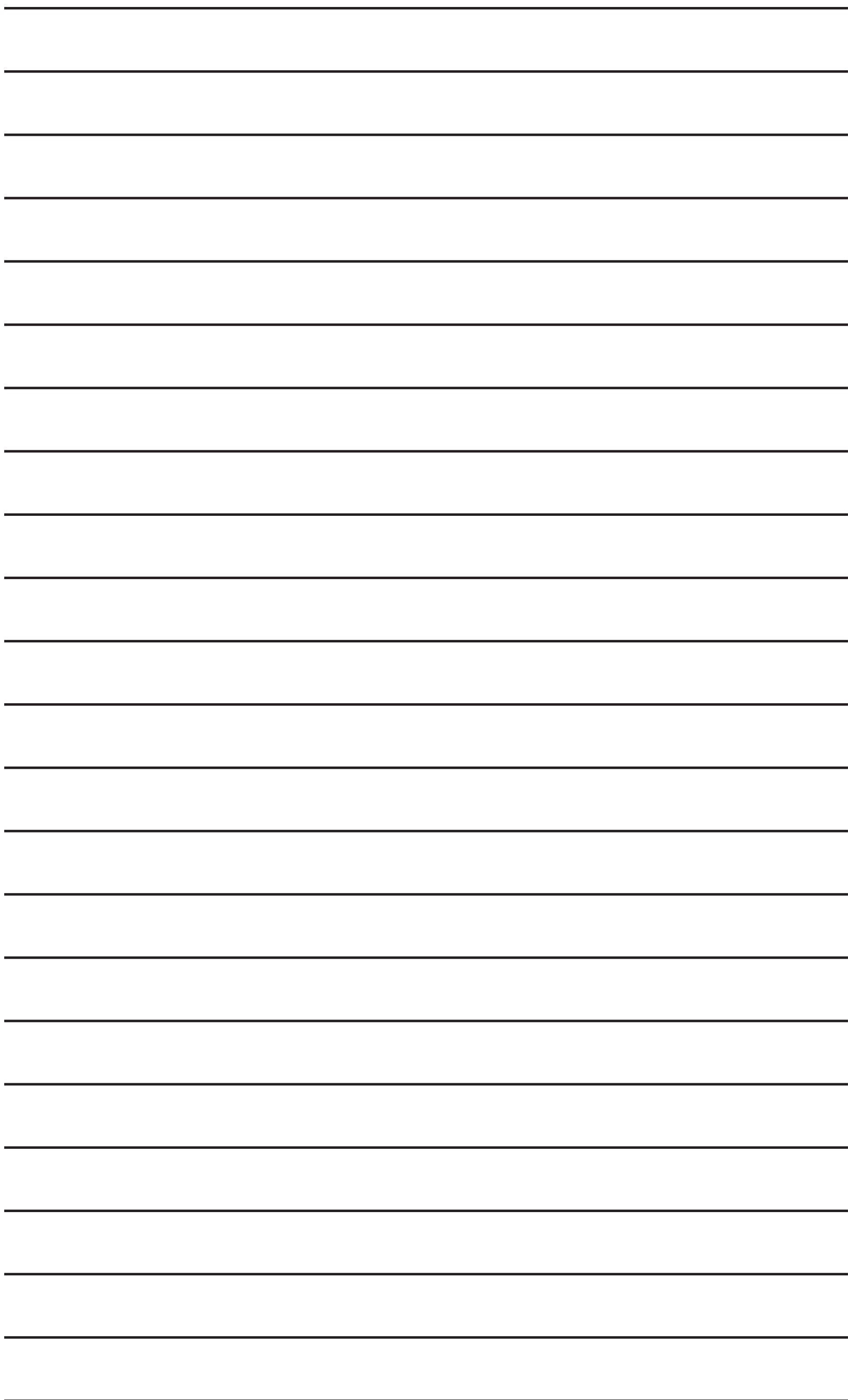
سورةُ القيامةِ

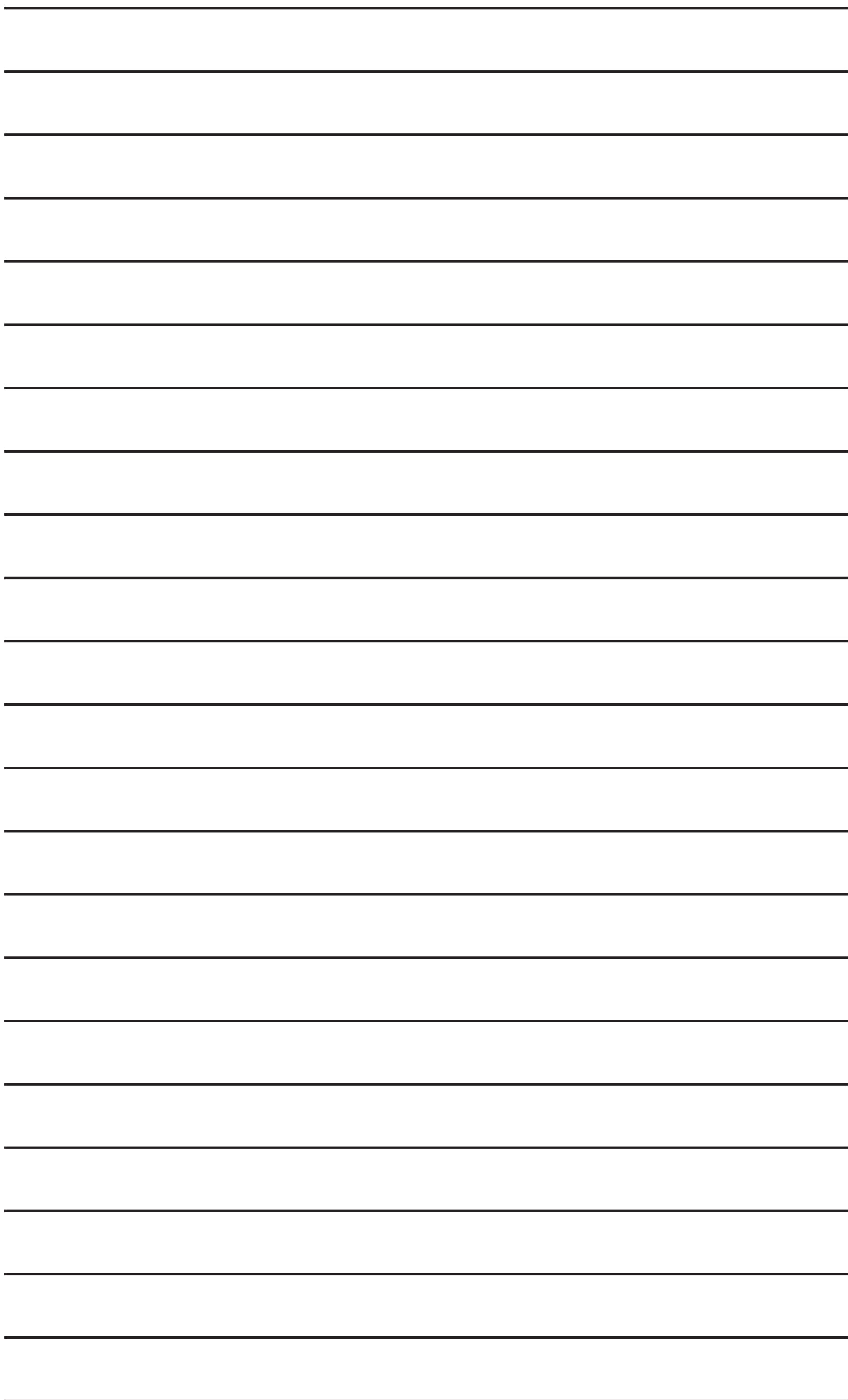
سورةُ الإنسانِ

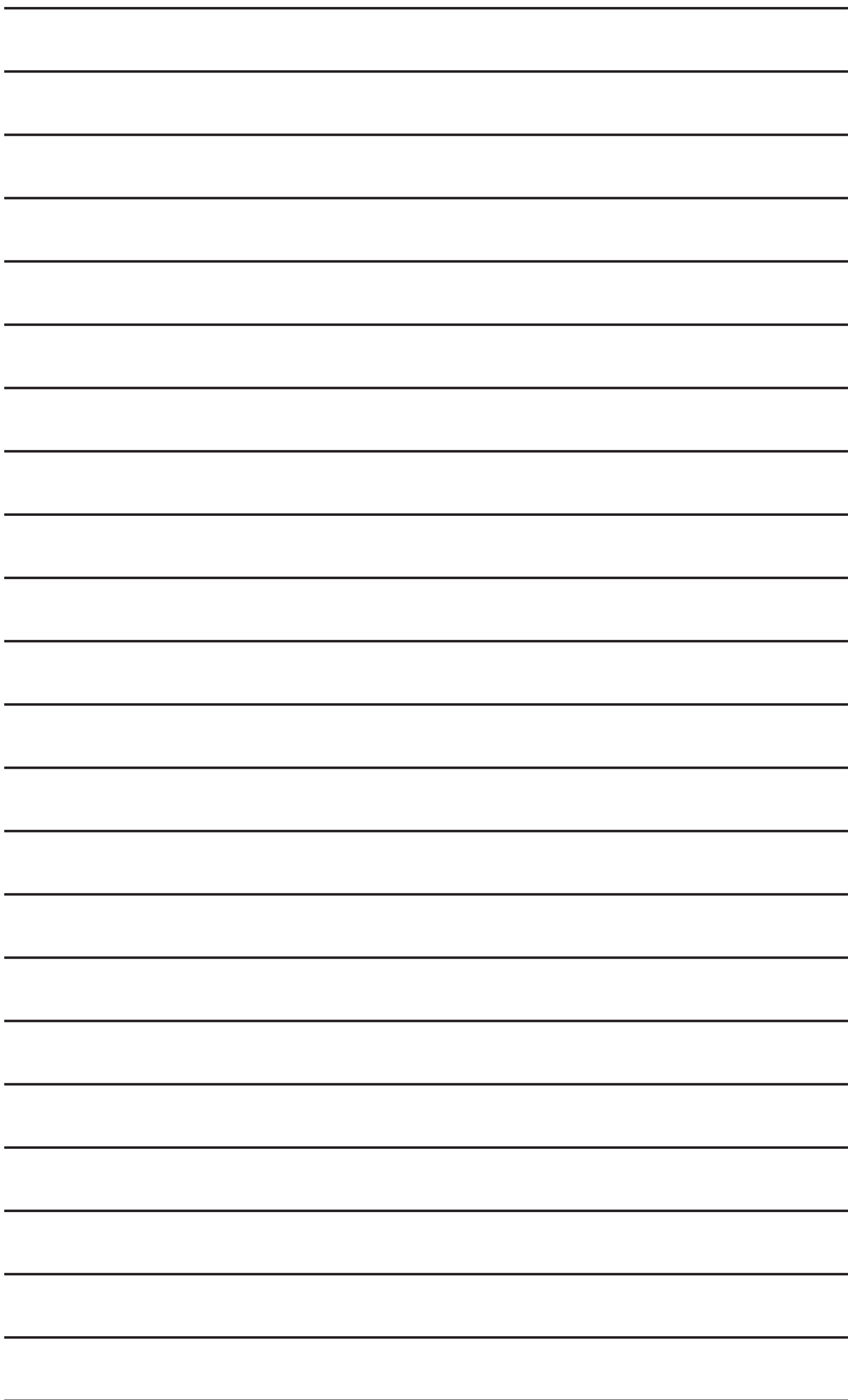
سورةُ المُرسَلاتِ

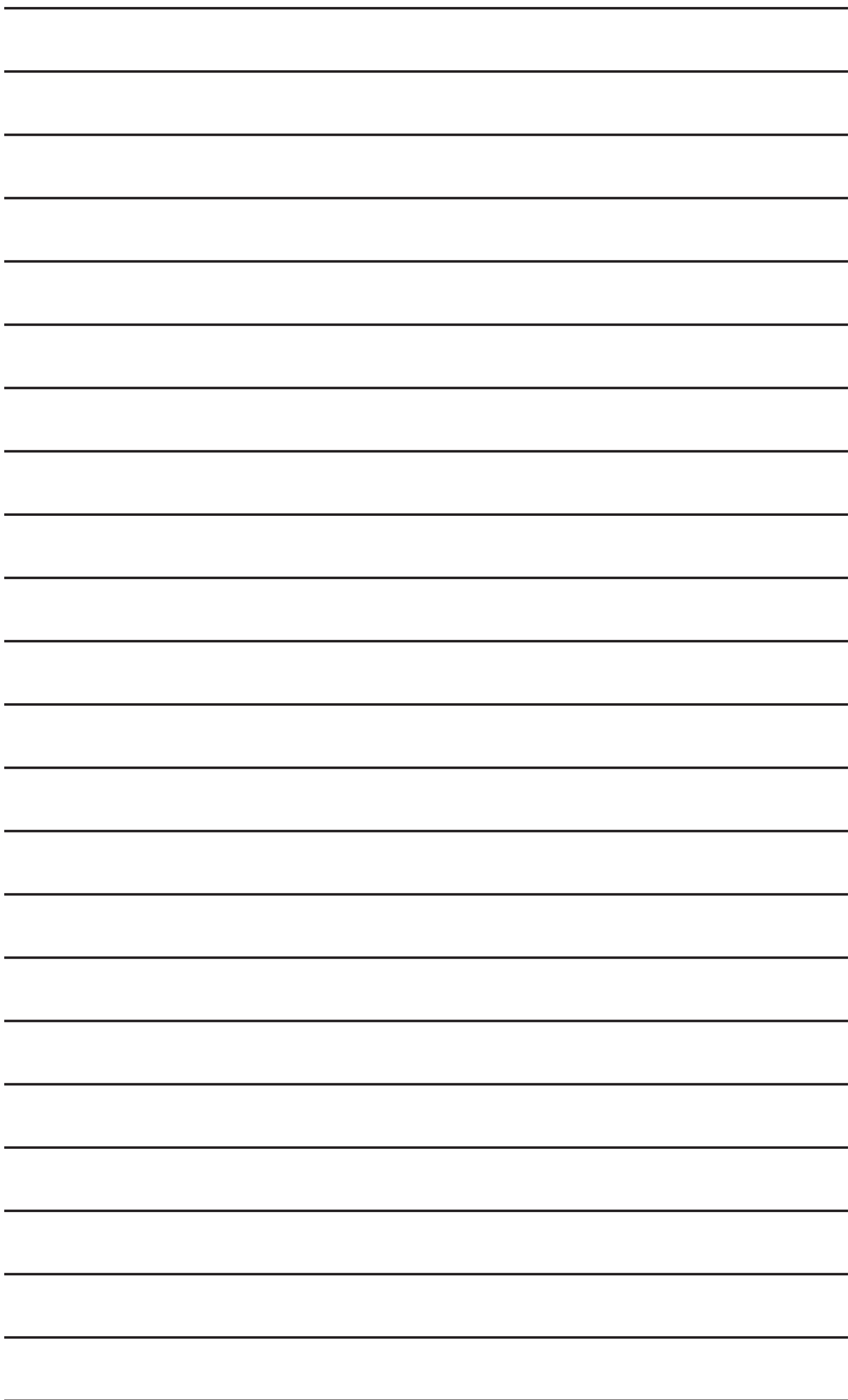












تم الصف والإخراج في مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠